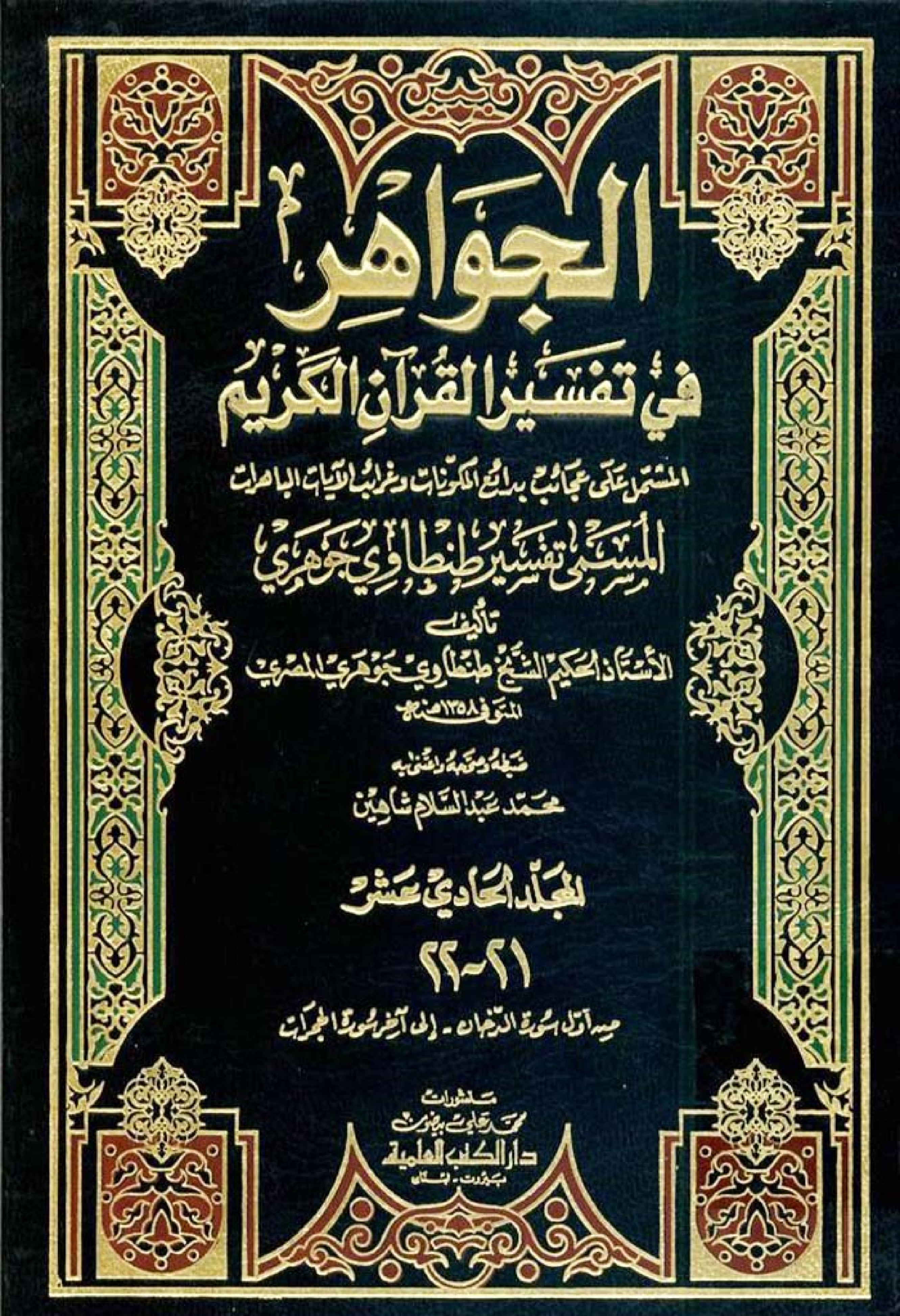

الجواهر
في تفسير القرآن الكريم
المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات
المسمى تفسير طنطاوي جوهري
تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري
المتوفى ١٣٥٨هـ
ضبطه وصححه واعتنى به
محمد عبد السلام شاهين
المجلد الحادي عشر
٢١-٢٢
من أول سورة الدخان - إلى آخر سورة الحجرات
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



في

تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري المصري

المتوفى ١٣٥٨هـ

ضبطه وصححه واعتنى به

محمد عبد السلام شاهين

الجزء الثاني والعشرون

المحتوى:

سورة الفتح وسورة الحجرات

منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[ق: ٣٧]

تفسير سورة «الفتح»

هي مدنية

نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية

آياتها ٢٩، نزلت بعد «الجمعة»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ
عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى
قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ
وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ
أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا
﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ
يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ

ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ
ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ
أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ
حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ
يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾
وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا
فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا
مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا
﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ
عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ
وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ
مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي
قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ
كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ
رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ
لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ
وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ
كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾ ﴾

هذه السورة أربعة أقسام

القسم الأول: في تفسير البسملة.

القسم الثاني: فيما بشر الله به نبيه بالفتح، وإعزاز دينه، ووعد المؤمنين، ووعيد الكافرين والمنافقين، من أول السورة إلى قوله: ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الآية: ١٠] .

القسم الثالث: في ذم المخلفين من عرب أسلم وجهينة، ومزينة، وغفار، وزجرهم، وفي رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدهم بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة من قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾[الآية: ١١] إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[الآية: ٢٦] .

القسم الرابع: في البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين، وأن ذلك يكون، وقد تم ذلك الخبر في العام القابل، وفي وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين معه بالرحمة والشدة، وأنهم كزرع يعجب الزرّاع، من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[الآية: ٢٨] إلى آخر السورة.

القسم الأول: في تفسير البسملة

اعلم أيها الذكي أن الرحمة على قسمين: رحمة عامة، ورحمة خاصة.

فالعوالم العلوية والسفلية والهواء والماء والأثير والنور رحمة عامة، فأما الصحة والعقل والملك وما أشبه ذلك فهي رحمات خاصة، ولقد جعل الله لكل امرئ في أرضنا سراً خاصاً بينه وبين ربه، فإنه يجعل لكل إنسان مطالب خاصة تواتي مزاجه، ومتى قضاها الله له فإنه يحمده عليها حمداً كثيراً، وهذه المطالب عددها بعدد الأشخاص الإنسانية في الأرض، وكل امرئ مطلبه على مقدار همته، ضعة ورفعة ونقصاً وشرفاً، فهل أحدثك عما فتح الله به عليّ وعلى أممنا الإسلامية، وكيف كان ذلك سراً بيني وبينه تعالى؟ وكيف اتجهت همتي نحو ذلك الأمر؟ وكيف أجاب الله دعائي، أنا أعترف وأقرّ وأشهد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، أني دعوت الله بما سأذكره، وأن الله أجاب دعائي وحققه فعلاً، وذلك الدعاء كان موجهاً للنعم الخاصة كما هو شأن الناس جميعاً، تعلمت القرآن في مكتب صغير لا علم فيه ولا فهم، وإنّما هو الحفظ المجرد، نظرت أبناء عمي يسافرون إلى الجامع الأزهر، أحببت أن أتعلم، احترق فؤادي على العلم، أحسّ والدي بذلك، أرسلني إلى الأزهر، درست العلوم اللسانية والفقهية ونحوها، لم يشف ذلك غلتي، كنت في أثناء عطلتي أفكر وأنا في مزرعتنا في القمح والقطن والحشائش نهاراً، والنجم والسماء ليلاً، وفي آثار الأول التي خلفها قدماء المصريين، أصوم نهاراً، أصلي ليلاً، أضرع إلى الله أن يعلمني، أنا جاهل جدّ جاهل، حضرت دروس التفسير، ولكن يشتد دعائي دائماً، أطلب من صاحب هذه النجوم والشمس والقمر أن يعلمني عجائب هذه الدنيا، وحركات أفلاكها، ونظام زرعها، وكيف يكون ارتقاء أمم الإسلام.

هذا دأبي، وهذا هو السر الخاص بيني وبين الله عز وجل، وهو الذي كان يهمني، يهمني أن أقف على نظام هذا الوجود، وعلى سرّ تأخر المسلمين، وعلى حقائق دين الإسلام، وكيف يرتقي المسلمون؟

وما السبيل لذلك؟ إن هذا المقام واضح في كتابي «التاج المرصع»، وهذا إجمال ما هناك. لم يكفني ظواهر العلوم، ولا سبيل لدي إلا الدعاء، فأخذت أدعو الله كل حين أن أعرف ما تقدم، فانتظمت في سلك طلبة دار العلوم، وهنا كانت دهشتي، فإن ما كنت أدرسه بنفسي مجملاً من النظر في الكواكب ليلاً، وفي المزارع والهواء والضوء نهاراً؛ هو عينه الذي يدرس في المدارس النظامية: حساب وهندسة وجبر وفلك وطبيعة وكيمياء، وكنت واضعاً نصب عيني دائماً رقيّ أمم الإسلام ومعرفة الله تعالى بعقولنا معاشر بني آدم، وكنت لا أبالي بالعلو والعظمة، بل كانت كل أمنيتي المعرفة، وأن أكون مجهولاً لا يعبأ بي، فإن نفسي تقرر فيها أن سعادتها في العلم، أما الإعظام وبعد الصيت فإنها لا تعبأ به. وقد كنت أرى أنني أجهل الناس وأضعف الطلبة.

كان مدرّس الإنشاء هو المرحوم الشيخ أحمد مفتاح، وقد عرضت أوراق امتحان الإنشاء على المرحوم الشيخ محمود العالم الذي عين ممتحناً لنا من الوزارة آخر سنة من سنيّ الدراسة، ولقد كانت دهشتي عظيمة عندما قابلني المرحوم الشيخ أحمد مفتاح وقال لي: إن الشيخ محمود العالم لما قرأ موضوعك ـ وهو اكتب خطاب تهنئة وتعزية ـ قال: إن هذا الموضوع منقول من الكتب القديمة، فليس في مصر الآن من يكتب هذا. قال: فأحضرت له ما كنت تكتبه أنت طول السنة من الإنشاء فاقتنع بذلك وأعطاك نمرة ١٩ من عشرين، وقد كنت أنا لا أزيدك عن ١٨. فقلت له: عجباً أنا كنت أظن أن هذه النمرة أنت تعطيها لي لمجرد شهرتي في اللغة العربية، لا للإنشاء، لأني لا أعتقده إنشاء، فعجب وقال: كلا، أنا أعطيك النمرة على نفس الإنشاء.

وإنّما ذكرت هذه الحادثة لأبين مقدار اتهامي لنفسي وعدم ثقتي بها، وأنا لست أقول: إن هذه صفة محمودة، كلا، بل هي مذمومة لأنها تكون سبباً في تعطيل المواهب الإلهية، ولكني أقرر الحقيقة في ذاتها. ولقد ذكرت في هذا التفسير وفي غيره مراراً وتكراراً أني قبل أن أعرف هذه العلوم عاهدت الله أنه إذا علمني الحقائق على مقدار طاقتي لأؤلفنّ كتباً ينتفع بها الشبان الذين يشتاقون لما أشتاق إليه، ولا يعذبون كما عذبت في الوصول إلى الحقائق.

فلما أن وظفت في الحكومة بعد الخروج من المدرسة، وصرت مدرّساً، أخذت نفسي تطالبني بالوفاء بعهدها، ولقد عرفت فأين التأليف؟ فألفت كتاب «جواهر العلوم» و«ميزان الجواهر» بادئ ذي بدء، وهنالك كانت حوادث منزلية أزعجتني، ولكن لم يكن ليؤثر شيء على نفسي من حيث التأليف، ثم توالى التأليف والنشر فألفت «جمال العالم» و«النظام والإسلام» و«نظام العالم والأمم» و«التاج المرصع» وغيرها من الكتب والرسائل، وهاأنا ذا أكتب في تفسير القرآن الذي انتشر في أقطار الإسلام، وترد عليّ الرسائل من تلك الأقطار النائية. ولقد قرأه وقرأ الكتب قبله إخواننا المسلمون في شمال أفريقيا والسودان والشام وبلاد اليمن وحضرموت وإيران وبلاد جاوه وما حولها وعموم أندنوسيا ويدخل فيها سومطرة وغيرها، وهكذا بلاد التركستان الروسية والتركستان الشرقية التي عاصمتها كاشغر، ولعمر الله لم يكن ليدور بخلدي، أو يخطر لي، وأنا على شاطئ نهر أبي الأخضر بالقرب من قريتنا كفر عوض الله حجازي بالشرقية وأنا أبحث عن حشرة ودويبة صغيرة

تكون ذات خطوط منتظمة تعرفني أن في العالم نظاماً وجمالاً وبهجة، وقد عثرت فعلاً على حشرة عليها خطان: أبيض ناصع، وأحمر قان، وقد انتظما بهيئة هندسية، ودهشت للنظام والجمال، وقلت: هاهنا مبدأ النظام.

أقول: ما كان ليخطر لي أن ما قطع فؤادي وأقض مضجعي، وأطار نومي، وأسهر جفني، وأطال ليلي ولأجله سامرت النجوم، وحالفت الوجوم، وباينت العموم، سيصل يوماً ما إلى الشبان في أقطار الأرض، ويدرسه العربي والأندونسي والهندي والصيني، ويقدم من نفس كاشغر أحد شبانها ويقول لي في هذا الشهر وهو شهر يونيو سنة ١٩٣١م ما نصه: لقد أقض الفكر مضجعي، وأطار نومي، وصرت أغدو وأروح بين الأشجار المزهرة والحدائق النضرة المحيطة بقرانا إلى امتداد ثلاثة أيام، وفيها الروح والريحان والأزهار والأثمار. كل ذلك نهاراً، فإذا جنّ الليل عليّ وأرخى سدوله، أخذت أسامر النجوم، وأطارد الهموم، فلا النجوم تحادثني، ولا الهموم تزايلني. وأسأل الله أقول له: رباه ما هذه النجوم الثواقب؟ وما هذه العجائب؟ ألسيرها نظام؟ وما براهينها؟ وما هذه البدائع؟ رباه، أنا جاهل، أنا مستغيث بك فأغثني. وجاهل فعلمني. وإذا طلع النهار أخذت أسامر الأزهار على الأشجار، وأقول: أيتها الأزهار: ما أخبارك؟ وما جمالك؟ وما عجائبك؟ ثم أقول: أيتها الأشجار كلميني كيف نظامك؟ وما عناصرك؟ وكيف كان نموك؟ وما هذا الترتيب الذي أراه في أوراقك؟ فلا أسمع جواباً وأنشد:

لقد أسمعت إذ ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ولما اشتد عليّ الوجد، وزاد الهيام، طفقت إذا جنّ الليل أربط جسمي بحبل في وتد نافذ في حائط وأبكي حتى الصباح ودمت على ذلك ليالي، وذلك من شدة اليأس من أساتذتي، إذ كنت أسأل أحدهم هذه الأسئلة فيقول: هذا فعل الله، ولما أكثرت السؤال طفقوا يشيعون أني مجنون، فلم يكن لي محيص من ذلك البكاء والعويل في خلوتي، والتظاهر بالسلوى أمام الناس. قال: وبعد ازدياد اليأس وقع كتاب «التاج المرصع» في يدي، أعاره لي أحد الأصدقاء، فوجدت أسلوباً لم أعهده، وأخذت أقرؤه، فألفيته يصف حالاً هي نفس حالي، ونفساً كانت محترقة كنفسي، ومحرومة مما يشفي غليلها، فطالعته بلهفة مدة ثلاثة أشهر، فزالت حيرتي، وحرّك وجدي للسفر خارج بلادي، كما حرّك وجدان ثلاثين شاباً مثلي، فسافرنا إلى «كابل»، وقد استصحبت «التاج المرصع» معي ولم أخبر بسفري من أعاره لي، فلما وصلت إلى «كابل» ببلاد الأفغان وجدت فيها نسخاً كثيرة منه، فأرسلت الكتاب لمعيره لي وأعلمته بسفري، وهاأنا ذا اليوم قد تعلمت في مدارس تركيا، ونلت شهادة، وقرأت اللغة الفرنسية، وقد سافرت بعثتان أخريان إلى الأقطار الشرقية والغربية بعد أن عرفوا هذه الحقائق وقرؤوا كتب المصريين، ومنها كتاب «الجواهر» في تفسير القرآن الكريم المنتشر حديثاً. فسألته: أقرأته باللغة العربية؟ فقال: نعم. فقلت: هو مترجم بلغتكم التركية، فأطلعته عليها فدهش وقال: هذه لغة راقية ولكني لم أطلع عليها، لأن قيصر الروس ما كان ليجعل بيننا وبين إخواننا في القازان وغيرها مواصلة. ثم قال: إننا بكتبك قد أصبحنا نوقن أن ما كان كفراً عند أسلافنا هو نفس الواجب المقرب إلى الله تعالى. انتهى.

هذه هي الرحمة التي أردت أن أذكرها في تفسير البسملة في أول سورة « الفتح »، أوَليس من العجب أني لم أوفق إلى تمام هذا الموضوع فأعرف خبر آخر بلاد الإسلام إلا عند تفسير سورة « الفتح » وأرى كتابي « القرآن والعلوم العصرية » بعينيّ مترجماً إلى لغة الملايو، أوَليس مما يوجب عليّ إعلان شكري لله وحمده وتقديسه، والهيام به، وإفراغ الجهد في طاعته أن يكون انتشار هذه الفكرة هو غاية مطلبي، ثم يتم ذلك المطلب وأنا حيّ وأعلم به، وهو هو الفتوح الخاص الإسلامي، هذا هو النصر والفتح المبين في زماننا، وقد قدمنا أن الرحمة عامة وخاصة، فالعامة تفصلها جميع العلوم، والخاصة بنا وبالأمم الإسلامية هي ما ذكرته الآن.

وقد قدمت أن لكل امرئ بينه وبين ربه أمر خاص، فهذا هو الأمر الخاص الذي اشتد لهفي عليه، وقد نلته، وهل لي بعده مطلب؟ هو آخر مطالبي، هو نهاية مقصدي، الحمد لله، فلأقرأ ما جاء في الذكر الحكيم على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. كتب صباح يوم الأحد ٥ يوليو سنة ١٩٣١م.

تذكرة

لقد تقدم في سورة « محمد » صلى الله عليه وسلم في تفسير البسملة أن قتال الكافرين المذكور فيها توطئة لفتح البلاد ونشر العلوم، فأمم الإسلام لم يكن الفتح لهم خاصاً بمكة، إن الإسلام انتشر في أقاصي المعمورة ولا يزال ينتشر، بل هو الآن ينتشر في أمريكا وفي أوروبا، إنّما المهم المدهش أن الفتح يشمل الفتح العلمي، والعلم المنتشر في الكرة الأرضية الآن بإجماع علماء العالم قاطبة سببه دين الإسلام، فالمسلمون حركوا الأمم وإن كان المحركون لهم قد ناموا قبل هذه الأيام.

إن أوروبا هجمت على الشرق فحملوا دين المسيح بدل الوثنية عندهم، وبعد قرون جاء الإسلام فأقصاهم وأرجعهم إلى بلادهم، فهجموا على الشرق كرة أخرى بالحروب الصليبية، فحملوا معهم المدنية الإسلامية والعلوم المنشورة فيها، ثم هاهم أولاء يهجمون على الشرق كرة أخرى اليوم، وهاهو ذا الشرق أخذ يعدّ عدّته وستكون نهضة الأمم كلها بسبب الشرق والعقول المخزونة فيه التي ستساعد على الرقي المنتظر، فالنظام الحالي سببه فتح الإسلام المبين، والنظام المستقبل سيكون بمساعدة المسلمين. أفلا أسمعك ما جاء في مقال جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٢٤ مارس سنة ١٩٣١م، فقد جاء فيها تحت العنوان التالي ما نصه:

العالم بعد خمسين سنة
العلماء يتنبؤون

نيويورك في ١٥ مارس « لمراسل الأهرام الخاص »: العلماء هم أنبياء هذا الزمان، وأنا أعني العلماء العاملين، لا أولئك الذين يسطرون للقراء أقوالاً لا هم يفهمونها ولا الذين يقرؤونها، يعرف المطلع على تاريخ تدرج العمران، ورقيّ الإنسان، كيف فتح الناس الكرة، وذللوا صعابها، ومهدوا عقباتها، وأخضعوا وحوشها، وحولوا آجامها إلى جنات غناء، واستأصلوا معظم ما كان ينتابها من الأوبئة، وكيف تغلب العقل البشري على القوى الطبيعية فأرغمها على خدمته، والعمل بإشارته،

وألجم البخار والبرق والغاز وقام بأعمال كثيرة كانت معدودة من المستحيل، فما الذي بقي وراء ستائر الغيب من مدهشات العلم وعجائبه؟ وما الذي سيقدم عليه النبوغ البشري من الغرائب الشبيهة بالعجائب. لنسمع جواب أنبياء العلم، فإن فيما ألخصه من أقوالهم ما يبرد غلة التائق إلى معرفة ما سيكون، إنهم يستنيرون بالماضي لاختراق ظلمات المستقبل ومعرفة ما سيتم فيه من نتاج الأدمغة المفكرة.

يقول قائلهم: إن الملايين هنا يتذكرون الخمسين سنة الماضية، وآباؤهم بدورهم يتذكرون الخمسين سنة التي قبلها، فالمائة عام التي وراءنا قد كانت مسرحاً لانقلاب كبير في حالة العالم وطرائق المعيشة فيه، فانقضت أيام المركبة الخشبية التي تجرها الجياد، وجاء زمان القطرات الحديدية، والسفن البخارية، واخترع التلفون، فقرّب الأبعاد والمسافات، وتلا ذلك التليفون والتلغراف اللاسلكيان، ورفعت الطيارات أهل هذا الزمان من الغبراء إلى الأجواء، فقهرت ناموس الجاذبية، وحلت السيارة محل الجواد في شوارع المدن والطرقات، وخففت الكهرباء أعباء أعمال النساء، فتولت عنهن الكنس والغسل، وإدارة آلة الخياطة، وتنظيف المنازل، وأوجدت الحرارة للدفء، وبردت الهواء الحار بمراوحها وأنارت المنازل والشوارع والطرق المؤدية إلى البلدان، ونابت عن الناس في فتح الأبواب للزائرين، وأدارت الآلات على اختلافها، وجرت القطرات والمركبات العمومية، وتولت فوق هذا كله قتل المحكوم عليهم بالموت.

وفي المائة سنة التي انقضت نالت النساء حق الاقتراع والمشاركة في إدارة الحكومة، وتدانت الأمم بعضها من بعض، فتسنى لها الاجتماع معاً بسهولة للتفاهم بشأن الأعمال والمتاجر والشؤون السياسية كما كان يفعل الأفراد في البلد الواحد، وكان الناس من مضيّ خمسين سنة ينظرون إلى الغنيّ صاحب المليون ريال بعين الإعجاب، أما اليوم فالذي يبلغ دخله السنوي مليوناً واحداً لا يعد من الأغنياء، ففي أمريكا اليوم رجل له دخل أسبوعي يزيد على مليون ريال، وهنري فورد صانع السيارات المعروفة باسمه يدفع للحكومة ضريبة على دخله السنوي تزيد على العشرين مليون ريال، كان الناس من قبل يتعاملون بالملايين واليوم يتعاملون بالبلايين، وبعد أن تنتهي حكومة الولايات المتحدة من منح الهبات المالية للجنود الذين شوّهوا في الحرب الأخيرة تكون قد أنفقت خمسة وسبعين بليون ريال، والدول الأوروبية مدينة لها بمبلغ أحد عشر بليون ريال، مما يؤيد ما قلناه من أن مقادير الغنى قد تغيرت وتعاظم أمر الثروات، بحيث إن الذين كانوا يحسبون ثروتهم بالملايين أصبحوا في هذا الزمان يعدّونها بالبلايين، وصار البليون المقياس المعوّل عليه في المعاملات الدولية. كانت الخمسون سنة الماضية أعوام أعمال كبيرة أنشأها طوائف من الناس متحدون معاً، ولكن الفرد من الناس لم يكبر عما كان عليه، ولا صار أهنأ عيشاً وأسعد حالاً، فهو من هذا القبيل كالقطرة من الأوقيانوس العظيم لا يزيد في الكبر على أية قطرة ماء في أصغر وعاء، وهكذا الناس فإنهم لا يزالون كائنات بشرية صغيرة، قطرات في أوقيانوس المجموع المدرك الحساس المعروف باسم الجنس البشري، الأوقيانوس يكبر ويتعاظم في الاتساع والقوة، إلا أن القطرات التي تؤلفه لا يطرأ عليها تغيير في ذاتها، فكيف يتمكن الفرد من أن

يكون أعظم مما هو وأن تكون حياته كاملة من كل وجه؟ ذلك هو السؤال الذي لم يستطع الخمسون سنة الماضية بل الألوف من الأجيال الذاهبة الإجابة عليه.

كشف الإنسان الراديوم في الأرض والعناصر والمعادن المختلفة والقوات الطبيعية التي لم يكن لأسلافه بها علم، ولكنه من حيث إصلاح نفسه لم يأت بسوى القليل، وقد يكون ما قيل صحيحاً من أن متوسط الذكاء بين الأجناس العليا من المتمدنين هو اليوم أقل منه بين أهل أثينا منذ ألفين وخمسمائة عام مضت، فمن الوجهة العلمية والوجهة الفنية الأولية من حيث الحذق والإبداع والإحاطة بما يحيط بنا من الأشياء المنظورة الكائنة عند أقدامنا إلى المجرة في السماء؛ قد ارتقينا وأحسنا عملاً، ولكننا كأفراد لم نتقدم إلا قليلاً، ولا أحرزنا من التحسن إلا اليسير التافه.

فما الذي يجيء في الخمسين سنة التالية؟ سيتكلمون أيامئذ عن الفحم الحجري الذي نفذ، وعن آبار الزيت التي نضب معينها. وهكذا قبل أن ينفذ الفحم والزيت يكون الناس قد تمكنوا من تقييد المد والجزر أو قوة الشمس، وكشفوا نيراناً مخبوءة في جوف الأرض على مسافة أميال من مواطئ أقدامنا، وعندئذ يهزؤون بما كان يفعله أسلافهم.

والعلماء على يقين من أنه قبل أن يبلغ أحداث اليوم الشيخوخة تكون الأسفار الطويلة عبر الأوقيانوس وحول العالم في الطيارات، فيتناول الراكب فيها طعام العشاء في باريس، وطعام الغذاء في نيويورك، ولقد كان من غرائب الأيام التي انقضت أن يناجي الشخص الموجود في أعلى طبقات المخزن مع آخر في أسفله بواسطة الأنبوب الذي ابتدع لذلك القصد، ثم جاء التليفون فتناجى الناس به بين البنايات والمدن والبلدان المختلفة على مسافات سحيقة.

والناس اليوم يستخدمون اللاسلكي لنقل الأصوات إلى الأبعاد الشاسعة، فتسمع أوبرا نيويورك في لندن وباريس والصين، وفي الهند والعراق بوضوح وجلاء كما يسمعها أهل نيويورك، ويقلّ اندهاش الفكر البشري بتلك الاكتشافات والاختراعات بعد انقضاء الأسبوع الواحد على وجودها، فلا يعبأ أحد بها، بل يوجه اهتمامه لشيء جديد يكون أعجب وأغرب، جارياً في ذلك على الاعتقاد الذي أصبح جزءاً من طبيعته بأن كل شيء ممكن، وفي الأعوام القليلة المقبلة ستضع آلة على صندوق الراديو في منزلك فتريك الممثلين في الملاعب والخطباء على المنابر وتسمعك أصواتهم.

ذلك ما ستقوم به الكهرباء التي لا نفهمها إلا بما يبدو منها، فهي قد قامت مقام الإنسان في أعمال كثيرة: تطبخ، وتكنس المنازل، وتكوي الملابس، وتدفئ الحجرات في الشتاء، وتبرّدها بالمراوح في القيظ، وتصنع لك الجليد والمركبات المختلفة، وتسيرها، وتدفئها في الشتاء، وتبرّد هواءها في الصيف وتفتح أبوابها للخارجين والداخلين الذي أغنى الشركات عن ملايين العمال، ومثل ذلك تفعل في المعامل على اختلافها، وتبعث بالرسائل إلى أقاصي المعمورة، وهي التي تمكنك من مخاطبة البعيد عنك بالتليفون السلكي واللاسلكي. وسيقل اهتمام الناس في المستقبل بنفقات الفحم لاتقاء البرد، لأن نور الشمس الذي يلجمه العلم يجعل الهواء معتدل البرودة، أو حاراً مقبولاً، وذلك بواسطة مراكز للقوة تبقي معدل الحرارة عند نقطة معلومة محتملة من البرد والحر السنة بطولها.

ويقول أحد العلماء في كتاب عنوانه «المستقبل» ما نصه: إن هذه السنوات ليست أضغاث أحلام بل هي مبنية على درس الدورة التي يسير عليها التمدن الذي لا يلين، حاملاً معه الجنس البشري إلى حيث يكون كما خلق ليكون، فمن مضي ثلاثين عاماً كان التلغراف اللاسلكي مقتصراً على أذرع معدودة، أما اليوم فإنه يساعدنا على إيصال هزات الكهرباء إلى أقاصي الأرض، وإلى القمر أيضاً، فما الذي نقوله إذن عن الغد؟.

ويعد دورة قصيرة من الزمان تغصّ أرجاء السماء بمواكب هوائية ضخمة، وتكون سريعة الطيران فتجتاز الأوقيانوس بنحو الساعة من الوقت، ولا يكون ثم خطر من الاصطدام، لأن العلم سيبتدع ما يساعد المركب الهوائي على الشعور بدنوه من مركب أخرى ولو في الظلام الدامس أو الضباب الكثيف، وقد يصل بنا العلم إلى عهد نستغني فيه عن مولدات القوة في مراكب الهواء، فتستمد قوتها من الهواء الذي تسير فيه.

وتساعد الأشعة الكهربائية الإنسان في مستقبل الأيام على تحويل الأمطار إلى الصحاري والبلدان القليلة أو العديمة المطر، فتحولها إلى جنات نضرة عظيمة الإقبال، زاهرة بمحصولات لا تخطر لنا اليوم ببال، وتكون الكهرباء العامل الأكبر على إنماء المزروعات بحرارتها، ويرتقي فن الجراحة إلى أرفع الدرجات، بحيث يتمكن الجراح من جعل الوجه الشنيع جميلاً، وتكون الأعمال الجراحية في المستقبل قبل الولادة، فتجعل تقاسيم وجه الطفل كما يراد أن تكون، لأنه من الظلم أن يكون قبح صورة أحد الناس عثرة في سبيل نجاحه، فأمثال هذه المشوّهات يستأصل في أول العمر أو قبل الولادة، ويصير أمر تحديد النسل من الأمور الضرورية ومن لزوميات التمدن، فلا يسمح يومئذ إلا لعدد معلوم من الناس في الإكثار من البنين، هؤلاء تختارهم الحكومات بالطرق العلمية، وتساعدهم مالياً، وذلك لأن الأرض تصبح مكتظة بالسكان، بحيث يصير من الضروري تحديد عدد المواليد بخلاف ما هي الحال الآن، يلد الفرد ما يشاء من الأولاد سواء قدر على تربيتهم وإعالتهم أو قصر في ذلك، وتصبح الأمومة وظيفة شريفة تسيطر عليها الحكومة وتقوم بالنفقات.

ولكن هذه الحالة لا تدوم كثيراً، فقد يعمدون يومئذ إلى توليد الأطفال في معامل الكيمياء بطريقة علمية بحتة، وعلى قدر الحاجة، لسد الفراغ الذي يحدثه الموت، ولا يزال أمامنا حسبما يعتقد عظماء العلم مائة مليون سنة للقيام بأعمال أخرى عديدة تعجز عقولنا القاصرة عن الإحاطة بها، فسوف نتمكن من مناجاة السيارات العليا المنتشرة في ذلك الفضاء الذي لا حد له، لأن الكثير منها مأهول بأناس عاملين مفكرين. فالأثير الذي يشمل كل فضاء هو الذي يحمل رسائلنا إليها كما يحملها في أرضنا من قارة إلى أخرى، فلو تنبأ إنسان من مضيّ خمسة وعشرين سنة عن إمكان ابتداع الطيارة والتحليق بها في الجو من مكان إلى آخر، أو عن البرق اللاسلكي، وقال إن الخطيب أو المنشد الذي يتكلم أو يغني في نيويورك مسموعاً بوضوح في أقاصي الأرض لزجوه في مأوى المجانين، ولكن ما الفائدة من التخمين أو التنبؤ؟ إنه لم يعط لنا أن نعرف ماذا سيكون؟. انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني من السورة
التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه. فقال عمر: ثكلتك أمك يا عمر، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فِيّ القرآن، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فِيّ قرآن، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه، فقال: لقد أنزل عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[الفتح: ١].

وروى الترمذي أن ذلك كان وهو راجع من الحديبية، قوله عز وجل: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ أي: إنا قضينا وحكمنا لك فتحاً مبيناً ظاهراً، أي: فتح مكة وما قبلها كفتح خيبر وفدك وصلح الحديبية، وما بعدها كفتح فارس والروم وسائر البلاد.

وهذا التفسير جامع سائر الأقوال، فإذا قال البراء: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، ولقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، وذكر أن الحديبية بئر قد نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة، وكانوا أربعة عشرة مائة، فلما توضأ صلى الله عليه وسلم وتمضمض ودعا وصبه فيها سقتهم وسقت ركابهم وماشيتهم، وإذا قال مجاهد: إنه فتح خيبر، وإذا قال غيرهما: هو فتح فارس والروم وسائر البلاد؛ فهذا كله داخل فيما قلناه، ويكون فتح مكة أظهرها وأشهرها، وما قبله مقدمة له، وما بعده تابع له، مرتب عليه. واعلم أن لكل عامل في عمله نهاية يبتغيها، وثمرة يجتنيها، فنهاية الزرع إدراكه، ونهاية الشجر أثماره ونضجه، وثمرة ذلك الانتفاع بحب الزرع وثمر الشجر، هكذا النبوة لها نهاية مطلوبة في الحياة الدنيا، وثمرة تتبع هذه النهاية، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم وحدة أمة من الأمم، ويجتمع شملها، ويتم نظامها، ولن يكون ذلك إلا بعد دعوة مستفيضة وجهاد علمي وعملي وقتال، وجمع المجاهدين على العدو، ومتى أتموا عملهم، وأنقذوا المستضعفين، وحموا البيضة، وأدخلوا رجالاً في الدين كرهاً، ثم بالتدريج يدخلون طوعاً. فإذا تم ذلك فقد انتظم أمر النبوة وأدي واجبها، وهذا نهاية ما على الرسل، وإذن يستوجبون ثمراتها وهي:

(١) مغفرة ما فرط منهم مما يعد ذنوباً بالنسبة لمقامهم.

(٢) واجتماع الملك مع النبوة بعد أن كانت النبوة وحدها.

(٣) والهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة، وإقامة مراسم الرياسة.

(٤) والنصر الذي فيه عز ومنعة.

فهذه الثمرات الأربعة مرتبة على تمام أمر النبوة والجهاد فيها، وهكذا كل مجاهد بعد إتمام جهاده ينال الثمر على مقتضى المقدمات، فالفتح المذكور المترتب عليه ما ذكر رمز إلى الأعمال التي

استوجبته من أول ما نزل الوحي إلى تمام الأمر، فهذه تترتب عليها هذه الأربعة، كأن الله يقول: يا محمد لقد بلغت الرسالة ونصبت في العمل، وجاهدت بلسانك وبسيفك، وجمعت الرجال والكراع والسلاح وتلطفت وأغلظت وأخلصت في عملك، وفعلت كل ما قدرت عليه، حتى تم الأمر الذي ندبناك له، فلتنل ثمرات ذلك العمل، فقوله: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ متعلق بـ « فتحنا »، وقوله: ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ أي: جميع ما فرط منك مما يصح أن يسمى ذنباً من طبقتك وإن كان عند غيرك لا يسمى ذنباً، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، أو ما تقدم قبل النبوة وما تأخر عنها ﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ قد عرفت معناها وأنها مرتبة على الفتح، لأن من دانت له الرقاب، وخضعت له النفوس، وعزّ، فقد تمت له النعمة. ولما كان ذلك في رضا الله هدي صراط الرئاسة، ونصر نصراً فيه عز ومنعة، لأن أسبابه حاضرة. ولما كان فتح البلاد والنصر على الأعداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وبجهاد المؤمنين معه وقد فرغ من الكلام عليه، شرع يذكر ما للمؤمنين من مزية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثبات والطمأنينة والوقار ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويلزم من ذلك ثبات الأقدام عند اللقاء، وكما كان الفتح للأمور الأربعة المنعم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ هكذا كانت الطمأنينة في قلوب المؤمنين ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ أي: يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنان النفس عليها، ولا جرم أن الله عز وجل هو الذي دبر أمر العالم فسلط الأجناد في الأمم للمقاتلة والمجاهدة، فهو الذي دبرها بعلمه ونظمها بحكمته، فهؤلاء يجاهدون للحق، وهؤلاء يقاتلون للباطل، وإنما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة، ويعذب الكفار والمنافقين لما ثبتوا على الباطل، فينال كلٌّ نتيجة ما جناه، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يسلط بعضها على بعض، كما سلط كلًّا من المؤمنين والكافرين على الآخر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح واستعداد النفوس ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما قضاه ودبره ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ يغطيها ولا يظهرها ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ ﴾ الإدخال والتكفير ﴿ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ لأنه منتهى ما يراد من منفعة مجلوبة ومضرة مدفوعة، ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ﴾ عطف على « يدخل »، ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ ظن الأمر السوء، فيقولون في أنفسهم: لا ينصر الله رسوله ولا المؤمنين، ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي: دائرة ما يظنون ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم، ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي: جهنم. واعلم أنه كما كان الفتح قد ترتب عليه أمور أربعة للنبي صلى الله عليه وسلم؛ هكذا فاز المؤمنون بأمور أربعة: الوقار، وازدياد الإيمان، ودخول الجنات، وتكفير السيئات. وهكذا الكفار لهم أربعة: العذاب، والغضب، واللعنة، وجهنم. وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ يشير إلى أن من هؤلاء الأجناد من هم في جهنم ليلازموا الكفار لتعذيبهم وهم خزنة النار، كما أن ذكر الأجناد فيما تقدم يشير لملائكة الرحمة الذين يكونون مع المؤمنين لإدخالهم الجنة. ولما كان المقام مقام قهر ذكر العزة والغلبة، ولما كان سبحانه لا يفعل إلا على مقتضى الاستعداد ذكر الحكمة.

ولما أتم الكلام على ما لكل من الأعمال والثمرات المرتبات عليها، أعقبه بما يعمّ النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، فقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا ﴾ على أمتك ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ لأجل الطاعة والمعصية، ولما كان خطابه صلى الله عليه وسلم منزلاً منزلة خطابهم خاطبهم قائلاً: ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ وتقوّوه بتقوية دينه ورسوله ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وتعظموه ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ وتنزهوه أو تصلوا له ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ غدوة وعشياً، والمعنى: دائماً. ثم ذكر بيعة الحديبية وهي قرية صغيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة، سميت ببئر هناك كما تقدم ذكرها، وكان المبايعون ألفاً وأربعمائة، بايعوه على أن لا يفرّوا، ومنهم من بايع على الموت، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ لأنه المقصود بالبيعة حال كونهم ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: نصرته إياهم أعلى وأقوى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي: الغلبة النصرة والقوة، أو يد الرسول صلى الله عليه وسلم التي هي فوق أيديهم كأنها يد الله، والله منزّه عن الأجسام وصفاتها، أي: إن عقد الميثاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كعقده مع الله عز وجل من غير تفاوت بينهما، كقوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[النساء: ٨٠]، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ يعني: فمن نقض العهد الذي عقده مع النبي صلى الله عليه وسلم ونكث البيعة فإن وبال ذلك وضرره يرجع إليه ولا يضر إلا نفسه، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ ﴾ أي: من البيعة ﴿ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أي: في الآخرة وهو الجنة، وهذه البيعة بيعة الرضوان. انتهى القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث من السورة

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ وهم أسلم وجهينة ومزينة وغفار، فهؤلاء لما استفزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية تخلفوا واعتلوا بالشغل بأموالهم وأهليهم، وفي الحقيقة هم ضعاف العقيدة، خائفون من مقاتلة قريش إن صدّوهم، ومقول القول: ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ إذ لم يكن لنا من يقوم بأشغالهم، ﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ من الله على التخلف ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: هم كاذبون في اعتذارهم غير جادّين في طلب الاستغفار، ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي: فمن يمنعكم من قضائه ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ أي: سوءاً ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ ذلك أن القوم ظنوا أن التخلف يدفع عنهم الضرّ، أو يجلب لهم النفع بالسلامة لهم في أنفسهم وأموالهم، فأخبرهم الله أنه إن أراد شيئاً من ذلك لم يقدر أحد على دفعه ﴿ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ فيعلم إظهاركم الاعتذار، وطلب الاستغفار، وإخفاءكم النفاق ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أي: ظننتم أن العدو يهلكهم فلا يرجعون إلى أهليهم، ﴿ وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ فتمكن فيها، أي: زين الشيطان ذلك فيها ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ أي: وظننتم أن الله يخلف وعده، إذ قالوا: إن محمداً وأصحابه أكَلَة رأس. يريدون بذلك قلتهم فلا يرجعون فأين تذهبون معهم! انظروا ما يكون من أمرهم. ﴿ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ يعني وصرتم بذلك الظن الفاسد قوماً بائرين هالكين. ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ أي: فإنا أعتدنا لهم، ففيه وضع الظاهر موضع المضمر لتسجيل الكفر على

من لم يجمع بين الإيمان بالله والإيمان بالرسول ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يدبره كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ وذلك لأن رحمته سبقت غضبه، فالمغفرة والرحمة من الله بالأصالة، أما التعذيب كإدخال الكافرين السعير فذلك لأحوال طرأت على النفوس البشرية، وهنا لا مجال للإطالة، ففي المقام ما لا يجوز أن يقال. ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾ وهم المذكورون ﴿ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ أي: مغانم خيبر، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست، وقيل: سنة خمس، وهو الأصح، وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل المحرم، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة فخصها بهم، ومقول القول: ﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ أي: أن يغيروه، لأنه وعد أهل الحديبية أن يعوضهم عن مغانم مكة مغانم خيبر، ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ معنى النفي هنا النهي ﴿ كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل تهيئتهم للخروج إلى خيبر ﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ أن نشارككم في الغنائم ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لا يفهمون ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو فطنتهم لأمور الدنيا، والإضراب الأول ردّ منهم، والثاني ردّ الله، لإثباتهم الحسد وإثباته جهلهم بأمور الدين ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ وهم المتقدمون ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ وهل هم بنو حنيفة؟ أو هم أهل اليمامة أصحاب مسيلمة الكذاب الذين دعا إلى قتالهم أبو بكر، أو هم أهل فارس إذ دعا عمر إلى قتالهم، أو غيرهم، فإذا كان الأول كان أحد الأمرين: إما المقاتلة وإما الإسلام، ولا تقبل الجزية من بني حنيفة، ولا من جميع أهل الردة، وإن كان الثاني يكون المراد بالإسلام ما يشمل الانقياد بقبول الجزية منهم، وهذا دليل على صحة إمامة الشيخين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن تُطِيعُوا۟ ﴾ من دعاكم إلى القتال المذكور ﴿ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في الآخرة، أي: وإن تتولوا عن التوحيد والتوبة والإجابة إلى قتال مسيلمة الكذاب أو الفرس الخ. ولما كان هذا الوعيد الشديد على المتخلفين يشمل من هم معذورون حقيقة أردفه بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ فهؤلاء لا حرج عليهم في التخلف عن الغزو، فهم مستثنون من المتخلفين لعذرهم بعاهاتهم، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ في الجهاد وغيره ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في الآخرة.

بيعة الرضوان وهي بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الحديبية فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرادوا قتله، فمنعتهم الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فذكر أنه ليس من قومه أحد بمكة يدافع عنه، فأرسل عثمان بن عفان، وأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمته، فخرج

عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، فجعله في جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش، ثم احتبسوه عندهم، فشاع بين المسلمين أن عثمان بن عفان قتل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة وهي سمرة، فبايعه القوم إلا جد ابن قيس الأنصاري، اختفى تحت بطن بعيره، وهذه الشجرة لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموها بعد ذلك كثر اختلافهم، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة، قال عمر: سيروا ذهبت الشجرة، وقال ابن عمر: ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها وكانت رحمة من الله تعالى، وهذا قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاص ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينة وسكون النفس ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ فتح خيبر غب انصرافهم ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي مغانم خيبر وهي أرض ذات عقار وأموال، فقسمها عليهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ منيعاً فلا يغالب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يحكم به فلا يعارض، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ هي ما أصابوه مع النبي صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة، ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ المغانم، أي: مغانم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفائهم من أسد وغطفان حين جاؤوا لنصرتهم فقذف الله الرعب في قلوبهم فانصرفوا، يقول الله، فعجل لكم هذه المغانم لتنتفعوا بها ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفة أو الغنيمة ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمارة يعرفون بها ثلاثة أمور: الأول: صدق الرسول صلى الله عليه وسلم. الثاني: أنهم في حياطة الله وحراسته في مشهدهم ومغيبهم. الثالث: أن يعرف المؤمنون الذين بعد العصر الأول أن ما وهب الله للصحابة من حراستهم وحفظهم وعطائهم يكون لهم مثله ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو الثقة بفضل الله والتوكل عليه بعد إتقان العمل، ثم عطف على لفظ «هذه» قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ أي: وعدكم الله فتح بلدة أخرى لم تقدروا عليها ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: حفظها لكم حتى تفتحوها، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها، وسيفتحها الله لكم كفارس والروم الذين كان العرب خولاً لهم، ثم أقدرهم عليها بعز الإسلام، وغيرهما من كل فتوح الإسلام ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فقدرته شاملة للممكنات جميعها ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ولم يصالحوا، أو من حلفاء أهل خيبر وهم أسد وغطفان، ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ أي: لانهزموا ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم من الله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي: سنّ الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ ذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد، فهذا معنى قوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾. وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم والكف عنهم ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليهم ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ﴾ أي: ما يهدى إلى الكعبة، أي: صدوكم وصدوا الهدي ﴿مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: حال كونه محبوساً أن يبلغ مكانه

الذي يحل فيه نحره، وهو منى مكانه المعهود. وقال الحنفية: مكانه الذي يحل فيه نحره، أي: يجب، فالمحصر هديه الحرم عندهم في منى. ويقول غيرهم: ينحر حيث أحصر، وقد نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أحصر. ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿ أَن تَطَـُٔوهُمْ ﴾ أي: توقعوا بهم وتبيدوهم بالقتل ﴿ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي: إثم وذنب وعتب عليكم، فيقول المشركون: قتلوا أهل دينهم، يقول الله: لولا أن تقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لا علم لكم بهم فيلزمكم العار والإثم لأذنا لكم في دخول مكة، ولكن حال بينكم وبين دخولها ذلك السبب، ولقد كان الكف ومنع التعذيب والقتل عن أهل مكة ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ أي: ليدخل الله في دين الإسلام من يشاء من أهل مكة بعد الصلح وقبل دخولها، وليصون المؤمنين منهم عن الأذى ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ ﴾ لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض بحيث انفصل المؤمنون في مكة عن الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بالقتل والسبي ﴿ إِذْ جَعَلَ ﴾ أي: حين جعل، ظرف لـ«عذبنا» ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ ﴾ الأنفة ﴿ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ التي تمنع إذعان الحق ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي: الثبات والوقار، وذلك ما روي أنه عليه الصلاة والسلام لما همّ بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزّى، ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع في عامه، على أن تخلي له قريش مكة من القابل ثلاثة أيام. فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعليّ رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقالوا: لا نعرف هذا، اكتب باسمك اللهم، ثم قال عليه الصلاة والسلام: اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة. فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت وما قاتلناك، اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة، فقال صلى الله عليه وسلم: اكتب ما يريدون، فهمّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا وتحملوا ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: الثبات والوفاء بالعهد ﴿ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي: كانوا أهلها في علم الله، إذ اختارهم لدينه، وصحبة نبيه، وهم أهل الخير والصلاح ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ من أمر الكفار والمؤمنين فيجازي كلًّا بعمله. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذا القسم

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[الآية:١٦].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾[الآية:١٧] الخ.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الآية:٢٠].

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾[الآية:٢٣] الخ.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾

اعلم أن هؤلاء المخلفين قد حرموا من الغزوة التي فيها غنائم بعد ما تخلفوا، وقيل لهم تربصوا حرباً مع قوم شداد، جارية على القاعدة العامة في سنن الله تعالى طباً وتهذيباً.

انظر إلى علماء الطب، فإنهم إذا رأوا مريضاً قد اشتدت به الآلام الناجمة من البرد ألزموه تعاطي الأغذية الحارة، أو من الحر ألزموه تعاطي ما هو بارد، وكذا في الرطوبة واليبوسة، ويقولون لمن هو كثير النسيان: اجلس في حمام حار، وخذ في الحفظ والقراءة، فإن رأيت أنك قد أسرع حفظك، فاعلم أن النسيان من البرودة، وإذا رأيت أن الحفظ قد أبطأ فاعلم أن النسيان من الحرارة، فمتى عرفت السبب فاستعمل ما يضاده، فإذا كان السبب الحرارة فكل الأغذية الباردة، وإذا كان السبب البرودة فكل الأغذية الحارة، وهكذا يقول علماء الأخلاق: فمن رأى نفسه كثير الغضب فيلزم نفسه الجلوس مع من يؤذيه مرة بعد أخرى، وليتعلم الصبر على أذاه، فإن لم يجد من يؤذيه فليسلط هو إنساناً بأجر من عنده أن يقوم بشتمه في ملأ من الناس، ثم ليتصبر على ذلك حتى يتعلم التحمل ويتحلم، وإذا رأى أنه قد أصبح بليداً بحيث لا يؤثر فيه قول من يغضبه، ولا من يؤذيه، فليثر الحمية في نفسه بالأشعار وقراءة كتب الحماسة حتى تقف النفس في الوسط بين التهوّر والبلادة، وهكذا من رأى نفسه كثير الكلام فليتعود الصمت مراراً حتى يعرف أن نفسه لا تنطق إلا عند الحاجة.

وبالإجمال هذا هو السنن الذي سنه الله أن يداوى المرض بضده حتى يرجع المريض للاعتدال في الجسم وفي العقل، وذلك عينه هو الذي نراه في الشمس، فإنها تلقي علينا أشعة الصيف فتكون حرارة، وأشعة الشتاء فتكون برودة، وأشعة الربيع والخريف فتكون متوسطة، فرجع الأمر إلى الاعتدال لأن الحار والبارد يتساقطان ولا يبقى إلا الاعتدال. كل هذا يؤخذ من هذه القصة، إذ أنهم لما تخلفوا عن السفر وحرموا من الغنيمة في غزوة خيبر، ألزموا أن يكونوا في غزوة فيها قوم أولو بأس شديد، والقتال شاق، فهم كالمبرودين يلزمون الطعام الحار، وكالبليد تستثار فيه الهمة والنشاط والحمية. انتهت اللطيفة الأولى.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ الخ

اعلم أن هذه الآية لا يراد بها أن تكون قاصرة الحكم على مسألة أصحاب العاهات، إذ يستثنون من المتخلفين المذمومين، إذ هذا المقام مقام الاستعداد. فلينظر المسلمون في أمر الأمة جميعها، وليجعلوا كلًّا فيما استعد له، جعل الله في زمن النبوة الأمة ثلاثة أقسام: النساء لأعمال المنازل ونحوها والأقوياء من الرجال للحرب، وأصحاب العاهات عفا عنهم فلا يجاهدون، لماذا؟ لأنهم لا يصلحون لذلك، ولعمري إن هذا فتح باب لإشعال نار الرقي والإسعاد في الأمة، فليفتح الباب على مصراعيه، وليقل إن الله أنزل في القرآن هذا لننظر نظرة عامة، ولنقل الأمة كلها في جهاد دائماً، ليس الجهاد قاصراً على ضرب السيوف، وإعداد الجنود، ورفع البنود، كلا. ثم كلا. فلكل فرد من الأمة منزلة لا بد أن يوضع فيها، فالزارع في مزرعته يجاهد، لأنه يرسل الحنطة لصفوف المجاهدين، والتاجر، وصانع الأسلحة، والحاكم والقاضي والشرطي والخفير، كل هؤلاء أعوان المحاربين، وسائق قطار السكة الحديدية، وحارس المسرّة «التلفون» وصانع الطيارات، فكل هؤلاء مجاهدون، فليجعل كلّ فيما هو أهل له، وإذا نفى الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فليس معنى هذا أنهم يعافون من كل شيء كلا. إنهم لم يقدروا على دخول الصف ومقابلة العدو، ولكن الأعمى إذا كان من القادرين على

الخطابة والحث على الجهاد فليفعل ذلك، والأعرج إذا كان قادراً على عمل كأن يكون عند آلة البرق «التلغراف» فليلزم ذلك، والمريض يجب على الحكومة معالجته، ومتى شفي يوجه إلى ما خلق له، والمقصود أن هذه الآية تفتح الباب لوضع كل امرئ فيما استعد له، ولا يكون ذلك إلا بتعليم الأمة كلها تعليماً عاماً، وإدخال بعض الصناعات في المدارس الابتدائية، حتى تظهر مواهب الأطفال فيوضعوا فيما خلقوا له، كما نقلته لك في «آل عمران» عن أهل أمريكا، وهذا المعنى يؤخذ من قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾[البقرة: ٢٨٦]، وقوله: ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾[البقرة: ٢٣٣]. فارجع إلى التفصيل في سورة «البقرة»، وقل للأمة: لا تعطلوا مواهب الأمة، بل نبهوا جميع الشعب وأيقظوا فيه المواهب الكامنة حتى تستخرجوا منها الآثار النافعة، ولا سعادة للأمة إلا بهذا، والله هو الولي الحميد. انتهت اللطيفة الثانية.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

اعلم أن هذا سر مصون، وجوهر مكنون، وحكمة عالية، ومنهج شريف، وكبريت أحمر، وماس بهيج، ودرّ نضيد، وكنز مدفون، أراد الله إظهاره لأمة الإسلام، حتى تستيقظ من رقدتها، وتقوم من غفلتها، وترجع عن حوبتها، وتنفض غبار الكسل، وتحيي ما مات من الأمل، وتجني ثمار الحكمة التي حفظها الله لهم في الكتاب، ليفهمها أولو الألباب بعدنا، فيقولون: يا ليت شعري أي آية للمؤمنين هنا في هذا الزمان، إذا كان الله كفّ أيدي أهل مكة عن المؤمنين، وكف أيدي المؤمنين عن أهل مكة، وعجل لهم مغانم في خيبر، فأيّ آية لنا الآن نحن في هذا الزمان؟ ذلك زمان مضى وانقضى وأمر طواه الزمان في سجل النسيان فكيف يكون لنا آية؟ اللهم إلا ما يكون آية على صدق النبوة، وصدق النبوة عندنا لا يحتاج لبرهان، لأنا أخذناه جيلاً عن جيل، وقوماً عن قوم، فلسنا نحتاج إلى براهين جديدة، على أن صدق النبوة ليس هو كل شيء عندنا في الدين، بل المهم نتائجه، فمن صدّق بالأنبياء وبالقرآن وبقي ساكتاً لا يحرك ساكناً؛ فأي فرق بينه وبين الكافر إلا الاعتقاد، والاعتقاد بلا عمل شجر بلا ثمر، وأرض بلا زرع.

إذا سمعت هذا من أهل زمانك، أو قرأته في هذا المقام، فأجب عنه وقل: إن الله عز وجل جعل أهمّ خواص الإنسان أمرين: الأول: العلم والشوق إليه، وحب الحكمة والغرام بها والولوع، والثاني: نفع الناس وإرشادهم، فهذان هما الخلقان الشريفان اللذان تخلق الله بهما، فهو عليم، وهو رحيم وحكيم، ومن تخلق بأخلاق الله فإن الله في عونه، ومتى اتصف رجل بهاتين الصفتين فأحب العلم وعشقه، ومال للحكمة وأغرم بها، فإن الله عز وجل يكون معه، وإذا كان مغرماً بمنفعة الناس، وأحب رقيهم وسعادتهم على شريطة أن يكون أهلاً لذلك، فإن الله وملائكته يكونون معه، ويرى من العون في غدوه ورواحه، وبالتفطن يرى من العناية والمساعدة ما لا يحيط به بيان.

أقول هذا وأذكرك بحديث: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع»، وبما يروى: «إن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر»، وبآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[العنكبوت: ٦٩]، فالجهاد يشمل الجهاد العلمي، والجهاد العملي، والإحسان يشملهما، فهو إحسان بالعلم وإحسان بالعمل.

واعجب أيها الذكي كيف تقول بعض الأرواح لما أحضرت وسألوها في أوروبا: أي شيء يرقينا إذا متنا؟ فأجابت: أمران هما المحبوبان: الأول: الفلسفة، أي: حب العلم والحكمة، والثاني: حب الناس، فمن اتصف بهذين الوصفين كان محل نظر الله وملائكته، وكان الله معه، وازداد علماً على مدى الزمان، وخزائن الله العلمية لا تنفد. كل هذا سر هذه الآية: ﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[الفتح: ٢٠]، وهو الثقة بفضل الله تعالى، انظر كيف جعل الله هذه الغنائم الخيرية التي وعد الله المؤمنين بها آية لنا، وثباتاً على الأعمال والعلوم. انظر كيف نام المسلمون، وجهلوا هذه العلوم. انظر كيف كان العالم كالجاهل في تناسي هذه العلوم القرآنية. انظر كيف ملأ الله الأرض بالعلم وأخلى منه أمة الإسلام الحاضرة إلا قليلاً. انظر رعاك الله وقل لي غنائم خيبر يخبرنا الله بها ويقول إنها آية لكم، وهداية للثبات على الأعمال، ثم يصم المسلمون آذانهم وينامون نوماً عميقاً، حتى قلّ من بينهم من يحب المجموع، وقل من يحب العلم لذات العلم، فأما بعد هذا الزمان فسيكثر فيهم العاشقون للعلوم، ويكثر المحبون لأمة الإسلام، بل لجميع العالم الإنساني الذي نحن جعلنا رحمة له، بل رحمة لكل حي من إنسان وحيوان، لأننا قائمون مقام نبينا المرسل رحمة للعالمين من الإنسان والحيوان والجن الذين لم يتخلقوا بالأخلاق الحميدة فيقلدون الصالحين منا والعلماء فينا.

جهاد الفرد وجهاد الجيش

لعلك تقول: أي الآيات نراها اليوم في هذا الزمان إذا نحن أخلصنا في أعمالنا فيساعدنا الله كما ساعد المؤمنين بغنائم خيبر، إن ذلك كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم ورحمة الله تنزلت عليهم، وأخبر النبي بذلك، وتم ما أخبر به، وصدق الله وعده فعلاً، فأي غزوات الآن نكون فيها؟ وأي منح نعطاها، وعطايا نلقاها؟ ولا نبي بيننا اليوم. والكرامة للأنبياء ومن مع الأنبياء، أما نحن فلسنا أهلاً لذلك.

أقول: إن هذه الآراء هي السبب الأكبر في موت المسلمين موتاً أدبياً وحربياً ومالياً واقتصادياً وسياسياً وهي الدلالة على الجهل بالله، ونظامه، ورحمته، وحكمته الشاملة، وآياته الواصلة، وعجائبه المدهشة.

إن الله دائم الجود، واسع العطاء، لم يخصّ العلماء، ولا الأنبياء، ولا الحكماء، ولا الإنسان، بل عمم العطاء حتى لأحقر ذرة من الحيوان المسماة ميكروباً، فأعطاها أشرف الأجسام، وهي أجسام الإنسان، تأكل فيه لحماً طرياً، وتشرب شراباً أحمر شهياً، وترتع وتلعب وهي آمنة مطمئنة، فإذا أعطى الله أجسام أشرف المخلوقات وهو الإنسان لأقل الحيوانات قدراً، وقال لها: كلي واشربي وقري عيناً في أشرف مخلوق على الأرض، فما بالك بالإنسان وهو أشرف حيوان على الأرض، فهل يذره الله يتخبط في الدنيا ولا يفرق بين من يريد نفع العموم ومن يريد شهوة نفسه، كلا والله. فلقد جرّبنا ما نقول فرأينا العجب العجاب!.

ولتعلم أن جهاد الفرد في الحياة العلمية والعملية أشق من جهاد الجيش الكبير، والمعاونة الإلهية تكون على العمل الفردي أقوى من المعاونة التي تعطى للجيش الكبير الصادق، وبرهانه أن نقول: إن الفرد منا وهو يجدّ في العلم مخلصاً فيه، وفي منافع النوع الإنساني إذا كان أهلاً لذلك، يلاقي مشاق لا يلاقيها الجيش في غزواته، أي إنه إذا كانت الصعاب التي يلاقيها الجيش توازي في صعوبتها ما يلاقيه الفرد المجدّ مضاعفة بعدد أفراده؛ كان الجيش في مشقة لا تطاق، فإذا رأيت الله عز وجل يساعد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويعطيهم غنائم خيبر، لأنه يعلم أن هذا الجهاد سيعقبه نشر العلم، وحفظ الأمن، وأن ما يفعلونه مع الكفار أشبه بالكيّ في جسم الإنسانية، وبعد هذا الكيّ سيكون الشفاء التام. وعلموا هذا كله من طريق النبوة، فاعلم أن الفرد الواحد المجاهد يقع في مشقات لا عدد لها إذا كان مجاهداً للمجموع، وتكون المعاونة له من الله على مقدار ما يصيبه من المشقات، فيكون العالم في علمه، والمنظم للأمة الساعي في رقيها، واقعين في مصاعب ومشاق عظيمة، ويكون عون الله لهم مضاعفاً على مقدار مشاقهم، إن شئت فاقرأ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وأنت تعلم أن نصره وهو في الغار أعجب من نصره وهو في بدر، أو أحد، أو حنين، يقود جيشاً عظيماً، إذا عرفت ذلك فاعلم أن حالك أنت اليوم وأنت تتعلم العلم، أو تحرص على رقيّ أمتك الإسلامية لا تخرج عن هذه الحال لأن الله معنا أينما كنا، وما أرسل الأنبياء إلا ليكونوا قدوة لنا ونوراً فإذا نصر نبيه وهو وحيد ليس معه إلا أبو بكر، فجرّب أنت كما اتفق لي، لا سيما أثناء هذا التفسير، فقد رأيت العجائب في هذه الحياة، ووقعت في مشاكل مدلهمة، ولكن جاءت ألطاف الله أسرع من الرق، فأوقفت الشر بل أزالته، وتكرّر ذلك مراراً أثناء هذا التفسير، سواء أكان ذلك في الأمور الدنيوية أو المسائل العلمية، ومن عجب أن بعض المسائل أكون في حاجة إليها، والآية تتطلبها، فلا تمضي دقائق حتى أعثر في الطريق على ما يفهمني المطلوب، وأذكر مرة أني كنت سائراً في شارع خيرت بالقاهرة بالقرب من مشهد السيدة زينب رضي الله عنها، وأنا أفكر في آية: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى آخره، ووجدت أن الفلك في البحار لا بد من استيفاء الكلام عليها، فالذي يسيرها إما الهواء وإما البخار، فخطر ببالي أن الكهرباء أيضاً لا بد من أن يكون لها في ذلك عمل، ولكن لا يمكن أن أكتب ذلك إلا إذا اطلعت عليه، فحدثتني نفسي أن عادة الله لا بد أن تتم معي، وأني قريباً أجد فهمها، فما سرت بضع دقائق حتى وصلت إلى ميدان السيدة زينب، فوجدت رجلاً معه مجلة لا أتذكر اسمها. فقلت: أرنيها. ففتحتها فرأيت في الصفحة التي وقعت تحت نظري في سطر من أوسطها هذه المسألة بنصها، بحيث إن نظري لم يقع إلا عليها، ولم تفتح إلا هذه الصفحة أول ما تناولتها، فاشتريتها منه، ونقلت الجملة التي في المجلة الخاصة بالكهرباء التي بها تسير السفن، فانظرها في سورة «البقرة» فإنك تجدها في تفسير الآية، وتجد الجملة منقولة بحروفها، لأني لست من علماء هذا الفن،

هذه مسألة واحدة، وواقعة من وقائع كثيرة أثناء تأليف هذا الكتاب، وإنّما ذكرت لك هذا لتعلم أني أكتب عن يقين، وأن النور الفائض من الله محيط بنا من كل جانب، وإنّما نحن الذين نحرم أنفسنا منه فيشقى الجاهل به، فإذا أعان الله رسوله وهو في الغار جادّ في رقيّ أمته فليس معنى هذا أنه يتركك وأنت مقتف أثره. كلا والله، بل لم ينزل هذا القرآن إلا لأجل هدايتك، بمثل هذا تعرف النبوة وصدقها وبمثل هذا فليرتق المسلمون.

فليجدّ العلماء في تفهيم الناس هذه الحقائق، فلعمري كيف يقول الله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ٢٠] أليس ذلك ليكون نبراساً لنا فنعلم أن الله مؤيد للعاملين في أعمالهم الجزئية، ونفكر في تلك الإلهامات السرية التي يحس بها الإنسان في نفسه، وتلك المساعدات الوقتية التي تحصل لنا عند جدّنا في المنافع العامة، وحينئذ لا محيص لنا عن الثبات في أعمالنا والمثابرة، فنفوز كما فاز الأولين، ونحظى بما حظي به المتقدمون، والله لا يضيع أجر المحسنين.

تذكرة
في موازنة آيات الأحكام بآيات الأعمال الأخرى

فإذا سمعت السادة الحنفية، والسادة الشافعية، يدققون النظر، ويحققون الفكر، في آية: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾[البقرة: ١٩٦]، فيقول قوم: إن الحرم هو الذي يذبح فيه الهدي، ويقول قوم: كلا، فلينحر المحصر حيث أحصر كما تقدم مع أن الخطب فيه سهل، فما بالك بمثل هذا المقام الذي يقول الله فيه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[الفتح: ٢٠]. يجعل الله غنائم خيبر آية لنا، وهداية لسبلنا، وطريقاً لوصولنا، ولم يقل في الهدي شيئاً من ذلك، بل قال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[الحج: ٣٧]. فانظر كيف أرجع الأمر في الذبائح سواء أكانت في منى، أم في الحديبية، أم في غيرهما، لأمر واحد وهو التقوى، وإنّما هذه وسائل لها، فإن بذل المال معناه التبري من المال لئلا يعلق بالقلوب فيوقعها في شرك هذه الحياة الدنيا. فإذا كان علماؤنا يدققون في الوسائل فما بالك بالمقاصد مثل ما نحن فيه. لقد كان أئمة الفقه كمالك، والشافعي، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وزيد رضي الله عنهم وأمثالهم يدققون في الأحوال النفسية عملاً، ولم يكن عندهم الزمن الكافي ليكتبوا هذا للناس فتركوه للأجيال المقبلة، وكأنهم يقولون: هانحن أولاء دققنا في مقدمات الأعمال، فعليكم النظر فيما لا يحتاج إلى بحث شديد كبحثنا وهي المقاصد، وليتم الآخرون ما تركه الأولون، فإذا نحن أفهمناكم دقيقات الأمور فعلموا الناس أنتم الأمور التي هي أوضح كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، وكقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[الحج: ٤٠]، وكقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت: ٦٩]، وكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٥٣]، وكقوله هنا: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الفتح: ٢٠].

إن الله يساعد المؤمن المجاهد في نفسه أكثر مما يساعد الجيوش في الجهاد، ألم تر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس»، فجهاد النفس جعل أشد

من جهاد العدو، فيكون العون فيه أعظم، لأن الجندي في الجيش معه إخوانه، وليس مع الفرد في نفسه إلا الله كما تقدم في آية الغار: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

دفع وهم

إياك أن يمر بخاطرك أن هذا القول ونحوه معناه أن لن يصيبك همّ في الحياة. كلا. إذا جاء هذا الخاطر فاعلم أنه خاطر كاذب. يقول المسلم إذا حزبه أمر: كيف أقع في هذه الشدائد؟ ألست مسلماً! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[الزمر: ٣٦]، أليس الله يساعدني! لا سيما وأنا أجاهد في تهذيب نفسي، ورقيّ أمتي. وأنا أهل لذلك، وأنا مخلص، فلمثل هذا يقال: إذا ظننت أنه لن يصيبك أذى، فأنت واهم، بل هذه الطبقة يكون همها أعظم، وحملها أثقل، وعملها أشق، ويكون العون على قدر المشقة ولن يرتقي امرؤ قط إلا بما زاول من الأعمال، وما قاسى من المشاق. وهذه الفكرة في الإسلام هي التي قعدت بالهمم، وأورثتهم الخمول، فيقول الرجل: ألسنا مسلمين؟ فلماذا سلط الله علينا الفرنجة؟ أليس النبي شفيعاً لنا؟ أليس الله مع الصابرين؟ أليس الله ينصر من ينصره؟ ونحن ننصر فلماذا لم ينصرنا؟ وهذا كله كلام لم ينطبق على حقيقة الواقع الذي عليه المسلمون؟ فلنجادل بالتي هي أحسن في نقطة الشفاعة ونقول: أيها المسلم، أليس النبي شفيعاً؟ فيقول: بلى. فنقول: أليس العالم شفيعاً؟ يقول: بلى.

نقول: أليس الشهيد شفيعاً؟ يقول: بلى. نقول: النبي والعالم والشهيد إذا ظهروا في بلد أيكونون سبب كسلها، أم يكونون سبب نشاطها؟ فيقول: بل سبب نشاطها للأعمال، نقول: لماذا؟ فيقول: لأن العلوم الدينية وعلوم العلماء وتقديم الشهيد نفسه لله كل ذلك يحدث في الناس استعداداً للعمل، نقول: فإذا رأينا الذين مع العالم ومع الشهيد ومع النبي قد كسلوا فما شأنهم؟ فليس له إلا أن يجيب: ليس لهم حظ من السعادة، بل هم أكثر عذاباً ممن لم يكن عندهم عالم ولا نبي ولا شهيد، لأنهم رأوا طريق الرشد فلم يتبعوه، وعرفوا الحق ولم ينهجوه.

نقول: هذا المثل منطبق على بعض المسلمين، يرون نبينا صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتجشمون المشاق في الحر والبرد، ويلاقون الأعداء في الجبال، ويقدمون رقابهم للقتل، كل ذلك والمسلمون نائمون، ثم يظنون أن الشفاعة معناها أن يكسل الإنسان ويعطى الخبز مجاناً، فإذن الشفاعة لها معنى غير هذا، فليعلموا كما رأوا في السلف الصالح، وإذن يلحقون بهم، فأما كونهم يلحقون بهم وهم نائمون فهذا غير معقول ولا مقبول، إذ يصير هكذا: كل عالم في بلده يكون سبباً لكسلها، وكل نبي يكون سبباً لكسل أمته، فتكون الآية معكوسة، والعقول مقلوبة ضائعة.

ومعلوم أن الله لم يخلقنا إلا ليهذبنا ويرقينا، والتهذيب والترقية أعمال لا كسل، فإذا قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[الحج: ٤٠]؛ فليكن المسلم ناصراً للفضيلة، مفكراً مطلعاً، حريصاً على العلم، وليكن المسلمون جادّين مفكرين.

فرحم الله امرأ أهدى إلى الناس ما كتبناه في هذا التفسير، وأعطاهم ما يقبلون منه، ورحم الله امرأ نشر هذه الأقوال بين المسلمين. ورحم الله المؤمن النافع للمسلمين. انتهت اللطيفة الثالثة.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾

هذا المعنى يقوي المعنى الذي سبق في اللطيفة الثالثة، وملخصه تقوية قلبك أن تكون مرقياً لنفسك علمياً، ولأمتك مادياً وأدبياً، والله يكون معك، وأن هذه سنة قديمة في الأنبياء وأتباعهم العلماء، والله ولي المؤمنين.

فصل: في إيضاح الكلام على بيعة الرضوان

روي أن مكرز بن حفص لما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه كما تقدم قال صلى الله عليه وسلم: هذا مكرز، وهو رجل فاجر، فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال صلى الله عليه وسلم: قد سهل لكم من أمركم، ولما قال صلى الله عليه وسلم لعليّ: امح رسول الله، قال: لا والله لا أمحوك أبداً. قال: فأرنيه، فأراه إياه فمحاه النبي صلى الله عليه وسلم بيده وكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله على ثلاثة أشياء: على من أتاه من المشركين رده إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه، وعلى أن يدخلها من قابل ويقيم ثلاثة أيام ولا يدخلها بجلبان السلاح السيف والقوس ونحوه، فقالوا: يا رسول الله أتكتب هذا؟ قال: نعم. إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. انتهى القسم الثالث من السورة.

القسم الرابع من السورة

رأى عليه الصلاة والسلام في المنام وهو في المدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ويحلقون رؤوسهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وأحسوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شقّ عليهم ذلك، وقال المنافقون: أين رؤياه التي رآها؟ فأنزل الله هذه الآية، ودخلوا في العام المقبل. ومما روي أن عمر بن الخطاب. قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا إذن. قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قلت: أوَلست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه وتطوف به. قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطى الدنية في ديننا. قال: أيها الرجل، إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به؟ قال: بلى. أفأخبرك أنه آتيه العام. قلت: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به، وهذا قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقاً متلبساً بالحق، أي: بالحكمة البالغة، لأن فيه ابتلاء ليتميز المؤمن الخالص من المنافق، والله ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ حال كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ علق بالمشيئة تعليماً للعباد أن يلزموا الأدب فلا يحكموا على مستقبل لا علم لهم به ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: محلقاً بعضكم ومقصراً آخرون

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ جملة حالية مؤكدة ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير ذلك ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من دون دخولكم المسجد أو فتح مكة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر، ليستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الموعود، وقد تقدم شرح ذلك شرحاً وافياً ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ أي: ملتبساً به ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وبدين الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على جنس الدين كله بنسخ الديانات، وإظهار فساد العقائد الزائغات، وبتسليط المسلمين على أهل الأديان في الأزمان الغابرة، وبالقيام بأمر الكرة الأرضية، والمحافظة على نظام الأمم، والقيام بأمر الموازنة بينهم، وتعليم الناقصين في الأزمان المستقبلة، إذ تصبح الأرض كلها كأسرة واحدة، ويكون المسلمون هم الآخذون بيد الأمم، وذلك في أيام عيسى التي هي رمز للسلام العام في الأمم، ويكون المسلمون بيدهم مفتاح هذا السلام كما أشرنا إليه في السورة السابقة، إذ يتضامّ العرب بعضهم مع بعض وهم والترك وبقية الأمم الإسلامية المتاخمة الديار كما أوضحته في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[آل عمران: ٢٣]، وذلك بأن يتعلم أبناء العرب في شمال أفريقيا والشام والعراق والحجاز العلوم الابتدائية والثانوية والعالية، وبذلك يعرفون قدر أمتهم ولغتهم ودينهم وعوائدهم فيتحدون ولو طال الزمان، ثم يتحدون مع الترك وغيرهم لجامعة الدين والجوار، وأنهم أمم شرقية، ثم يأخذون بيد المسلمين في سائر الأقطار، ثم يعلنون الدول أنهم يريدون السلام العام بين الأمم بعد أن يكون جيشهم أقوى الجيوش، وكلمتهم أعلى الكلم، ثم هناك هناك يقال: إنهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، وهناك هناك يقال: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وهناك هناك يقال: إن المسلمين رحمة للعالمين تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧]. فإياك أن يقول لك فقيه: أين الجهاد؟ فلتجبه بما في السورة السابقة عند الكلام على آية: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[محمد: ٤]، وقل له: فليكن جيش المسلمين أقوى الجيوش، وهم الآن في وسط الكرة الأرضية، وإذن يحفظون الموازنة، ولا يكون في الأرض إلا مسلم أو مسالم، فالأمم كلها تسالمهم، وربما أصبحت الأرض كلها حكومات متحدة والمسلمون يكونون هم القائمين بأمر هذا الاتحاد وهذا زمانه، وليس يكون نزول المسيح إلا بعد هذه المقدمات، فلو أنه نزل بغير ذلك لم يمكن تغيير طباع الناس في عدّ الأصابع من السنين، فنزول المسيح إنّما يكون لأمم قد أشرقت أنوارها، وحسنت طباعها، ويدوم ذلك النظام آلافاً وآلافاً من السنين، ويقال لأهل الأرض إذن: إنهم على منهج المسيح، والقائم بأمرهم أمة الإسلام، وهاأنا ذا قد بينت هذا في سور كثيرة.

ولما كان هذا وعداً لا بد من تحققه أعقبه بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعده كائن، وعلى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أخذ يبين ذلك فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: أصحابه المؤمنون، والمعطوف والمعطوف عليه مبتدأ خبرهما: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يغلظون على من خالف دينهم ويتراحمون فيما بينهم، كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤]، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الثواب والرضا ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: السمة التي

تحدث في جباههم من كثرة السجود، يقال: سامه، إذا أعلمه، وكما أن المنافقين يعرفون بسيماهم كما جاء في السورة السابقة: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] هكذا هنا، فللأشقياء علامات تظهر في وجوههم وسحنتهم وهيئاتهم. كما أوضحه العلامة ابن خلدون في مقدمته، هكذا الفضلاء، ولكن العقول التي تفهم ذلك نادرة أو قليلة. واعلم أن كل ما يفعله الإنسان أو يتصوره يؤثر في ظاهر جسمه أثراً، ولكن الفطن تتفاوت في تعرّف ذلك تفاوتاً كثيراً، وسيماهم التي في وجوههم هي السمت الحسن والخشوع والتواضع والسجية. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: المذكور ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صفتهم ﴿فِي التَّوْرَاةِ﴾ وعليه وقف، ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ مبتدأ خبره: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخه، يقال: أشطأ الزرع، إذا أفرخ، ﴿فَآزَرَهُ﴾ فأعانه وشدّ أزره وقوّاه، ومنه تقوية أبي بكر للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو أول من آمن به وخرج معه على أعداء الله. ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فتقوّى، هكذا تقوّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال عثمان مثلاً على الغزو والجهاد ونحوه، ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ جمع ساق، أي: على أصوله، ومثاله إظهار أمر النبي صلى الله عليه وسلم في قريش بنحو عليّ بن أبي طالب وعمر، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوّته. يقال: مكتوب في الإنجيل أنه سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ومعنى يعجب الزرّاع هنا: أي جميع المؤمنين، ولقد نماهم الله وأكثرهم واستووا وغلبوا ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقوله: ﴿مِنْهُم﴾ بيان للذين آمنوا. واعلم أن مثل التوراة الذي تضمن الرحمة على الأولياء والشدة على الأعداء يستلزم كثرة العدد والرقي، لأن المتراحمين متحابون فيعظم شأنهم، فإذا اتحدوا لاجتماعهم على العبادات من ركوع وسجود واتصافهم بأوصاف الرحمة والشدة في مواضعها؛ فذلك يدعو إلى رقيهم تدريجاً كالزرع، وكأن هذه المعاني التي تضمنها المثلان متلاحقة متسلسلة، فكأن التوراة لما كان أقدم من الإنجيل وأساً له ذكر فيه مبدأ ما به القوة والكمال، وكأن الإنجيل لما كان بعد التوراة ذكر فيه ما يترتب على ذلك الأس، وهو النماء والقوة والعزة وظهور الثمرات. ولما كان التوراة كتاب أحكام وشرائع نسب إليه المثل الذي هو من جنس شرائعه كالسجود والركوع والأعمال الخلقية في مواضعها، ولما كان الإنجيل كتاب ارتقاء للعواطف، وبثّ الفضائل، واستخراج القوى الكامنة في النفوس ناسب أن يذكر في مثله الزرع ونماؤه. ويروى في حديث وصف المؤمنين ما معناه: «إن أناجيلهم قلوبهم».

هذه أوصاف الأمة الإسلامية، فانظرها الآن وتأمل في تخاذلها وجهلها الفاضح، حتى أصبحت مثلاً مضروباً للخمول والجهالة الحمقاء، وسيبدل الحال، ويحسن المآل، ويخضر الزرع. ولما كان هذا المثل المضروب بالزرع في هذه السورة يحدث في نفوسنا يأساً من ارتقاء المسلمين، لأنه يقال: هانحن أولاء اليوم أبناء أمة الإسلام، وهذا المثل ينطبق على آبائنا الأولين، أما نحن فإننا أصبحنا زرعاً هشيماً تذروه الرياح فكيف يجتمع عصفه وتبنه، وقد مضى زمانه، وذهب إبانه، ويستدل القائل بما هو حاصل اليوم، ونقرؤه في الجرائد من التخاذل والتنابذ والتباعد بين المسلمين، حتى أصبحوا عند الفرنجة كالخدم والعبيد، ألم تر إلى ما جاء في الجرائد أثناء تأليف هذا التفسير يوم الثلاثاء ٢٣ يونيو سنة ١٩٢٥م، أي

قبل كتابة هذه الأسطر بيوم واحد ما نصه: باريس في ٢٢ يونيو. تلقت جريدة «الطان» تلغرافاً من مراسلها في مدينة فاس قال فيه: إن مولاي يوسف سلطان المغرب الأقصى أعرب للمارشال ليوتي عن رغبته في إصدار منشور ينكر فيه أعمال عبد الكريم الماسة بالوحدة الدينية، ويقول: إن عبد الكريم لا يملك الصفات اللازمة لحكم المسلمين، وبالنظر إلى تحرش الأمير عبد الكريم الذي أعلن أنه يريد الاحتفال بعيد الأضحى في فاس؛ قرّر مولاي يوسف رداً على ذلك أن يبقى في فاس ليحتفل بالعيد احتفالاً عظيماً. اهـ.

هذا هو التلغراف المرسل المذاع عن مولاي يوسف، فانظر أيها الذكي كيف أصبح المسلمون ألعوبة في أيدي الفرنجة، وانظر هذه المخزيات، الأمير عبد الكريم قام لتحرير بلاد مراكش وطرد الفرنجة منها، والفرنجة يصطادون أناساً يجعلونهم ملوكاً ثم يأمرونهم فيذيعون أوامر لأولئك الذين يناوئون الفرنجة، هذا المثل الذي يتصف به بعض المسلمين اليوم وإن كان فريق عظيم منهم قد استيقظ كالترك والفرس والأفغان.

هذا هو المثل السوء الذي يمثله المسلمون اليوم، لا سيما إخواننا أبناء العرب، وذلك للجهالة العمياء، والنوم والعمى، فإذا تبدّى لك هذا فاعلم أن الله قد علم ذلك قبل أن يخلقك، وقال: ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد: ١٦-١٧]، فتعقيب آية قسوة القلب والفسق بإحياء الأرض بعد موتها إشارة إلى ما هو مقرر في سنة الله أن الشيء متى وصل إلى نهايته انقلب إلى ضده، فالأمة الإسلامية اليوم وصلت إلى ما نراه، وبعد هذا الموت الحياة، فإذا كان المسلمون صاروا اليوم هشيماً تذروه الرياح فالله يقول: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد: ١٧]، فلئن مات بعض المسلمين اليوم فإن الحياة بعد الموت، وسيظهرهم الله على الأمم ويدرسون علومها ويقومون بأمر ربهم، هذا هو الذي سيكون، والله هو الأول والآخر، وإلى الله ترجع الأمور.

اللطائف العامة للسورة كلها

اعلم أيها الأخ الذكي أن هذه اللطائف لم ترد بخاطري إلا عند الطبع، واللطائف المتقدمة إنّما كانت أيام التأليف منذ بضع سنين، وهاك بيانها:

(١) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [الآية: ١].

(٢) في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [الآية: ٤].

(٣) في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الآية: ٤].

(٤) في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الآية: ٢٨] الآية.

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾

هذا ما فتح الله به عليّ يوم الثلاثاء ١٤ يوليو سنة ١٩٣١م

(١) اعلم أن الأرض ثلاثة أقسام: أرض سبخة، وأرض حجرية، وأرض طيبة صالحة للزراعة. فالأولى يقع عليها المطر فلا تحفظ الماء ولا تنبت ما ينفع الناس، والثانية تحفظ الماء لغيرها ولكن لا تنتفع

به ، والثالثة ينبت فيها النبات وينتفع به الناس . فهذه الثالثة انتفعت بالماء ونفعت الناس بثمراتها ، فكان منها الحقول والنبات والأشجار والأثمار والأزهار والجمال .

الله أكبر ، إن عقول أهل الأرض مقسمة أقساماً تضارع هذه الثلاثة . وترى أصول هذا الموضوع في حديث البخاري : « إنّما مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم » الخ . إذن من شرط النفوس المنتفعة بالعلم النافعة لغيرها أن لا تشبه الأرض الحجرية ، ولا الأرض السبخة . واعلم أن جميع الذنوب والآثام التي تقترفها النفوس الإنسانية لن يتم لها ذلك إلا إذا كانت فيها هي أنفسها جراثيم الفساد وأصول سوء الأخلاق ، فكما أن الأرض التي ليست سبخة وليست حجرية ، بل هي أرض طيبة ينبت فيها الشجر والكلأ ويعمّ نفعها ، لأنه ليس هناك من مانع يمنع ظهور تلك الأشجار والنباتات فيها ، هكذا النفوس الإنسانية النيرة المضيئة التي لم تدنس أصل فطرتها بنقص تقبل العلم ، فهي أشبه بشموس والعلوم فيها كنوزها ، وما الاستعداد للذنوب إلا النقائص التي تفطر عليها النفوس في مبدأ أمرها .

(٢) إن هذه الأرض الطيبة التي ظهرت فيها الحدائق والحقول يأتي إليها الناس من كل حدب لينتفعوا بثمرها ، ويوالون الخدمة فيها .

(٣) ثم يأخذون ثمراتها ويطوفون بها في البر والبحر للبيع بعد أن يكونوا قد انتفعوا بما يسد حاجاتهم منها .

(٤) ولا جرم أن هذه الأرض تختص بإقبال الناس عليها والانصراف عن الأرض الحجرية والأرض السبخة إذ لا ثمرة فيهما .

إذا فهمت هذا فانظر في آياتنا التي نحن بصددها ، واعلم أن الفتوح في حقيقته إنّما هو فتوح العلم وكشف الحقائق ، فهذا هو الفتح الحقيقي ، فإن الأرض ومن عليها والسماوات والأرضون كلها فانية ، وكل ما على الأرض لا قيمة له بالنسبة للعلم ، لأن العلم باق والعوالم فانية ، فالنفوس الشريفة لن تفرح قط إلا بانكشاف الحقائق والوقوف على الأسرار ، أما ما عدا ذلك فإنّما هي ظواهر ، والظواهر يجتزئ بها الجهال .

ولا جرم أن الفتح العلمي وانكشاف الحقائق للنبي صلى الله عليه وسلم له أصل واحد وثلاث نتائج ، أما الأصل الذي لا بد منه فهو صفاء النفس وخلوصها من الجراثيم الموجبة للذنوب ، إن صفاء النفوس وخلوصها من تلك الجراثيم المؤهلة للذنوب هو الأهم الأتمّ ، والأولى بالعناية الإلهية من التجافي عن اقتراف الذنوب ، فما مثل النفوس في الذنوب إلا كمثل الأجسام في الأمراض ، وأن خير الأطباء من يأمرون المرضى بالمحافظة على الصحة حتى لا يقعوا في الأمراض ، فهؤلاء هم الأطباء الحقيقيون .

ولقد تم هذا في سورة « الشعراء » وفي سورة « فاطر » وفي سورة « الحجر » وفي سورة « الأعراف » فقد بينت هناك الطريقة المثلى التي بها يكون الجسم صحيحاً لا يعتوره مرض إلا قليلاً ، فأما أكثر الأطباء في هذه الأرض فأنهم في شغل بمعالجة الأمراض ، وليس من عملهم أن يقولوا للأصحاء احترسوا من الأمراض بالابتعاد عما يضركم ، فهذا ليس من أعمالهم إلا قليلاً ، إن خير الطب ما كان راجعاً إلى أصل البنية لحفظ صحتها حتى لا يعتورها المرض ، وأكثر الأطباء يعالجون ظواهر المرض ، ولا يصلون

إلى أصل الجراثيم والأحوال التي كانت سبب المرض، هكذا النفوس الإنسانية لها ذنوب باستعدادها لها. وخير ما تعالج به هذه النفوس أن تصفى من أصل فطرتها من جراثيم الذنوب، لا أنها تعالج ذنباً ذنباً، وكلما وقع ذنب يغفر لها كما يفعل أكثر الأطباء في أرضنا، إذ يعالجون كل ذنب على حدته ويذرون وراءهم أصل الجسم فلا يعلمون عنه شيئاً.

ولا جرم أن الله عز وجل لا يعامل نبيه في إصلاح نفسه معاملة أكثر الأطباء في أرضنا، بل يعامله معاملة الطبيب الحقيقي الذي يخلص الجسم من جراثيم الأمراض، فهاهنا تجلى لنا وظهر ظهور الشمس في رابعة النهار، إن غفران الذنوب ليس معناه أنها تقع ثم تمحى، فهذا ليس كمالاً، إنّما الكمال أن نفسه صلى الله عليه وسلم خلقت كما خلقت الكواكب والنجوم مشرقة لا أنها كالطين يعتريها الظلام، وهذا الصفاء يجعلها قابلة لانكشاف الحقائق، فإذا سمعنا الله عز وجل يقول: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[الفتح: ٢]؛ عرفنا أن هذا معناه استئصال الذنوب بأصل الفطرة كالجوهرة في صدفتها لا يعتريها قذى.

هذا هو الفتح الذي فتح الله به عليّ في معنى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢] فملخص المعنى أنا كشفنا لك الحقائق كشفاً مبيناً لتتصف بأربعة أمور:

أمر مبدئي، وهو صفاء نفسك وجمالها بحيث لا تستعد لذنب متقدم ولا لذنب متأخر، وكيف تستعد له وهي كالجوهرة، أو كالشمس لا يقبلان الظلام.

وثلاثة أمور تكون نتائج: الأول منها: أن تتم النعمة عليك في الدنيا والآخرة، وذلك بأن تكون نفسك راضية مرضية في الدنيا والآخرة، وتلقى الله وتراه، وتقرّ عينك بإسعاد من اتبعك في الدنيا والآخرة.

الثاني منها: أن ينتشر نور نبوتك في الأرض في أيامك وبعد مفارقتك الأرض، وهذه النعمة مغايرة للأولى، فالأولى راجعة لرضا نفسه وبهجتها ولقاء ربها، وابتهاجها في الدنيا والآخرة، وهذه الثانية راجعة لإسعاد الأمم وهدايتهم لأقوم طريق مستمدين من هدايته صلى الله عليه وسلم، فهذه راجعة للعمل، وما قبلها راجعة لبهجة النفس.

الثالث: علوّ هذا الدين على غيره وظهور حقائقه لمن درسه بحيث تطمئن له القلوب، وهذا هو النصر العزيز.

واعلم أن فتح مكة، أو صلح الحديبية، أو فتوح بلاد الإسلام بعده صلى الله عليه وسلم أو غيره كل ذلك آثار للفتح العلمي والكشف الإلهي، فكشف العلوم له صلى الله عليه وسلم أشبه بنهر، وهذا النهر له آثار كثيرة، هكذا آثار انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم، فمنها فتح مكة لأنها من نتائج التعاليم، والتعاليم الدينية أثر من آثار انكشاف الحقائق له، وهكذا صلح الحديبية وهكذا فتح بلاد الإسلام شرقاً وغرباً، كل ذلك فروع لأصل واحد، والأصل الواحد هو انكشاف الحقائق له صلى الله عليه وسلم الذي هو النعمة الكبرى، والكوثر الفائض، وعين الحقيقة، وما سوى ذلك نتائج له، وهذا الرأي الذي اطلعت على مبادئه من كلام الشيخ الدباغ أصل جميع الأقوال.

آثار الفتح النبوي في زماننا هذا

هل لك أن أحدثك أيها الأخ بما جاشت به النفس اليوم بما اطلعت عليه مما فتح الله به على أممنا الإسلامية فتحاً مبيناً، وذلك الفتح من آثار الفتح النبوي.

اعلم أن أمم الإسلام أيام النبوة وبعدها بقليل فتحت البلاد شرقاً وغرباً، وملأت الدنيا نوراً وعلماً، ثم أخذت تضمحل وتنزوي، ذلك أنها أولاً كان أمرهم شورى بينهم، ولكن لما اتبعوا أهواءهم وجعلوا الملك بحسب الوراثة لا بمقتضى الاستعداد؛ نامت الأمم الإسلامية مئات من السنين نوماً عميقاً عقاباً لهم وزجراً، فلما جاء جيلنا الحاضر وعرف الحقائق، وأخذ يتأدّب بما أدّبه الله؛ رجع عما فعله الآباء من الغرور والجهالة والظلم شيئاً فشيئاً، وأخذ الإسلام يظهر قليلاً قليلاً، حتى أقرّت أمم الفرنجة بذلك.

فهل لك أن تسمع ما قاله الأستاذ «لوثروب استودارد» الأمريكي مؤلف كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، فقد جاء في الجزء الثاني منه تحت العنوان الآتي ما نصه:

سيطرة الغرب على الشرق

سيطرة الغرب على الشرق هي القوة الهائلة الشاغلة مكاناً خطيراً في تطور الشرق في هذا العصر، ويسبب هذه السيطرة ما برحت لواقح المؤثرات الغربية تنبث وتنتشر، لا بل تتدفق على كل بلاد، وتطمو على كل رقعة، حتى غدا التغرّب من أكبر عوامل التبدل والانقلاب في العالم الإسلامي حتى وفي الشعوب الآسيوية والإفريقية غير المسلمة، وسنبسط الكلام في موضع قريب من هذا الكتاب على مبلغ ما كان للسيطرة الأوروبية من التأثير الشديد في تطور مختلف الشعوب الهندية غير المسلمة ولكن الاحتراز، الاحتراز أن يؤخذ من هذا أن السيطرة الأوروبية هي السبب والعامل في جميع هذه الاستحالات والانقلابات في العالم الإسلامي، فقد سبق لنا الكلام مبسوطاً، مبيناً فيه كيف أن عناصر المزاج الإسلامي ما انفكت طيلة القرن الأخير ينفعل بعضها ببعض انفعالاً شديداً، فيدثر منها ما يدثر، ويستجدّ منها ما يستجدّ، وتتلاشى قوى وتتولد أخرى، وذلك جميعه على ما نقيم من الوزن لما هو متدفق من العوامل الغربية الطارئة من خارج، إنّما هو بحد ذاته تجدد قائم في الباطن، فعله بالغ كل البلوغ من طبائع ذلك المزاج وعناصره مما لا مندوحة لسنة النشوء والتجدّد عنه، وعلى ذلك فما هو واقع مشهود في العالم الإسلامي اليوم من التبدل والتحول والتطور يجب أن لا يعتبر مجرد محاكاة للغرب وتشبه به فحسب، بل إنّما ذلك هو نتيجة تفاعل العناصر تفاعلاً مكوناً لشيء جديد، وهو الأخذ عن الغرب أخذاً مفرغاً في بوتقة شرقية وفي قالب إسلامي، ويجب فوق ذلك أن لا يغيب عن الأذهان أن الشعوب الآسيوية التي يتألف منها سواد المسلمين ليست كما يقول بعضهم شعوباً متدلية منحطة كزنوج أفريقية والجزائر الأسترالية، بل إنها لذات حضارة بديعة حية منذ القرون الخوالي، حضارة هي نتاج إسلامي صرف، متكوّن من صنع المسلمين وثمرات جهودهم، ومتى ما أخذنا نعتبر ما قد استطاعته هذه الشعوب الإسلامية من تشييد المعالي وفروع ذروات المجد فيما مضى؛ أمنا الخطل بقولنا الآن إننا نستبين خلال هذا الغليان الهائل في العالم الإسلامي تجدداً حقيقياً صحيحاً رائعاً، ولا

غرابة في ذلك إن عاد الإسلام يستعيد من عزه الغابر وعلاه السالف، وهذا تاريخه المجيد شاهد له على ما كان عليه المسلمون قبلاً من الحضارة والعمران.

إن سيطرة الغرب الحديثة على الشرق لا مثيل لها في التاريخ من حيث العظامة والخطورة والمدى والمجال، فما كان لليونان وروميه من قبل من السيطرة المحدودة النطاق على بعض من العالم لا يعدّ بالإضافة إلى سيطرة الغرب اليوم شيئاً مذكوراً، والغريب في حديث هذه السيطرة الغربية أنها بنت خمسة عقود من السنين لا أكثر، بدأ سيلها يتدفق على الشرق منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر، ومنذ ذلك الحين لم تزل وسائلها وأسبابها تنتشر وتعمّ، ذلك كالطرق والمسالك الحديدية والبريد والبرق والكتب والصحف والمجلات، وكشيوع جديد الآراء والأفكار المتوالية الازدياد في كل مصر شرقي، وباتت السفن التجارية تمخر عباب بحور الشرق، وترسو في كل ثغر من ثغوره، وطفقت التجارة تمتد ناشرة وفر البضاعات والأرزاق الغربية في كل بقعة من بقاع الشرق، فتلا ذلك تغير الحال تغيراً سريعاً، فالأمم والشعوب التي ظلت حتى منتصف القرن الخالي تحيا حياة الثلاثين قرناً التي كرّت من قبل، غدت اليوم تقرأ الصحف، وتركب القطار الكهربائي في مغداها ومراحها، وانتسخت العادات والأفكار والتقاليد الشرقية القديمة انتساخاً كاد يكون تاماً، وتبدّلت صور الحياة وأساليبها تبدلاً كبيراً، وسنفصل الكلام في الفصول التالية على ماهية سيطرة الغرب على العالم الإسلامي من جميع وجوهها، جاعلين الكلام في هذا الفصل تمهيداً لما سيجيء.

إلى أن قال: ظلت روح العداء للغرب طيلة القرن الماضي تشتد في مكان ومكان على تفاوت، ولما كانت عوامل التعصب ورد الفعل كائنة على الدوام، فما برح الكره للغرب شائعاً عميماً، بيد أنه على توالي الأيام صار موقف بعض الطبقات من الأمم الشرقية يتبدل ويتغير على مقتضى الزمان والمكان، وقد كان الأحرار المسلمون في بادئ الأمر يتقبلون المؤثرات الغربية أحسن قبول، وقد أسلفنا الكلام في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف اعتزم المسلمون الأحرار اتخاذ القواعد التي جرى عليها الغرب في تقدمه وارتقائه، وجعلها أساساً للقيام بما أنشؤوه من الإصلاح الإسلامي باعتبار جهتيه: الدينية والمدنية. فقد جهد ساسة تركيا الأحرار الذين كانوا يدبرون شؤون المملكة في الربع الأخير من القرن الماضي جهداً كبيراً للقيام بالإصلاح في السلطنة العثمانية، وجهد أحرار غيرهم مثل جهدهم في الأقطار الإسلامية الأخرى في سبيل الغاية عينها، وخير مثال لنا على هذا ما بذله القائد خير الدين باشا في سبيل إصلاح تونس، وإلى القارئ الكريم لباب الخبر: إن هذا القائد المقدام الجركسي الأصل؛ قد استطاع أن يكسب ثقة مولاه الباي، ويتمكن عنده تمكناً كبيراً، فاستوزره وسلم إليه مقاليد الأمور، وفي سنة ١٨٦٠ قام خير الدين باشا بسياحة إلى أوروبا، فطاف في ممالكها، وشاهد صور عمرانها وحضارتها وعاد شديد التأثر من بواهر الغرب وعجائبه، وإذ اقتنع بتفوق أوروبا وسيادتها شاء من صميم قلبه أن ينقل إلى تونس من الغرب الخطط والمناهج والأساليب والآراء مستعيناً بها لإنهاض البلاد وإسعادها، واعتقد أن هذا العمل سهل القيام به قياماً يتلوه تجدد تونس في عهد قريب، ولم يكن خير الدين بغيضاً للغرب، غير أنه قد أيقن كل الإيقان بالخطر المقبل النازل الذي سيحيق بالعالم الإسلامي، خطر السيطرة

والاستعمار متدفقين من الغرب إذا توانت الممالك الإسلامية في الإصلاح الصحيح، فراح خير الدين يبتغي شديد الابتغاء، وملء صدره الوطنية الصادقة، وكله عزم أكيد أن يسوق أهل بلاده وبني قومه في طريق التجدد والعلا والارتقاء، ليبلغوا من ذلك مستوى تستطيع عنده تونس أن تحمي كيانها، وتقوم بالذياد عن حياض حريتها واستقلالها، واقتنع الباي كل الاقتناع بآراء خير الدين وخطط مشروعاته، ففوض إليه تنظيم شؤون البلاد، وأطلق يده لا تعلوها يد في القيام بضروب الإصلاح، فظل خير الدين حقبة من الزمن يجهد ما استطاع في هذا السبيل، مذللاً جميع ما لقيه من المقاومة من قبل الموظفين الرجعيين، غير أن منيته عاجلته باكراً، فانتقل إلى جوار ربه، تاركاً مشروعاته الكبرى دون الإنجاز، فلم يمض على وفاته أكثر من عشرين سنة حتى جاءت فرنسا فبسطت سيطرتها على تونس، وكانت خدمة خير الدين لبلاده على كل حال عظيمة جليلة، منها أنه ألف كتاباً قيماً موسوماً بـ« أقرب المسالك في معرفة أحوال الأمم والممالك »، استنهض فيه همم أبناء بلاده واستفزّهم إلى التجدّد والترقي، وحذرهم من سوء عقبى التواني، فكان لكتابه هذا أعظم تأثير في نفوس الأحرار ورجال الأحزاب الوطنية في الشرق الأدنى عامة، وأفريقية الشمالية خاصة، حيث كان الكتاب يقدّس عند أهل تونس والجزائر، إذ كان باعثاً قوياً على استيقاظ العصبية الجنسية، ففيه استصرخ خير الدين بني قومه لتحطيم الأغلال القديمة، وبسط لهم ضرورة الإقلاع عن الافتخار الفارغ بمجد الماضي، افتخاراً بالغاً حد القعود بهم عن استئناف طلب العلا طريقاً، ودعاهم للوقوف على ما في العالم الغربي من وسائل التقدم وذرائع العمران. ومما أكده في كتابه هذا أن ارتقاء أوروبا وحضارتها في هذا العصر ليسا نازلين عليها عفواً بلا نصب، ولا هما منحة جادت بها الطبيعة لأسباب دينية، بل هما ثمرة التقدم في الفنون والعلوم، واكتناه أسرارها اكتناهاً توفرت معه وسائل الثراء باستخراج كنوز الأرض، وإحياء الصناعة والزراعة والتجارة. وجميع هذا إنّما هو نتيجة استقرار أمرين وسيادتهما في آفاق الممالك الغربية لا ثالث لهما: العدل والحرية. وقد كان العالم الإسلامي في الأجيال الماضية عالم التقدم والفلاح والعمران، لأنه كان في بحبوحة من الحرية، سالكاً سبل الترقي والنجاح، ثم أفلت شموسه فأخذ يتخبط في الدجنات. وما زال هكذا حتى أخذ الآن يستعيد من روحه التي كانت فيه من قبل، روح العمل والحرية والارتقاء.

ثم قال: وقد اشتدت روح العداء للغرب واشتعلت نارها أيما اشتعال منذ أول القرن الحالي. قال أحد عظماء المسلمين قبيل الحرب العامة في هذا الصدد: إن هذه الدواهي التي دهتنا، والنوازل التي نزلت بالعالم الإسلامي خلال العشر سنوات الأخيرة، قد جدّدت في أعماق جميع المسلمين عواطف التآخي والتواثق الإسلامي، من حيث أشعلت صدورنا مقتاً وكرهاً وعداء للبغاة المعتدين علينا.

إلى أن قال: بقيت الحقيقة الثابتة يجب أن تقال: إن سيطرة الغرب السياسية على الشرق وإن طال أمدها ما طال، وتبدلت صورها وأشكالها ما تبدلت؛ هي قائمة على أساس متداعي الأركان، متضعضع الجوانب، سريع التقوّض والتزلزل، وما دام المتسلطون الغربيون في الشرق فهم فيه أجانب غرباء، قد يلقون من الشعوب الشرقية شيئاً من الاحتمال والاحترام الآخذين بالتناقص، ولكنهم لن

يلقوا شيئاً من الود والمحبة والإخلاص، ولا غرابة في الأمر ما ظلت منزلتهم أبداً منزلة الدخيل الغريب المقوت المكروه، زد على هذا يجب بالضرورة أن يأخذ الحكم الغربي والسيطرة الغربية يتناقصان ويتقلصان ظلًا ويخفان وطأة بازدياد تقدم الشعوب الشرقية واتساع نطاقها في الارتقاء، ولا يعزبن عن البال أن الذي كان عند أهل جيل سالف داعية للرضا والارتياح؛ قد غدا عند أهل الجيل التالي سبباً للتهجم والنقمة والاضطراب، فيبتغون تبديله والانتقال إلى ما هو خير منه وأفضل، هذا هو من أسباب الانقلاب السريع في الشرق.

على أن السيطرة السياسية الأوروبية على الشرقيين قد شرعت تهي، وأخذت أوصالها تتفكك وبناؤها يتداعى، وضعفها الكامن فيها يبدو مزداداً، وفسادها يظهر. جميع ذلك منذ الحرب الروسية اليابانية، فقد كان لتلك الحرب في نفوس المشارقة قاطبة من التأثير المعنوي الشديد ما لا يستطاع وصفه ولا يعلم حده، وقد ظل الشرق حتى ذلك اليوم لا حول له ولا قوة حيال أوروبا المعتدية عليه، وكان كثير من الشرقيين حتى عهد تلك الحرب يقولون بأن لا مناص لبني أوطانهم من الخضوع لسيطرة الغرب المسلحة خضوعاً مشؤوماً، غير أنه لما دمرت دولة آسيوية دولة أوروبية من الطراز الأول، وخضدت شوكتها، ودقت عنقها دقاً، كان لذلك دوي هائل ووقع عظيم في كل جانب من جوانب المشارق، ورقعة من رقاعها، فادت آسيا وأفريقيا من أقصاهما إلى أقصاهما طرباً، وجرت في عروقهما نشوة الظفر وحميا النصر، وعدوا الانتصار الياباني العجيبة العظمى، والآية الكبرى.

وصف مبشر اسكتلندي ما كان لهذا النصر المبين من شديد التأثير في نفوس سكان الهند الشمالية حيث كان مقامه فقال: قد اهتزت الهند الشمالية فرحاً وابتهاجاً، وترنحت ترنح الثمل الجذلان، وبات القرويون فضلاً عن أهل المدن والحواضر يرددون أحاديث النصر الياباني في حلقات مجالسهم ومجتمعاتهم ويرتلونها ترتيلاً، طوافين الليل كله حول المعابد والهياكل، وقد قال لي أحد شيوخهم في تلك الغضون: لم تتلق الهند نبأ طابت له نفسها مثل هذا النبأ الياباني منذ الثورة الهندية، وأخبرني قنصل عثماني أقام طويلاً في آسيا الغربية أن الأهالي في داخل البلاد تركوا جميع أعمالهم، وجعلوا لا يهتمون بأمر سوى ارتقاب الأنباء اليابانية وتلقيها والتهلل وإقامة محافل الأفراح لها، أجل، ما دامت آسيا من أقصاها إلى أقصاها، وانقلبت هجعة القرون استيقاظاً، فاستيقظت الحياة ثانية في الشرق توّاقة لمغامرة الأهوال في سبيل بقائها، وهبت آسيا هبة أخرى لتسطر لها في التاريخ ذكراً جديداً ونبأ حديثاً.

ومما لا يحتاج إلى برهان أن الحرب الروسية اليابانية لم تكن الخالقة المبدعة لهذه الروح الجديدة في الشرق، الروح الممتدة أصولها إلى أبعد الأزمنة الخالية، والمصاحبة لجميع الأدوار والعصور حتى اليوم، بل إن الحرب هذه إنّما كانت وسيلة عارضة لا علة في تنبه آسيا وأفريقيا تنبه الاعتزاز، فراحتا منذ سنة ١٩٠٤ تجدّان جدّ الواثق بنفسه، الساعي في مطلب أمر لا يلوي على شيء دونه، وبسبب هذه الحرب طفقت الأفكار التي كانت تتمخض في أدمغة الملايين من أهل الشرق تمخضاً لم يشعر به من

قبل تمام الشعور، تخرج من عالم القوة إلى عالم الفعل، فدلّ ذلك دلالة واضحة لا يسع مكابراً إنكارها، على اختمار الأسباب والعوامل، وتهيؤ العلل لانبثاق قوى جديدة في الشرق، هي حركات التجدّد الكبير والانقلاب العظيم.

أضف إلى ما تقدم أن هذا الشعور والاستيقاظ قد أثرا تأثيراً عميقاً في قضية الشرق وتطورها إزاء سلسلة حملات الاعتداء الأوروبي التي استؤنفت منذ ذلك الحين استئنافاً شديداً، ومن الغريب العجيب أنه بعيد أن ظفر الشرق الأقصى في رد عادية الاعتداء الأوروبي عليه ذلك الظفر الكبير، لسرعان ما أخذت حملات الاعتداء الأوروبي تتوالى على الشرقين الأدنى والأوسط تمزقهما بمخالب الوحشية والبربرية شر ممزق، وقد وصفنا فيما تقدم من الكلام تلك الزأرة الهائلة التي زأرها العالم الإسلامي متماسك الوحدة المعنوية، مترابط العروة الأدبية الفريدة المثال، عندما أنشأت السياسة الأوروبية الحديثة تنقلب غاية في الجشع والنهم، فلذلك جدير بنا الآن أن نعلم علماً صحيحاً مبلغ ما كان لظفر اليابان من عظيم التأثير في هذه الحالة الحديثة الظهور العجيبة في جميع الأقطار الشرقية، من المعلوم أن الشأن الخطير الذي مثله الساسة الغربيون الغلاة أصحاب مذهب الفتح والتوسع الاستعماري بين سنة ١٩٠٤ و١٩١٤م إنّما كان في دور عصيب. قال أرمينيوس فامياري بعد غزوة إيطاليا لطرابلس الغرب قولاً سديداً: كلما اتسع نطاق قوة متسلطة الغرب في العالم القديم «الشرق» ازدادت رابطة الوحدة وثاقة، وعروة التضامن والمصالح المتبادلة إحكاماً بين الأمم والشعوب الآسيوية على اختلافها ورسخت روح التعصب على أوروبا والبغضاء لها، وتوغلت عواما ذلك في قرارات صدور المشارقة أيما توغل، أمن العدل والحصافة في شيء يا ترى أن نرى نار العداء تزداد تأريثاً وإيقاداً بسبب هذه الحملات العدوانية المحضة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وأن نستعجل العالمين الشرقي والغربي للاشتباك في نضال هائل، ومعمعان رائع، وأن تنفث سماً زعافاً في برعم الحضارة الآسيوية الجديدة، هذا البرعم الذي أخذ يتفتح عن أكمامه في أقطار الشرق كافة.

وقال في صفحة ٥١ وما بعدها ما نصه: وقد سبق لنا في مواضع تقدمت فأبنا كيف ظهر العرب يشتعلون بنار الإسلام، فأنشؤوا خلافة منيعة الجوانب قائمة في عهدها الأول على أساس الشوروية والشريعة الدينية، وأوضحنا أيضاً كيف طرأ الاستبداد على الدول، ثم أخذ ينتشر حتى طبق غالب العالم الإسلامي، وكيف انقلبت الخلافة الشرعية الشوروية ملكاً عضوضاً، وسلطنة استبدادية مطلقة وكيف أخذ العرب عشاق الحرية والاستقلال يعودون أدراجهم إلى الصحراء غضاباً متجهمين، وكيف تلاشت الحرية السياسية والدينية، وعفت آثارها، غير أنه على كل هذا بقي معظم ذكريات خلافة الراشدين والمعتزلة الحرة حية في زوايا الأدمغة، وألواح الذاكرة، مستعدة استعداداً طبيعياً غريباً للظهور ثانياً. بسبب ذلك ظلت بلاد العرب حوض حرية يذود عنه كل عربي ذياد قرّح الأبطال بالسلاح والأرواح والدماء، وهناك في شبه الجزيرة لم يبرح العرب عرباً والإسلام إسلاماً، فمن ترى يستطيع أن يتعامى عن القول الذي قاله صاحب الرسالة: «إنّما المؤمنون إخوة» و«المسلمون أحرار»

وعما هو مدوّن في صحف التاريخ الإسلامي في غرر أنباء صدر الإسلام العجيب المعروف بزمن السعادة، أوَلم يظل المسلمون الأحرار، النازعون نزعة الاستقلال، حتى في أشد الليالي حلكاً، يرددون عالياً خطبة الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه التي خطبها في العرب بعد مبايعته الخلافة: قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإذا استقمت فأعينوني، وإذا زغت فقوّموني. فالإسلام في عهده الأول إنّما كان شمس الحرية مشرقة وهاجة، وديناً تجلت فيه المنازع الحرة الشريفة، وليس ما طرأ على العالم الإسلامي فيما بعد من الوهن والتدلي بحاجب عن المنصف جوهر الإسلام وحقيقة صفائه، فالشريعة الإسلامية كما قال العلامة «ليسبار»: إنّما هي ديموقراطية شوروية، جوهراً وأصلاً، وعدوّ شديد للاستبداد. وقد أجمل «فامباري» هذه الحقيقة في شأن الإسلام بقوله: ليس الإسلام ولا تعاليمه السبب المفضي بآسيا الغربية إلى هذه الحالة المشهودة من التضعضع واختلال الشؤون، ولكن السبب كل السبب في ذلك إنّما هو استبداد أمراء المسلمين وحكامهم الذين التووا عن الصراط المستقيم والسبيل السوي، وتنكبوا عن طريق صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين، فأخذوا في انتحال التأويل القرآنية انتحالاً منطبقاً على أغراضهم الاستبدادية، وتشددوا في الدين تشدداً باطلاً بريئ منه الإسلام، وناصبوا المذاهب الشورية والأصول الحرّة العداء، فقضوا على جميع ذلك قضاء، فحالوا دون بزوغ النهضة الإسلامية.

وقد أبنا في الفصل الأول من هذا الكتاب كيف ظهر الاستبداد الشرقي، ثم أخذ يتعاظم حتى بلغ منتهاه في القرن التاسع عشر، وبسطنا الكلام على أن اليقظة الإسلامية لم يكن أمرها مقصوراً على الإصلاح الديني فحسب، بل تناولت الإصلاح السياسي أيضاً، ورامت تخليص العالم الإسلامي بأسره من استبداد أمرائه وملوكه وسلاطينه العسفة الظلمة، ونقول الآن: إنه بينما كان الإصلاح السياسي الحر سائراً مسيره على اتساع في الحركة والانتشار؛ فإذا بتيار سياسي جديد قد هبّ عليه من جوّ أوروبا، فاعترض سبيله وقام في وجهه، وكان أهل الفكر والرأي من المسلمين وقد أيقنوا بحال تضعضع الشرق الإسلامي وتشتت أمرهم حيال تقدم أوروبا وشدة حولها وبأسها، طفقوا يسعون وراء الإصلاح، متذرعين بأنجز الذرائع للوصول إليه، وإذا راموا صدق المسعى، وابتغوا التجدد الحقيقي؛ فلم يغرب عن بالهم أن بلوى الشرق الإسلامي إنّما غالبها مستقر في حكوماته المنحطة التاعسة الواهنة العظم، وشارك الأمراء الحكام أهل الفكر وطلاب الإصلاح في هذا، وكلهم أجمعوا على وجوب انتهاج المناهج والأساليب السياسية الغربية، واكتناه أساليبها، والوقوف على جميع أسرارها، هذا إذا كان مرادهم حقاً انتشال الممالك الإسلامية من وهدة انحطاطها، وتنجيتها من شر المهالك، ثم سوقها في سبيل التقدم والارتقاء، وقد كان السلطان العثماني محمود الثاني في تركيا ومحمد علي في مصر خير مثالين ظهرا بالطراز الجديد من سلاطين الشرق وأمرائه، وكلاهما كان حكمه في أوائل القرن التاسع عشر. غير أنه ليس منهما من أراد أن يمنح رعيته الحرية الدستورية، أو أن يربأ بنفسه عن امتطاء الحكم المطلق فيخرج عنه إلى الحكم المقيد، بل عوّل على كل منهما على أن

يظل الحاكم المطلق بحيث يكون فيه وسطاً بين حالة المستبدين العادلين الأوروبيين، والمستبدين الشرقيين، وكان قصد هذين الحاكمين الكبيرين طالبي التقدم والنهوض، تنظيم الحكومة في الجيش والخدمة المدنية والقضاء وغير ذلك، تنظيماً صحيحاً خالياً من المفسدة والعيب، كما يتسنى للحكومة هذه أن تسير بنفسها وفعل نظامها سيراً مطرداً كسير الحكومات الغربية، لا أن تظل كناية عن طوائف من الموظفين والعمال لا يعرفون شيئاً من رقابة النظام، ولا يقومون بواجب إلا خشية العقاب.

وثابر محمود الثاني، ومحمد علي، ومن عاونهما على ذلك من الأمراء على انتهاج منهج هذه السياسة الرشيدة الحديثة، غير أنه على الجملة كانت ثمرات هذا الإصلاح الذي بدئ بعاليه وظاهره قبل أساسه وباطنه غير مرضية ولا داعية للارتياح، ولا جرم، فإنه قد كان في استطاعة السلطان أو الأمير ابتناء القلاع، وإنشاء الدوائر والخطط الحكومية على الطراز الأوروبي، وحشدها بالجند ورجال الوظائف والأحكام المتزيين بأزياء غربية، غير أنه لم يكن بالمستطاع الإتيان بنتيجة مثل تلك التي تأتي بها الحكومات الغربية، لأن معظم هؤلاء الموظفين المتظاهرين بصفة أبناء الغرب يكادون في الواقع لا يعلمون شيئاً من أسرار تقدم الغرب وارتقائه، وأسباب حضارته وعمرانه، فلذلك كانوا عجزة عن القيام بالأعمال على الطريقة الغربية الصحيحة، لأنه ليس فيهم الكثير الكافي من روح الإقدام والمضيّ في العمل، ولا هم يقبلون من أنفسهم على اتباع نظم وأساليب عملية لم يفقهوها، ولا ألفوها، بل كانوا يحملون نفوسهم على مؤالفة الأعمال الإصلاحية عن فتور وتراخ، وخير ما كانوا يعرفونه ويقومون به هو الطاعة العمياء لأمر مولاهم وسلطانهم، هكذا كانت الحالة في بدء الأمر، بيد أنه على توالي الأيام أخذت القوى العسكرية تنتظم معنى ومادة على تدرج مستمر، حتى غدت بعد مدة من الزمان على جانب من الكفاية والجدارة الحديثين، وأما الخدمة المدنية فكان نصيبها من الإصلاح الحديث قليلاً، فظل أمرها مقصوراً على اكتساب المظاهر الغربية من خارج، لأنها لم تنل كثيراً من أسرار المعاصرة والجدّة التي هي شرط لازم في حال كل حكومة منظمة راقية.

أضف إلى هذا أنه في غضون ذلك طفق المصلحون الجدد الذين يختلفون مذهباً وطرازاً عمن سبق ذكرهم يقومون أحزاباً مؤلفة، وغايتهم إنّما هي اقتباس جميع المبتكرات السياسية الغربية كالنظم الدستورية وحكم الشورى ومجالس النوّاب وغير ذلك مما باتت تتطلبه الحياة السياسية الحديثة بطبيعة الحال، وكان عدد هؤلاء يزداد ازدياداً متوالياً من المتهذبة الأحرار المتشبعين أفكاراً وآراء غربية، اقتبسوا بعضها بمطالعة الكتب والنشرات والصحف والمجلات المتزايدة الانتشار، وبعضها الآخر تلقوه بأسباب التعلم والتهذيب في المعاهد العلمية المنشأة على الطراز الغربي، وما كاد يكون الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى نشأت الأحزاب السياسية في تركيا نشوءاً محسوساً، وفي سنة ١٨٧٦ هبت الأحزاب الحرة هذه ورفعت صوتها عالياً، وأكرهت السلطان الضعيف على منح الدستور. انتهى ما أردته من كتاب «حاضر العالم الإسلامي».

هذا أيها الذكي ما وقر في صدري في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١]

وهذه صورة
ملخص
هذا المقام:

أولاً: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢] وهي: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]
ثانياً: الهداية العلمية النبوية التي استمدت منها الأمة إلى هذا الزمن وهي قوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]
ثالثاً: النصر وعلوّ هذا الدين بالحجة على سائر الأديان وهو: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]

انكشاف الحقائق ويتفرع عليه

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ينتج منها: إشراق النفس وهو أسّ انكشاف الحقائق

بهجة هذا المقال: مسامرة النجوم في عجائب العلوم

استيقظت قبيل الفجر ليلة الثلاثاء العاشرة من شهر نوفمبر سنة ١٩٣١م، الموافقة سنة ١٣٥٠هـ وقد قدمت سورة «الفتح» للطبع، وأنا مفكر في عجائبها، دهش من بدائعها، إذ سنحت لي سانحة، من نظرات النجوم، في حالك الليل البهيم، فأشرقت نفسي إشراقها، وأخذ الخاطر يبدو بعد الخاطر، ونما الفكر حتى صار قوياً، ويستمر ينمو حتى تخيلت أمامي بشراً سوياً، جسمه من النور، وأنا إذ ذاك بين اليقظة والنوم، إذ صرت في عالم الخيال، بعيداً عن الحس، مصروفاً عن عالم الأجسام، فأخذ يحاورني وهو يقول: لقد لمحتك تنظر الكواكب الآن، وأنت تفسر القرآن، فحضرت لمعونتك، ومثلت لإفادتك.

لقد فسرت الفتح بالكشف العلمي، وجعلت ذلك أشبه بشجرة ذات أغصان، جذورها المغفرة والبراءة من الذنوب، وصفاء النفوس، وساقها انكشاف الحقائق، وفروعها الاستقامة بالأخلاق والنصر المبين والرضوان، أفلا أحدثك الساعة في هذا المقام حديثاً، تكميلاً لمقالك، وتعليماً للقراء: إن هذا المثل الذي ضربته وهي الشجرة ينقصه تبيان أتمّ، وتعليم أهمّ. فقلت في نفسي متعجباً: من أين أقبل هذا الخيال؟ ولعل خواطرنا إذا نمت وعظمت تجسمت أمامنا، وإلا فهذه الخواطر لا تخرج عن تفكيري، ولا تحود عن تقديري، فما كاد الخاطر يتردد في نفسي حتى أخذ يقول: إني أتيت إليك من الثريا في السماء، لأنك في أكثر الليالي تنظر إلى النجوم، وتعجب من محاسنها، فصار ذلك من أسباب اقترابي منك، وإسعادي لك، وحديثي معك، إن انكشاف الحقائق الذي ذكرته وما ترتب عليه من الفروع المذكورة يعوزه من العلم نوعان:

أولاً: تطبيق آراء الأمم الحاضرة عليه، ليكون تفسير القرآن في زمانكم ملائماً لعلوم أممكم حتى تقبل على علومهم الموافقة للإسلام نفوس الأمم الإسلامية، وحتى يكون من المعجزات والآيات

البينات في زمانكم، وكم قال علماؤكم: إن القرآن لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه، وتبدو له في كل زمان حكم طريفة، وبدائع حديثة، لتزداد معجزاته، ويزداد أنس العلماء به.

ثانياً: تطبيق أحوال الأمم الإسلامية الماضية بعد العصر الأول، وكيف حصل اختلالها، وازداد اختباطها، وأقبل هرمها، وأدبر شبابها، وحلك ليلها، لما عميت عن اكتناه السر المكنون، واتباع طريقه المرسوم.

فقلت: أيها السيد الجميل الجليل، إن في قولك لنوراً، وفي حديثك لنبأ، فأفدني رحمك الله عما وصفت، وأخبرني عما أفدت، فقال: أما تطبيق آراء الأمم حولكم فأنا أنقله لك مترجماً بالحرف مما كتبه الغربيون في التعاليم لتلاميذهم، إذ يصفون من العلم زبده، ويجعلون تلك الخلاصات في كتب المطالعة، وهاهي ذه قطعة لخص فيها القوم مقاصد التعليم في جميع الأمم، وفي كل زمان ومكان، والكتاب الآن بين يديك وهو من الكتب التي يدرسها التلاميذ في المدارس الثانوية، فهاك قطعة من الكتاب منقولة من كتاب «مان ذي ماستر بس» تأليف الأستاذ «كلوج»، وهذه القطعة من مختارات الترجمة، فهاأنا ذا أترجمها لك:

مقاصد التعليم

إن مقاصد التعليم لا تعدو أن تكون معدّة للمرء أن يستخرج جميع مواهبه في الحياة. يجب أن يكون تعليم الإنسان الذي يزاول الأعمال الجسمية معدًّا له أن يكون كفئاً لها جديراً باستثمار ما هو بصدده من الأعمال الإنسانية ومرافق الحياة خير استثمار.

إن نظام التعليم يقوم على ثلاث دعائم وهي: دعامة العمل، ودعامة الأدب، ودعامة الجسم. وكل نظام تعليمي خلا من أحد هذه الدعائم الثلاث فإنه لا محالة مضمحل لا بقاء له ولا نفع فيه لنوع الإنسان. مثال ذلك: إذا علمنا الصبي صناعة كالنجارة، أو علماً كالهندسة، ولكننا لم ننمّ فيه قوة حب الخير العام، فيحب الصدق، والإخلاص، وطهارة الضمير، والصلاح والعدل، وصدق القول، وحب المنفعة للناس، ومعاشرتهم بالحسنى، فإننا إذ ذاك نكون قد أعطيناه سلاحاً ماضياً به يصبح ماهراً في إحداث الشغب، ويكون خطراً على المجتمع الذي تربى فيه، وهكذا إذا برع في العلوم، وتهذبت نفسه وملكها، وصار من البررة الأخيار، فإن كان في العلم فهو من أعاظم الحكماء، وإن كان في الأخلاق فهو على سنن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولكننا أغفلنا تربية جسمه ولم نقوّ عضلاته، ولم نحسن تغذيته بما يناسبه، ولم نحمه مما يكون ضرراً عليه، فإن هذا يعوزه قوة طبيعية، وأخرى حيوية، ليتوصل بهما إلى منافع الحياة والتمتع بها، ويعوزه جسم حديدي هو بلا مراء في أشد الحاجة إليه ليخاطر به ويجاهد في معترك الحياة. انتهى.

ثم قال: فهل لك أن أحدثك عن تطبيقها على الآية. فقلت: إني إلى ذلك وامق. فقال: أنت حينما كتبت الجدول الذي رسمته في ملخص الآية وجدت أنه هو نفسه هذه المقالة، لذلك حضرت إليك، فالقوة العلمية من القوى الثلاث يشار إليها بانكشاف الحقائق في الآية، والقوة البدنية يشار إليها بالنصر على الأعداء. ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾[الفتح: ٣]، إذ لا يكون إلا بقوة البدن في الغزوات

والقوة الأدبية الأخلاقية يشار إليها بقوله: ﴿ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[الفتح: ٢]. إذن خلاصة تعليم الأمم المحيطة بكم اليوم هي نفس هذه الآية، فقوة الجسم، وقوة العلم، وقوة الأدب، هي المعول عليها في زمانكم.

ثم ضرب مثلاً فقال: إن الأمم الإسلامية أشبه بجسم واحد رأسه في زمن النبوة، ورجلاه في الأزمان المتأخرة، فهذا الجسم الإسلامي قد أعطي القوى الجسمية بدليل غزواتهم، وأعطي القوة الأدبية بدليل نظام ممالكهم، وأعطي القوة العلمية وهي الدين والعلوم فعاشوا إلى حين. ثم أخذ هذا الجسم يضعف شيئاً فشيئاً، وأخلاقه تنحط، وعلمه ينقص. وهاهنا آن أن أذكر:

تطبيق الآية الثاني على الأمم الإسلامية

إن هذا الجسم الإسلامي أخذ يرجع القهقرى شيئاً فشيئاً، فانظر كيف يقول ابن خلدون في مقدمته ما خلاصته: أن هنا أمراً أصلياً وله فروع، أما الأصلي فهو الدين، فإذا رأيت أمة وأسرة تحب أهل الصلاح والتقوى والدين، وتغرم بذلك، فإن هذه الخصلة يتبعها فروعها، وهي الأخلاق الفاضلة من العطف والشفقة ومساعدة العجزة الضعاف، والفقراء، والعدل. ويتبع ذلك سياسة الأمم، وحفظ الدولة، ونظام البلاد، وهذا قانون لا ناقض له.

فإذا رأيت قبيلاً أخذ يرجع القهقرى في سياسته، فابحث في أخلاقه، فإنك تجد العطف والشفقة والرحمة والعدل قد أفل نجمها، ثم ارجع وراء ذلك تجد العقيدة الدينية أخذت في الانحلال، وأصبح القوم ينظرون إلى الدين نظرهم إلى أمور غير مجدية، فلا يحبون الصالحين، ولاهم لهم يعظمون. إذا علمت هذا فانظر كيف يقول: إن المسلمين لما قاموا فاتحين بالدين واستمسكوا به، بقي ملكهم، فلما خلعوا رقبته، تقلص ملكهم، وذهبت ريحهم، وأصبحوا حصيداً خامدين، فالكلام على الدين، ومعه العلم طبعاً هو القوة العلمية، والكلام على رحمة الضعفاء والعدل إلى آخر ما تقدم هو القوة الأدبية، فأما القوة الجسمية فإن لها شأناً آخر، وهو كلام النبوة، وذكرته أنت في سورة «النمل» عند الكلام على آية: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾[النمل: ٣٤] مع آية: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾[النمل: ٥٢] إلى آخره.

فهناك أولاً حديث: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا» الخ، وذكرت هناك أن بقية الحديث في سورة «الأنفال»، إذ صرح صلى الله عليه وسلم بأن الغنائم وفتوح البلدان وإن كان خيراً للنفوس الصالحة فإنه يكون شراً للنفوس الفاسقة الجاهلة، فإن نفس الغنائم تكون سبباً للترف والنعيم، ثم يعقبه الذل، ثانياً: قال صلى الله عليه وسلم: «كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى، ووضعت بين يديه الصفحة ورفعت الأخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة. قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم، نكفى المؤونة ونتفرغ للعبادة. فقال: بل أنتم خير منكم يومئذ». اهـ.

إذن الترف والنعيم الحاصلان من فتوح البلدان يضعفان الأبدان، والأبدان هي الدعامة الثالثة. إذن الدعائم الثلاث للتعليم في كلام علماء أوروبا نظير الدعائم الثلاث في آية «الفتح»، وصدق

تطبيقها فعلاً على الأمم الإسلامية، فهم أولاً كانوا أقوياء علماً وأدباً وجسماً، فدام ملكهم، فلما وقعوا في الترف ضعفت الأجسام وذهبت الآداب، وقلّ الدين، فذهب الملك.

إذن ظهور هذه المعاني اليوم معجزة القرآن في هذا الزمان، وقبل أن أختم حديثي معك أيها الجوهري أقول لك: إن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[الفتح: ١] الخ نضرب له مثلاً بقول القائل: يا فلان، إن الله ألهمك الصلاة لتنظف بدنك، وتناجي ربك، ولينشرح صدرك، فالوضوء من شروط الصلاة يتقدمها، والآخران في نفس الصلاة وبعدها، هكذا هنا المغفرة أي عدم وقوع الذنب متقدم على الفتح كالوضوء، والبقية مصاحبة أو متأخرة عن الفتح كمسألة الصلاة المتقدمة، فإن المناجاة فيها، وانشراح الصدر فيها وبعدها، ثم إن الاستقامة والنصر وانكشاف الحقائق المقابلات لأعمدة العلم الثلاثة في كلام الأمم المعاصرة لكم؛ تكون نتيجتها السعادة في الدنيا والآخرة، وهو المعبر عنه في الآية بقوله: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾[المائدة: ٦] وهي الرضوان، والرضا هو تمام السعادة. اهـ.

فما كاد يتم حديثه حتى أفقت من غشيتي واستيقظت من سنتي وفتحت عيني، إذا نور الفجر مشرق والمؤذن يقول: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فكتبت ما وعيت، وقلت: الحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الثلاثاء ١٠ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

تذكرة

ثم بعد ما كتبت ما تقدم، واسترحت قليلاً، أجلت فيه النظر، وأخذت أقرأ القطعة الإنجليزية، إذا بالترجمة هي عينها، غاية الأمر أنها أوضح من الأصل الإنجليزي بضرب بعض الأمثال، ثم أخذت أفكر في الأعمدة الثلاثة المتقدمة، وجال فكري في مباني الإسلام الخمس، فماذا وجدت؟ وجدت أن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، ووجدت أن هذه الأفعال وما ماثلها من السبق والرمي، المشروعين في الإسلام، المقوين للأبدان وعضلاتها، متروكات منذ قرون، لجهل الأمم العجمية التي قامت بدين الإسلام بعد العرب بمقاصد هذا الدين، حتى إنا أيام دراستنا بالأزهر كنا نقرأ السبق والرمي ولا نعمل بهما اتباعاً لأسلافنا، وجهلاً بديننا، وجدت الحج والصيام كلاهما مقويات الأبدان كالصلاة، فالحج فيه كثير من الحركات، والصيام فيه تصفية الجسم من العفونات، اقرأ هذا المقام في أول سورة «العنكبوت» تجد ما للصيام الطبي من الفوائد، وهو الذي شرع ما يقرب منه دين الإسلام وقد قال رئيس أطبائنا بمصر في خطبته السنوية في الثقافة العلمية في هذه السنة: إن الحيوانات لها أيام تصوم فيها إذا مرضت. والناس غفلوا عن ذلك، انظر ذلك في الكتاب السنوي الثاني الذي أصدره المجمع المصري للثقافة العلمية سنة ١٩٣١م أي هذه السنة.

المسلمون يصلون، ويصومون ويحجون، ولكن إذا عرفوا فوائد تلك الحركات لم يحصل تهاون فيها، ولم نر كثيراً من أهل العلم في بلادنا تاركين للصلاة جهلاً بمقاصدها، وغفلة عن حقائقها. فهذه مجامع التربية الجسمية في ديننا، وهي إحدى الدعامات. يقول علماء التربية حديثاً: ليس المدار في حركات الجسم على رفع الأثقال، بل المدار على مقدار الحركات، ويجب تحريك كل عضو مرات كافية ليحصل المقصود. ولقد جعلوا خير الرياضات رياضة المشي، لأنها تحرك جميع الأعضاء، ولما

طبقها بعض علماء التربية المسلمين على حركات الصلاة دهشوا وقالوا: قيام، فرفع يدين عند الإحرام فركوع مع رفع اليدين، فرفع الرأس مع تحريك اليدين، فسجود، فجلوس، فسجود آخر، فقيام، ثم جلوس للتشهد، ثم تعاد الحركات فتكرر. هذا أعظم نموذج للتمرينات الجسمية. هذا ما سمعته من علماء التربية في زماننا، ولكني ليس أمامي نص الكتاب، ومتى وقع في يدي الكتاب بهذا النص أثبته إن طالت الحياة.

المسامرة الأولى

حدثني تاجر بيع الخشب بالمرج، كنا نشتري منه لسواقي مزرعتنا بتلك الجهة، قال: لقد جاءتني سيدة ألمانية لبعض الأعمال التجارية، فرأتني أتوضأ وأصلي، فسألتني: ما هذا؟ فقلت: صلاتنا، وشرحت لها ذلك شرحاً كافياً في الصلوات الخمس، فأظهرت الدهش وقالت: إذن أنتم لا تمرضون. فلما قص عليّ القصص قال: وما السر في قولها؟ قلت: هذه سيدة متعلمة في بلادها، وهم يدرسون علم التربية البدنية والحركات المصلحة للأجسام، فهي متشبعة بذلك، وبأن غسل الأعضاء في أكثر أوقات النهار ضرورية لإزالة ما علق بالجسم من الذرات المؤذيات الموجبات للأمراض. فلما رأت ذلك أدهشها أننا قوم جهلاء، نفعل هذا ونحن عنه غافلون، وبهذا لا تقربنا الأمراض. انتهت المسامرة الأولى.

المسامرة الثانية

كنت جالساً في بلدة المرج عند الضابط الذي هناك، وكان هناك بعض أعيان البلاد، وقد وقد دار الحديث بينهم على امرأة ألمانية أيضاً، لأن لها بعض المشاكل القضائية التي أوجبت معرفتهم بها. فهاك حديثها:

قالوا إن فلاناً ـ سموه باسمه ـ من بلدة كذا في مديرية القليوبية، وقد سافر إلى ألمانيا، وتزوج هذه الفتاة، وحضرت معه، فلما رأت أباه وأمه العجوزين يتوضأان ويصليان قالت لهما: ما الخبر؟ فقصا عليها قصص الإسلام وقواعده، فأسلمت حالاً، وداومت على الصلاة، وقالت: هذا خير دين، هذا دين عجيب. فأما زوجها فإنه بقي على حاله، أي: هو مسلم لا يصلي.

نظرتي في أمم الإسلام المستقبلة

إن أمم الإسلام المستقبلة سيقرؤون هذا وأمثاله، وحتماً سيسارعون إلى قراءة تلك العلوم، وستكون صلاتهم غير صلاة آبائهم في العصور الأخيرة، فهم لا يدخلون فيما قال الله فيهم: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾[النساء: ١٤٢]، وإنّما لا يكسلون لأنه فتح لهم باب المعرفة، فأدركوا سر الحركات، فهم إذ ذاك يصلون بمحض المحبة لا بالخوف، كما يفعل أكثر المسلمين في الأعصر الأخيرة، ويقولون إذ ذاك: إذا كنا نحن المسلمين نستعمل حركات الجسم المشابهة لحركات الصلاة، اختياراً منا لا خوفاً، وذلك لأجل صحتنا، فليكن ذلك الاختيار والقيام بالحركات المذكورة في الصلاة أولى، لأن فيها تقوية الجسم، وهذه إحدى الدعائم الثلاث في التربية العامة، وفيها تذكر علم الأخلاق والمحبة العامة، بطلب الهداية والاستقامة في «الفاتحة»، وفيها الدعامة الثالثة، وهي ذكرى تثقيف

العقول بالحمد لله رب العالمين، ويذكر المصلي في سجوده وركوعه السمع والبصر وعجائبهما، وفي ذكره السماوات والأرض في أول افتتاح الصلاة وهكذا.

وسيقولون أيضاً: إن العلم سيجعل عبادتنا لله مبنية على المحبة لا على الخوف، والعبادة على سبيل المحبة هي المجدية النافعة، أما عبادة الخوف فإنها أدنى منها مراتب ودرجات، إن الإنسان إذا أكل الطعام وهو مقتنع بفوائده ازداد صحة، وكل عمل يعمله المرء وهو راغب فيه يكون أكمل وأعظم وأدوم، وهذه هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

يقول المسلمون بعدنا: إن آباءنا لما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ونسوا ما ذكروا به؛ أخذوا يدرسون القرآن بلا عقل، فلا علم، ولا تهذيب، ولا قوة جسمية، لذلك ذهب ملكهم، وزال سلطانهم وهانحن الآن في مبدأ حياة إسلامية جديدة نجدّد ما هدمه الأولون، فمن ذلك هذه المسامرة الثالثة:

المسامرة الثالثة

لما اطلع على ما تقدم صاحبي الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير قال: لقد عوّلت على أن أصل الفتح إنّما هو الفتح العلمي، وجعلت الفتح بالسيف تابعاً، وهذا حسن، فأرجو أن تزيد المقام أيضاً بمثال معروف تهنأ به النفوس وتهش له. فقلت: ألم يكفك أفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم. ألم يكن قوله وتعليمه قبل نشر سلطان الإسلام؟ قال: بلى. قلت: كفاك ذلك. فقال: ولكن أريد مثالاً يكون قريب المتناول، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليه الناس نظرة يشتمّ منها أنهم يقولون نحن لسنا مثله، فهو مؤيد بالوحي والقوة، أما نحن فلا، فإذا أتيت بمثال غيره يكون ذلك أقوم قيلاً، وأهدى سبيلاً وأحسن منالاً، وأقرب مثلاً، فقلت: إن أمم الإسلام ما حفظت ملكها إلا بالعلم، فلما زاد علمهم زاد ملكهم. فقال: هذا كلام عام. فقلت: إن مسلمي الهند كانوا هم أصحاب الأمر والنهي في البلاد إلى نحو القرن الثامن عشر، ولكنهم كانوا جهلاء، فلما احتل الإنجليز البلاد وحاربوهم غلبوهم فأصبحوا ضعفاء في البلاد لا حول لهم ولا قوة، فلو كان عندهم علم لم يسلب منهم الملك، فعدم الفتوح العلمي هو الذي أورث زوال ملكهم. قال: وهذا أيضاً كلام إجمالي. فقلت: إذن فلأسمعك ما جاء في تاريخ تأسيس كلية عليكره، فإن ذلك يكفيك. فقال: حدثني رعاك الله حديثها. فقلت: إن السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره أخذ يقدم الفتح العلمي لينتقل منه إلى الفتح العملي كما فعل صلى الله عليه وسلم. فقال: أرجو إيضاح المقام. فقلت:

جامعة عليكره، وعملها العظيم في الهند

ألقى الأستاذ فخر الدين أحمد مسجل جامعة عليكره محاضرة نفيسة في هذا الموضوع على جمع كبير في جمعية الشبان المسلمين ونحن نترجمها فيما يأتي:

حضرة الرئيس، حضرات الأعضاء، أيها السادة:

إني أشكر الله على أن أتاح لي فرصة التكلم الليلة إلى رجال الحاضر وسادة المستقبل. وآسف إذ لا أستطيع الكلام بلغتكم العربية التي هي أيضاً لغتي، لكن لو كنتم مكاننا في الهند، وكنت أنا مكانكم لاعتذرتم إليّ كما أعتذر إليكم. على أنه لا داعي لأن أعتذر عن موضوع المحاضرة، فقد اخترت

موضوعاً يحبه المسلمون في الهند، وأرجو أن تكونوا ممن يحبونه. ذلك الموضوع هو عليكره. وهو اسم أرجو أن يكون معروفاً لكم، فإننا في الهند نعرف الأزهر، وقد كدت أقبل الأزهر حين ذهبت لزيارته. وفي الهند من يقبل عليكره.

إن عظمة عليكره تقوم على شيئين: الأول: أنها أعطت الهند المثل العليا في التربية التي لا بد منها لمن يريد أن يعيش، والثاني: وهو أهمها، أنه لولا عليكره لما كان في الهند اليوم مسلمون تسمعون عنهم، ويسمع لهم. كان يكون هناك مسلمون، لكن مسلمون لا يأبه أحد بهم ولا يقام لهم في شؤون الهند وزن.

أما اليوم فإن المسلمين ـ وإن فقدوا في الهند حكاماً، وإن كانوا أقلية في الهند ـ فإن لهم منزلة فيها لا يستحيي مسلم أن يذكرهم أو يذكرها، ذلك بفضل جامعة عليكره التي هي أهم ما يملك المسلمون في الهند بعد أن فقدوا الحكم. وستكونون أقدر على تبين صدق هذا القول إذا عرفتم شيئاً عن حال التربية في الهند قبل عليكره:

كان المسلمون حكام الهند قبل أن يذهب الإنجليز هناك، وكانوا حكام الهند لما ذهب الإنجليز هناك للتجارة. وقد مكث الإنجليز في الهند تجاراً نحو ٤٠٠ سنة انتشرت فيها التربية الحديثة، ولكن بين غير المسلمين، لأن المسلمين اتكلوا على أنهم هم الحكام، وظنوا أن لا حاجة بهم إلى تعلم العلوم التي تنفع التاجر والصانع وما إليها من طلاب الرزق أو طلاب القوة، لأن القوة كانت بأيديهم والحكم كان لهم. هذا طبعاً خطأ كبير، ولكنه خطأ وقع فيه المسلمون. فلما فقدوا حكم الهند في القرن الثامن عشر ونزلوا إلى مرتبة المحكوم الذي لا بد له من الجهاد في الحياة، وجدوا أنفسهم لا يحسنون من طرق الجهاد في الحياة شيئاً. كانوا يحسنون طريقاً واحداً هو طريق الحرب. فلما غلبوا في الحرب وزال الملك عنهم وجدوا أثر ذلك في أنفسهم، ولا عجب، وانسدت في وجوههم السبل، ونزلوا إلى درك من الذلة سحيق، لكن كان لا يزال بأيديهم بقية من ثروة ورثوها من أيام الحكم، فعاشوا عليها وإن لم يحسنوا تنميتها، حتى قامت فتنة الهند في القرن التاسع عشر، وهي فتنة كبيرة كان غرضها التخلص من حكم الأجنبي في الهند. لكنها لم تنجح، لأن الذين قاموا بها لم يكونوا أكفاء لها، وكان عاقبة الفشل أن أنزل العقاب بكل من كان له فيها يد، ولم تكن هناك أسرة مسلمة إلا وكان لها في تلك الفتنة يد، فكانت النتيجة أنه لم يبق أسرة مسلمة إلا ونكبت في نفسها أو في مالها، وزال عن كثير من المسلمين حتى تلك البقية من الثروة التي كانوا من قبل يعيشون بها، فأصبحوا في حالة من المذلة والضعف والجهل بأمور الحياة لا يدرون معها كيف يعيشون وصاروا مهددين بالفناء الاجتماعي، عندئذ قيض الله لهم رجلاً من أكرمهم بيتاً وأكبرهم قلباً وأوسعهم عقلاً وأبعدهم همة، هو السيد أحمد خان جاء من بيت مجد، فقد كان أبوه رئيس وزراء وكان جده رئيس وزراء، لكن تلك الأحداث نزلت به كما نزلت بغيره، واضطرته إلى العمل، فلم يفت ذلك في عضده ولم يذهله عن أن ينظر لنفسه ولقومه.

نظر السيد أحمد خان فوجد أن الداء هو أن المسلمين لم يعلموا أنفسهم حين كانوا حكاماً، وإذن فالدواء هو أن يتعلموا الآن، إذ صاروا سوقة:

شعر السيد أحمد في سنة ١٨٦٥ أن لابد للمسلمين من أن يسلكوا طريق التربية العلمية إن كانوا يريدون أن يحتفظوا بوجودهم وألا يفنوا بغيرهم، ولا تكفي التربية العلمية وحدها، بل لابد من أن يحافظوا مع ذلك على ثقافتهم الإسلامية وآدابهم، ومن أين لهم الجمع بين التربية العلمية والثقافة الإسلامية، ومعاهد التربية الحديثة في الهند كلها معاهد غير إسلامية، عندئذ أيقن أن لا بد للمسلمين من جامعة علمية إسلامية، وأجمع العزم على أن يؤسسها لهم، لكن كيف والصعوبات في سبيله كثيرة؟ هناك مثلاً صعوبة المال، فإن الجامعة لا تقوم إلا على مال كثير، وهناك صعوبة اللغة، فإن اللغة الأردية لغة المسلمين لم تكن لغة علم للسبب الذي ذكرت لكم، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير في ترجمة أو في مصطلحات، لأن الخطر كان عظيماً قريباً، وكان لا بد للنجاة منه من عمل حاسم سريع. قلب السيد أحمد خان الأمر على وجوهه فرأى أن ليس لمشكلة المال حل إلا التدرج، يبدأ بمدرسة ولو في كوخ ويترقى بها كلما ترقت وسائله حتى تصير كلية، ويترقى بهذه حتى تصير جامعة، أما مشكلة اللغة فلم يكن لها حل إلا أن يتخذ اللغة الأوروبية العامة في الهند لغة لمدرسته أيضاً ولكليته بعد إذا صارت المدرسة كلية، ولجامعته إذا صارت الكلية جامعة، إذن عندئذ يمكن أن تتفرغ الجهود لاكتساب العلوم والفنون الميسورة في تلك اللغة، لكن اتخاذ اللغة الإنجليزية لغة للتعليم في مدرسته يعرضه لسخط طائفة الملايين المسلمين، وعامة المسلمين هم طوع هذه الطائفة، أي: طائفة شيوخ الدين بين المسلمين في الهند. ومن الطبيعي أن يكره المسلمون، شيوخاً وغير شيوخ، لغة الذين أذلوهم وسلبوهم الملك وصيروهم إلى ما صاروا إليه، وأن يسخطوا على من يريد إدخال تلك اللغة في أي معهد إسلامي، فضلاً عن جعلها لغة التعليم فيه، لكن لا بد مما ليس منه بد، فقد كان ذلك هو الطريق الوحيد للنجاة من الفناء، وإذا سخط الشيوخ في الأول فسيدركون إذا تبينت لهم حقيقة الموقف أن الداء عضال يحتاج إلى دواء قد يكون الكيّ، وسيحمدون في الآخر من أعدّ لهم الدواء وإن سخطوا عليه في الأول، هكذا فكر ذلك الرجل الفذ السيد أحمد خان، وهكذا قرر، فأسس مدرسة في بضعة أكواخ عدد طلبتها نحو اثني عشر، وميزانيتها حوالي ٤٠٠ جنيه، لغتها الإنجليزية، وثارت عليه ثائرة الشيوخ، ثائرة كثير منهم، فإن هناك شيوخاً وشيوخاً. ففي الشيوخ رجال تعنو لهم الجباه إجلالاً عن استحقاق، ولكن فيهم أيضاً من لا يتجاوز نظرهم حاضرهم، ولا يحكمون إلا عاطفتهم مع غلوّ في هذا التحكيم، وهؤلاء لقي منهم السيد أحمد خان أذى كثيراً، ولكنه كان متوقعاً ذلك، وموطناً النفس على تحمله، لأنه كان يعلم أن خيره وخيرهم، ومستقبله ومستقبلهم، بل مستقبل الإسلام نفسه متوقف على المضيّ فيما استخار الله فيه وعزم عليه.

هكذا يا حضرات الإخوان: بدأت جامعة عليكره، والآن هي من أكبر الجامعات في الهند ميزانيتها ٦٠٠٠٠ جنيه وطلبتها ٢٢٠٠ طالب.

أسس السيد أحمد خان جامعة عليكره سنة ١٨٧٥ وفي سنة ١٨٨٢ أي بعد سبع سنوات فقط من تأسيس عليكره، ألفت حكومة الهند لجنة تبحث مسألة التربية في الهند، فكان رأيها الوارد في تقريرها أنه إذا اتبع في الهند مثل عليكره فستحل مشكلة التربية الوطنية في الهند. فعليكره كانت الرائد

الذي شق للهند طريق التربية الوطنية، والذي أعطى الهند فكرتها عن التربية القومية. قال السيد أحمد خان: إن مناهج التعليم والسياسة العامة في التعليم والتربية، يجب أن تكون بيد جامعة أو جامعات أهلية لا بيد الحكومة، لكن لا بد لمثل جامعة عليكره الأهلية الإسلامية من الانتفاع بتجارب الجامعات التي سبقتها إن كانت تريد أن تحقق الغرض الذي أسست له، وغير المسلمين انتفعوا بتجارب الجامعات الأوروبية، فلماذا لا ينتفع المسلمون بذلك أيضاً في تحقيق أغراضهم الإسلامية؟ عندئذ رأى السيد أحمد خان أن يسافر ليزور جامعتي كمبردج واكسفورد ليرى نظامهما بعينه ويختار منه الصالح، وذهب معه ابنه القاضي الكبير السيد محمود، وهو أول من تولى القضاء من الهنود، ودرس المسألة هناك عن كثب، فوجد بعد الدرس والتفكير أن مجرد مرور الامتحانات لا يستحق أن يكون مثلاً أعلى للطالب، وأن مجرد منح الدرجات لا يصح أن يكون غاية عليا للجامعة، لكن تربية الخلق، تربية الشخصية، تكوين الرجال، هو الذي ينبغي أن يكون الغرض والغاية. وقرّ رأيه إذن على أن يجعل غاية جامعة عليكره تكوين الرجال وتخريج القادة، أي: تربية النشء الصالح من المسلمين وتحويلهم إلى رجال ينهضون بأعباء الأمة الإسلامية في الهند، ثم تخريج قادة يستطيعون أن يحسنوا قيادة الهنود المسلمين. هذا كان أهم ما ينقص المسلمين في الهند، وقرّ رأي السيد أحمد خان على أن يجعل غاية جامعة عليكره سد هذا النقص.

لكن تكوين الرجال القادة يصعب جداً إذا كان الطالب يفقد خارج الجامعة ما يكسب داخلها، أو بالأحرى إذا كانت الجامعة تلك هي غايتها لا تشرف على الناشئ إلا في جزء من يومه وتترك الباقي للظروف والمصادفات، فقر الرأي على أن تكون الجامعة داخلية يعيش الطالب فيها كما يعيش في بيته، ويعيش بين أساتذتها كما يعيش بين أهله، واقتبس السيد أحمد من كمبردج واكسفورد نظامهما في ذلك، واستعان بطائفة من كبار أهل العلم والتربية أمثال السير رالي والمستر توماس أرنولد من الإفرنج، والدكتور نظير أحمد، وشبلي النعماني، وخوجة ألطاف حسين حالي، فجاء بهم إلى عليكره، وأسس فيها الحياة التعاونية التي يعيش الطالب فيها بين أساتذته في الجامعة كما يعيش بين ذويه، يعلمونه في ساعات العمل ويهذبونه في ساعات اللعب، وينصحونه من قريب ويلحظونه من بعيد، قاصدين في ذلك كله إلى أن يجعلوا منه رجلاً يحسن الجهاد في الحياة. ومن الطبيعي أن لا يقدر على نفقات هذه التربية إجمالاً إلا أبناء الخواص من المسلمين، أي: أبناء الطبقة الوسطى على الأقل، أما الفقراء فالنابغ منهم يستطيع دائماً أن يحصل من الجوائز المالية على ما يمكنه من القيام بنفقة تلك التربية. وليست نفقتها من الفداحة على ما قد يسبق إلى النفس أول الأمر، فإنها تبلغ خمسة جنيهات في الشهر، وهو مبلغ ليس في الحقيقة بكبير إذا قيس بمثله في مثلها من الجامعات.

والحياة الرياضية الجامعية كانت أيضاً مما اقتبسه مؤسس جامعة عليكره من الحياة الجامعية في أوروبا. فالألعاب الرياضية المختلفة تلعب فيها، ولا تنسوا أن ذلك كان شيئاً جديداً في حياة الجامعات في الهند في القرن التاسع عشر، وقد تفوقت عليكره على الخصوص في لعبة الكريكت، وظل فريقها خير فريق في الهند لمدة طويلة.

فأنتم ترون يا حضرات السادة أن جامعة عليكره لم تهمل ركناً واحداً من أركان التربية، فهي تقوم على التربية العقلية في أوقات العمل، وعلى التربية البدنية في أوقات اللعب، وعلى التربية الخلقية في جميع الأوقات، ترون أنها بذلك كله قد أعطت الهند مثلاً عالياً في التربية القومية، ونجت المسلمين من الاندثار المحقق الذي كان يهددهم بما بصرتهم به من أمور الحياة وبما خرجت لهم من قادة وكونت لهم من رجال. وليس من رجل مسلم له مقام أو كلمة مسموعة في الهند إلا وكان طالباً في عليكره أو متصلاً بها بطريق ما. فالمرحوم مولانا محمد علي كان من طلبتها، ومولانا شوكت علي من طلبتها، وهذا المحاضر الفقير من طلبتها، وهي لا تجد بين المسلمين رجلاً ذا مواهب إلا وتعهدته وانتفعت بمواهبه بأن تختاره رفيقاً لها مثلاً أو تنتخبه عضواً في مجلس شيوخها الذي هو مجلس إدارتها أو مشرفاً على ماليتها، فالقاضي السيد محمود ابن السيد أحمد خان، أو بالأحرى ابن السير السيد أحمد خان، قد منح لقب سير اعترافاً بخدماته للعلم بتأسيسه تلك الجامعة، هو من شيوخها، والسيد حسين بلجمي عماد الملك هو من المشرفين عليها، فبفضل الله وبحسن الإخلاص في سبيله نجح ذلك العمل العظيم. ولعلكم الآن أقدر على إدراك صدق ما قلت لكم في أول كلامي من أنه لولا عليكره لما كان في الهند اليوم مسلمون. إنكم خارج الهند لا تدركون كيف كان يشعر المسلمون بعد أن خرج حكم الهند من أيديهم. ونحن الآن نعرف أن المسلمين كانوا يكونون اليوم في الهند خداماً أذلة لو لم يقيض الله لهم ذلك الرجل الذي أسس تلك الأكواخ التي صارت بعد كليات ثم صارت بعد جامعة. إن المسلمين أقل عدداً من الهندوس لكنهم استطاعوا بفضل الله وحسن توفيقه أن يحتفظوا بوجودهم، وأن يكون لهم قول مسموع في شؤون الهند وفي شؤون التربية في الهند.

لكن السير سيد أحمد كان يرمي بتلك الجامعة إلى ما هو أبعد من ذلك. كان يرجو أن تصير يوماً ما منار العلم والتربية في الشرق الإسلامي كله. كان يرجو أن يكون مثلها كمثل الشجرة الطيبة المذكورة في القرآن: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] وكان يرمي إلى أن تكون رسول العلم والمعرفة والتسامح في الشرق، تسير فيه وبإحدى يديها الفلسفة وبالأخرى العلم الحديث، وعلى رأسها تاج لا إله إلا الله محمد رسول الله، تدعو المسلمين إلى المجد، وتشق لهم طريق العز وتبصرهم بالحياة، فقد كان رحمه الله كما ذكرت من قبل لا يرى أن الجامعة بعدد طلبتها ولا بما تمنح من درجات، ولكن بما توسع من دائرة العلم وتنقص من دائرة الجهل بما تقوم به من أبحاث وما تنشر من ثقافة حقة، فذلك الرجل الذي لقبته صحافة لندن لما توفي سنة ١٨٩٨ بنبيّ التربية؛ كان يريد بتلك الجامعة أن يؤسس مركزاً عاماً تنتشر منه الثقافة العلمية الإسلامية في الشرق الإسلامي كله، وقد تحقق من حلم السير سيد أحمد شيء كثير، فإن الكوخ قد صار الآن جامعة ثابتة، لكن بقيت مسألة التوسع، أي: التوسع في الجامعة، حتى تصير ذلك المركز الثقافي الإسلامي العام، والعقبة القائمة اليوم في سبيل هذا التوسع هي المال، فقد كانت جامعة عليكره في صميمها جامعة فنون إلى الآن يدرس فيها من العلوم ما لا يحتاج إلى مال كثير مثل الرياضة. وليس معنى ذلك أن العلوم لا تدرس فيها، ففيها يدرس من العلوم الطبيعة والكيمياء والرياضة والنبات والحيوان، لكن جامعة

عليكره ممتازة في الفنون، وتريد أيضاً أن تمتاز في العلوم، وهذا يحتاج إلى توسع كبير في المعامل، والمعامل كبيرة النفقة تحتاج إلى المال، والمسلمون اليوم ليسوا من أهل الغنى الذي يجعلهم يستطيعون أن يمدوا عليكره بالستمائة ألف التي تحتاجها من الجنيهات لهذه الغاية، لكن على رأس عليكره اليوم رجل من خير المسلمين وأبعدهم همة هو الدكتور سيد راس مسعود، أو نواب مسعود يارجنك كما يلقبونه تكريماً، وهو حفيد السير سيد أحمد خان وابن السيد محمود، وقد استطاع في سنة ونصف أن يدبر لها ثلاثين لكاً من الروبيات أو نحو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه.

لكن عليكره على ما هي عليه ورغم حاجتها هذه إلى التوسع شيء عظيم. هي على ما هي عليه تستحق أن يؤمها من الطلبة المصريين طلاب الفنون الأدبية على الأقل، فلماذا لا تؤمونها؟.

ليس هذا دعوة خطرة إلى الجامعة الإسلامية، إنّما هذا كلام بسيط يصح أن يقوله أي مسلم، فإن المسلم يجب أن يعرف أخاه المسلم. وإذا كان الهنود يأتون إلى مصر إلى الأزهر، فلماذا لا يأتي المصريون إلى الهند إلى عليكره؟ إنكم إذا أتيتم عليكره ستجدون شيئاً لا تجدونه في مصر. إن في مصر جامعة حقاً، ولكن اسمحوا لي أن أقول إنها جامعة حديثة، والجامعة لا تنفع نفعها إلا إذا كان لها تقاليد صحيحة ثابتة، والتقاليد الصحيحة الثابتة لا تتكون ولا تقوم إلا في سنين كثيرة، وقد مرت على جامعة عليكره هذه السنون الكثيرة، وقام فيها كل ما ينفع المسلم من التقاليد الثابتة الصحيحة، تقاليد تجمع بين الثقافتين: الثقافة الإسلامية التي قامت على القرون. والثقافة الحديثة التي جاء بها العلم الحديث. فلماذا لا يأتي إليها المسلمون في مصر بدلاً من أن يذهبوا إلى أوروبا في طلب ما تستطيع عليكره أن تمدهم به؟ إني أرجو أن يفعلوا بعد اليوم. وأرجو على كل حال أن لا تنسوا عليكره، وأن تكبروا ذكرى عليكره، فهي التي نجت الإسلام في الهند، وهي التي جعلت من المسلمين في الهند قوماً أعزة وأمة مهيبة، بعد أن كادوا يكونون أخلاطاً عبيداً، ولست أجد أولى بي وقد فرغت من المحاضرة في عليكره وعملها العظيم في الهند من أن أسألكم أن تقرؤوا «الفاتحة» لروح مؤسسها، وأن تسألوا الله المعونة والتوفيق لحفيده القائم على رأسها اليوم. تمت اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١].

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾

اعلم أن عصر الصحابة رضوان الله عليهم كان عصر أنوار نبوية، وإشراق نور النبوة عليهم كان يلقي الطمأنينة في قلوبهم، وفي كل يوم يزدادون منها بما يرون من مشاهدة الآيات الإلهية، ظاهرة على يد حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا جرم أن الله عز وجل معنا أينما كنا، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤]، وهو الذي ملأ السماوات والأرض بجنود تظهر العجائب على أيديها، وفي كل يوم تظهر للمفكرين في هذه الدنيا أنوار وأنوار، فالمسلم اليوم يزداد إيمانه بنور النبوة الموروث، وبعجائب أمم الإسلام من حيث اجتماعها اليوم بعد التفرق وانتشار الدين في أقطار المسكونة بلا حرب ولا ضرب، ولا دولة تحميه، ولا خوف من أحد، فهذه كلها تزيد المؤمن إيماناً، بل إن حال انتشار

الإسلام اليوم يضاهي حال انتشاره أيام النبوة، فهذا وحده يزيد الإيمان، فأما المفكرون والحكماء فإنهم يزيدون فوق ذلك إيماناً بما يدرسون من العجائب كالتي جاءت في هذا التفسير. وإذا كانت سكينة بني إسرائيل وطمأنينتهم أيام طالوت، إذ التابوت الذي انتهبه منهم أعداؤهم، وكان فيه بعض مخلفات موسى عليه السلام، قد رجع إليهم، فكانت هذه من أمارات صدق النبوة والوحي الموحى الذي وصل إليهم عن علمائهم، فهذه لا تورث إلا التصديق المبني على الظواهر من خوارق العادات وما يشبهها وهذه مقدمة للمباحث الحكمية التي هي أرسخ قدماً، وأعلى في السكينة كعباً، فهكذا هنا كانت السكينة في قلوب المؤمنين أولاً بما يرون من عجائب النبوة وغرائبها في كل زمان بالمشاهدة، أو بقراءة الآثار، ثم يزدادون سكينة وطمأنينة بعجائب الحكم الإلهية التي لا حد لها ولا نهاية كالتي في هذا التفسير.

مسامرة

اعلم أن مثل المسلم الذي لا علم عنده كمثل الطبيب الذي أكبّ على التطبيب والجراحة ومداواة المرضى، ونسي المسكين صحة جسمه، فانتابته الأمراض، وأحاطت به مهلكات القوى وقواطع الحياة، وإنهاك أعضائه، فتراه مصفر الوجه، خائر القوى ضعيفاً، هزيلاً خامداً.

وسبب ذلك أن علم الطب قسمان: قسم هو علم صحة الأبدان وتدبيرها، والمحافظة عليها، وإنعاش قواها، باستنشاق الهواء النقي، والتمرين العضلي، وأفضله بإجماع أطباء زماننا المشي في الهواء النقي مع كثرة استنشاق الهواء في الخلاء، والجلوس في الشمس، معرّى الجسد في بعض الأوقات ساتر العورة والرأس، محافظة عليها، وأكل ما لم يطبخ من الخضر، وأكل الفاكهة، وهكذا مما سبق في هذا التفسير، وما يأتي قريباً، وهذا أفضل القسمين.

القسم الثاني: وهو قسم المداواة، وهذا يقوم به الطبيب، فإذا أهمل الإنسان صحة جسمه بترك علم تلك القوانين فإنه يقع في المرض، فيتلقاه الطبيب العالم بالأمراض الباطنية، أو بالجراحة أو بمرض العين، أو الأذن والأنف وهكذا.

فأكثر أطباء زماننا هم من القسم الثاني، ينسون القسم الأول ويهيمون بالثاني، لأنه هو الذي به يكون الربح والكسب والثروة والغنى، فينسون أنفسهم وهم غافلون، ومثل هؤلاء علماء الدين في كل أمة من أمم الأرض، فهم غالباً كالقسم الثاني من الأطباء في زماننا، فهم دائماً لا يعرفون إلا ما كان من الأحكام الظاهرة المقابلة للأدوية، فكما أن الطبيب في القسم الثاني يقول للمريض: خذ الملح الإنجليزي أو الصودا أو المغنيسيا، أو ملح الفواكه، لإسهال المعدة، ولا يذكره قط بالهواء النقي، ولا بنوع المآكل التي يجب أن يتعاطاها، ولا يخطر بباله ذلك. فهو كالمرضع والنائحة المأجورتين، فهذه ترضع ولا تبالي بالرضيع، وهذه تبكي وليس في قلبها أدنى حزن على الفقيد، هكذا عالم الدين غالباً لا همّ له إلا أن يحصر أقواله في نواقض الوضوء وأحوال الحيض والنفاس، وما أشبه ذلك، ولا يرفع أعين العامة إلى السماء، ولا يشرح لهم شيئاً من عجائب الطبيعة، لأنه هكذا تعلم، وهكذا يعلم، فهو عن العلم بالله محجوب، وعلى الأعمال الظاهرة مكبّ، وأمة تعيش بالعمل وتغفل عن العلم أي العلم بالله وبعجائب صنعه، مثلها كمثل النمل في مساكنها، طائعات عاملات ناصبات جاهلات.

إن دين الإسلام علم وعمل، المسلم هو الذي يقرأ في افتتاح كل صلاة: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فهو يقرؤها، فإن كان من المفكرين أخذ بطريق الاعتبار والفهم أنه يكون ممن قال الله فيهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، والإمامة الحقة لا تكون للمقلد الغافل، وإنّما الإمامة تكون للمفكر الذي يدرس النبوة وعلومها، وعجائب الحكمة الإلهية، دراسة محقق، فيزداد إيمانه كل صباح، وكل مساء، إذ يوجه وجهه للذي فطر السماوات والأرض، حتى يرى ما يدهش عقله، ويعجب من هذه الدنيا التي تظهر لنا عابسة وهي في الحقيقة باسمة، وينظر في آثار الله فيجد ظواهرها مملوءة بشوك القتاد، وعند التحقيق لا شوك ولا قتاد، ورحمة الله تتجلى، والجمال يبهر عقولاً وعقولاً، وإن أبيت إلا الإفصاح، لتسكن نفسك أيها الأخ، فاعجب لما تراه قريباً في اللطيفة التي بعد هذه من دماميل وقروح في أجسامنا وحمى، فنحن ننظر إليها نظرة المسكين المتألم الذي أصابه الضر، ولكن علم الطب ـ كما سيتضح لك قريباً بأجلى بيان ـ يقول لك: كلا. وهل الدمل إلا قلعة بناها جنود الله القائمة في جسمك؟ وهي ذوات حياة حقيقية وعقل، ولما بنت هذه القلعة المخروطية الشكل حصرت فيها المكروبات الداخلة فأهلكتهم وأفنتهم، فكان القيح والصديد رمم الأموات من الفريقين: الفريق الوطني والفريق المهاجم، ويقول: إن الحمى تقرب من هذا، فإن الناس لما جهلوا الحمام الشمسي، والحمام البخاري، أو حمام الماء الساخن والمشي والتمرينات العضلية ـ وكل واحد من هذه يذهب بالعفونات من الجسم ـ أقول: لما جهلوا ذلك، وهو دواؤهم الوحيد، قال الله لهم: أنا رحيم بكم يا عبادي، أرحمكم بالحمى فأسلط جنودي التي في أجسامكم وهي الكرات البيضاء على جنودي المهاجمة، وهي الحيوانات الذرية التي تحمل في أجسامها السم وتفرغه في أجسامكم، فيحمى الوطيس، والقنا تقرع القنا، وموج المنايا متلاطم، فيقع كثير من الفريقين صرعى، وتكون الأشلاء منهما هو الصديد كما تقدم، وهذه جنود الله في أجسامنا المقابلات لجنوده في خارجها، سأشرحها شرحاً وافياً في اللطيفة الآتية، ولكن أذكر هنا نبذة منها توطئة لما يأتي وإجمالاً له، فأذكر على سبيل التمثيل الأسد والنمر ونحوهما، فهذا الأسد من جند الله التي أعدّها لإحداث الحياة تارة، ولإحداث الهلاك أخرى، فهي لذريتها سبب الحياة، وللفريسة سبب الهلاك، ولن ترضع اللبؤة شبلها، أو تنقض على فريستها إلا بما وقر في نفسها من رحمة في الأول وإهلاك للثاني.

إذن هنا مجمل ما سأذكره هناك بهذا المثال، فهاهنا جيش معنوي نوري وظلماني، أي: الرحمة والعذاب، فهذان الجيشان المعنويان مقدمتان للجيشين الحسيين وهما جيش الآساد حين التحنن على ذريتها، وحين افتراسها للظباء والأرانب، فهذا مثل جنود الله في السماوات والأرض.

جسم الأمة كجسم الإنسان

اعلم أنه لا فرق بين جسم الإنسان وجسم الأمة، فإذا جهل المسلمون علوم الأمم، ونسوا الوحدة العامة، كما عمي الجاهل الغافل عن إصلاح جسمه، وترك قوانين الصحة، فإن الله عز وجل

هو الرحيم بهم، فسلط عليهم الأمم من بين أيديهم ومن خلفهم، إذ قال لهم: أيتها الأمم هبوا من رقدتكم، وحاربوا المسلمين، وادخلوا خلال ديارهم، لأني أريد إيقاظهم من طريق الشدة، لأنهم نسوني، ونسوا أنفسهم بطريق اللين، كما نسي الغافل عن جسمه باستعمال الحمام الشمسي، والمشي في الهواء الطلق، وأكل الفواكه والخضر، فرحمته بالحمى ورحمته بالأورام، لأني أنا رحيم، ورحمتي وسعت كل شيء، فأنا أرحم الأشخاص، وأرحم الأمم، وإن كانوا جميعاً يجهلون أنني أرحمهم حين تتابعهم الآلام.

خطاب المؤلف لأمم الإسلام

أيها المسلمون: هذه والله هي ازدياد الإيمان، بل هذه هي السعادة، هذا زمان الحكمة والعلم، هذا هو الزمان الذي قال الله فيه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، وهو الذي قال الله فيه أيضاً: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقال فيه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وبهذا وأمثاله نفهم قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فكيف نوقن بهذه الرحمة إلا بالدراسة! درسنا يا ربنا وفهمنا أن إيلامك لنا لمنفعتنا، رحم الله أستاذي الشيخ حسن الطويل فهو أول من لفت نظري إلى هذه المعاني، فإنه لما عرض في درس اسم الله الجبار المنتقم الخ؛ قال: يا فلان، هذه الألفاظ بحسب الظاهر فقط وإلا فلا انتقام ولا غيره، لأنه منزه عن الغضب كما هو معلوم، ولكن هذه أفعال رحمته، سميت بأسماء مما نعرفها.

وأقول الآن: الله أكبر، بهذا نفهم سراً من أسرار القرآن، ألا وهو قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [مريم: ٤٥]، فهذا عجب أن يكون رحماناً وهو معذب! فالعلوم اليوم ظهرت بعض أسرار القرآن وعجائبه. اللهم لك الحمد على نعمة العلم.

فلما اطلع صاحبي على هذا قال: هذا جمال وكمال وحكمة وعلم، ولكني أريد أن تفهمني عنوان هذه المقالة فإنك سميته «مسامرة»، فأين المسامرة؟ فقلت: إن ما تقدم إنما هو مقدمة لتلك المسامرة، وإن هي إلا نبراس لهذا المقام. فقال: إذن حدثني حتى يتم المقام. فقلت: أعرف طبيباً نطاسياً شهيراً ببلادنا المصرية، فهو في الحكومة المصرية من الأطباء المشهورين، وله في منزله عيادة خاصة، وهذا الطبيب لي به علاقة، وهو أنه كان تلميذي بالمدرسة الخديوية في اللغة العربية قبل أن يدرس علم الطب، وهذا الطبيب قابلته منذ ستة أشهر في عيادته، فرأيته ضعيفاً هزيلاً نحيفاً، فأزعجني ما رأيت. ووجهت إليه اللوم الكثير على ترك صحته التي بها يقدر على مداواة المرضى، فأخذ يقول لي: إن أصدقائي يأتونني في وقت فراغي فلا أقدر على ردّهم وترك إجابتهم، فشددت عليه النكير، وقلت له: لا بد من النظام، ولا بد من مراعاة صحتك مراعاة تامة، وقلت له: إنني بعد مدة لا بد سائلك عن هذا كله، فعجبت إذ قابلته منذ ثلاثة أيام في هذا الشهر أكتوبر سنة ١٩٣١م وهو قوي البدن نشط، فسلم علي وبادرني بقوله: هذه نصيحتك، وأشهد على ذلك طبيباً كان معه، وقال: ألست تراني أرفض العمل في وقت رياضتي؟ فقال: نعم. فسررت من ذلك كثيراً وانشرح صدري، وليس هذا بأول

من تصديت له من الطبقة المتعلمة من إخواني المصريين. ومما قلته له في هذه المقابلة: إذن عملت بـ «الهايچين» كما قمت بـ «المدِسِن»، والأولى كلمة معناها علم الصحة، والثانية كلمة تدل على علم المداواة. فقال: نعم.

وهذه المسامرة هي المنطبقة تمام المطابقة كما قدمنا آنفاً على حال المسلمين الذين لا يعرفون إلا علم الفقه، فهؤلاء الآن يقيناً قد قاموا من رقدتهم، واستيقظوا من غفلتهم، وقرؤوا العلوم، وأنا أحمد الله عز وجل إذ أن الأزهر الذي تعلمت فيه خطا خطوات في هذا السبيل، وهكذا بقية بلاد الإسلام، وهذا التفسير من مقويات تلك الحركة في عالم الإسلام، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فقال صاحبي: حسن هذا المثال، وجميل هذا التنظير، ولكني أريد أن تربط موضوع السكينة كله بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١]، فهل في هذه السكينة فتح؟ وأيّ أنواع الفتح هو؟ فقلت: حياك الله، أنا ذكرت لك أن الجنود أربعة أقسام: معنوية وحسية، وكل منهما جنود للإهلاك وجنود للإحياء، ولا جرم أنه صلى الله عليه وسلم قد فتح الله عليه فتحاً علمياً بإظهار الحقائق له، فأفاض على الناس بما يحتملون، فهذا جيش معنوي نوراني تبعه جيش حسي وهم الغزاة المجاهدون.

ثم إن ما فتح الله به الآن من العلوم لنا نحن الأمة الإسلامية مثل ما اتضح في هذا التفسير وفي غيره من بواهر العجائب إن هو إلا أنوار المعرفة وبها تطمئن قلوب وقلوب، وتسكن للحقائق كمسألة الأمراض التي جعلت لمصالحنا لا لإيذائنا، فهذه حقائق واضحة لم تكن لتعلم للعموم إلا في زماننا، أما قبل ذلك فإنها كانت خاصة بأناس اصطفاهم الله، ولم يبيحوا للناس بعلمهم، لأن الناس لم يكونوا مستعدين، وهذه جيوش علمية نورية تتبعها جيوش إسلامية حقيقية لقيادة أهل هذه الأرض من أمم الإسلام، لأنهم خير أمة أخرجت للناس، ومتى كان اجتماعهم مبنياً على ظهور الحقائق لهم كالشمس في رابعة النهار، فإنهم لا جرم تكون قيادتهم لأنفسهم والأمم أكمل وأتمّ، وإذن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. إذن الفتح العلمي في زماننا كالذي ظهر في هذا التفسير من مضمون قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: ١]، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[النور: ٤٦]. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

اللطيفة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

اللهم إني أحمدك حمداً يوافي نعمك، ويكافئ مزيدك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، جلّ وجهك وعزّ جاهك، لا إله إلا أنت، وكيف يكون للعالم إله غيرك ونحن ننظر فنرى كلامك في كتابك كفعلك في خلقك، ونراك خلقت من كل شيء زوجين: الذكر والأنثى، والسالب والموجب، والغالب والمغلوب، والعالم والجاهل، والحيّ والميت، والذكيّ والغبي، وهكذا، لم نجد لهذه القاعدة شاردة وشاذة، بل هي مطردة، أوَليس من العجب أن غزوات النبوة كغزوة الفتح وغيرها من الغزوات، وجميع حروب هذا العالم الإنساني لها نظائر في أجسامنا.

يا سبحان الله، إن الله يقول هنا: ليس جندكم في غزوة الفتح وغيرهم هم جندي وحدهم، كلا، بل لي جنود في السماوات وجنود في الأرض، أدبرهم بحكمي وأنظمهم بحكمتي، وكل هؤلاء قائمون بما عليهم وعملهم نافع لحياتكم وحياة غيركم، فكما أنكم جئتم لهذه الأرض ومعكم نبيكم تحاربون الكفار الجهال المفسدين في الأرض، الذين لم تكن لهم جامعة تجمعهم، ولا رابطة تربطهم، بل هم قوم مشتتون، فبعضهم تبع بلاد الفرس والأكاسرة، وبعضهم تبع بلاد الروم والقياصرة، فحاربتم هذه الأمم بإرشاد نبيكم، وتريدون إدخالهم في جامعتكم الإسلامية، فتصبح الأمم جسماً واحداً صحيحاً، فهكذا كان فعلي في أجسامكم، إن جسم الإنسان مقياس للجسم العام للإنسانية كلها، فالكرات البيضاء في الجسم وما معها من جنود الجسم كلها تقاتل وتحارب أعداء هذا الجسم، وتنتصر عليها وتقتلها، وإلا فلا جسم للبشر، ولا حياة له ولا بقاء.

وما كدت أصل إلى هذا المقام حتى حضر صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: هذا حسن جداً، ولكنه كلام غامض، إن المحاربين في الأرض لهم آلات وقلاع وأعمال عجيبة، وأين الكرات البيضاء المذكورة، وأين الحرب المشهورة بين الأمم؟ فقلت له: حياك الله وبياك، إن الحرب في جسم الإنسان تشابه الحرب التي نراها بين الأمم سواء بسواء، والنوع الإنساني لا يزال في حرب وضرب حتى يصبح أمة واحدة، ويصبح كله كتلة واحدة، يحارب الطبيعة المحيطة به، لينال منفعتها، فالغزوات المحمدية فتح باب لرقي الأمم، والناس الآن يحاربون حربين: حرب مع أنفسهم، وحرب مع الطبيعة، والغزوات الإسلامية مبدأ لإزالة العناصر الضارة بالجسم الإنساني كما تغزو الكرات البيضاء واللمفاوية وغيرهما الحيوانات الطارئة على الجسم الضارة به، حتى إذا لم يبق في الإنسان شقي ولا أثيم أصبحت الإنسانية كلها جسماً واحداً تحارب الطبيعة حولها بإذن ربها، فكأنها إذ ذاك في زمن السلم العام الذي بشر به القرآن في سورة «القتال» المتقدمة، بلعمة واحدة تبتلع غيرها ولكن هذا الغير ليس من جنسها.

حينئذ قال صاحبي: أنا الآن أصبحت في عجب، كلامك جميل، وبيانك بديع، به عرفنا أن لله جنوداً بطريق السمع، وأنت فصلت بعضها وهي التي في الجسم البشري، ولكن القرآن كتاب عربي مبين، وكلامك وإن كان حسناً فيه التباس من وجهين: الأول: أن هذه الجنود التي في جسم الإنسان لم تتبين بالتفصيل حركات كرّها وفرّها، وغدوّها ورواحها، وأسلحتها ومحاصرتها، وقلاعها وثكناتها، وانهزامها وانتصارها، وخنادقها، وسمومها القتالة. والثاني: أنك ذكرت البلعمة واللمفاوية، فهذه كلمات ليست عربية والقرآن سهل، فإذا لم يكن التفسير أسهل من القرآن فلا يكون تفسيراً، بل تعسيراً، وقد عهدناك فيما سبق من هذا التفسير تذكر ما سهل على الناس فهمه، وعظم نفعه، فقلت له: أيها العزيز، إنني لم أذكر الحرب والضرب والجهاد، ولا البلعمة واللمفاوية إلا وقد أعددت لها عدّتها، وأحضرت معي مقالاً أذكره في هذا المقام. فقال: إن كان من مقالك فأنت لست من علماء التشريح، وإن كان من مقال غيرك من علماء التشريح فإنهم لا يقدروا أن يصفوا حرب الميكروبات والكرات البيضاء وصفاً ينطبق على الحروب المعلومة لنا، حتى يخرج قارئ التفسير من المقال وقد

أيقن بأن لله جنوداً غير جنود الإنسان، يشاهد كرّها وفرّها. فقلت: إنك حصرت الكلام في مقامين: وهذا الحصر منقوص بمقام ثالث. فقال: بيّنه لي؟ فقلت: إن الكلام لطبيب مصري، وهو الذي وصف تلك الأوصاف التي ذكرتها بعينها في المجمع المصري للثقافة العامة سنة ١٩٣١، أي: سنة طبع هذه السورة، وهذا عجب، وهو معجزة جديدة للقرآن، وكيف لا يكون معجزة والناس عاشوا وماتوا وهم يقرؤون: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الفتح: ٤] ولكن أكثرهم لا يعرفون كيف تكون تلك الجنود وكيف غزواتها، حتى ظهر الآن فيما ستراه من قول ذلك الطبيب. فقال: إذن تكون تلك الجنود الإلهية أيضاً مساعدة على فهم: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الذاريات: ٢١]، ومساعدة على فهم قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨]. ففي النفس الواحدة يحصل ما يحصل في جميع نوع الإنسان، فأرجو أن أسمع أولاً خلاصة المحاضرة التي ألقاها الطبيب. ثانياً نفس المحاضرة. قلت: أما الخلاصة فهي أننا نرى الجسم الإنساني عبارة عن مدينة حصينة، يحيط بها سور متين، وهذا السور تحاصره جيوش تعدّ بآلاف الآلاف من الأعداء، تريد دخوله لتعيش عيشة هنيئة، كما يريد الأوروبيون أن يعيشوا عيشة هنيئة في بلاد الإسلام بظلمها وإرهاقها وإذلالها، ولا تجد لها تلك الجيوش باباً تدخل منه إلا المنافذ المفتوحة كالفم فتدخل منه، وهناك تصل إلى المعدة، والمعدة فيها عصير معدّ لإهلاك تلك الحشرات، وهذا العصير يهضم الطعام، ويقتل تلك الميكروبات، ولكن إذا أسرع إذا أسرع الغذاء في الانزلاق من المعدة وجرى إلى الأمعاء؛ فإن تلك الميكروبات لا تموت، ولكن تسير إلى الأمعاء، لأن مدة إقامتها في المعدة لا تكفي لإبادتها، وقطع جرثومها، وهذه ما تكاد تصل إلى الأمعاء حتى تلاقي حتفها، لأنها لا تجد هناك الأكسوجين الذي لا تعيش إلا به، ولأن الجنود المجندة من الميكروبات الصالحة تستحوذ على الغذاء، فهاهنا خط دفاع أول وهو الجلد، وخط دفاع ثان وهو العصير المعدي، وخط دفاع ثالث وهو الأمعاء المهلكة لهذه الأعداء، فهذه الأعداء الداخلات في الجسم أشبه بالأمم الأوروبية لما اجتمعت كلها لإهلاك الأمة التركية وقتلها، وتبديد شملها، وقطع دابرها، وكتم أنفاسها، وإبادتها من الوجود، فلم تتعدّ السواحل، ولكن لما أرادت التوغل في البلاد بما أرسلت من عساكر اليونان من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى هلكوا ذبحاً وتقطيعاً شنيعاً، ورجعوا بخفي حنين، هكذا هذه الجنود من الميكروبات لما دخلت الجسم ولم يهلكها العصير المعدي أهلكتها الأمعاء، بقلة الميرة الواصلة إليها، ويحبسها في مكان مظلم لا هواء فيه، فقطع أنفاسها فهلكت، ولات حين مناص.

هذا ما كان من جهة الجيوش الجرارة الواصلة من الفم، فإذا وصلت من طريق آخر وتكاثرت كأن وصلت بطريق جرح أو نحوه وتكاثرت بأي طريق كان فإنها تتوغل في الجسم، وتفتك بالخلايا الجسمية، وتقطعها تقطيعاً، وتتغذى بالمواد الغذائية التي في الجسم، فهنالك يصل الخبر إلى بقية أجزاء الجسم، فتأتي الجيوش من أطراف المملكة، وتحاصر المكان، وتقتل ما فيه من الميكروبات، وهنا تكون القتلى من الجيوش الهاجمة، والجيوش المدافعة، والخلايا التي وقعت في ساحة القتال، فهذه كلها تصبح مادة سائلة صفراء ينبذها الجسم إلى الخارج، وهذه العملية نراها في أمثال الدمل، فهو في أثناء

حصار الجنود الجسمية للجنود المهاجمة من الميكروبات يبدأ نموه، فإذا وقعت الواقعة، وانتهت المعركة فهناك تكون المادة السائلة وهو القيح، وهنالك تقوم الجيوش الوطنية بعملية تجفيف الجرح وتنظيم المكان بعد أن تفتح الجلد بأن تأكل منه جزءاً فيخرج القيح، وهو رمم الأعداء ومن معهم، هذه حال هذه المواقع الحربية.

ومن عجب أن الإنسان إذا شاكته شوكة في يده مثلاً أحس بعد مدة قصيرة أن هناك تحت إبطه ورماً فما هو ذلك الورم؟ وهل ذلك الورم إلا ثكنة من ثكنات الجنود الوطنية في الجسم التي اجتمعت لتهاجم الجيوش الجرارة التي اجتمعت لتطارد الأعداء الزاحفين على هذه المملكة من ذلك الجرح. وقد يحصل للمريض حمى بسبب تعفن الأخلاط في الجسم، وهذه الحمى إنّما جعلت في الجسم لأن الأخلاط المتعفنة يعوزها حرارة ترتفع للتخلص منها ودفع شرها، ولو أن المريض كان من ذوي الإرادة القوية فلم يكثر من الطعام، أو أكثر منه، ولكنه جعل الجسم متزناً بما يفعله من التمرينات العضلية، أو المشي في الخلاء، أو الجلوس في ضوء الشمس مع الاحتراس، كما هو موضح في أول سورة «يونس» أو استحم بالبخار، أو بالماء الساخن، أي بالكهرباء.

أقول: لو فعل المريض هذه الأعمال لم يقع في الحمى، فهاهنا حمى ودمامل وقروح وأورام وغيرها، فهذه كلها لم تكن في الجسم لإيذاء الإنسان، بل لإصلاح جسمه، وما هذه الآلام إلا مذكرات، فهي سعادة لا شقاء، ونعمة لا نقمة.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: أهذا نوع الكلام الذي يقوله ذلك الطبيب المصري في خطبته الآتي ذكرها؟ فقلت: نعم. ولكن الذي له إنّما هي عناصر الموضوع، فأما بناؤه فإنّما هو من هيئة سير التفسير ونظامه. فقال: أحب أن أسمع خطبته بنصها. فقلت: سيأتي ذكرها قريباً إن شاء الله.

إيضاح مختصر لجنود الله في الأرض
من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

وذلك ما قرأته في كتاب الترجمة في المدارس الثانوية، ذلك أن الدم عبارة عن سائل لا لون له، وهذا السائل يحتوي على جرائيم صغيرة كثيرة يسمونها الخلايا، وهذه الخلايا قسمان: قسم أحمر وقسم أبيض، وكلا القسمين في غاية الصغر، حتى لو أننا أخذنا قطرة دم صغيرة ـ وهي لا تكون أكثر من جزء من ٢٠ ألفاً من البوصة المربعة ـ وحللناها لوجدنا ما فيها من الخلايا الحمراء تبلغ خمسة ملايين خلية، وما فيها من الخلايا البيضاء (٩) آلاف خلية، ولا جرم أن القطرة المذكورة المحتوية على هذا العدد العظيم لا تعدو أن تكون قدر سن الإبرة لا غير، فإذا كان هذا العدد العظيم لهذا المقدار فكم في تلك الأرطال الكثيرة من أعداد هذه الخلايا. ثم إن وظيفة الخلايا الحمراء تنقسم إلى قسمين: قسم هو جلب المصالح، وقسم هو درء المفاسد، فهي من الجهة الأولى أشبه بالعتالين والشيالين، وأصحاب العربات والسيارات الذين يتلقون الواردات إلى المدينة، وينقلونها إلى أطراف المملكة، ومن الجهة الثانية أشبه بالزبالين والكناسين ورجال مصلحة المجاري بمصر، أولئك الذين يصرفون ما ينزل من البراز والمواد الضارة في مواسير تدفعه إلى الخارج، دفعاً للضرر عن السكان، فهذه الخلايا الحمر هكذا

تصنع، فهي تستقبل مادة الحياة السارية في الهواء المسماة بالأكسوجين فتحملها من الرئتين وتجري بها لتوصلها، وتوزعها على أطراف المملكة بالسواء، وهكذا متى فعلت ذلك رأت بقايا حاصلة من الأنسجة بعد تفاعلها ضاراً بقاؤها في الجسم، فهذه الخلايا الحمر تحملها وترجع بها جارية جرياً حثيثاً حتى توصلها إلى الرئة وتعطيها للهواء الجوي، فيقبلها وينبذها خارج الجسم، فترى أثر ذلك في المرآة إذا تنفسنا أمامها، فيكون هناك مادة فحمية على الزجاج تمنع رؤية صورنا، وهذه المادة الفحمية هي التي نشأت من احتراق المواد الغذائية في الأنسجة، فهذا كله أشبه بما نفعل في مدننا من استقبال النافع ونبذ الضار.

هذا ما كان من أمر الخلايا الحمراء، وهي أيضاً تعطي الدم لون الحمرة. أما الخلايا البيضاء فإن منفعتها أشبه بالجنود المجندة في المدن، المدافعين عن البلاد، الشاكي السلاح، الشجعان الجحاجيح، الأماثل العظماء. فهؤلاء إذا وردت جيوش قتالة من الخارج، وما أكثرها في الجو، وما أسرع وصولها إلى أجسامنا، فإن هذه الجيوش البيضاء تقاتلها، وتحمي حمى الديار، وتحامي عن السكان، وتحفظ البيضة وتقارع الأبطال، وبيان ذلك أنها تصطف صفوفاً، وتهجم على الجيوش القادمة، وتخترق أجسامها، وتكتم أنفاسها، فتختنق أو تلقي عليها السم فتموت، هذا فعل الخلايا الحمراء والخلايا البيضاء.

فلما اطلع صاحبي على ذلك قال: هذا قول جميل، لا سيما أنه يقيني، لأنك ترجمته من كتاب محترم في المدارس، فليس يعقل أن يكون فيه خطأ ما، ولكني أريد أن أرى ذلك بعيني، فليس الخبر كالعيان، لأني لو رأيت ذلك بعيني لكان ذلك من مضمون قوله تعالى: ﴿ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾[الأنبياء: ٣٧]، وقوله أيضاً: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[ص: ٨٨]، وقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾[النمل: ٩٣]. فقلت: أما إذا أردت ذلك فهاك نص ما قاله الدكتور، وهو ما جاء في الكتاب السنوي الثاني المجمع المصري للثقافة العلمية، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما يأتي:

المعركة اليومية في الجسم البشري
الوقاية الطبيعية للجسم

مقدمة. العدوى والمرض. المناعة. الميكروب وقوة أمراضه

العداء بين الجسم والميكروب. الميكروب في داخل الجسم. الخلايا البالغة

الحرب بين الميكروب والخلايا. الوقاية النوعية. الخلاصة

سادتي: لا نزاع في أن الأمراض المعدية من أهم الأخطار التي يتعرض لها جسم الإنسان في حياته وتتأثر بها صحته وهي كما يعرفها كلكم تنشأ عن فعل كائنات حية دنيئة من مملكتي الحيوان والنبات، ويطلق عليها الأطباء اسم الميكروبات، وهذه الكائنات موجودة في كل مكان، وفي جميع الأوساط التي تحيط بنا، إنها تعيش في الأرض، وفي الماء، وفي الهواء، وعلى الأغشية المخاطية المبطنة لتجاويف البدن، وخصوصاً في الأمعاء التي تعج بمختلف أنواعها، وكذلك خارج الجسم على سطح الجلد.

وليست كل الميكروبات خطرة على الإنسان، فبعضها لا يدخل إلى الجسم وهو على قيد الحياة ولكنه يتخطى حواجزه الطبيعية بعد الوفاة، ويتكاثر في رفاته حتى يحوّله إلى تراب، ولكن بعضاً منها يكون خطراً على الإنسان، وهو على قيد الحياة، إذ يمكنه أن يخترق موانع الجسم وينفذ إلى داخله فينمو ويتكاثر على حساب المواد المغذية الموجودة فيه، على أنه ليس من الصعب أن نتجنب تلك الضيوف الثقيلة بالابتعاد عن مواطنها، أو بإبادتها بواسطة التطهير أو التبخير، أو بعزل الأصحاء عن المرضى، ومهما يكن من أمر بعضها الذي لا يمكن تجنبه نظراً إلى وجوده في داخلنا أو حوالينا، فإن لدينا من ظاهرات الوقاية الطبيعية ما يحول دون العدوى.

العدوى والمرض

ولكي يمكننا الوقوف على سر هذه الوقاية الطبيعية يجب علينا أن نعرف أولاً ما هي العدوى؟ فالعدوى هي عبارة عن الظاهرة التي تنشأ عن دخول الكائنات الحية الدنيئة في الجسم، أما المرض نفسه أي إصابة الجسم بالعدوى فهو ما ينشأ عن وجود هذه الكائنات بذاتها، وما تحدثه من نفث سمومها فيه، سواء أكانت هذه السموم نتيجة إفراز هذه الكائنات مدة حياتها في الجسم، أم نتيجة انحلال مادتها بعد موتها، لذلك يجب أن نفرق بين العدوى في حد ذاتها وبين المرض، أي بين دخول الميكروبات في أنسجة الجسم وبين إصابة الجسم من تأثير سموم هذه الميكروبات، وتختلف الميكروبات باختلاف درجة سميتها، فالميكروبات القليلة السموم يجب عليها أولاً أن تتكاثر وتتوالد بدرجة كبيرة حتى يمكنها أن تؤثر على الجسم البشري، أما الميكروبات السامة جداً، فإن القليل منها يكفي للتأثير على الجسم، ففي العدوى بالمرض الفحمي مثلاً كثيراً ما نرى أن دماء الحيوانات المصابة بالحمى ملأى بميكروبات المرض دون أن يظهر على الحيوان أي أعراض، كذلك في ملاريا الطيور، فكثيراً ما نشاهد أن أغلب كريات الدم تحمل طفيليات المرض، في حين أن الطير لا تبدو عليها أعراض المرض، غير أننا نلاحظ من ناحية أخرى أن في مرض الكزاز، أو التيتانوس الناشئ عن عدوى الجروح يكون عدد الميكروبات التي يمكن العثور عليها في بؤرة الإصابة قليلاً جداً، مع أن أعراض المرض تكون شديدة وقاسية لأبلغ حد.

أعود فألخص هذه الحقائق، وهي أنه لا يكفي دخول الميكروبات في الجسم، بل يجب أن تكون للميكروبات درجة سمية مخصوصة حتى يمكن للعدوى إحداث المرض، أما الميكروبات القليلة السمية فإنها تعتاض عن هذا النقص بشدة توالدها في الجسم، أو بما نسميه فوعتها.

أما الجسم البشري فإنه لكي يمكنه أن يقاوم الميكروبات المرضية يجب عليه أن يقي نفسه بإحدى الطريقتين الآتيتين: أولاً: أن يقاوم دخول الميكروبات فيه. ثانياً: أن يقي نفسه سمومها، أو يبطل مفعولها، أو يجعل نموها عسيراً، إذا عجز عن مقاومة دخولها. فالعدوى وظاهرة التسمم من جانب الميكروبات، والمقاومة وإبطال سمومها من جانب الجسم، هي العوامل التي يترتب عليها ظهور المرض، أو عدم ظهوره، وقد تكفي مقاومة الجسم للعدوى إلا أن هناك ما يساعدها في مهمتها ألا وهي المناعة.

المناعة

وهذه المناعة إما طبيعية وراثية، أو جنسية، أو مناعة فردية، فالحيوانات ليست كلها عرضة للأمراض بدرجة واحدة، فمثلاً الأمراض الطفحية التي تصيب الإنسان كالحصبة والحمى القرمزية لا تصيب باقي الحيوانات، كذلك بعض أمراض الحيوان كالطاعون البقري، أو كوليرا الخنازير، فإنها لا تصيب الإنسان ولكنها تصيب الحيوان، وذلك لأن أنواع الحيوانات تمتاز بمناعة خاصة، وهذا النوع هو الذي يطلق عليه اسم المناعة الطبيعية الوراثية ضد بعض الأمراض، كذلك هناك ما يسمى بمناعة الأجناس، فمثلاً الحمى القرمزية لا تصيب الأجناس ذوي البشرة السوداء إلا نادراً بخلاف الجنس الأبيض فهو شديد الاستعداد للعدوى بهذا المرض، وكما أن للأنواع والأجناس أحياناً مناعة، كذلك توجد لبعض الأفراد مناعة ضد بعض الأمراض، وكلنا نعرفها ونشاهدها يومياً، فمن منكم لا يذكر سنة ١٩١٩ م لما انتشرت الأنفلونزا الخبيثة التي أطلق عليها اسم «الحمى الإسبانيولية»، وكيف أنها كانت تصيب بعض أفراد في بيت واحد، وتترك البعض الآخر رغماً عن تعرّضهم للمرض واتصالهم المباشر بالمصابين به، ومن منكم لا يشاهد في أولاده أو أقربائه أن بعضاً من الأطفال يصاب بالسعال الديكي، أو الجدري الكاذب، والبعض الآخر يبقى سليماً رغم تعرضه للعدوى بميكروبات هذه الأنواع.

بيد أن هذه المناعة للأفراد، والتي نسميها المناعة الفردية ليست مناعة مطلقة كما هو الحال في مناعة الأنواع والأجناس، بل هي مناعة نسبية قد تختلف باختلاف الظروف والطوارئ، أو بعبارة أخرى: إنها مناعة تتوقف على الاستعداد الشخصي للمرض، أو قوة مقاومته له، تلك المقاومة التي تتأثر بعوامل خارجية كثيرة كالتعرض لدرجة الحرارة، أو لتأثير الجوع، أو التعب. هذا في الجسم البشري، ولنعد بعدئذ إلى ناحية الميكروب:

الميكروب وقوة أمراضه

وكما أن الجسم له استهدافه ومقاومته كذلك الميكروب له أيضاً استهدافه ومقاومته، فبعض الميكروبات لا يمكنها أن تتكاثر في جسم الحيوان لعدم ملاءمة حرارته الطبيعية لنموها مثلاً كميكروبات المرض الفحمي، فإنها لا تتكاثر في جسم الدجاج أو الضفادع، لارتفاع درجة الحرارة في جسم الأولى وانخفاضها في جسم الثانية، ولكنها تنمو وتتكاثر إذا خفضت درجة الحرارة في الأولى بغمس أرجلها في الماء البارد، ورفعت الحرارة في الثانية بوضعها في أفران التفريخ، كذلك سلالات الميكروب تختلف فيما بينها من حيث قوة أمراضها، فهي قد تضعف في حدّتها إذا عاشت في ظروف غير مناسبة لها، وقد تزيد إذا لاءمها الوسط الذي تعيش فيه إلى غير ذلك مما لا نريد أن نتعرض له في كلامنا الآن خشية أن يطول بنا البحث ونبتعد عن موضوعنا، وإنما أردت فقط أن أبين لكم ماهية العدوى وما يتبعها من عوامل ومؤثرات.

ودعوني الآن أن أنتقل بكم إلى موضوع محاضرتي هذه، وهو شرح تلك العداوة الكامنة بين الجسم والميكروب:

العداوة بين الجسم والميكروب

الجسم والميكروب بحكم تنازع البقاء عدوّان لدودان، كل يطلب الحياة لنفسه دون غيره، مهما كلفه ذلك من عناء أو تضحية، وهو لا يتعفف في سبيل ذلك أن يفرغ ما في جعبته من قوة لإبادة الآخر كلاهما يتسلح بما وهبته الطبيعة من وسائل الفتك أو المقاومة لكي يفوز بالنصر في آخر الأمر، تلك سنة حياتهما كما هو الحال مع باقي أمم العالم سواء بسواء.

والجسم الإنساني يشبه في تكوينه وترتيبه ونظامه إحدى ممالك العالم، لأنه مكون من خلايا أشبه بالكائنات الحية، فلا حرج علينا إذن إذا استعملنا اصطلاح « مملكة الجسم البشري » عند الكلام على دفاع الجسم ضد العدوى، وكما أن لكل مملكة حدودها الطبيعية من جبال وسواحل بحرية وجيوش تعبأ، ووسائل متنوعة لصد العدو أو الفتك به، كذلك مملكة الجسم لها حدودها الطبيعية التي تفصلها عن عالم الكائنات الأخرى، ولها وسائلها في الكفاح والقتال، فالحدود الطبيعية في مملكة الجسم هي الجلد مع ما يتبعه من البشرة القرنية، والغدد الشحمية، والغشاء المخاطي الذي يبطن التجاويف الأنفية والحلقية، والمسالك الرئوية، والقناة الهضمية.

فالجلد هو ذلك السور الذي يشبه في أهميته ما كان لسور « بكين » بالصين من أهمية في صد غارات الأعداء عليها، بل هو الدرع الذي تتساقط تحته قنابل العدو عاجزة عن تخطيه، ونحن إذا فحصنا تلك الطبقة التي تغطي وتحمي كل جزء في جسم الإنسان، وجدنا على سطحها أنواعاً لا تحصى من الميكروبات، منها العاطلة، ومنها المرضية كميكروبات التقيح الصديدي، وهذه الميكروبات وغيرها من الميكروبات الخبيثة « كميكروب الدرن أو الكزاز » لا يمكنها أن تنفذ من ذلك الدرع القوي طالما لا يوجد فيه أية ثغرة تتسرب منها إلى داخل البدن، وهذه القوة الدفاعية الخاصة بالجلد ليست قوة ميكانيكية فحسب، بل هي تتوقف أيضاً على بعض عوامل أخرى تتصل بها، فهناك مثلاً العرق المعروف بحموضته التي لا تلائم حياة الميكروبات وخصوصاً الميكروبات المرضية، وهناك حركة التجديد المستمر في الطبقات السطحية للجلد حيث يقذف هذه الأجزاء أولاً بأول، فيزيل باستمرار ما تجمع عليه من كائنات حية، خصوصاً إذا ساعدناه في أداء مهمته باتباع ما وصلنا إليه من تعاليم النظافة والتجميل، فأعطيناه حقه من الغسيل والاستحمام.

الميكروب في داخل الجسم

وليت الأمر يقتصر على ذلك، فإن جسم الإنسان أو الحيوان وهو يتنفس أو يأكل أو يشرب يجتذب إلى داخله هذه الأعداء، عندما تكون معلقة في الهواء، أو منبثة في الغذاء، أو سابحة في المشروبات. وبعبارة أخرى: تتصل هذه الميكروبات مباشرة بالغشاء المخاطي للفم والحلق والمعدة والأمعاء وأعضاء التنفس، ولو أن الغشاء المخاطي بطبيعته أقل مقاومة لهجوم الميكروبات من الجلد؛ إلا أنه يمتاز عنه بأن به مادة مخاطية يفرزها، وهذه المادة اللزجة التي كثيراً ما تعافها أنفسنا؛ لها مهمة جليلة في قنص الميكروبات كما يقنص ورق الصمغ الذباب، ثم بعد قنصها تطردها إلى خارج الجسم بواسطة العطس، أو البصق، أو السعال، أو المخط، ولكي أبين لكم شأن هذه المواد المخاطية في طرد

الأجسام الغريبة إلى الخارج أذكر لكم أن العلامة «هيس» لاحظ أن العامل الذي يشتغل عشر ساعات يومياً في الإسمنت يستنشق في السنة ما يقدر بـ ٣٠٠ جرام من هذا التراب، فإذا استمر في عمله هذا عشرين عاماً يجب أن يكون قد استنشق نحو ستة كيلو جرامات من الإسمنت أودعت في جوفه كلها، اللهم إلا إذا تخلص منها بواسطة العطس أو البصق كما ذكرنا، وعلى هذا القياس يمكنكم أن تتصوروا المقدار الكبير من الأجسام الغريبة التي يمكن أن يتخلص منها الجسم بواسطة أغشيته المخاطية وعملها العجيب. وليست وظيفة الغشاء المخاطي وظيفة ميكانيكية، بل إن له أيضاً قوة خاصة في إبادة الميكروبات، فقد دلتنا الاختبارات على أن مخاط الأنف، ودموع العينين، لها هذه القوة لاحتوائها على نوع من الخمائر، تسمى الخمائر المحلة «ليزوزيمات» تذيب وتحل الميكروبات فتقتلها إذا ما اختلطت بها، ورغماً من وجود هذين الحاجزين: المخاط والخمائر؛ فقد تصل الميكروبات مع ذلك إلى القصبة الهوائية وشعبها، ولكنها لا تبلغ إلى الرئة نظراً لوجود خط آخر من خطوط الدفاع يقف حائلاً في طريقها، ذلكم الحائل هو الأهدب الموجودة على سطح الغشاء المخاطي لهذا الجزء من الجهاز التنفسي ذات الحركة الدائمة من أسفل إلى أعلى أي إلى جهة الفم، طاردة بذلك كل ما يكون قد بلغها من أجسام غريبة، أو كائنات مؤذية، أما إذا دخلت الميكروبات مع الأكل إلى المعدة؛ فإنها تلتقي هناك بالعصير المعدي الذي يحتوي حامض ايدروكلوريك بنسبة ١ إلى ٢ في الألف، وتلك النسبة كافية غالباً لقتل الميكروبات المرضية، غير أنه يعوق عمل هذا الحامض: أولاً: إن الميكروبات تكون غالباً مغطاة بجزئيات الطعام التي تحول بينها وبينه. وثانياً: إن المعدة قد تكون سريعة العمل في إخراج ما بها إلى الأمعاء، فتمر الميكروبات بها سراعاً قبل أن تقع تحت تأثير عصيرها المطهر، ولكي أثبت لحضراتكم قوة العصير المعدي في قتل الميكروبات أذكر تلك التجربة المشهورة في تاريخ علم البكتريا التي قام بها العلامة «بيتينكوفر» وتلميذه «ايمريخ» التي أرادا بها أن يثبتا تأثير جراثيم الكوليرا على معدة سليمة وأخرى مريضة، فتناول أولهما عدة سنتيمترات مكعبة من مزرعة الميكروبات في المرق، أي أنه تناول آلاف الملايين من الميكروبات، ومع ذلك لم تظهر عليه أي أعراض مرضية مطلقاً، أما تلميذه الذي لم تكن معدته صحيحة كمعدة أستاذه فإنه أصيب بكوليرا حقيقية، وكاد يلقى حتفه، وهذا يدلكم على المهمة الخطيرة لهذا العصير.

بقي أن نعرف ما يحدث إذا ما وصلت ميكروبات الأمراض إلى الأمعاء؟ وهنا أيضاً تجد نفسها أمام عقبات وتهدد حياتها عدة أخطار، فأولاً: عدم ملاءمة الجو هناك لمعيشتها، ففي الأمعاء لا يوجد غاز الأكسوجين، وهو ذلك العنصر الحيوي لغالبية الميكروبات المرضية والتي لا يمكنها أن تعيش بدونه، وثانياً: التزاحم الذي تلاقيه من الميكروبات الحميدة التي تحيا وتعيش في هذا الجزء من الجسم، ففي الأمعاء يعيش دائماً ميكروب هادئ وديع سالم يسمى «ميكروب القولون»، يعيش من فضلات التغذية، كما أنه يقوم بدور ليس بالضئيل في عملية الهضم، وهذا الميكروب بحكم حيويته يحرم الميكروبات المرضية من غذائها، فيحرمها بالتالي سبيل الحياة. بل هو يعمل أكثر من ذلك، لأنه يمنعها من النمو والتكاثر بما يفرزه من مستحصلات وفضلات.

إن هذه الحقائق التي ذكرتها إن هي إلا صورة من الموانع الطبيعية التي تقي مملكة الجسم البشري ولكن الخطر الحقيقي يحدث إذا ما اخترق العدو الحدود ووطأت قدماه أرض هذه المملكة، هل يسلم أهل البلاد ويلقون سلاحهم أمامه يا ترى؟ أم هناك أسلحة أخرى يدافعون بها عن كيانهم وحياتهم؟ ذلك ما سأوضحه لحضراتكم فيما يجيء من الكلام:

الخلايا البالعة

إن الجسم البشري ككل الكائنات الحية، يخضع لقوانين الطبيعة، وكل كائن حي يعمل لحل وهضم كل ما يدخل إليه من مواد عضوية أو غير عضوية، وذلك بواسطة عملية الهضم، وتحويل هذه المواد الغريبة إلى أخرى تدخل في تركيبه أو بنيانه، هذه العملية تشاهد في أبسط صورها في الحيوانات المركبة من خلية واحدة، وهي التي نسميها «الأميبا»، فهذه الأميبات تزحف بواسطة أرجل تطلق عليها «الأرجل الكاذبة» لتجدّ في البحث عن غذائها المكوّن من الميكروبات والطحالب، فتأخذها في داخلها وتهضمها. ولما كانت عملية الاغتذاء هذه قاصرة على الالتهام فالبلع، فقد أطلقنا عليها اسم الخلايا البالعة، أو البلعمات، كما أننا أطلقنا على هذه العملية اسم «البلعمة».

وليست عملية البلعمة قاصرة فقط على هذه الحيوانات الدنيئة، بل يكاد يكون في كل حيوان بعض من الخلايا ما زال محافظاً على هذه الخاصية، فمثلاً توجد في جسم الإنسان خلايا الدم البيضاء والخلايا المبطنة لتجاويف البطن والصدر والأوعية الدموية والليمفاوية، وهي خلايا لها قدرة على التهام وبلع الأجسام الغريبة وهضمها. أما وقد عرفنا أنه يوجد بالجسم خلايا لها قوة بلع المواد الغريبة عنه، فلنعد الآن إلى نقطة دخول الميكروبات إلى الجسم.

دعونا إذن أن نتصور أن واحداً منا قد وخزته إبرة، فإذا كانت الإبرة نظيفة فإن الإنسان يشعر فقط بالألم الوقتي، ومن ثم يلتئم الجرح، وينتهي الأمر، ولكن الحال تختلف إذا كانت ملوثة تحمل بعض الميكروبات التي قدر لها أن تنفذ من الجلد داخل البدن، فلو كانت هذه الميكروبات العاطلة الرمامة التي تتغذى على المتخلفات النباتية أو الحيوانية؛ لهان الأمر، لأنها تموت أو تتحلل بواسطة خلايا الجسم الحية، أما لو كانت هذه الميكروبات المرضية التي تتذوق الدم وتستمرئه، وتعرّفت حلاوة ما يحتويه البدن من محاسن الغذاء فاستطابته، وتعففت عن غيره من الطعام، نقول لو كانت كذلك لكان لها شأن آخر، إذ لا يمكن لخلايا الجسم أن تتخلص منها بسهولة، لأنها تتميز عن تلك بسمومها التي تهاجم بها الخلايا فتعطلها وتشلها عن القيام بواجبها.

الحرب بين الميكروب والخلايا

وصل بنا الحديث إلى أن الميكروبات، وهي أعداء الجسم، قد تمكنت من اختراق الحواجز الأمامية والاستقرار في الجسم، ولم يبق أمام قوة الدفاع وهي الخلايا إلا أن تمتشق حسامها، وتخوض غمار حرب ضروس لا رحمة فيها ولا شفقة، حرب للحياة أو للموت، لا تختلف في معدّاتها وآلاتها عن حرب الجيوش البشرية، كما أن جنودها لا تنقصهم آيات البطولة والتضحية، والآن اسمحوا لي أن أروي لكم قصتها كما نراها تحت الميكروسكوب:

تدخل الميكروبات مملكة الجسم، فتجد نفسها في أرض جديدة غريبة عنها، فتجمع أمرها، وتلم شملها، ثم تسطو على الخلايا المجاورة لها تبتز منها غذاءها، ثم تتكاثر على طريقتها بالانفلاق إلى اثنتين ثم أربع وهلمّ جراً، وبعد ذلك الاستعداد تبتدئ في هجومها، فتنفث من أجسامها سماً قاتلاً ترمي به أفراد المنطقة التي احتلتها، وإذ ذاك لا تستطيع الخلايا أن تقف مكتوفة اليدين، بل تعمد على الفور إلى الدفاع عن نفسها، فتقذف عليها سيلاً من المصل الدموي، يهوّن من فعل هذا السم، ويخفف من حدّته، ثم تنجلي المعركة الأولى عن قتلى وأشلاء من خلايا الجسم، ثم تتحلل هذه الأشياء إلى عناصرها الأولية كما يتحلل كل حي عند مماته، وتحملها مياه الوطن إلى كل جهة من جهاتها كأنها نذير بالخطر الذي يتهدّده، وبالكارثة التي حلت به، ولا نلبث أن نرى الحماة تخرج من معاقلها، وما تلك الحماة وما هؤلاء الجنود إلا الخلايا البيضاء، أو البلعمات التي ذكرناها، والتي يقع عليها عبء الدفاع عن أرض الوطن، إذ لا يمضي زمن طويل حتى تتمدد الأوردة الشعرية فتزيد كمية الدم صوب المنطقة المصابة، وعندما تصل البلعمات السابحة في مجرى الدم إلى تلك المنطقة تنتقل إليها وتدخل ميدان القتال زاحفة كما تزحف الأميبا، فرادى في أول الأمر، ثم جماعات بالمئات وبالألوف، وعندئذ تصبح الحرب سجالاً، فالميكروبات تنفث سمومها، والجسم يعرقل عملها بسيل من المصل، فتنتفخ المنطقة المصابة وتحمر، وذلك ما تعرفونه بالالتهاب، ثم تقترب البلعمات رويداً رويداً من العدو، وتأتيه من أمامه ومن خلفه، ومن الجناحين، وتحوطه من كل النواحي، ثم يأتيها المدد من آن لآخر، فتزداد عدداً، وتشتد حصاراً عليه، ثم تبني سوراً منيعاً حوله يفصله عن باقي الجسم، وإلى هنا تكون قد انتهت المناوشات والمناورات، وتبتدئ بعدئذ المجزرة البشرية، فتتقدم كل بلعمة إلى الميكروب الذي أمامها تطبق عليه بجسدها حتى تبتلعه في جوفها لتقتله، وقد ينجح الكثير من هذه البلعمات في قتاله، وقد يموت البعض شهيد الواجب، ولكن العدو لا يستسلم لليأس، ولا يسلم بسهولة، بل يعود إلى تنظيم صفوفه من جديد بعد أن يملأها بمحاربين آخرين، بدل العشرة مائة، وبدل المائة ألفاً، هذا من ناحية الميكروب، أما من ناحية الخلايا فإنها أيضاً تصلها النجدة والمدد، وتستأنف المعركة من جديد على أقصى ما يكون من الشدة، ولكن إلى متى تستمر فرق الجيوش بعضها أمام بعض تتطاحن وتتقاتل؟ بل إلى متى تتحمل المملكة هذه الحرب؟ لا يمكن أن تستمر الحال طويلاً، وإذن لا مندوحة عن التعبئة العامة لكل محارب، وكل من يمكنه حمل السلاح.

الآن تهرع كل بلعمات الدم إلى القتال على جناح السرعة، ويخرج الرديف منهم والمخزون في مستودعات الطحال، ونخاع العظام إلى ميدان القتال، وهنا نسمع دقات ناقوس الخطر «الجسم في حمى».

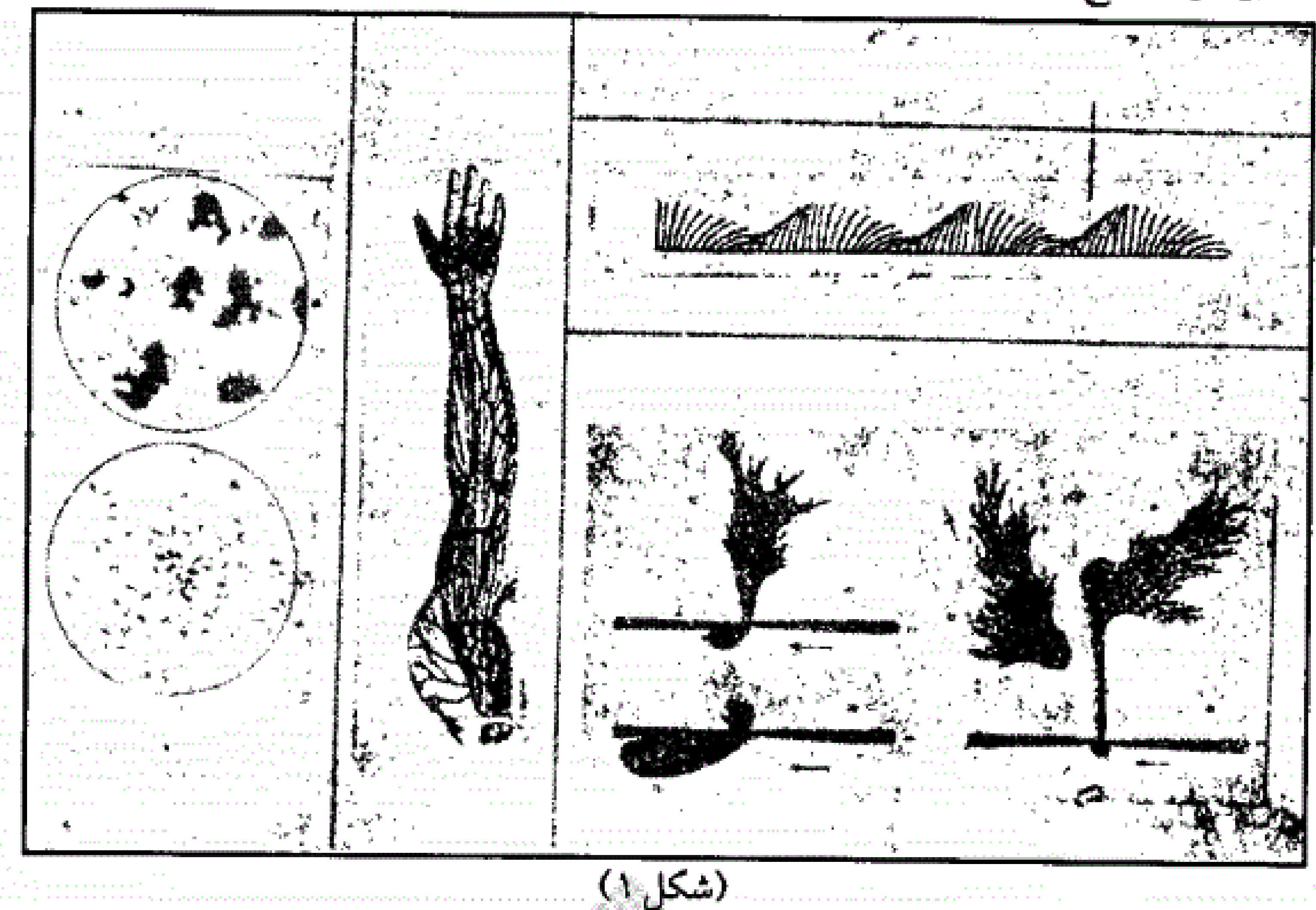
لقد حشد الجسم الآن آخر رجل في ثكناته للقيام بآخر مجهود، فإما، نصر وإما هزيمة، وهل يتم له النصر؟ من يدري ربما كان كذلك، لأن العدو وإن كان قد زاد عدداً إلا أنه لم يتوغل كثيراً في أرض الوطن، بل أصبح محاصراً في مكانه، وإذا كانت مملكة الجسم قد جربت حرب الخنادق ولم تفلح فيها كثيراً فلم يبق بد من تغيير خطة الحرب كما يفعل كل قائد ماهر في مثل هذه الأحوال.

الآن تبتدئ المملكة في تضحية جزء منها لكي يسلم المجموع، ومن ثم يقع تنفيذ هذه المهمة على عاتق البلعمات أيضاً، فهي تبتدئ في إتلاف النسيج المصاب أولاً بقتل الخلايا وثانياً بهضمها وتحويلها إلى عصيدة سائلة، فينشأ عنه تجويف مملوء بهذا السائل، أوَتعلمون ما هو هذا التجويف؟ هو الخرّاج الذي يظهر في موضع حصار الميكروبات، والسائل هو ذلك الصديد الأصفر المكوّن من أنسجة مهضومة، وآلاف من البلعمات وملايين من الميكروبات، ثم يأخذ هذا الخرّاج في الازدياد، وكلما ازداد حجماً كلما صار ألين وأميع، حتى إذا لمس أحسّ الإنسان بترجرج السائل فيه، وليت عمل البلعمات يقف عند هذا الحد، بل إنها تتجه صوب الجلد فتتلفه وتهضمه من أسفل حتى ترقّ طبقته وتحدث ثغرة فيه، فيندفع الصديد إلى الخارج ومعه الميكروبات.

الآن والآن فقط قد طرد العدوّ خارج المملكة بعد معركة حامية كان النصر فيها غالياً، لقد كلفها ثمناً غالياً وتضحيات في أفرادها، ولكن يهون كل ذلك ما دامت المملكة قد أنقذت، وهنا يهدأ بال الجسم على مصيره وكيانه، ولكن البلعمات هؤلاء الحماة الأشدّاء لا يهدأ لهنّ بال وفي الجسم جراح، فيعمدن إلى عملية الاندمال لأنهنّ أبناء المملكة البررة وعدّتها في الحوادث والملمات، ويجب عليهنّ أن يطهرن ميدان القتال من جثث أعدائها، ومن أشلاء مواطنيها، حتى يمكن للجلد أن يتجدّد ويسدّ الثغرة، ويكون ذلك بإحداث ندبة تبقى على مر السنين والأعوام كنصب تذكاري ينبئ بمكان المعركة وبالنصر الذي فاز به الجسم ضد أعدائه المغيرين.

سادتي: عندما وصفت لكم المعركة الأولى قلت لكم: إن البلعمات تقترب رويداً رويداً من العدوّ، وتأتيه من أمامه ومن خلفه، ومن الجناحين، وتحوطه من كل النواحي، وتحاصره إلى أن تبني من نفسها سوراً منيعاً حوله، يفصله عن باقي الجسم، ولكنه قد يحدث أن يكون العدوّ من شدة البأس والقوة ما يمكنه من أن يحطم جزءاً من هذا السور وتنساب بعض جنوده داخل المملكة، فما العمل إذن؟ هل تتركه المملكة ينساب في أحشائها فيعيث في البلاد فساداً يودي بحياة كل من يقابله في طريقه من الأحياء؟ أم هل اتخذت المملكة أهبتها لمثل تلك الكوارث؟ نعم إنها لم تكن غافلة عن ذلك منذ نشأتها، لأن في داخليتها حصوناً وقلاعاً ملأى بالجيوش على أتم استعداد لمثل هذا اليوم العصيب، وتلك الحصون والقلاع هي الغدد الليمفاوية، فإذا ما اخترق العدوّ جوانبها الطبيعية، وتخطى خط الدفاع الأول، فإن مجاري الليمفا تحمله إليها فيلاقي حتفه فيها، وذلك لأنها عبارة عن ثكنات ملأى بالبلعمات المقاتلة.

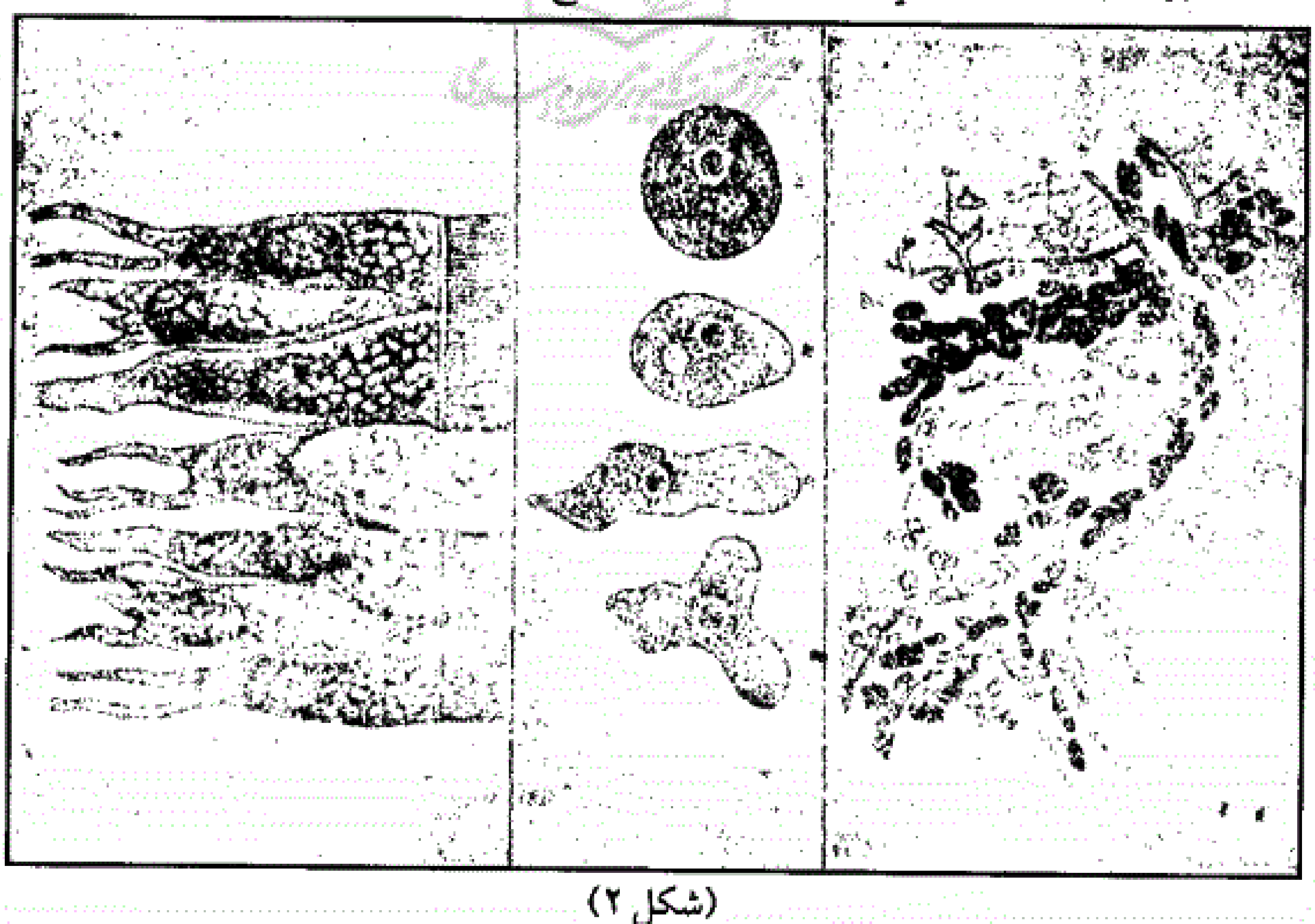
ويوضح لك أيها الذكيّ ما تقدم ما تراه في هذه الصفحة التالية في (شكل ١ و٢)، فانظره ترى العجب العجاب! وهاك صورته:



(شكل ١)

يمين ـ (فوق) : حركة الأهداب التموّجية . (تحت) : شكل البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

(وسط) : الغدد والمجاري الليمفاوية . (يسار) : تجمع الميكروبات بواسطة الملزنات



(شكل ٢)

(يمين) : تمدّد الأوعية وابتداء انتقال البلعمات إلى المنطقة المطلوبة . (وسط) : شكل الأميبا .

(يسار) : الخلايا الهدبية المبطنة للقصبة الهوائية .

ولكي أقرّب ذلك إلى الفهم أقول: إن أغلبكم يعلم أنه عند حدوث بعض الجروح في اليد، أو الذراع، ينشأ عن ذلك ورم صغير مؤلم تحت الإبط، وما ذلك الورم الصغير إلا عبارة عن غدد ليمفاوية تهيئ نفسها للدفاع عن الجسم فتملأه بالبلعمات التي تقف في سبيل الميكروبات المغيرة عليه.

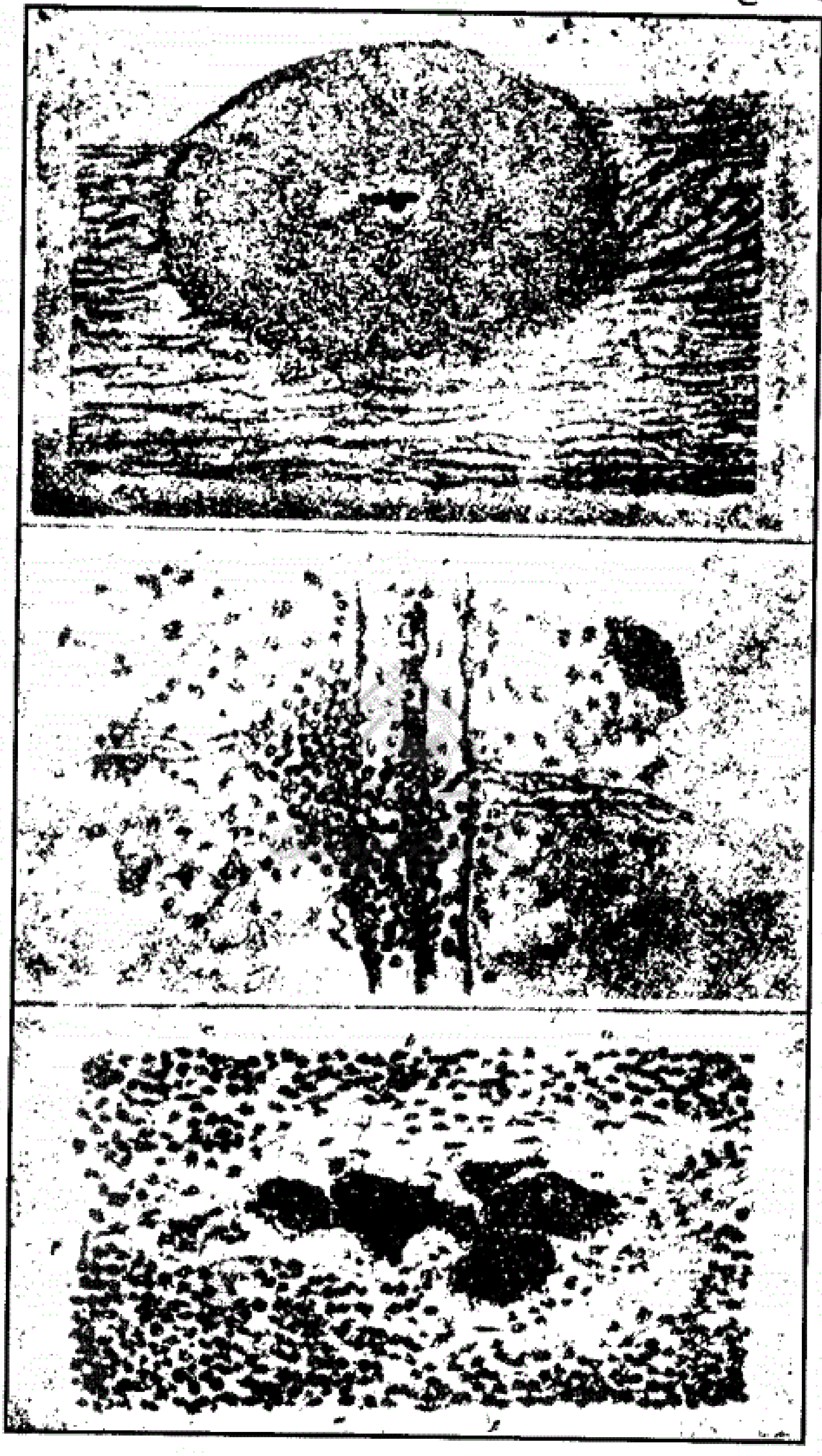
ولكن قد يحدث أن العدو بفضل قوته وضعف مقاوميه قد يتخطى أيضاً خط الدفاع الثاني كما يحدث أحياناً في الحروب العادية، أي أن القلاع ـ أي: الغدد الليمفاوية ـ لا تقوى على صد غارات الأعداء المهاجمة، فماذا يكون العمل بعد أن أصبح العدوّ الآن حراً طليقاً في حركاته، لا جنود أمامه تقاتله، ولا حصون تعرقله؟ بل هو ينساب في البلاد، سائراً في طرقها الرئيسية، أي في الأوعية الدموية، ملتمساً الغذاء والحياة لينمو ويتكاثر فيها، إذن الويل ثم الويل لهذه المملكة البائسة التي تصبح فترى أن في كل زاوية من زواياها، وفي كل مقاطعة من مقاطعاتها أجنبياً يذيقها الهلاك والردى.

وإذا كان هذا هو الحال في ممالك الأمم فليس هو كذلك في مملكة الجسم البشري القوية المنظمة وما ذلك إلا لأنه لم ينضب بعد معين دفاعها، وما زالت تحتفظ بوسائل أخرى للدفاع، إن في دمها الذي يجري من قمة رأسها إلى أخمص قدمها، ومن طرفها الأيمن إلى طرفها الأيسر، من الوسائل ما هو أشدّ قوّة وأكثر فعلاً من الوسائل الأخرى التي شاهدناها إلى الآن، وهذه الوسائل المدّخرة للأيام العصيبة، أي: عندما يتسمم الدم وتتسعر النيران فيه. قلت الدم، والأحرى بنا أن نقول مصل الدم، أي ذلك الجزء المائع منه الذي يمكن فصله بعد تخثره من الجلطة الدموية، إن هذا المصل الذي يحتوي على موادّ مهلكة تبيد الميكروبات سماها العلامة «بوخنر» الذي كان أوّل مكتشف لها، والتي يمكن أن يعبر عنها بالعربية بالموادّ الداحرة، وبالطبع يمكننا مشاهدة عملية قتل الميكروبات كما تشاهد ظاهرة البلعمات تحت الميكروسكوب، ولكن يمكن تتبعها بواسطة التجربة، وذلك أنه إذا أخذنا جزءاً من المصل الدموي، وأضفنا إليه قليلاً من الميكروبات الحية، ثم أخذنا من هذا الخليط نماذج في فترات متعددة ووزعناها على البيئات الملائمة لنموّ هاته الميكروبات؛ رأينا أن عدد الميكروبات النامية على المستنبت يقل شيئاً فشيئاً حتى ينتهي الأمر إلى عدم العثور عليها، لأنها تكون قد ماتت وأبيدت من جراء تأثير المصل عليها، كذلك توجد في المصل مواد أخرى أقل فعلاً من الموادّ الداحرة، فهي لا تهلك الميكروبات وتقتلها، ولكنها تشل حركتها فقط، وتجمعها على بعضها كتلاً كتلاً مانعة إياها من المرح داخل البدن، وفي الوقت نفسه تسهل للبلعمات التهامها وتدميرها، هذه المواد هي التي اكتشفها كل من «جروبر» و«درهلم» ويطلق عليها اسم «الاجلوتينات» أو «الملزنات».

سادتي: إلى هنا قد وصل بنا البحث إلى أن وقاية الجسم ضد غارات الميكروبات هي وقاية خلوية خلطية، أي أنها وقاية تستند إلى فعل الخلايا الأكالة، أو البلعمات، وإلى أخلاط البدن، أو المصل الدموي.

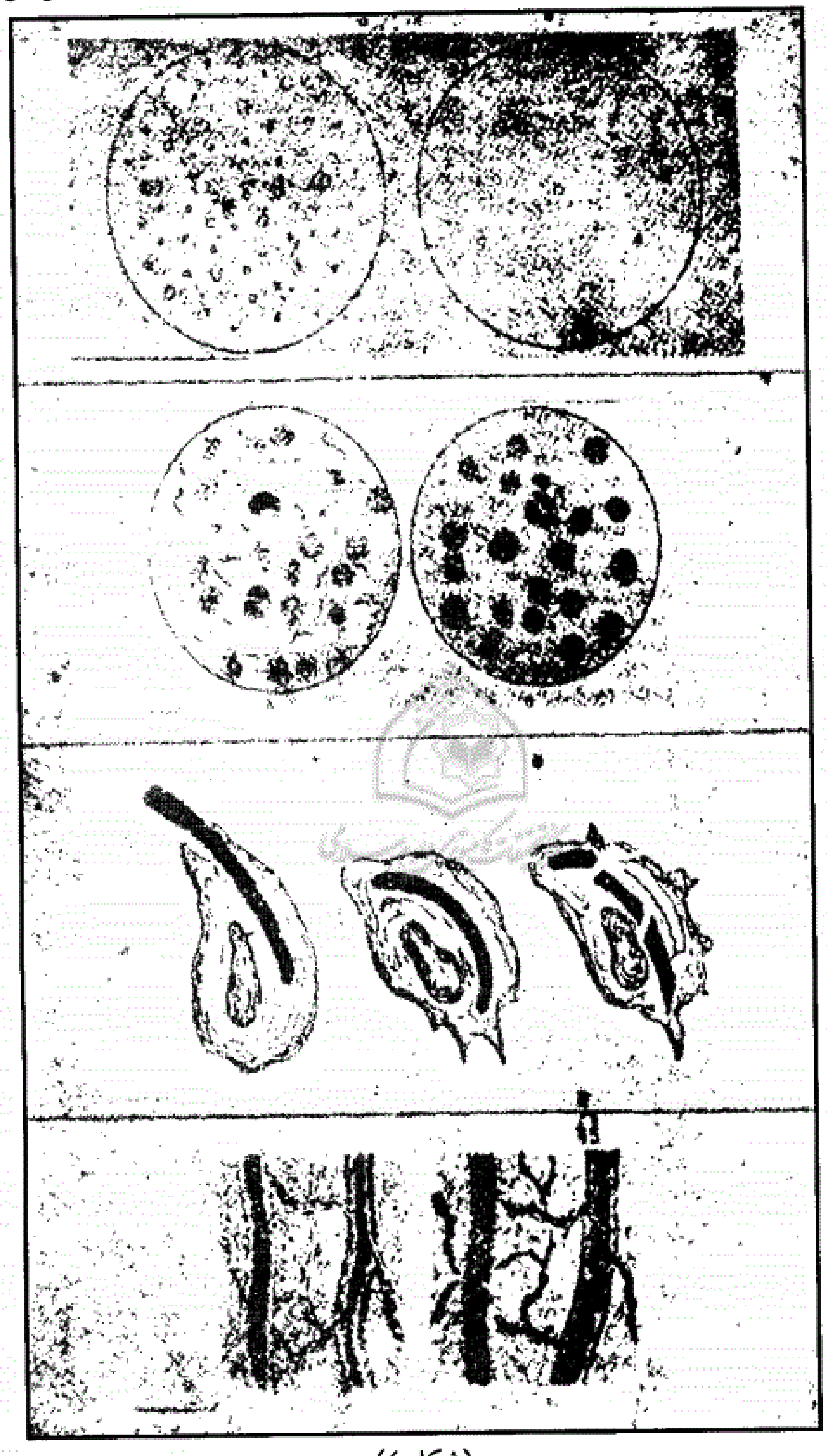
وترى في الشكلين الآتيين في الصفحتين التاليتين وهما شكل ٣ و٤ ما يوضح لك هذا المقام.

بقي أن نتحدث قليلاً عن الوقاية النوعية.



(شكل ٣)

فوق: اتجاه البلعمات نحو الجلد لهضمه. وسط: خروج البلعمات إلى ميدان القتال.
تحت: البلعمات تحاصر الميكروبات.



(شكل ٤)

فوق : إبادة الميكروبات بالموادّ الداحرة . تحته : التهام البلعمات للميكروبات .

تحته : التهام البلعمات للميكروبات . تحت : البلعمات لدى خروجها من الأوعية الشعرية .

الوقاية النوعية

إن البدن لا يقف حيال العدوى عند حدّ الاستعانة بوسائله الطبيعية في مكافحتها، بل هو قادر أيضاً على تجديد ما فقده من الموادّ الواقية ومن البلعمات المكافحة التي تكون قد سقطت في ساحة القتال أثناء الدفاع. ولكن عملية التجديد هذه لا تقف عند حدّ الاستعاضة فحسب، بل إنها تنزع في العادة إلى التعويض المفرط، وإنه لمن أعجب النظم في الكائنات الحية ما نشاهده فيها عند مقاومتها للعدوى كيف أنها تتعلم أن تقاوم بنوع خاص صنف هذه العدوى، فمثلاً إذا كانت هذه العدوى حمى تيفودية وجه البدن كل قواه إلى تحضير الموادّ الواقية ضد ميكروب التيفود، وإن كانت العدوى كوليرا مثلاً قام البدن بتحضير الموادّ الواقية ضد ضمات الهيضة الآسيوية، وهكذا دواليك، أي أن الوقاية تصبح كما يعبر عنها وقاية نوعية.

سادتي: لقد حاولت أن أبسط لكم اليوم بطريقة سهلة كيف يحافظ الجسم على كيانه من غارات الميكروبات وسمومها، ولست أخفي عنكم أنها محاولة ناقصة، إذ يضيق بي المجال لو ذكرت لكم كل الحقائق التي أظهرتها الأبحاث العويصة، والتجارب العلمية، التي أجريت في السنوات الأخيرة على مقاومة الجسم للأمراض، ولكن يكفي أن تعلموا أن البدن يدافع بنفسه عن نفسه.

الخلاصة: والخلاصة أننا حقاً مدينون إلى مقاومة وقدرة خلايا الجسم، وبالأحرى إلى الخلايا الأكالة «البلعمات» في الدفاع ضد الميكروبات وسمومها القتالة، وهذه الخلايا لا تقوم بعملها الجليل الذي وصفناه إلا لأن تلك هي وظيفتها التي اختصت بها بين أفراد مملكة الجسم البشري، ولولا هذه الأداة الواقية لاندثرت البشرية منذ زمن طويل.

ولقد عرفتم الآن كيف أن الجسم يبيد في حياته اليومية الملايين من الميكروبات دون أن نشعر بذلك، ودون أن يعلن عن نفسه، أو يفتخر بعمله، إنه في حرب صباح مساء مع أعدائه، مضحياً بالآلاف من أفراده في سبيل الحياة، ولكنني أشعر أنكم تتساءلون فيما بينكم قائلين: إذا كان الأمر كذلك فلماذا إذن تحدث الأمراض المعدية بكثرة؟ ولماذا تنتاب الإنسان الأوبئة بين حين وآخر؟ والجواب على ذلك هو أنه في بعض الأحيان يكون هجوم الميكروبات بشدة وقسوة بحيث يخرّ الجسم فريسة أمامها قبل أن تأتيه النجدة من جنوده، على أنه إذا كان هناك سبب آخر يجب أن تعرفوه وتتخذوا الحيطة له، فذلكم السبب هو تقصير الجنود، ونقص مهمات الدفاع والكفاح، والمعروف أن نقص وسائل الدفاع يكون عادة في الممالك الضعيفة. وكذلك الحال في مملكة الجسم الضعيفة فإن وسائل الدفاع لديها تكون أيضاً ناقصة، أوَلا تلاحظون أن نسبة الأمراض المعدية أكثر بين الفقراء منها بين الأغنياء، ولم ذلك؟ أليس لأن أفراد هذه الطبقة هم بكل أسف ضعاف في تركيب بنيتهم، ضعاف في أجسامهم، لسكناهم في المنازل الضيقة التي لا تتخللها الشمس ولا الهواء، ضعاف بغذائهم القليل الضئيل، ضعاف بتعبهم ونصبهم في الأعمال الشاقة المضنية التي يجب أن يقوموا بها لكسب معاشهم فإذا عرفنا ذلك؛ أصبح لزاماً علينا أن نقوّي أجسامنا، ونزيد في مكانة أبداننا كي نعطي جنوده القوّة والنشاط للكفاح والدفاع.

فإلى العمل بنظام، وإلى الراحة بقسط وافر، وإلى الخلاء حيث الشمس والهواء، وإلى الرياضة البدنية حسب مقتضيات المزاج.

إننا بهذه الوسائل نكون حقاً قد قمنا بالواجب علينا نحو أجسامنا، وهيأناها للدفاع عن أعدائها. انتهى ما أردته من المجلة المذكورة، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع صاحبي هذا القول أعجب به أيما إعجاب وقال: لله درّ هذا الطبيب الخطيب، لقد أجاد وأفاد وأبدع في تصوير هيئة الجسم والجنود المجندة فيه مما لم يسبق له فيما أعلم نظير، ولكن لما كانت آية: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفتح: ٧] غير خاصة بجسم الإنسان، بل إن الآية عامة، وقد فتح الله الباب بهذا القول؛ أحببت أن تسمعني قولاً عاماً به نفهم كيف تكون تلك الجنود المجندة في السماوات والأرض بقدر الإمكان. فقلت:

فصل: في جنود الإحياء والإماتة أو الظلمة والنور

(١) كجند الكهرباء السالبة والموجبة.

(٢) وجند الجوامد، والسوائل، والغازات، والنيران، والمياه.

(٣) وجند الميكروبات التي للإحياء، والتي للإماتة.

(٤) وجند الأغذية والسموم للإحياء والإماتة.

(٥) وجند الحشرات، والطيور، والهوامّ، والبهائم، والأنعام، إحياء وإماتة.

(٦) وجند النوع الإنساني إحياء وإماتة.

(٧) وتبيان أن نوعي الجنود المذكورين يكونان ماديين ومعنويين، فهاهنا أربعة أنواع من الجنود.

(٨) تبيان جنود الإماتة في أمم الإسلام التي مزقت شملهم مادّية ومعنوية قبل زماننا.

(٩) وجنود إحيائها في هذا الزمان بقسميها: معنوية ومادّية.

مسامرة

فقال: حدثني رعاك الله عن هذه الجنود كلها، فإن هذا فتح لباب العلم وجمال الحكمة، ولم يكن ليخطر لي أن الأمر يتسع إلى هذا الحدّ، وأن في الأضواء والنيران والمياه جنوداً، فلعلّ في الأمر أسراراً وأنواراً.

الكهرباء السالبة والموجبة

فقلت: اعلم أيدك الله بنصره، وأعزك بإعزازه، أن هذه المادة التي نعيش فيها ـ كما تقدم في سورة «النور» عند آية: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الآية: ٣٥] ـ لا وجود لها. فهذه الشموس والأقمار والسيارات والثوابت والأرضون وما عليها من الأحياء والجمادات، كل هذه لا وجود لها، وما هي إلا ذرّات ضوئية، أبدعتها الحكمة الإلهية، فكان منها السالبة، ومنها الموجبة، هذا خبر هذه الدنيا، وهذا أوّل الوجود المادي وآخره، وليس لعلماء عصرنا علم فوق هذا، فهذه العوالم كلها ظواهر لهذه الأنوار سالبها وموجبها. انظر معنى السالب والموجب في سورة «الرعد» فهناك شرح هذا الموضوع شرحاً وافياً عند آية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾[الآية: ١٢] الخ، ولا يقرّب هذا لنا إلا ما نعهده في نفوسنا.

الله أكبر: نحن نحسّ في أنفسنا بصور، وهذه الصور لا مادّة لها، وهي تظهر فيها ولا يطلع عليها أحد إلا نحن في مخيلاتنا ـ وأنت قرأت هذا المقام في سورة «القتال» عند آية: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[الآية: ١٩] في رسالة «مرآة الفلسفة»، وهذا المقام هو الذي به أمكن الخروج من الورطة التي وقع فيها أمم وأمم ممن قبلنا من أيام سقراط وأفلاطون إلى الآن، وهذا هو المخرج الذي فتحه الله للإنسانية للخروج من مأزقها الفلسفي ـ فهذه الصور التي نحسّ بها في نفوسنا بلا مادّة تصوّر فيها تسهل لنا تصوّر ما يقوله علماء عصرنا:

إن أصل المادّة إنّما هو الكهرباء السالبة والموجبة، فإذا كان الإنسان يحسّ في نفسه بصور لا مادة لها؛ فليس بعجيب أن يرى أن هذه الدنيا كلها مكونة من كهرباء تشتمل على سالبة وموجبة، وبالكهرباء السالبة وبالكهرباء الموجبة كانت هذه الدنيا كلها، فلا مادّة لهذا الوجود العظيم الذي اخترعه صانع الكون كما لا مادة للصور التي نحسّ بها في نفوسنا، والتي عليها مدار حياتنا كلها وسعادتنا وشقائنا في حياتنا.

خطاب الله عزّ وجلّ للعوالم

ولم أجد قولاً جامعاً لما أريده في هذا المقام مما ألقاه الله بطريق الإلهام على أحد الصالحين الملازمين لقراءة هذا التفسير ولذكر الله ليلاً ونهاراً، حضر عندي منذ أيام وقال لي: بينما أنا أذكر الله ليلاً إذ خيل لي كأن الله عزّ وجل يخاطب العوالم مبتدئاً بالكهرباء الأولى، وهو يقول: أيتها الكهرباء أنت من آثار نوري، فلتسرعي في حركاتك إسراعاً حثيثاً، ولتكن حركاتك في الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرّة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرّة، ولتكن بهذه الحركات أنواع الأنوار الشمسية من الأحمر إلى البنفسجي، ولتكن هناك سبعة ألوان، ولتكن مزاجاً واحداً، وهيئة واحدة، فتظهر للحيوان نوراً للشمس ظاهراً للعالمين.

إطاعة الكهرباء والأنوار لربها

فدارت الكهرباء كما أمرها الله، وكانت منها الأنوار الشمسية والقمرية والكوكبية.

خطاب الله للأنوار
أن تكون أسرع فتكون منها الغازات والسوائل والجامدات

ثم خاطب الله الكهرباء فقال: هاأنت ذه قد أتيت طائعة وامتثلت أمري، فهذه أول خطوة من خطوات مخلوقاتي، ألا فاسمعي، جدّي السير مسرعة، ولتكن لك في الثانية الواحدة نحو ستة آلاف مليون مليون حركة، فليكن منك الهواء والماء والأرض والأحجار وكل نبات وكل حيوان، ستظهرين أيتها الكهرباء لعون الناس والحيوان بهيئات مختلفات، يحسونها فيقولون: هذا غاز، وهذا سائل، وهذا صلب، وفي الحقيقة لا غاز ولا سائل ولا صلب، ما هذه إلا أضواء كهربائية اختلفت سرعة حركاتها فاختلفت أفعالها، فسميت حجراً وشجراً وماء وهواء، هذا أول الأمر وآخره، وفي الحقيقة لا شيء ولا مادة، وما هي إلا حركات في عالم لا ترونه، وهذه الحركات متنوّعات، ولهذا التنوّع نتائج عجيبات.

أيها الهواء، ليكن فيك جند للإحياء وجند للإماتة، فإذا اشتدّت عواصفك وقواصفك فأنت إذن جند الهلاك، تهدم القصور والدور، وتقتلع الأشجار، وإذا كنت خالصاً من الأعراض المؤذية من البرد الشديد، والحرّ الشديد، فأنت رحمة للعالمين. وأنت أيها الماء، قم بمنافع عبادي، وكن حياة كل حيّ، وإذا أصابك عارض مما ذكرناه فأنت من جند الإبادة والإهلاك. وهكذا قال الله لكل حجر وشجر ونبات وحيوان: إنكنّ جميعاً تكونون جنودي في حصول الحياة كما تكونون جنودي في إحداث الممات. أيتها المخلوقات اسمعي.

هنالك صرخت تلك المخلوقات مرّة واحدة وقالت: رباه. لِمَ لم نكن جند الحياة فحسب؟ولم جعلتنا للضدين؟ فقال لها: أيتها المخلوقات، إنكنّ لا تعلمن ما اعلم، أنتنّ من المادّة، والمادة ضيقة العطن، قليلة الفطن، لا تسع كل ما أعلم من الصور والأجيال والأحوال، فعلمي يسع من الصور ما لا تحتمله مادتكم كما تفهمه عقولكم، فأنا إذا جعلتكم جند الرحمة والحياة فقط لم يكن موت، فيكون بخل في العطية، ويكون العالم المادّي جيلاً واحداً يبقى آلاف الآلاف من السنين، وملايين الملايين من القرون والأحقاب، فأيّ بخل أفظع من هذا؟ فلما عجزت مادّتكم عن أن تسع هذه الصور كلها، ولم تتحمل إلا صورة بعد صورة تلطفت فيها وقدّرت الموت والحياة، وأنفذت جندين: جنداً للإحياء، وجنداً للإبادة، لتسع المادّة ما تحتمله من صور الإحياء بقدر الإمكان، فهاكم أولاء يا عبادي:

(١) هذه الذرّات الصغيرات اللاتي تعيش وتتكاثر في الأرض وتتوالد بلا حد ولا عدد، وتفتت الموادّ الأرضية التي تصبح غذاء للنبات، فهذه المادّة نبات فطري يعمل لحياة النبات المعلوم، فهذه جنود نباتية أعددتها للحياة.

(٢) وهناك جنود أخرى من هذا النوع تتكاثر في الموادّ المتخمرة نعدّها للفساد وللهلاك. وهذا تقدم شرحه في بعض أجزاء هذا التفسير.

(٣) ثم إنه لا طير ولا دابة ولا حشرة إلا ولها عطف على أبنائها، فهي تبني العشّ، وتطعم الفرخ، أو ترضعه اللبن إلى آخر ما هنالك، فهذه بهذا الاعتبار جند الحياة.

(٤) ولا أسد، ولا نمر، ولا فهد، ولا وحش، ولا صقر، ولا شاهين، إلا وجعلت حياتها موقوفة على أكل الأرانب والغزلان وجميع آكلات الحشائش من الحيوان. فهذه من هذه الناحية جنود الإهلاك.

(٥) ومن جنود الإهلاك الجراد الذي يسطو على المزارع فيأكلها فيجوع الإنسان ويموت.

(٦) ومنها النمل المحاربة لنمل آخر فتهلكه بلا شفقة ولا رحمة في جميع الأزمان.

(٧) أنا سلطت العنكبوت على الذباب إذ تصطاده بشبكاتها اللطيفات.

(٨) وسلطت طيور «العنز» على الجراد فيكون لها طعاماً سائغاً نافعاً للآكلات. مذكور في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾[آل عمران: ٢٦] الخ.

(٩) وألهمت بني آدم أن يأكلوا السمك، والطير، والأنعام، كل هؤلاء جيوش الإماتة والإعدام.

(١٠) كل هذه القاتلات المهلكات عاطفات على أبنائها، وفلذة أكبادها، فهي جنود السماوات والأرض، جنود الإحياء، وجنود الإهلاك.

(١١) وهناك جنود لي في نوع الإنسان، وهذه منها الخير ومنها الشرّ.

(١٢) أنا أوحيت إلى الأنبياء أن يعلموا عبادي العلم والدين، وأمرت بعضهم أن يستعمل السيف أحيانا، وأمرت خاتم الأنبياء أن يكون له جنود معنوية، وجنود حسية، فالأولى هي المواعظ والحكم، والمجادلة بالتي هي أحسن، والثانية هي الجنود المجندة بالسيف والسنان، والضرب والطعان، وأمرته أن لا يستعمل الجنود الحسية المادّية الجرمانية إلا بعد أن يرسل الجنود المعنوية النورية، فتكون تلك الجنود لإهلاك العاصين، ولحماية المطيعين، فالجنود النورية العلمية، والجنود الحسية المادّية الإنسانية تكون لإخافة الضالين، واطمئنان المهتدين.

(١٣) هنالك ظهر في الوجود أمة إسلامية عظيمة، لها كيان خاص، وحياة منتظمة، كأنها هيكل إنسان حيّ، هي أمة كفرد، هم كالجسد الواحد.

(١٤) ولكني عدل رحيم حكيم، وقد سبق أني قلت لكم: إن حكمتي قضت أن هذه المادة يجب أن تسع الصور المختلفة، فإذا أبقيت هذا الهيكل الإسلامي بلا تغير مستمرّ فيه كان ذلك خطلاً في النظام، فلا بدّ من التغير والتبدّل، لتحتمل المادّة الأرضية جميع الأوضاع الممكنة.

(١٥) هنالك سلطت الشياطين على قلوب ملوك الأمويين، والعباسيين، والأخشيديين، والطولونيين، والسلجوقيين، والأندلسيين، والزياريين، والغزنويين، والحمدانيين، والفاطميين، والمماليك البرّية والبحرية، والعثمانيين، وغيرهم، فوسوسوا إلى كثير منهم بالإسراف في المطاعم والملابس والنساء والظلم والقتل، وسلطتهم أيضاً على رجال من أهل العلم، فأخذوا يقذفون في الأمم الإسلامية مقالات تحضّ على افتراق الكلمة، وتشعب الرأي، وذلك بتأويل الآيات، ووضع الأحاديث، والجدل والمناظرة، فكانت ٧٣ فرقة، وكل فرقة أصبحت فرقاً، كل يدّعي أنه هو الأحق بالدين وسواه في ضلال مبين، هاأنا ذا يا عبادي صنعت في هيكل الأمم الإسلامية ما فعلته في هيكل الحيوان، هيكل الحيوان تنحل أجزاؤه، وتتفرّق أعضاؤه، ولكن عناصر جسمه باقيات في الهواء والماء والتراب، هكذا أمم الإسلام باقيات ولكنها متفرّقات، فلا زالت تتبعثر وتتناثر قليلاً قليلاً، فزالت الدولة الأموية، ثم العباسية، ثم الدول الأخرى، واستقلّ كل جزء حتى عصرنا الحاضر، إذ أصبح الإسلام قطعاً متناثرة، وأجزاء منبوذة، وقد التهمته الأمم التهاماً، كما هي شأن الفريسة في الصحراء (قبل سنين أما الآن فإنها آخذة في الالتئام).

(١٦) أوعزت إلى دولة الروس أن كوني حجر عثرة في طريق العثمانيين، وحاربي الصين، واقعدي لبلاد الشرق بالمرصاد، فتوغلت فرنسا وإنكلترا في بلاد الإسلام، ومزقتها ممزقا شاملاً لترجع إلى عناصرها الأولية كما يرجع النبات والحيوان عند هلاكه.

(١٧) ثم كانت الحرب الكبرى، فقلت لأوروبا: كفي عن الشرق والشرقيين، فقد جاء دورهم وهم سيكونون أنفع للعالم منكم أجمعين.

(١٨) فيا روسيا دعي النصرانية التي خنقت الإسلام خنقاً، وكوني شيوعية بلشفية، ولتقم بجانبك تركيا الجديدة والصين والعراق والأفغان وإيران، فقم يا شرق، وكفّ يا غرب، واستيقظي يا

أمة الإسلام، هذا دوركم أيها المسلمون، قوموا من رقدتكم، رقدتم قروناً فاستيقظوا قروناً، أنتم اليوم جيوش للإحياء وللإهلاك، وفيكم جيوشي المعنوية النورية والحسية الجرمانية، وكفي يا إنكلترا، ويا فرنسا، ويا إيطاليا، عن ظلم عبادي المسلمين، قد انتهى دوركم أجمعين.

(١٩) ثم أوعزت إلى جميع المسلمين في الهند والصين والأفغان وبلاد جاوة والملايو وشمال أفريقية وجميع آسيا وأوروبا أن اتحدوا وكونوا يداً واحدة، وكونوا خير الأمم أجمعين، وفي نفس الوقت قلت: أيها الفرنسيون، اعجموا عود المسلمين في مراكش، وابلوهم بالشرّ، وأنتم يا طليان اصنعوا شراً في طرابلس، لأني أريد بشركم ارتقاء واتحاد أمم الإسلام. وهاهنا قال الأستاذ الصالح لي: فما كادت الأمّان تفعلان بعض الشرّ في زماننا حتى قام المسلمون على بكرة أبيهم في سوريا والهند وبلاد جاوة يقاطعون بضائع الأمتين، ويحرّمون مدارسهم، هاهنا ظهر في الإسلام عالم جديد لم يكن معروفاً من قبل، هاهنا ظهرت أمته وهي التي ستكون كما قال الله فيها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[آل عمران: ١١٠]. هذه أمة لم نعرفها من قبل إلا قليلاً، أمة كانت متقاطعة متدابرة، إلا في العصر النبوي وما يقرب منه، أمة هاجمها الصليبيون أيام صلاح الدين، فلم يقم في وجوههم إلا بعضها، أما الباقون فإنهم تخلفوا عنها في شمال أفريقية وفي غيرها، أما اليوم فإن الحوادث المزعجات جمعت كلمتهم، وسيكون لهذا في القريب العاجل شأن عجيب. انتهى كلام الصالح المتخلل خطاب الله الخيالي له.

(٢٠) ثم يقول سبحانه: وألهمت رجالاً ورجالاً في بلاد الإسلام أن ينصحوا بلم الشعث، وجعلتهم جنوداً معنوية نورية تفتح معاقل القلوب، وتحتلّ النفوس، وتهزم جنود الشياطين وتطاردهم وتفلّ عروشهم، وتهزم جموعهم، فتقضي على النعرات القديمة، المفرّقات للكلمة، فلا تبقى تلك السفاسف، ولا تلك السموم الفتاكة الممزقة لهيكل هذه الأمة بأنواع المثبطات المؤنسات والبدع، والانحياز للفرق المتشعبة، والطوائف المتفرقة، فلن يضير هذه الأمة بعد اليوم اختلاف المذاهب والشيع وتفرّق الأهواء بطرق الصوفية، وتنازع الرئاسات، فإن نور العلم سيعمهم أجمعين، ويرون أن هذا التنوّع والاختلاف ليسا في أصل الدين، بل هما في عوارض عرضت عليه من خارجه لا من داخله، فيلتئمون ويتحدون اتحاداً جوهرياً، وإن اختلفوا اختلافاً عرضياً، وهم يتقون.

(٢١) ومن جنود الأنوار تلكم العلوم التي بها تدرس هذه العوالم المحيطة بالناس في الأرض وفي السماء، فهي هي الرباط الجامع للأمم على وجه الأرض، ولأمة الإسلام، وبها لا بغيرها يدرك المسلمون سر التسبيح والتحميد والتكبير، ويفهمون سر الأحاديث الواردة في فضائلها، والأقاويل الواردة عن الأخيار في محاسنها، وكيف تكون سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم. وكيف يكون التسبيح والتحميد غراس الجنة. وما هذه الرموز والأعاجيب.

لن يعرف المسلمون تنزيه الله في أفعاله الذي يقتضيه التسبيح إلا بإدراك بعض أسرار الطبيعة، فإذا علم المسلم علماً ليس بالظن أن القروح والدماميل ــ فيما تقدم قريباً ــ وأن الحمى وأمثالها لم تخلق في الإنسان إلا لإسعاده، ولو لم تكن تلك الآلام قضي عليه، فإنه هناك يفهم ما هو التسبيح،

وهناك يفهم كيف كان ذلك التسبيح غراس الجنة، لأنه لا سعادة في دنيا، ولا في آخرة، إلا بالاطمئنان وإدراك الحكمة في خلق هذا العالم، فإذا رأى الإنسان أنه محوط بعالم كله تنازع، وكله مصادمات وأمراض وبلاء وموت وذل وهلاك، فإنه لا يهنأ له بال، ولا تستقر له حال، بل هو في عالم مزعزع الأمن، لا ثقة فيه، بل عالم كله نقص وشين، فلا أمن فيه ولا اطمئنان، وهنا قال ذلك الصالح: فلأكن أنا صحيح الجسم، كثير الخيرات، تغدق عليّ النعم من كل جانب، ولكني أجد الناس حولي يموتون ويمرضون، والحشرات تموت، والبهائم والطيور، وكل لكل عدو، فإني إذ ذاك لا يستقرّ لي قرار. فإذا أدرك العقل أمثال هذه الأسرار التي ظهرت في هذا الكتاب وفي أمثاله، فإنه يصبح في نفس هذه الدنيا وقد ابتدأت سعادته، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾[يونس: ١٠]، وصرّح بالحقيقة الناصعة فقال: ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ ﴾[يونس: ١٠]، وفي آية أخرى قال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾[الدخان: ٥١]، وفي أخرى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس: ٥٨].

هذه هي الأسرار التي في الإسلام، وفي آية أخرى يقول: ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرعد: ٢٣-٢٤].

لا سلام ولا أمان إلا بالوقوف على الحقائق كالتي في هذا التفسير، ولن يكون سلام في بلاد الإسلام إلا بجنود الله المجندة المعنوية النورية التي تفتك بجنود الجهل المخيمة على عقول القرون الإسلامية المتشاكسة، فتقطع دابرها، وتفلّ جموعها، وتلك الجنرد إنّما هي الحكمة التي يقذفها الله في قلوب المصلحين شرقاً وغرباً، ومنهم قرّاء هذا التفسير الذين سيكون منهم ملهمون وهم مفلحون ناصحون. اهـ.

فلما سمع صاحبي ما قصصته عليه من تلك الخطرات الخاطرات لذلك الصالح قال: هذا كلام حسن، ولكن من ذا الذي يدّعي أن الله يخاطبه في زماننا؟ وكيف تنقل خطاباً عن صالح يدّعي ذلك؟ فقلت: إنه لم يقل إلا أنه خيال، ولكن هذا الخيال مبني على العقل. فقال: ولكن فيه مبالغة في أمر المسلمين، وإنهم الآن ارتقوا ارتقاء عظيماً. هذا ما يفيده هذا المقال. فقلت: سترى في اللطائف الآتية في كلام «لوثروب استودارد» أن الأمم الإسلامية ارتقت اليوم طفرة، وقد نفضت غبار الكسل واستيقظت، وضرب الأمثال، وأتى بما لا حدّ له من ضروب الحجج في مقالات متتابعات ستتضح اتضاحاً تاماً فيما ستراه إن شاء الله تعالى كما قلته لك. فقال: ولكن ما بالنا نرى بعض الأمم الأوروبية تضغط ضغطاً شديداً على المسلمين. فقلت: ألم يتضح لك في هذا المقال اتضاحاً تاماً أن ذلك الضغط إنّما هو لإيقاظ الأمم الإسلامية كما تقدم في ذلك الخطاب الخيالي، ألم تعلم أن الجيوش المعنوية النورية العلمية هجمت على قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فهذبت ونقحت، ونبذت الشرور وملأتها بالخيرات.

جيوش النور عمت بلاد الإسلام الآن، وستقتحم ما بقي من حصون الجهالة، وتفتح المعاقل والقلاع، وستحتل كل ثكنة، وكل حصن، وكل معقل في بلاد الإسلام، وما ضغط الأوروبيين على أمثال مراكش وتونس والجزائر وطرابلس وغيرها إلا كما تتكاثر الميكروبات في الجسم، فيكون دمل

وقيح فيصح الجسم، أو كما تكون حمى وهي لم تخلق إلا لصحة الجسم ونظافته وسعادته، لا لإضعافه وإهانته، لا شرّ في الأرض إلا لخير كما لم تكن الحمى إلا لصحة البدن ـ كما تقدم قريباً ـ وهاهي ذه جيوش النور تغزو القلوب الإسلامية فتصلحها، وتتبعها جيوش الدول فتغزو الأمم الظالمة أولاً بالإعراض عن المعاملة، ثم تستقل وتعظم بين الأمم أجمعين، فليس الضغط ولا الظلم الواقع على الأمم الإسلامية إلا أشبه بعمليات جراحية يجعلها الله لها باباً للشفاء كما جعل الحمى والأورام أبواباً لصلاح الجسم، إن العلم اليوم كشف الحقائق، إن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه معنى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣].

إذا أبيدت أمة من الوجود فذلك لأنها لا معنى لبقائها إلا أن تذل وتخضع، كما يموت الإنسان إذا لم يصلح للبقاء في الحياة، وإذا أذلها الأعداء فذلك لتذكيرها فتصلح شأنها.

إن العلوم اليوم قد فتحت أبواب الحقائق على مصراعيها، ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[غافر: ١٧]، وما عرفناه من الحقائق القليلة دلنا على باقيها، فأي فرق بين الموت وبين الجرح والحمى، فإذا كان الجرح لإصلاح البدن فهكذا الموت لإصلاح الروح وخلاصها من أدران البدن كما خلص البدن من المؤذيات، وشفاؤها بزواله كما شفي المريض بخروج الصديد والدم من بدنه بالقرح، لأن البدن الضعيف قرح النفس، وكشفاء الأمة من تفرق شملها، وتشتت جمعها، بدخول الأعداء بلادها، فيكون الرقي بلسماً لجراحها، وظلمهم فيها، وعسفهم لها، ما هي إلا عمليات جراحية أرادها الله لهم للإصلاح، وهذه كلها جنود الله عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[الفتح: ٧].

فلما سمع صاحبي ذلك قال: صف لي جنود النور إتماماً لتفسير الآية. فقلت: جنود النور مسموعة ومنظورة ومعقولة، فكل مخلوق في أرض أو سماء له صورة تراها العيون، فتكون في الخيال فيفهمها العقل، فتكون علماً لأولي الألباب، وهذه الصور المخلوقة في السماوات والأرض أبدعت بعلم وإرادة وقدرة كما هو معلوم، وللإنسان لسان وشفتان وحلق، والصوت يتردد بينها، وله عقل وإرادة ومعان في نفسه، فهو يخرج تلك المعاني بهيئة أصوات تكون حروفاً فكلمات، فهذه الكلمات تعبر عن هذه الصور كلها وتسمعها الأذن، كما رأت العين صور الموجودات، والعقل يتقبلها على علاتها، ويبحثها كما يبحث المبصرات، فهذان جيشان من جيوش النور وهي جيوش الإسماع والإبصار، فكما أخذ النور الصور من الجامد والسائل والغاز فأوصلها إلى العيون؛ هكذا أخذ الهواء الألفاظ التي فيه الواردة من ضغط اللسان والشفتين والحلق وأوصلها إلى الآذان، وهناك جنود عقلية وهي المعلومات المستنتجات في العلوم جميعها من رياضية وطبيعية وإلهية، فكلها جنود عقلية لا حسية، منيرة، جميلة، لا تدع شيئاً من الجهالة إلا جعلته كالرميم، وقد كثرت اليوم في بلاد الإسلام.

وكما رأينا أن المادة تختلف اختلافاً في صورها لا حدّ لمرآه، هكذا الصور اللفظية التي أظهرها اللسان وما حوله من الأعضاء لا حدّ لمداها، تنوّع في المادّة وتنوّع في الكلام، المادة الجميلة برعت وأبدعت في الإفصاح عن مكنون الجمال الإلهي وكلامه النفسي الذي لا حرف له ولا صوت،

فالأشجار تحدثنا، والأزهار تؤنسنا، والنجوم تدهشنا، والجبال تنعشنا، وكل ذلك آثار لذلك الجمال والكمال، ما العالم إلا حركات، فإن كان في الأثير فهو المادة، وإن كان في الهواء فهو الكلام، الصور المادية لا تكون إلا بدوران الأفلاك والليل والنهار، والصور اللفظية لن تكون إلا بلسان وشفة وحلق ويتردد الصوت بالشهيق والزفير بين الحلق والشفتين، فهاهنا تنوّع، فحروف، فكلمات، فجمل، فأمثال وخطب ومواعظ على مقتضى تصوّر العقول.

تفنن في صور المادة وتفنن في صور الألفاظ

أحدث الناس بصفاء نفوسهم قصصاً وروايات، وأودعوا فيها حكماً وعلماً، تقليداً لتلك الحكمة العالية المبدعة في المادة جمالاً وجمالاً، فجمال المادة لحياة المتعلمين، وجمال الكلام لهداية الإنسان، للصور المنظورة ما لا يتناهى من المنفعة والجمال، أو السطوة والإذلال، وللصور اللفظية ما لا حد له من الهداية والإضلال، جنود جرارة، تتردد الشمس في أبراجها، والقمر والكواكب في منازلها، فتكون صور الموجودات، ويتردد الصوت بين المخارج كـ« الحاء » في ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ و﴿ ٱلْحَمْدُ ﴾، و« العين » في ﴿ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ في سورة «الفاتحة»، و« الغين » في ﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾، و« الهمزة » في ﴿إِيَّاكَ﴾، و« الهاء » في ﴿ٱللَّهِ﴾، وهذه حروف حلقية. وبين « اللام » و« الدال » و« الميم » وغيرها من حروف شفوية أو نحوها، فتكون تلك الحروف، وتكون تلك الكلمات؛ كما يتردد النهار والليل، والصيف والشتاء، فتكون تلك المخلوقات.

عجب! جنود لفظية، وأخرى نورية، وثالثة عقلية، وكلها بالحركات، واختلافها باختلاف أماكنها، واتفقت الغايات، إن للصوت لدولة وصولة كما أن للطبيعة دولة وصولة.

هاهو ذا الزمان الذي ظهرت فيه صولة اللسان وجنود الرحمة لأمم الإسلام، ناموا أجيالاً وأجيالاً، وكانوا في القرون الأخيرة أطفالاً وجهالاً، إلا حكماءهم وعلماءهم العظماء الذين كانوا غير آمنين، أما اليوم فإنهم أخذوا يصولون ويجولون، ويؤلفون وينصحون، ولقد امتدت صولة القلم النائب عن اللسان بالكتابة وانتشرت الكتب، وأسرع المسلمون للترحيب بجنود العلم، جنود النور، وأخذ المصلحون يضربون لهم الأمثال، فهبوا من رقدتهم وبعثوا بعثاً جديداً من أجداثهم وهم مجدّون.

فقال صاحبي: إن هذه المعاني غريبة عن هذا الموضوع، ولكنها دخلت فيه بهيئة أنها من عناصرها فأرجو أن تبين لي كيف خطرت لك هذه المعاني؟ وفي أي وقت؟ فقلت: هذه المعاني خطرت لي أمس يوم السبت ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٣١م، فإني كنت في مزرعتنا بالمرج، وبينما أنا راجع وقد جرت عادتي أن أكون في ذهابي وإيابي ماشياً على قدمي، وذلك ربما يبلغ ١٢ كيلو أو أكثر. ويكون الذهاب والإياب في يوم واحد غالباً، أو في يومين إذا بتّ هناك، فبينما أنا راجع إذ نظرت مزرعة « ذرة شامية » ضحى، وألفيت تحتها حشائش تبلغ الذراع ارتفاعاً، لها زهر جميل، وقرون طويلة دقيقة، وذلك الزهر ذو لون أبيض، يميل للزرقة، ولها قليل من الرائحة العطرية، وتلك الحشائش تترنح ذات اليمين وذات الشمال تحت أعواد الذرة المائسات القدود، الحمر الشعور، اللاتي تتدلى على « المطر »، وهو الذي يسميه العامة الكوز، وهو الذي فيه الحب، فأعجبني ذلك المنظر، وكأنني لم أر هذه العجائب إلا ذلك الوقت، وبينما

هذه المناظر آخذة بمجامع عقلي من طريق البصر، إذا طنين الذباب، وغوير الأعشاب، يطربني من قبل السمع، فهناك طرب فوقه طرب، والفلاحون يغدون ويروحون حولي ولا هم يفكرون، فأخذت بعض تلك الحشائش، وسألت الفلاحين عن اسمها، فقالوا: هذه لم نرها إلا منذ سنتين اثنتين، ولا نعرف لها اسماً.

وهنالك تذكرت حادثة حدثت لي أيام أن دخلت مدرسة «دار العلوم»، فبينما أنا مع التلامذة في السنة الأولى، ولا عهد لي إلا بالأزهر وبالحقول، وقد أنست بها وبجمالها، إذا بالمدرسة تصطفي من التلامذة ثلاثة وأنا منهم، لنكون مع المرحوم أستاذنا الشيخ حسن الطويل في الأوبرا الخديوية، لأن الخديوي توفيق باشا سيكون فيها تلك الليلة، وهذه أول مرة رأيت فيها التمثيل، فرأيت إذ ذاك عجباً ما فوقه عجب، غير أني لا أتصوره، ولكن لما فتشت في نفسي عن الجمال الذي كنت أحس به في الحقول، وطنين الحشرات، وتمايل الأغصان، ومنظر النجوم، ألفيت أن ذلك التمثيل الطبيعي في الحقول كان أبهر عند نفسي وأجمل، وخيل لي أن هذا رتبته عند نفسي كرتبة الجمال الصناعي بالنسبة للجمال الطبيعي، وصرت أتعجب من نفسي كيف كان ذلك حكمها، فهذه هي الفكرة التي خطرت لي عند مشاهدة ذلك النبات في الذرة أمس ضحى، ثم خطر لي أيضاً ما تقدم من صور المادة وصور الألفاظ وجنودهما، وأن الأمم التي لا تهب عقول مصلحيها لإحداث الصور اللفظية لإصلاح شأنها لا حياة لها، فحمدت الله على ذلك، وقلت: هاهو ذا الكتاب جند من الجنود النورية، والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: الموضوع طال فهل تسمح لي بتلخيصه ليتصوره الأذكياء. فقلت: نعم.

(١) نحن في سورة «الفتح» والله قد فتح للنبي صلى الله عليه وسلم فتحاً مبيناً.

(٢) هذا الفتح بجنود إنسانية مسلمة.

(٣) ومعلوم أن زمن النبوة ينقضي والباقي إنّما هو الدرس والفهم، فأخذ الله سبحانه يفهم المسلمين ما هي الجنود؟.

(٤) فذكر أن الجند ليس خاصاً بالجنود التي ترونها. كلا.

(٥) ففي السماوات جنود وفي الأرض جنود.

(٦) ومن جنود الأرض الميكروبات التي تقتحم جسم الإنسان فتمرضه أو تهلكه، وجنود أخرى في نفس الجسم تطاردها في كل أطراف مملكة الجسم.

(٧) وهناك تكون قلاع، وحصون، وحرب، وخنادق، وتعبئة الجنود، إذن هذه من جنود الله المذكورة، إذن هذا درس عام لا خاص بزمان النبوة يدرس على مدى الزمان.

(٨) وهناك قسمت الجنود أربعة أقسام: حسية ومعنوية، فالحسية لإهلاك الأعداء تارة، ولإبقاء الأولياء تارة أخرى، وهذا ظاهر في النمل والجراد والأسود والنمور والسباع والإنسان، ومن الجيوش المعنوية أيضاً إصلاح وإفساد، فالإصلاح بالأقوال الجميلة، والإفساد بإلقاء الفتن والضلال والافتراء، فالأولى جنود نورانية، والثانية جنود ظلمانية.

(٩) وبيان أن هذه الجيوش كلها من صور تحدثها أضواء الكواكب، فتنطبع في الأبصار، فتدركها البصائر فتعقلها وتحدث لها نتائج، أو من ألفاظ تحدثها الشفتان واللسان والحلق والحنك إلى آخر ما في علم التجويد وفن القراءات، أومن نفس العقل واستنتاجه، فهذه كلها جنود مبصرات أو مسموعات أو معقولات.

(١٠) وأن الأمم الإسلامية اليوم قد أمدّها الله بجنود نورية، منشؤها العقل، ومصوّرها اللسان والشفتان الخ.

(١١) وينوب عنها الكتب المنشورة اليوم في بلاد الإسلام مما أقسم الله بها، فقال: ﴿ رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾[الطور: ٣].

(١٢) وهذه الجنود النورية بعثها الله في بلاد الإسلام لتطهرها بما يشبه العمليات الجراحية في أجسام الإنسان، وذلك بضغط الأمم عليهم وإذلالهم، فهذه الجنود العلمية أشبه بالميكروبات في جسم الإنسان الواحد الحي، إذ تسطو على الميكروبات القاتلة فتغلبها وتطردها من الجسم على هيئة قيح وصديد، وذلك هو الحاصل الآن في بلاد الإسلام، فإن العلم المنتشر اليوم فيها يطرد عدوين: عدواً معنوياً ظلمانياً وهي الخرافات والجهالات والضلالات. وعدواً حسياً جرمانياً مادياً وهم الأمم الأوروبية، وهذه الأمم لن تبقى في أمة ظهر فيها نور العرفان.

(١٣) ولما سألتك عن هذه المعاني الأخيرة متى خطرت لك؛ ذكرت لي أنها خطرت لك لما كنت راجعاً من مزرعتكم وأنت متوجه إلى المرج، وأنك إذ ذاك أبهجك منظر الحشائش التي لم تعرف لها اسماً تحت الذرة، ووازنت بين ابتهاجك بمناظر الطبيعة ومناظر الصور المتحركة، وذكرت حادثتك في ذلك أيام دخول «دار العلوم».

هذا مجمل ما تقدم. فقلت: لله درّك، لقد لخصت فأجدت وأحسنت. فقال: الحمد لله رب العالمين، ثم قال لي: ولكن لا يزال لهذا المقام بقايا. فقلت: وما هي؟ فقال: إن الجنود النورية يعوزها إيضاح أتم، وعلم أجمل، وحكمة أعم. فقلت: إن الجنود النورية على قسمين: أولهما الجنود النورية الحسية، وثانيهما الجنود النورية العقلية، والقسم الثاني أحق باسم الجنود من القسم الأول. فقال: حدثني رعاك الله عنهما. فقلت: لأقدم مقدمة فأقول:

الناس أضياف ربهم في هذه المادة يحرسهم بجنوده

فقال: إن هذا العنوان غريب جمع بين الضيافة والحراسة بالجنود. فقلت: إن لهذا سبباً، إني أمس في ليلة السبت التي هي آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٣١ كنت في مزرعتنا، وقد جرى حديث الضيافة وجاء حديث حاتم الطائي مع مخطوبته «ماريه بنت عفزر» وهي من بنات ملوك اليمن ومعه النبيتي والنابغة، فهؤلاء الثلاثة لما خطبوها لأنفسهم قالت لهم: سأتزوج أكرمكم وأشعركم، فانصرفوا، ثم لبست ملابس عجوز ومرت عليهم في ديارهم، وكل منهم قد ذبح ناقة له، وأخذت تستجديهم، فأعطاها حاتم أحسن ما في الناقة، وأعطاها الآخران ذيلي الناقتين، فلما حضر الثلاثة عندها بعد ثلاثة أيام، وأتوا لها بالهدايا، ووضعت الطعام أمامهم، وجد كل منهم أن ما أمامه هو الذي أعطاه لامرأة

شمطاء ـ هي نفسها ـ فخجل الرجلان من فعلهما، فأما حاتم فإنه رمى ما أمامهما من الطعام وأعطاهما مما أمامه، وقال كل منهما شعره قبل الطعام، وكان شعر حاتم الأبيات المشهورة وهي:

أماويّ إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماويّ إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً حلّ في مالي النذر
أماويّ إن يصبح صداي بقفرة ... من الأرض لا ماء لديّ ولا خمر
تري أن ما أنفقت لم يك ضرّني ... وأن يدي مما بخلت به صفر
لقد علم الأقوام لو أن حاتماً ... أراد ثراء المال كان له وفر

فأما أشعار الآخرين فإنها كانت كلها فخراً على هذا النحو، وما فرغا من الطعام حتى قام الرجلان وبقي حاتم وتزوجها. انتهت الحكاية في المسامرة ليلة أمس.

انتقال نفسي بعد ذلك إلى الضيافة الإلهية

وما أتممت هذه المسامرة حتى أخذت نفسي تفكر في هذه الدنيا. الله أكبر، نظرت النحل ليلاً أمام القرية عند مزرعتنا والقمر في السماء، وهنالك طار لبي وقلت في نفسي: عجباً يا ربنا! الناس يفرحون ويمدحون ويحبون رب الدار إذا قدّم لهم طعاماً، وأوقد لهم مصباحاً، ومنحهم فراشاً، ويغمضون أعينهم عن كل جمال في الأرض وبهاء ونعمة، وينسون الجمال العام في الأرض والسماوات وهم غافلون ساهون لاهون عن رب دارهم الكبرى، وقناديله المعلقة في السماء، وأصناف الأشجار والأزهار والأنهار والبحار الواسعات، حقاً ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

يمدح رجلاً أجلسه في دار ضيقة محصورة، وأعطاه بعض طعام وغطاء، وقد جهل الدار الواسعة، وهي الأرض والغطاء الأكبر وهو السماء، والمائدة الواسعة، وهي هذه المزارع والأشجار والأزهار ذات الرائحة العطرية الجميلة المنظر، والأنعام، والقناديل المضيئة المشرقة ليلاً ونهاراً، فيا ليت شعري أين الثريا وأين الفانوس وأين الشمعة؟ اللهم إنك حبست هذه الأرواح في الأجسام فغفلت عن جمالك.

الجنود صنفان، ولا حصر لأفرادها

ولئن كان لرب الدار خدم وحشم وحراس، فهم قوم محصورون، ولكن للدار الواسعة، وهي هذه الدنيا حراس لا حصر لهم، وهم قسمان: قسم هي الأنوار المشرقات المحسوسات، ذات البهجة والأنوار، وقسم هي العقول الكبيرة والصغيرة، وأنواع الإلهام والغرائز.

عجباً يا ربنا! أرضنا فيها أنوار جزئية: في شمع العسل، والبترول، والغاز المستخرج من الفحم وأنوار الزيت المستخرج من الزيتون، وبذرة القطن، والسمسم، والقرطم وأضرابها، وأنوار الكهرباء.

سبحانك اللهم وبحمدك، ما هذه الأنوار؟ هي لنا هداية، لولاها لكنا في الأرض عمياناً لا نرى شيئاً، فهذه الأنوار جنودك الهادية لنا بمساعدة أبصارنا لطرقنا وأعمالنا، وهذه الجنود لا حصر لها، ولها قائد أعظم وهي الشمس، لولا الشمس لم يكن شمع العسل، إذ لولاها لم يكن مطر ولا سحاب ولا رياح، فلا نبات يحمل زهراً، ولا نحل يشتار منه العسل فيأكله فيصير عسلاً، ولولاها لم يكن

زيت يستخرج من القرطم والسمسم والزيتون، إذ لا شجر فلا زيت، ولولاها لم يكن غاز الاستصباح الذي خزن منذ مئات الألوف من السنين، خزنته الشمس في الأشجار بأشعتها فاستخرجه الناس الآن.

الله أكبر، الشمس قائد، وجميع الأنوار على الأرض جنود، للشمس ضوء فيه سبعة أضواء، وهي: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي، وهذه كلها تصبح لوناً واحداً، وهو النور المعروف، وهذه الألوان بعينها نراها في جميع أنوارنا التي نوقدها.

الله أكبر، الجنود الحسية التي تكفل هدايتنا في الحياة الدنيا وهي الأنوار مشتقة من قائدها الأعظم وهي الشمس، وهذا الصنف من الجنود مثال لما هو أعلى منه وهي:

الجنود المعنوية العقلية

جلّ الله، أبان لنا جنوداً نراها بأعيننا، وأظهر لنا أنها مشتقات من قائدها الأعظم، ثم وهب لنا عقولاً وهي الجديرة باسم الجنود، هي التي تستحق الإعظام والإجلال، فلئن هدتنا الأنوار إلى سبل الحياة فما ذلك إلا بواسطة عيوننا، وهل لعيوننا عمل إذا لم تكن لنا نفوس وعقول. كل إنسان، وكل حيوان لهن عقول تدبرها، وتقوم بأودها، وتصون حياتها، وتحفظ كيانها. فللنملة عقل، وللناموسة، وللصرصار، بل للخلية الواحدة من خلايا الجسم، وللخلايا الأولية التي تعيش في الماء الآسن ولا يفنيها إلا أن ينقطع عنها الغذاء، أو يأكلها الأعداء، فكل هذه لها عقول على مقدار ما تحتاجه. قال الشاعر:

سقى الله أرضاً يعلم الضبّ أنها ... بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس قنة ... وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

هذا قول العربي الجاهلي، وهو نفس ما قرّره علماء النفس في عصرنا الحاضر، إذ قالوا: كل قوة إدراكية في حيوان أياً كان فهي عقل، سواء أكان ذلك الحيوان إنساناً أم حشرات، أم طيراً، أم ميكروباً.

كل ذلك يسمى عقلاً، وهذا الإطلاق نفسه قاله الشيخ الخواص، وندّد على الناس في جهلهم أن للحيوان عقولاً، إذن الصوفية المسلمون نطقوا قديماً بما أتى به العلم الحديث.

الله أكبر، هذه العقول الإنسانية، والعقول الحيوانية، التي لا يحصرها العدّ، ولا يحيط بها حدّ، هي جنود الله في أرضنا، جنود وأيّ جنود، جنود تهندس المباني والمساكن والقلاع والحصون، جنود تهندس أقراص العسل، وتظهر نسج العنكبوت، وآجام الآساد، وأعشاش الطيور، وحيل الثعالب، وكرّها وفرّها، وحيلها في جلب قوتها، وتدبير الحرب والضرب في حرب النمل، وترتيب الجيوش النملية، وبناء المدائن المتقنة لحشرة الأَرَضة.

الله أكبر، هذه جنود الله، اللهم أنت الحكيم، أنت العليم، خلقت هذه الجنود العقلية فينا نحن بني آدم وحيواناتنا ودوابنا.

جنود العقول الإنسانية والحيوانية
وما يوازيها من جنود الأنوار السماوية

لك يا الله جنود عقولنا، وعقول الحيوانات في أرضنا، أنت هديتها بإدراكها بواسطة عيونها الناظرات بأضواء الكواكب، وأضواء السرج الأرضية، عقول جزئية، أو جنود أرضية، استخرجت

الأنوار الأرضية فاستعملتها، استخرج الإنسان من الشمع نوراً، ومن الغاز المستخرج من الفحم ضوءاً، وهكذا من البترول والكهرباء. جنود عاقلة استعانت بجنود محبوسة وهي التي استخرجتها.

يا الله عجب لنا! تحيط بنا أنوار الشمس ونحن لا نحمد عليها، فهي منسية، فأخذت تذكرنا بالظلام، وتحكم علينا أن نستخرج من الأرض نوراً نستضيء به، عقولنا اضطرت لاستخراج النور من موادّ الأرض، جزئيّ استخرج جزئياً، وهذه الأضواء مشتقات من أضواء الشمس، أضواء الشمس مركبة من ألوان سبعة، وهذه مثلها، لولا الشمس لم تكن أنوار هذه المواد الأرضية، لأنها سببها.

الاستدلال بالعقول الأرضية الجزئية على العقول الكلية السماوية

وهل يجوز في العقول الإنسانية أن يستند الضوء الجزئي إلى ضوء كلي ويكون مشتقاً منه؟ أي: إن أضواء القناديل الأرضية مشتقات من ضوء الشمس في السماء، ثم يكون الضوء المعنوي العقلي مستقلًا غير مشتق من عقل أكبر منه، وهل تكون هناك شمس هي أصل لأنواع الأضواء الأرضية المحسوسة، ثم لا تكون هناك عقول كلية منها تستمدّ هذه العقول الصغيرة علومها وإلهاماتها هذا لا يكون، قضى العقل أن للعقول الأرضية حيوانية وإنسانية عقولاً أكبر منها هي مناط استمدادها ومباءة آرائها، ونسبة عقولنا إلى تلك العقول الكلية كنسبة ضوء المصباح إلى الشمس، ونسبة آراء عقولنا إلى آراء تلك العقول الكبيرة كنسبة ضياء الشمعة إلى ضياء الشمس.

هذا برهان صادق لا خطأ فيه، يرجع للقضايا البديهية، والمعلومات الأولية، غاية الأمر أن النوع الإنساني اليوم نوع حيواني، غافل عن هذه الأمور العالية، جاهل بما حوله، اللهم إلا إنه غارق في الأمور العملية، كأن يطير في الجو، ويهلك المدن، ويخرّب البلاد، الناس اليوم في أرضنا أطفال جهال، عيونهم مقفلة، لا يحسون بما حولهم، إن عناصر عقولنا هي عناصر العقول الكبيرة، كما أن عناصر الضوء في الكهرباء والبترول هي نفس عناصر ضوء الشمس، وهي الألوان السبعة.

وإذا كان في ضوء البترول السبعة ألوان المعروفة، ونظيره ضوء الشمس الذي هو أصله؛ فهكذا عقولنا فيها ذاكرة وحافظة ومفكرة وخيال وحس مشترك وهكذا، فهذه كلها عناصر عقولنا تحلل إليها وترجع لها بعد تحليلها، هكذا تلك العقول الكبيرة، لا بد أنها تكون لها ذاكرة وحافظة الخ؛ منها استمدت عقولنا هذه العناصر ويختلف الأكبر والأصغر في عناصرهما بحسب صغرهما وكبرهما ونوع علمهما وأحوالهما، وما هذا إلا مجرد تشبيه لا يطبق تطبيقاً تاماً، لأننا نجهل أحوال الأرواح المجرّدة.

النتيجة صادقة لمقدمات أولية محسوسة

إن المقدمات محسوسة، فضوء الشمس، وضوء نحو البترول نراهما ونحللهما، وعقولنا وعناصرها التي منها تكوّنت نحسّ بها، فهذه أشبه بمقدمات منطقية اثنتان محسوستان وواحدة معقولة بالوجدان، ولم يبق إلا الرابع وهو نتيجة الثلاثة، وما ذلك الرابع إلا العقول الكبيرة، فإذا كانت عقولنا لا تنتفع بضوء أرضيّ إلا إذا استخرجته بفطنتها، وما تستخرجه تنتفع به؛ هكذا تلك العقول الكبيرة التي منها اشتقت عقولنا تدبر حركات الشموس في عالم الأثير حتى تستكمل وتقوى وتضيء، وهي

التي تسخرها بإذن الله في إيجاد ما أراده الله في هذه العوالم الأرضية بالحركات المنظمات، كما أننا نحن نصنع طعامنا مثلاً على ضوء الكهرباء والبترول الخ.

عقول كبيرة تنشئ شموساً كبيرة، وعقول صغيرة تصنع منازل ومآكل وشمعاً وعسلاً ونسيج عنكبوت، عقول كبيرة تنتج عقولاً صغيرة، فالأولى للسماوات، والثانية لأهل الأرض، شموس عظيمة مصنوعة ومدارة بواسطة تلك العقول الكبيرة، تشتق منها أجسام نورية أرضية لأعمال صغيرة أرضية، أضواء الشموس الكبيرة مشابهة لأضواء المواد الأرضية المضيئة، عقولنا الصغيرة عرفنا عناصرها ومِمّ ركبت، فهكذا يجب أن نقول في العقول الكبيرة التي تدبر الشموس، إن عقولنا على منوالها والاختلاف غالباً يكون بالكم، كما أن الاختلاف كذلك في ضوء الشمس وضوء البترول.

نتيجة هذا القول تفسير آية: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وآيات كثيرة في القرآن

بهذا وبهذا وحده نفهم: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الفتح: ٧]. الله أكبر، عطف جنود الأرض على جنود السماوات، لأن الثواني مشتقات من الأوائل، وتالله إني في أثناء هذه المباحث العقلية ما كان ليخيل لي أن في هذا العطف سرّه العجيب، قدم الله جنود السماوات على جنود الأرض ليفتح لنا بذلك باباً كان مغلقاً على أكثر الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

جنود الأرض مشتقات من جنود السماء، لذلك قدّم المشتقّ منه على المشتقّ، وهذه عجائب من أسرار القرآن. فلله جنود في السماوات، وهي التي نسميها ملائكة، نعم علماء الأرواح قالوا نفس هذا القول، وتقدم ما نقلته في هذا التفسير مراراً أن الأستاذ «أوليفر لودج» يقول: إن هنا عوالم روحية تحيط بنا، نسبتنا إليها كنسبة عقول النمل إلى عقولنا، وهي تهتم بأمرنا، وهي تحافظ علينا.

إيه أيها المسلمون، إيه أيها المسلمون، هذا هو كتاب ربكم، كتاب ربكم نفس العلم الحديث، إذن هذا القرآن جاء لأمم بعدنا، نعم هو كلام الله، وكلام الله أنزل لعباده المساكين في الأرض، أليس من عجب أن يقول هذا القول علماء الأرواح في زماننا، ثم يقوم البرهان الحسي الذي ذكرناه عليه، نراه في نفس القرآن، نسمع الله يقول لنا: أنا لي جنود في السماوات وجنود في الأرض، فيأخذها أكثر من قبلنا أخذاً مجرداً من البحث، ومن عرف من آبائنا منها شيئاً كتمه خوفاً من العامة.

هاهو ذا أيها المسلمون وضح الدين، القرآن نزل لفهم ما حولنا وما يحيط بنا، والحمد لله رب العالمين.

فقال صاحبي: إن أصل سؤالي لك إنّما كان موجهاً لإيضاح الأنواع الحسية والمعنوية، فكيف حضرت هذه البراهين في ذهنك، وهل كانت هذه في ذاكرتك؟ فقلت: نعم. فقال: وكيف ذلك؟ فقلت: إن أمرنا لعجب! لم تسألني سؤالاً إلا كان جوابه منظماً في نفسي قبل أن تسألني، فكأن هناك بين روحي وروحك وسائل أو رسائل بها تعلم روحي ما ستوجهه أنت إليها، فترتب السؤال والجواب أولاً، حتى إذا سألتني كان العلم حاضراً في النفس. قال: أنا لا أفهم هذا. فقلت: أريد بهذا القول أنك قبل أن تسألني مثلاً في هذه المرة كنت متوجهاً إلى ناحية الأزهر، ونفس هذه المسائل كنت كأني

أطالعها أمامي في صحيفة وكأني أقرؤها فيها، أنا أمشي والناس حولي، ولكن هذه المعاني وأنا في شوارع القاهرة كانت أمام مخيلتي، وهذه صورتها:

(عقل) سماوي يصنع ويدبر (الشمس)

يشتق منه وهي يشتق منها

(عقل) أرضي به يستخرج .... سراج ينتفع به

هذا ملخص ما مضى كله، كنت كأني أطالعه في صحيفة أمامي، فلما سألتني أخذت أكتب لك ما طالعته، هذه هي الحقيقة، وليست هذه الصحيفة أمام عيني، بل هي في مخيلتي، ومتى كتبت ما طالعت ووضعته في الورق تذهب تلك الصحيفة من خيالي ولا رجعة لها بل أنساها، وإذا أردت استرجاعها صعب عليّ ذلك.

فيا ليت شعري، ما هذه المعاني، وما هذه الصحيفة إلا أنها من عوالم تحيط بنا ونفوسنا متصلة بها، وهي التي رسمت لنا هذه الخطط، غاية الأمر أنها لا تعطي العلوم إلا على مقدار استعداد الأشخاص والأمم، وما تعطيه لنا من العلم الآن قد استعدت له أممنا الحالية، وعقولنا الإنسانية، وبها فهمنا آية: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفتح: ٧]، وقد قسمنا الجنود إلى مهلكة ومحيية، ولا جرم أن قوله في الآية الأولى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الفتح: ٤] إنّما كان ذلك عند ذكر جنود المؤمنين المجاهدين، ولكن لما قال: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[الفتح: ٧] كما قدمنا كانت العزة مناسبة لجنود النار التي أعدّت للتعذيب، إذن التقسيم الذي قسمناه للجنود من مقاصد القرآن، فنفس الآية لوّحت لقسمي الجنود، فجنود ذكرت معها العزة، وجنود لم تذكر معها، بل ذكر العلم، وهذا المقام به نفهم: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾[النازعات: ٥]، ونفهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: ١٠-١٢]، ونفهم: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[الطارق: ٤]، ونفهم: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٨]، ونفهم: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾[الذاريات: ٤]، ونفهم كيف أمرنا أن نؤمن بالله وملائكته إلى آخره، ونفهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[الأحزاب: ٥٦]، ونفهم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾[آل عمران: ١٨]، فعطف أولي العلم على الملائكة لأنهم كالمختصرين منهم، وهذا عجب أن يكون ما ذكرناه هنا ـ من العقول الكبيرة السماوية والعقول الصغيرة الأرضية إنّما هي آثار العناية الربانية، والله معلم الملائكة، وهؤلاء يفيضون الإلهام والعلم على الناس والحيوان بأمر ربهم، فالله عام العلم، والملك يتلقى منه الخ ـ هو الذي جمعته الآية في ثلاث كلمات.

ملخص ما تقدم وما يبنى عليه

(١) الله أكبر، في الجسم جنود هي الميكروبات السامة الداخلة فيه، والخلايا التي في الجسم المدافعة عنه، فهذان صنفان من الجنود: جند مهاجم، وجند مدافع.

(٢) وفي العالم المشاهد مثل ما في الجسم جنود مسلمة تحارب جنوداً كافرة.

(٣) في العالم كله عوامل الحدوث، وعوامل الفناء، فهما جندان كجندي الجسم وجندي الإنسان.

(٤) ورد أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن، وأن ما يصل إلى القلب إما لمة من الشيطان وإما إلهام من الملك. إذن هما جيشان أيضاً مرسلان للنفوس كالجيشين المرسلين للأجسام، فإذا جاء الشرع بالنوع الأول فقد جاء علم الطب بالثاني أشبه بضرب مثل للأول.

(٥) جيشا النور والظلمة، والحر والبرد، كل يعقب الآخر ويناظره كجيوش الجسم المحسوسة وما تبعها.

(٦) جنود النور الكبرى من الكواكب وجنود النور الصغرى التي يصنعها الإنسان فيما تقدم كجنود العقول الكبرى وهي الملائكة وجنود عقول الإنسان والحيوان في الأرض.

هذا ما فتح الله به في فهم قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[الفتح: ٤]. وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[الفتح: ٧].

كتب بعد فجر يوم الثلاثاء ٣ نوفمبر سنة ١٩٣١.

لما اطلع على ما تقدم صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير قال: لقد اطلعت على حديث للمهاتما غاندي، فوجدت به ما يشبه أن يكون ذيلاً لهذا المقام، فإنه ذكر أمرين: حباً وخوفاً، وليناً وشدة، وجعلهما محور كلامه، أفلا نلحق هذه الصفات بالجنود. فقلت: حدثني بما قاله غاندي. فقال: هاك ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ ١٧ أكتوبر سنة ١٩٣١م وهذا نصه:

غاندي يصف رحلته في المياه المصرية

المقاومة بلا عنف

قال المهاتما غاندي في مقالة نشرتها له جريدة الهند الفتاة ما يأتي: من محاسن الصدف أن الحديث بعد صلاة المساء دار على مسألة المقاومة من غير عنف، وأتيح لأصدقائنا المصريين الذين ركبوا الباخرة من السويس فرصة سماع شيء عن هذا الموضوع، ولا أرى بأساً في إعادة بعض ما قلته بهذه المناسبة: إننا بأعمالنا اليومية نقاوم بعضنا بعضاً من غير عنف، وقد نفعل ذلك بعلم منا أو بغير علم، وكل الجمعيات الصالحة قائمة على قاعدة اجتناب العنف، وقد تبين لي أن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الهدم والهلاك، وهذا دليل على وجود ناموس أسمى من ناموس الهدم والتدمير، ولا يمكن لجمعية حسنة النظام أن تكون قريبة من الفهم إلا إذا كانت تحت ذلك الناموس، ومن غيره لا قيمة للحياة، فإن كان هذا هو ناموس الحياة كان حتماً علينا أن نطبقه على حياتنا اليومية، فحيثما تقع الاحتكاكات، وحيثما نلتقي بخصم، علينا أن نغلبه بالتي هي أحسن، وبهذه الكيفية الساذجة طبقت هذا الناموس على حياتي، ولست أعني أن جميع مشاكلي قد حلت، ولكنني وجدت

أن ناموس المحبة قد أدى إلى تحقيق الغاية بطريقة لن تتاح بناموس الهدم والعداء. وقد قمنا في الهند بتطبيق هذا الناموس عياناً في أعظم مجال مستطاع، ولست أدّعي أن روح اجتناب العنف قد دبت في قلوب ثلاثمائة مليون نفس من سكان الهند، ولكني أدّعي أنها تغلغلت في النفوس أكثر من أية رسالة أو دعوة وفي وقت وجيز لا يكاد يصدق، ولم نكن كلنا نحن الهنود سواسية في اعتناق هذا المذهب، بل كان لدى أغلبية كبيرة بمثابة ضرب من ضروب السياسة، ومع هذا أود منكم أن تبينوا هل لم تتقدم الهند تقدماً عجيباً ظاهراً تحت حماية «المقاومة من غير عنف» ونفوذها العظيم الشأن؟.

وقلت رداً على سؤال آخر: إن الحصول على حالة عقلية للتمسك بمذهب المقاومة من غير عنف يتطلب الشيء الكثير من العناء والتدريب، ويجب أن يكون بمثابة نظام نسير عليه في حياتنا اليومية، وإن كنا لا نجد من نفسنا رغبة فيه فنقضي حياة كحياة الجندي، ولكني أوافق على رأي القائلين: إنه إن لم يكن اعتناق هذا المذهب من صميم القلب والعقيدة التامة كان أشبه بقناع خارجي يضر بصاحبه وبالآخرين أيضاً، ولا يصل المرء إلى مرحلة الكمال في هذا المبدأ إلا متى خضع له جسماً وعقلاً، وسار بموجبه قولاً وفعلاً، ولكن المسألة هي دائماً مسألة كفاح عقلي عظيم، ليس لأنني غير مطبوع على الغضب، ولكني أنجح في كل مرة تقريباً أن أملك نفسي وأضبط عواطفي، ومهما تكن النتيجة فإني أشعر على الدوام بكفاح يتنازعني لاتباع مبدأ اجتناب العنف بمحض إرادتي وبلا انقطاع، وهذا النضال يزيد المرء قوة للظفر، فالمقاومة من غير عنف سلاح القوي، أما الضعيف إذا لجأ إليها كانت لديه بمثابة رياء، فالخوف والمحبة على طرفي نقيض، فالمحبة لا تبالي عندما تعطي، ولا تدقق فيما تأخذ بدلاً من العطاء، المحبة تكافح العالم كما تكافح نفسها، وفي النهاية تصير صاحبة السيادة على كل شعور، وقد دلني الاختبار اليومي كما دل المشتغلين معي أن كل مسألة يمكن أن تحل إذا اعتزمنا أن نجعل ناموس الحق واجتناب العنف هما في نظري وحبها عملة واحدة «كذا»، أما إذا كان الجنس البشري يتبع ناموس المحبة من حيث يدري فلست أدري، ولكن هذا لا يجب أن يشغل بالنا، فهذا الناموس يسري كناموس الجاذبية، سواء أقبلناه أم لم نقبله، ومثلما يستطيع المتبحر في العلوم أن يأتي بالعجائب بتطبيق الناموس الطبيعي من عدة وجوه، كذلك الرجل الذي يطبق ناموس المحبة بدقة علمية يمكنه أن يأتي بعجائب أعظم، لأن قوى المحبة واجتناب العنف هي أعجب كثيراً وأدهى من قوى الطبيعة كالكهرباء مثلاً، فالرجل الذي اكتشف المحبة وأرشدنا إليها هو في مذهبي أعظم من أعظم العلماء.

على أن استكشافنا فيها لم يبلغ المدى الكافي ليتسنى للجميع أن يشهدوا مفعولها ومبلغ تأثيرها، هذا على كل حال هو الهذيان، أو الهوس الذي أعمل مدفوعاً به، ولكني أصرح أنني كلما توغلت في تطبيق هذا الناموس ازداد شعوري بمباهج الحياة، ومباهج مشروع هذا الكون الأعظم، وهو يعطيني سلاماً وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة بكيفية لا يسعني وصفها. انتهى.

فلما أتم حديثه قلت له: أما الشدة واللين، والحب والخوف، فإنها من جنود الله، لأنها من الجنود المعنوية وهي داخلة فيما تقدم. فقال: أنا إلى الآن لم أفهم ما معنى قول غاندي:

(١) إن الحياة مطردة الوجدان على الرغم من أنها محوطة بعوامل الهدم والهلاك. ثم يقول: إن الجمعيات يجب عليها أن تسعى لنيل هذه الغاية، فكيف يكون هدم بجنود الإهلاك، ثم يكون الحب سائداً، فأين هذا الحب إذن في هذه الدنيا؟.

(٢) وكيف يقول إن الحب له السيادة في العالم مع أن العالم كله شقاء وهلاك وتدمير الخ.

(٣) ثم كيف يقول: إن ناموس المحبة يعطيني سلاحاً وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة، فما هذا التفسير؟ والطبيعة كلها شر وبلاء. وأنا إذا سألتك عن هذا فما خرجت عن منطوق الآية، لأن الآية فيها أن لله جنود السماوات والأرض، ومن جنوده هذه الجنود المهلكة التي يقولها غاندي، فأين الحب السائد إذن في الأرض؟ ولا حب ولا سلام ولا أمان في الأرض.

فقلت: قبل أن أجيب عن أسئلتك الثلاثة أشرح نقطة هامة، وهي الحب والخوف، وهذا عجب أن ينطق بها عالم بوذي لم يدرس الإسلام حق دراسته، ورد في الآثار: «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه»، أي: إن صهيباً رجل محب لله، فهو يعبده حباً له، لا خوفاً منه، والعبادة الصادرة عن محبة للمعبود هي الجديرة أن تسمى عبادة، والمحبون أرقى من الخائفين، قال تعالى: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فالحب هو السعادة الحقيقية، أما الخوف فإنّما يجاء به لمن لا يفقهون الجمال في هذا الوجود، فهم يخوّفون من العقاب، والأمم إن لم يكن فيها حكماء عاشقون لصانع العالم، مغرمون برقي عباده، فإنها تكون آيلة للسقوط، فالحب الذي يشرحه غاندي هو أصل من الأصول العالية في الإسلام. هذا ما أردت ذكره أولاً:

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فأقول: إن الإنسان بنظره إلى هذا العالم نظراً سطحياً يراه كله هدماً وإهلاكاً وتبديداً وقتلاً وحرباً وخسفاً وزلزلة الخ، هذا بحسب ما يظهر لنا، ولكن المفكرون هم الذين يعقلون الحب العام، ولن يتسنى لامرئ أن يعرف الحب العام إلا بدرس الطبيعة دراسة تامة، فهنالك هنالك يعرف أن هذا العالم كله أشبه بجسم واحد وفيه كرات لا يحصرها العد، وهي كلها في تغير مستمر وحركة متصلة، تدار بجنود لا نراها كما تدار أجسامنا بأرواحنا، فالاحتراق في أجسامنا وتبدّل صفاتنا رقيّ لأرواحنا، كما أن تقلب عوامل العوالم كلها رقي لنفوس تدبرها، ونفس الإهلاك والتدمير مقدمة للتجديد، وكل ذلك ارتقاء للنفوس المدبرات العاملات بالحب والعشق لا الخوف وحده، وهذا العالم كله تتخلله جاذبية من أقصاه إلى أقصاه، فهي أشبه برسول المحبة، أو عامل من عواملها.

(٢) أما جواب السؤال الثاني، وهو أن الحب له السيادة في العالم مع أن العالم كله تدمير، فإنه مترتب على جواب السؤال الأول وظاهر منه.

(٣) أما الجواب عن سؤالك الثالث، وهو أن ناموس المحبة يعطي سلاماً وطمأنينة ويفسر لي خفايا الطبيعة، فهل بعد ما بينته لك بيان، أليس ما ذكرته من الإجمال في الحب العام ينطبق على جميع الطبيعة: شمس يتبعها سيارات تجري وراءها أقمار، أليس ذلك كله محبة؟ هل الأرض تجري حول الشمس إلا بما نسميه جاذبية؟ أليست أشبه بأثر من آثار المحبة، فالعوالم والكواكب متجاذبة مرتبطة

وأي حب بعد هذا؟ فإذا اضمحل نبات أو حيوان فإن ذلك للمحبة أيضاً، فإذا كان نبات ينفع بورقه أو بثمره الخ ثم يحلل إلى عناصره ويرجع إلى المعمل العام في الأرض فيكون خلقاً آخر ينتفع به الإنسان والحيوان، فإنه لولا المحبة الدائمة السائدة في العالم لبقي الهشيم على حاله لم يحلل، فلم يكن خلقاً آخر فلا تكون الفائدة، فتكرار الهدم والتجديد تكرار للمنافع، والهدم والتخريب تابعان للحركة العامة، والحركة لا تكون إلا بالشوق، والشوق مصاحب للحب، فالعالم كله في حركة، والحركة للجاذبية، والجاذبية محبة، وبالحركات تتجدد الثمرات، فالحب هو نظام العالم، والحمد لله رب العالمين. كتب ظهر يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

فقال صاحبي: هذا حسن وواضح، وبقي عندي سؤال واحد، وهو أنه إذا كانت المحبة من جنود الله التي في السماوات والأرض والخوف نقيضها وهما يقتسمان القلوب، فقلوب العامة للخوف، والخاصة للمحبة، وهذان الجندان بهما انتظام العالم، فهذا صار واضحاً، ولكنني أريد أن أفهم موازنة المهاتما غاندي بين المحبة في النوع الإنساني وبين الجاذبية في الذرات، وأن الذرات المادية أطاعت ربها، وأن الإنسان قد عصاه، فكيف يكون هذا؟ فقلت: إن النوع الإنساني مفطور على صفات كثيرة، ومنها صفة المحبة والغرام بالاجتماع، والعطف العام غريزة كامنة فيه، إنك ترى الذرة الواحدة التي لا نراها قد أجمع العلماء قاطبة على أنها مركبة من نقط كهربائية بعدد معلوم ـ تقدم شرحه في سورة «النور» عند آية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[النور: ٣٥] ـ سالبها يدور حول موجبها في الثانية الواحدة ٦ آلاف مليون مليون مرة، ولا جرم أن سرعة الحركة وانطلاقها، وعدم توقفها، ودوام ذلك النظام أبداً وأمداً سرمداً؛ وراءه قوة معنوية عقلية أعطته هذه الصفات ودوامها، فلنسم تلك القوة محبة، لأن الحركات عند الحيوان جميعها لا تكون إلا لمحبة، فجري صغار الحيوان لأمهاتها، وإسراع الأمهات بالعطف نحو أبنائها، والسير في الفلوات للبحث عن الغذاء، والجري هرباً من عدو مفاجئ، كل ذلك حركات ناشئات عن:

(١) حب الصغار لأمهاتها.

(٢) أو حب الأمهات لصغارها.

(٣) أو حب الغذاء الذي أوجبه الجوع.

(٤) أو حب البقاء، ودوام الحياة الذي تعرض للمفاجأة بالهلاك بسبب العدو المفاجئ.

فإذا كانت الحركات التي نعرفها كلها صادرات لأجل محبة، هكذا فلنقس ما لا نعلم على ما نعلم ولنسمها حباً، وهذا الحب يوجب ما يضارع حب عطف الإنسان على الإنسان بفطرته، فإنك لن ترى شرقياً ولا غربياً على أي دين كان، أو أمة، أو نحلة، إلا وله شفقة ورحمة وعطف على الأطفال الباكين، أو الفقراء الشاكين، أو المساكين البائسين، بل عطفه على الإنسان تجاوزه إلى الحيوان، فله عطف عليه عظيم.

الحركات المنتظمات في كهارب الذرات المسرعات جرياً، المنبعثات المتحدات على قيام هيكل الذرة الواحدة اللواتي منها أنتجت هذه العوالم كلها فصارت شموساً وأرضين لا نعرف عددها، كلها

قد أنتجت حيوانات لا حصر لها تعيش بالمحبة، وحفظ الذرية، والألفة العامة، فهذه الحركات المنتظمات في الذرّة رأينا من نتائجها الأولى حركات الكواكب والشموس المنتظمات انتظام حركات الذرات، ثم انتهى الأمر بعطف وغرام في الحيوان، فماذا نقول في الحركات الأولى إلا أن جمالها ونظامها، وأنوارها المشرقات، المكظومات المضغوطات المتداخلات لم تنتج إلا عن حب عظيم وراءها، أي إن هناك عقولاً عظيمة تتقد محبة وغراماً لا حد له وعطفاً، وهذه المحبات كانت نتائجها في آخر الأمر محبات عرفناها في الحيوان، فهي كما تكون الشجرة من حبة فتنتج حبة أيضاً، أما هذا الإنسان الذي هو أرقى من الحيوان فإنه خلق من هذه المحبة أيضاً، ولكن اعترضتها عوائق، وأحيطت بموانع، وغشت عليها غواش، فهو أرواح تعدّ بالملايين، أرادت أن تتقاسم الأرزاق والمنافع والأرض، ففشلت في العدل، ووقعت في الحيرة، فحدث التحاسد والتباغض، أصل العقول الإنسانية أنها مفطورة على المحبة، وهذا شائع ذائع، يفسره عطف الأم والأب على الذرية، وعطف كل إنسان على كل طفل وكل ضعيف، ولكن العقبات الكثيرات غشت على تلك المحبة فسترتها وغطتها فكان التحاسد والحقد، وغلب الشر وخيّم على العقول فنامت المحبة تتربص الفرص، ومتى رأتها وفتش الإنسان عليها واستخرجها من قلبه ظهرت فأنارت وجه الأرض، كما أن العلماء في ألمانيا وغيرها يبحثون عن مكنون الذرة ومخبوء ما فيها من القوى المكنونة فيها، حتى إذا ظهرت أراحت الناس في أعمالهم الدنيوية، ولكن هذه الذرة وقواها وإن كانت هي أصل خلقنا ليس استخراج ما فيها من القوى كافياً لرقي الإنسانية بل هذا رقي مادي لا غير، وبعد ظهور هذه القوى يبقى الإنسان على ما هو عليه، فهو طماع حسود حقود جهول طفل غبي بعضه لبعض عدو، وهذا قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فالعوالم كلها من الذرة إلى الأرض إلى الشمس تجري بنظام وعملها متقن، فهي لم تغشّ الأمانة ولم تخن فيها، فأما هذا الإنسان فإنه خان الأمانة ولم يقم بحقها لظلمه وجهله، انظر تفسير الآية في سورة «الأحزاب» والمعنى الثاني المذكور هناك.

فأما كشف ما في النفوس الإنسانية من المحبات فإن هذا إذا انبعث منها وخرجت كرة أخرى بعد غيبوبتها عنه تصبح الإنسانية كلها أشبه بشمس واحدة، أو ذرة واحدة، وكل نفس من النفوس الإنسانية تكون أشبه بكهرب واحد من كهارب تلك الذرة المسرعات في جريهن، وهذا الإسراع في الجري أنتج ذرة كاملة، هكذا هذه النفوس الإنسانية الأرضية متى أسرعت في حركاتها العقلية والعلمية إلى غرض واحد، وهدف واحد، وهي المصلحة العامة، فإنها لا جرم تأتي إذ ذاك بنتائجها الحقة، ويكون عالم الإنسان إذ ذاك عظيماً، وقوته لا تضارعها قوة، وتكون نتائج هذه النفوس في انتظام حركاتها أبعد مدى وأرفع مقاماً، وأكثر منافع من انتظام حركات كهارب الذرة الواحدة، وفرق ما بين حركات كهارب وحركات أرواح، لأن حركات الأرواح الإنسانية المنتظمة التي تسرع إلى غرض واحد وهي الخير العام للإنسانية ترجع إلى مقاصد العلل الأولى وهي عالم الملائكة ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، لا إلى

نتائجها المادية البحتة. هذا هو السر في قول المهاتما غاندي: إن الذي يكشف سر المحبة العامة أجدر بالإجلال من كل مخترع ومبتدع. وذلك لأن كل اختراع وابتداع في عصرنا فهو راجع لنفس المادة والنفوس باقية على ما هي عليه، عليها غواشي التحاسد والطمع الذي يغطي المحبة كما تغطي غواشي المادة من صلابة وبرودة ونحوها ما تحتها من الأنوار التي منها تركبت بحركات وراءها.

إن النفوس الإنسانية يجب أن تكون كنفس واحدة، وهذا هو تفسير ما يقوله المهاتما غاندي، وهذا القول نفسه تفسير لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨]. ألم تر أن عدد الإنسان مهما كثر على الأرض آلاف الملايين من الأولين والآخرين فإنه كله بالنسبة للعوالم من شموس ومجرات أقل من جزأ لا يتجزأ، فإذا جعلناه كله أشبه بذرة واحدة مركبة من كهارب لم يك تشبيهنا بعيداً، وهو نفسه تفسير لقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[البقرة: ٢١٣]، لأن هذه فطرتهم وهي: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[الروم: ٣٠]. وإذا كان خلق الله لا يغير فإنّما يكون التغيير في الظواهر، فحصل هناك التحاسد والتخاصم كما حصل في الأرض بعد انفصالها من الشمس اختلاف أجزائها سيولة وصلابة وأحوالاً لا حصر لها، فلما اختصم الناس أرسل لهم علماء وأنبياء وحكماء ليعلموهم، لأنهم لم يبقوا على فطرهم، فلما علموهم أخذ تابعو الأنبياء يختلفون، فكل أتباع نبي مختلفون فيما بينهم، وبين أتباع كل نبي والآخر اختلاف أشد وأوسع مدى، وهذا قوله تعالى بعدما تقدم: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ٢١٣]

وقصارى الأمر أن حال الأمم اليوم هو الاختلاف، والاختلاف عارض على المحبة، وعقلاء الأرض يرون أنه يجب عليهم أن يرشدوا النوع الإنساني أن يرجع إلى فطرته، وفطرته هي المحبة العامة، وهذه هي الغاية من خلقنا في هذه الأرض، فغاية هذه التربية الأرضية التي أرسل لها الأنبياء وخلق الحكماء أن يصل هذا الإنسان إلى فطرته الأولى، وكل محاولة حاولها أنبياؤنا وحكماؤنا إنّما كان القصد منها أن يصل إلى هذه الغاية، وما دمنا لم نصل إليها فنحن نعيش على هذه الأرض في غاية الذلة في أنفسنا وفي دولنا، سواء أكنا أقوياء أم كنا ضعفاء.

فليجدّ المسلمون بعد في قراءة جميع العلوم، وحوز جميع الصناعات، وليضارعوا الأمم، ثم ليقودوهم إلى السلام العام بقوتهم وعلمهم، ولهذا الفتح العلمي العام أرسل نبينا صلى الله عليه وسلم. فلئن فتحت مكة وفتحت فارس والروم، ولئن رجع المسلمون الآن يجددون قواهم لإزالة الخطر عن أنفسهم؛ فهذا مبادئ ولكن غاياتها ما ذكرناه وهو الحب العام.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس أمة واحدة تحت راية الإسلام، فحاول آباؤنا الأولون ذلك ففشلوا أخيراً، لأن النوع الإنساني لم يكن يحتمل ذلك، فلنقم نحن الآن بما علينا ولنفكر في إسعاد الأمم كلها، ولكن لن يتسنى لنا ذلك إلا بعد أن نقرأ كل علوم الأمم وندرسهم هم

أنفسهم، وبعد ذلك نقوم بدورنا، ولكن هذا الدور ليس معناه أننا نحارب الأمم. كلا، بل نكون أقوياء نقدر على مدافعتهم ونكون أقوى منهم، ثم نعطف عليهم ونجعل الإنسانية كلها أمة واحدة رجوعاً إلى قوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[البقرة: ٢١٣].

فعلينا نحن المسلمين أن نكشف السر المصون المخبوء في عقول الإنسانية وهي المحبة العامة، إن حالنا الآن أشبه بحال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم في مكة يقودون أنفسهم أولاً، وستأتي حال أخرى أرقى من هذه أشبه بحال الهجرة إلى المدينة المنورة وهي آتية لا ريب فيها.

إذن ظهر الآن معنى كلام المهاتما غاندي، وتعليقي عليه بأنه علينا نحن المسلمين أن نكشف هذا السر، فهو يقول: إن كشف هذا السر أحسن من كل مخترع. وإنّما كان كشف هذا السر علينا لأننا أهل له، أولاً لأن نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ثانياً لأننا وسط بين الشرق والغرب في ديارنا، فنكفّ أوروبا أن تهجم على الشرق الأقصى أو علينا، ونكفّ الشرق الأقصى أن يهجم علينا أو على أوروبا. إذن علينا كشف سر المحبة لا على غيرنا. إذن يجب على المسلمين أن ينشطوا من الآن لهذا الكشف، فليجدّوا في العلوم كلها من الآن.

إن جنكيز خان منذ بضعة قرون هو والتتار الذين معه أوغلوا في بلادنا أولاً وفي بلاد أوروبا ثانياً، فهذا هجوم من الشرق على الغرب، وما منعه أخيراً إلا المصريون عند حلب، وهاهم أولاء رجال التتار قبل المسيح بقرون هجموا على أوروبا فكان منهم تلك الأمم الهمجية التي كانت تحيط بدولة الرومان فأهلكتها، وأنتجت أخيراً هؤلاء الأوروبيين الحاليين، فنحن اليوم نريد أن نكشف سر المحبة لنزيل هذه الهجمات عن الإنسانية، ونوجهها لغرض واحد وهو النفع العام، نحن جنود الله، بل أعظم جنوده في الأرض، فلنقم للعمل كما قام آباؤنا له، ولنكن خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وهذا هو المقصود من قراءة سورة «الفتح» وفهمها، وفهم كوننا خير أمة أخرجت للناس. وقد ألفت كتاب «أين الإنسان» وستقرأ ملخصه قريباً في سورة «الحجرات»، وفيه مبادئ الطرق التي بها انتظام الإنسانية كلها، وقد أحبه حكماء أوروبا، وارتاحوا له، وهذا من مبادئ إكتشاف سر المحبة العامة في النوع الإنساني، فليقرأه المسلمون بعدنا، وليتمموا ما ابتدأناه حتى نكون خير أمة أخرجت للناس، وحتى نكون نحن الذين نكشف السر الذي طلب المهاتما غاندي كشفه. وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثالثة في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[الفتح: ٧]، والحمد لله رب العالمين. كتب ضحى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

اللطيفة الرابعة: في قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾

في هذه اللطيفة أربع جواهر:

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨].

الجوهرة الثانية : في قوله تعالى: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح: ٢٩].

الجوهرة الثالثة : في قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾[الفتح: ٢٩].

الجوهرة الرابعة : في قوله تعالى: ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾[الفتح: ٢٩] الخ.

الجوهرة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾

مسامرة بيني وبين صديقي العلامة الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير

اطلع على هذا العنوان فقال: لقد مضى أمثال هذا في سور كثيرة، وذكرت عموم الرسالة وشرحتها شرحاً وافياً. فقلت: نعم، ولكني الآن اطلعت على ما لم يكن ليدور بخلدي. فما أجمل أن أذكره ليطلع عليه المسلمون بعدنا. فقال: وما هو؟ قلت: لأقدم لك مقدمة، فأقول: إن العلم الجزئي ضار، ولكن العلم الكلي هو النافع. فقال: أنا لا أدري ماذا تريد؟ فقلت: إذا رأينا عالماً نبغ في الفلك، أو في الهندسة، أو في جميع الرياضيات، أو في العلوم الطبيعية، أو في فرع منها كعلم الحيوان، أو في العلوم اللسانية، أو في فرع منها مثل علم البديع، هل نقبل شهادته في نظام هذه الدنيا وعجائبها ونقبل حكمه ونعدّه حكيماً؟ قال: كلا. قلت: حسن فما تقول أيها الحبيب في أمر أمم الإسلام؟ أنقبل قول أي قائل كان، أم نبحث عمن يعتدّ بقوله ممن أحاط بالأمم الإسلامية علماً من حيث أخبارها. فقال: أما أنا فلم أفهم ما تريدون. فقلت: هاهو ذا الأستاذ «لوثروب استودارد» العالم الأمريكي الذي لم يعتنق دين الإسلام قد نشر كتابه «حاضر العالم الإسلامي» وقرأه أهل الغرب والشرق، أفليس يكون هذا حجة إذا وصف الإسلام من حيث إن الرجل محيط علماً بجلائل المسائل ودقائقها. فقال: أما هذا فكلامه مقبول إذا كان على هذا النمط، لأنه إذا صح هذا كان حائزاً لشرطين: أحدهما أنه عالم بالحوادث. الثاني أنه غير متهم، لأنه غير مسلم. فقلت: حسن، إذن أسمعك الآن قوله الذي يفيد معنى هذه الآية، وهاهو ذا في صفحة ١٣ وما بعدها في الجزء الأول من الكتاب المذكور ما نصه:

إن نشر الرسالة المحمدية لم يقم به رجال التبشير وحدهم، ولا قصر الأمر عليهم دون سواهم، هكذا، بل شاركهم فيه جماعات عديدة من السياح والتجار والحجاج، على اختلاف الأجناس. ولا يؤخذ من هذا أنه لم يقم في المسلمين مبشرون ارتشفوا كؤوس الحمام في سبيل الدعوة الإسلامية، فعديد المبشرين الذين هم على هذا الطراز كثير، وذلك ظاهر بيّن في أمر الطرق الدينية مما لا يحتاج إلى برهان، بل أي دليل أقطع من المبشرين السنوسيين، الخمس الغير الذين خرجتهم زوايا الصحراء وهم يعدّون بالألوف المؤلفة، وما انفكوا يجوبون كل بلاد وثنية، مبشرين بالوحدانية، داعين إلى الإسلام، وهذه الأعمال التي قام بها المبشرون المسلمون في غرب أفريقية وأوسطها خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم لعجيبة من العجائب الكبرى. وقد اعترف عدد كبير من الغربيين بهذا الأمر. فقد قال أحد الإنجليز في هذا الصدد منذ عشرين سنة: إن الإسلام ليفوز في أواسط أفريقية فوزاً عظيماً، حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من فلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات.

وقال مبشر بروتستنتي فرنسي : ما برح الإسلام يسير بقوة منذ نشوئه حتى اليوم، فلم يعثر في سبيله إلا القليل، وما زال يسير في جهات الأرض حتى بلغ قلب أفريقية، مذللاً أشق المصاعب، ومجتازاً أشد الصعاب، غير واهن العزم، فالإسلام حقاً لا يرهب في سبيله شيئاً، وهو لا ينظر إلى النصرانية منازعته الشديدة نظرة المقت والازدراء، فلهذا هو حقيق بالظفر والنصر، إذ بينما كان النصارى يحلمون بفتح أفريقية في نومهم، فتح المسلمون جميع بقاع القارة في يقظتهم، وأما السبيل الذي يسير فيه الإسلام جنوباً في أفريقية فهو من الرائع الغريب، منذ عدة سنوات عثرت الحكومة الإنكليزية على غير ما توقع على أن المبشرين المسلمين مخترقون «نياسلندة» دعاة إلى الرسالة المحمدية، وبعد البحث والاستقصاء، وإذكاء العيون، وجدت تلك الحكومة أن المبشرين إنّما هم من عرب زنجبار، وقد بدؤوا عملهم هذا منذ سنة ١٩٠٠م، وأنه بعد مضي عقد من السنين على شروعهم في جهاد التبشير، كانت كل قرية في جنوب « نياسلندة » قد أسلمت وفيها مسجد، ومدرسة إسلامية، ومعلمون مسلمون، ومع أن هذه الدعوة كانت كما هو ظاهر من أمرها وسيلة شديدة لتضعضع سلطة المستعمرين وسيطرتهم، فلم تجسر الحكومة الإنجليزية على مقاومتها خيفة ازدياد انتشارها في الأقطار الأخرى.

ويقول بعض المفكرين الغربيين في هذا العصر : إنه لا يمضي مدة طويلة منذ اليوم حتى يرى الإسلام قد اجتاز « زمبازي »، وانتشر في جنوب أفريقية انتشاراً عاماً فيطبق القارة بأسرها، وليس ظفر الإسلام في أفريقية مقصوراً على الوثنية فحسب، بل على النصرانية الأفريقية كذلك، إذ ترى الآن الذين تنصروا في غرب أفريقية على يد المبشرين الفرنجة يتناقصون عدداً تناقصاً فاحشاً، وذلك لارتداد غالبهم عن النصرانية ودخولهم في الإسلام. زد على ذلك أن النصرانية في الحبشة، إنّما باتت في خطر شديد من جراء سيول الإسلام الطامية، من بعد ما كانت فيما مضى سداً منيعاً في وجه الإسلام، والغريب في هذا كل الغرابة أن الأحباش أنفسهم غدوا اليوم يدخلون في الإسلام أفواجاً متلاحقة، لا على يد فتوح حربية، بل فتوح سلمية دينية.

وقال أحد الثقات الغربيين حديثاً : منذ خمسين إلى ستين سنة خلت كنت ترى قبائل الأحباش العديدة لا يكاد يرى فيها مسلم واحد، أما اليوم فغالب هذه القبائل هم مسلمون مؤمنون بالرسالة المحمدية.

وربما كان ظفر الإسلام في أفريقية اليوم أعظم ظفر لاقاه المبشرون المسلمون حديثاً، بيد أن هذا ليس جميع الظفر الإسلامي، بل هناك غيره مثله في سائر أنحاء العالم، وقد أتينا في الفصل السابق من هذا الكتاب على ذكر حركة الأحرار السياسية في بلاد التتر الروسية، بحيث بقي علينا الكلام على النهضة الدينية العجيبة التي رافقت تلك اليقظة التترية، كان التتر ما برحوا منذ عهد بعيد في الحكم الروسي، وقد جهدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أعظم الجهد لتنصيرهم، فأدركت في بعض المواضع بعض النجاح الذي لا يذكر، غير أنه لما انتشرت اليقظة الإسلامية العامة، ووصل ما وصل منها إلى بلاد التتر في أوائل القرن التاسع عشر، هبّ التتر للحال يستردّون إخوانهم المتنصرين إلى الإسلام. فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى عاد جميع هؤلاء فانتحلوا دين الرسالة، على جميع ما

بذلته الكنيسة الأرثوذكسية من العناء الأشق، ولجأت إليه من مختلف الذرائع والوسائل لتحول دون ذلك، فلم تلق شيئاً من النجاح، بالرغم مما اتخذته الحكومة الروسية من أحكام الجزاء والعقاب، ووسائل القهر والإكراه، على أن المبشرين المسلمين التتر لم يقصروا أمرهم على هذا، بل شرعوا في نشر الإسلام في القبائل التركية الفنلندية الأمية المقيمة في الشمال من بلاد التتر، غير مبالين بمقاومة حكام الروس لهم، ولو لاقوا من وراء ذلك من الهول ما لاقوا. انتهى.

فلما سمع ذلك صاحبي قال: حسن والله، هذا معنى ظهوره على الدين كله، وهذا أمر عجب! كيف ينتشر الإسلام في تلك البلاد التي يحكمها الفرنجة وهم أخوف الناس وأكثرهم عداوة للإسلام.

انتهى الكلام على الجوهرة الأولى في قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨]، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية في قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

في هذه الجوهرة فصول:

الفصل الأول: في قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾

وبيان أن هذه الشدّة أحسّ بها أهل أوروبا في زماننا بعد الحرب الكبرى

فانظر ما جاء في هامش ذلك الكتاب بقلم الأمير شكيب أرسلان، إذ أبان أن الدول الأوروبية التي ترتعد خوفاً من البلشفيك، خافت إن هي استعانت بالمسلمين عليهم أن يهلكوها، مصداقاً لهذه الآية، وهذا نصه بالحرف الواحد:

قد نشر العالم الاجتماعي الكبير «غويفليلمو فريدو» مقالة في جريدة «الأيللوستراسيون» عنوانها «أوروبا وآسيا» بيّن فيها أن الحرب العامة أحدثت انقلابات متناقضة، فباعدت وقرّبت بين القارات، وإنه من العادة إذا خرجت سلطنة عظيمة ظافرة من حرب من الحروب، ازدادت هيبتها وانبسط سلطانها عن ذي قبل، والحال أنه بعد أن خرجت إنكلترا ظافرة من أكبر حرب في الدنيا، ثارت في وجهها أفغانستان والهند ثم مصر، وبعد أن كانت تركيا اضمحلت سنة ١٩١٨ عادت فنهضت وردّت إنكلترا وحليفاتها على أعقابهنّ، وكذلك الصين بالرغم من الثورة التي تمزّق أحشاءها، تطلب استرداد البلاد التي احتلت منها وعدم مسّ شيء من استقلالها، فآسيا تقوم على أوروبا، على حين هي آخذة بمبادئ أوروبا وليست تأخذ من أوروبا وأمريكا أسلحة فحسب، بل مبادئ وأفكاراً تقاتلها بها. قال: وسبب ذلك هو انهيار الدولة الروسية، فإن أوروبا كانت سنة ١٩١٤ كتلة متحدة متينة متماسكة بالرغم من جميع المناظرات والمناهضات التي كانت بين أجزائها، فقد كانت السلطنة الروسية والسلطنة الإنكليزية متناظرتين في آسيا، ولكن من جهة أخرى كنت ترى كل واحدة منهما شادّة أزر الأخرى، وكانت أوروبا بأجمعها تستفيد من الرعب الذي تلقيه الروسية في قلب آسيا، فسقوط السلطنة الروسية كان مبدأ خلاص آسيا، وقد أشارت جريدة الطان بتاريخ ٨ حزيران سنة ١٩٢٣ إلى مقالة «فريدو» هذه، وأيدت رأيه من جهة كون انهيار الروسية هو الذي كان مبدأ تحرير آسيا، وهذا عين ما ورد في مقالة «روجر لابون» التي عرّبناها عن مجلة باريز، وكان أحد الروس اقترح علينا

سنة ١٩١٩ نشر مقالة في جريدة روسية تصدر في برلين، فحررنا في ذلك الوقت له مقالة نبين بها الأسباب الداعية إلى الاتحاد بين الروس والشرقيين وتلوّن سياسة الروسية الماضية التي كانت عبارة عن قهر الشرق وملاشاة الدولة العثمانية لفائدة الدول الغربية، فكان جلّ الخسائر بالمال والرجال على الروسية، ومعظم الفوائد لإنكلترا وفرنسا، لأنه من المحقق لولا ثقل حمل الروسية على ظهر العثمانيين وكونهم أصبحوا من عداوة الروس، بحالة لا يملكون معها قبضاً ولا بسطاً، لما كان يمكن فرنسا الاستيلاء على الجزائر، ولا على تونس، ولا إيطاليا دخول طرابلس، ولا إنكلترا احتلال مصر والسودان، بل كانت الدولة العثمانية بأمنها ناحية الروسية تقدر على حماية هذه البلدان لا سيما في بداية الأمر، فالروسيا هي التي كانت سبب سقوط الشرق، وواسطة تقسيمه بين الدول الاستعمارية، وتحوّل الحكومة القيصرية إلى البلشفية هو الذي مكن اليوم الشرق من أن يتنفس: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فهذا المعنى كنت أوضحته قبل أن ابتدأ الكتّاب الأوروبيون ينبهون إليه.

ثم إن هناك جملة وردت في كلام العلامة «فريدو» فيها معنى كبير ينبغي أن ينعم النظر فيه جميع الشرقيين، ألا وهو قوله: إن الروسيا وإنكلترا مع تناظرهما وتنافسهما في الشرق كانت كل منهما شادّة أزر الأخرى. ومعنى ذلك أن الروسيا كانت تقلم أظفار الأتراك والفرس والصينيين، فبملاشاة قوتهم أصبحوا لا يقدرون على إغاثة الهنود والأفغان والمصريين والعرب الذين مدّت يدها إليهم إنكلترا بالبطش والغضب، وكذلك إنكلترا باستيلائها على هؤلاء قد عطلت منهم كل قوة حربية، فأصبحوا لا يقدرون أن يؤيدوا الدولة العثمانية ولا الدولة الفارسية ولا تركستان ولا الصين بشيء، فكانت كل من الروسيا وإنكلترا قد شدّت إحداهما أزر الأخرى بطبيعة الحال، وكان بينهما تضامن وإن لم يكن جرى عليه تواطؤ من قبل فهو جار بالفعل، ومن الأمور التي تؤيد هذا وقوع هذا التضامن بدون تواطؤ، ليس بين أوروبا والروسيا القيصرية فحسب، بل بين أوروبا والروسيا البولشفيكية نفسها مع شدة العداوة التي بين الفريقين، فإن الدول الغربية أثارت على البولشفيك الأميرال كولتشان والجنرال دنيكين والجنرال يودينيش والجنرال فرانجل، والمملكة البولونية، وحاولت إثارة الأرمن والكرج، وكل قوم ترجو فيهم النهضة لقتال الحكومة البولشفية التي ترى فيها الخطر الأعظم على كيان الهيئة الاجتماعية الأوروبية، وقد بذلت إنكلترا وفرنسا في تسليح هذه الأقوام وسوقهم على الروسيا مئات الملايين، ولا تزالان إلى هذه الساعة تترصدان الفرص وتتربصان بالبولشفيك الدوائر. لكن قد حذرت هاتان الدولتان كل الحذر من أن تحرك على البولشفيك قوة إسلامية، فعرض بعضهم الرأي بالاتفاق مع تركيا وتسليحها وسوقها على الروسيا من جهة القوقاس حيث ينضم إلى الترك هناك الكرج والطاغستانيون والتتر، فلم يقبل الحلفاء هذا الرأي أصلاً، ولا راق لهم أن تسلح العجم، ولا الأفغان، ولا بخارى، ولا خيوه، ولا فرغانة، ولا غيرها من تركستان، ولا رمي البولشفيك بهذه القوات كلها، وما ذاك إلا لأنهم يرون الخطر الإسلامي أعظم من الخطر البولشفي مهما كان الخطر البولشفي عظيماً.

ومن الأدلة البارزة على ذلك أنه لما نفي المرحوم أنـور باشا من البولشفيكيين، وبرح موسكو سنة ١٩٢١ إلى باطوم، ومنها انسل إلى بخارى، وأثار ثورة تركستان الهائلة التي حشد البولشـفيكيون فيالق جرّارة لقمعها، لم يفكر أحد بأوروبا في إمداد أنور على البولشفيك، بل عندما سقط أنور شـهيداً في أوائل أغسطس سنة ١٩٢٢ فرح بمقتله الحلفاء، ولـم تخفِ الجرائد الإنكليزية سـرورها. وفي هـذا مقنع لمن يبقى عنده شيء من الريب في شدة تضامن أوروبا بـإزاء الشرق. انتهى الكـلام على الفصـل الأول والجوهرة الثانية فيه، والحمد لله رب العالمين.

شكيب أرسلان

الفصل الثاني: في تحفز المسلمين لتلك الشدة وظهور المصلحين منهم لإيقاد نارها

ولأذكر مصلحاً منهم على سبيل المثال وهو الأستاذ المرحوم جمال الدين الأفغـاني الـذي نشر مبادئ الحرية وكان حرباً على الملوك المستبدين، ولأجعل الكلام فيه في مبحثين:

المبحث الأول: في عدائه للمستبدين

جاء في هامش كتاب «حاضر العالم الإسلامي» المذكور بقلم نفس الأمير شكيب أرسلان ما نصه:

في أحد الأيام قدم على جمال الدين الأفغاني رجل من العجم، بـابيّ المذهـب، اسمه رضـا آقا خان، صادف أنه وجد مع جمال الدين في حبس واحد في قزوين عندما اعتقله الشاه، فحصلـت بينهما صحبة أكيدة، ثم تفارقا عندما أخرج جمال الدين من الحبس ونفي إلى بغداد، ثم أخلي سبيل رضا آقا هذا، ولما بلغه مجيء السيد إلى الآستانة جاء يزوره فيـها، فسـرّ بـه السـيد كثيراً، وكـان دائماً يحادثـه، ويتكلمان على شقاء الأمة الإيرانية بسوء إدارة سلطانها ناصر الدين. فقال رضا آقا خان يوماً: إنـه هـو مستعد أن يضحي بنفسه لتخليص أمته. فقال له جمال الدين: إن كان كذلـك فـاذهـب وافعـل. فذهـب رضا آقا خان، وبعد أشهر بينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم في طهران إذ دنـا منه هـذا الرجـل وقتله غيلة، وقال له: بـدي از جمـال الديـن، أي: خذهـا مـن يـد جمـال الديـن، ووردت الأخبـار إلى الآستانة وتحدث بها الناس كما لا يخفى، فأبدى السيد جمال الدين مزيـد سـروره بـهذا الخبر، وشـرع يقول: قد تحقق الآن أن الأمة الفارسية لم تمت وأنها أمة لم تنقطع منها الآمال، لأن الأمة التي يقوم من أبنائها من يأخذ بثأرها ويفتك بالطاغي الذي على رأسها، لا تكون قد فقدت جراثيم الحياة.

وكلاماً من هذا القبيل كان يردده، ثم لما ورد عـدد مـن مجلـة «الأيللوستراسـيون» التصويريـة الفرنسية وفيها صورة القاتل رضا آقا خان مصلوباً معلقـاً والنـاس ينظـرون مـن حولـه، هتـف: علـوّ في الحياة وفي الممات. وقال: انظروا كيف علقوه عالياً عليهم حتى يكون ذلك رمزاً إلى أنـهم كلـهم كـانوا من دونه، وكان الجواسيس ينقلون إلى السلطان كل كلمة يفـوه بـها السـيد، فلـم يشـك عبـد الحميـد في كون قتل الشاه كان بسـبب جمـال الديـن وأنـه مـا زال وراء الشـاه حتـى أنزلـه في قـبره كمـا قـال. ومـن الغريب أن الشاه بعد أن خلى سراح جمال الدين، وذهب هذا إلى أوروبا؛ بلـغ الشـاه أن المترجم كـان

يسعى في تدبير مكيدة مع بعض الإيرانيين لخلع الشاه أو لقتله فندم جداً على إفلاته، ويقال إنه هو الذي بعث إلى السلطان عبد الحميد يرجو منه استقدام جمال الدين إليه ووضعه تحت المراقبة أماناً من شر غوائله، فاستقدمه السلطان بكتاب من قلم أبي الهدى، ولما بلغ الآستانة أمر بالمبالغة في بره وإكرامه، ليلهيه عن عداوة شاه العجم، فكان من ذلك ما كان، ولا يمنع حذر من قدر. فلما تحقق السلطان كيفية قتل الشاه غضب غضباً شديداً، وأمر بتشديد المراقبة على المترجم، ومنع أي أحد من الاختلاط به إلا بإرادة سلطانية، فأصبح السيد في قصره محبوساً، وكانت الحكومة الإيرانية شرعت في تحقيق حادثة القتل، فثبت لديها إغراء جمال الدين لرضا آقا خان بالاشتراك مع شخص فارسي آخر اسمه رضا آقا خان أيضاً، وشخص بغدادي اسمه الشيخ إبراهيم، فطلبت الدولة الإيرانية من الباب العالي تسليمها هؤلاء الثلاثة، فالسلطان عبد الحميد أبى تسليم جمال الدين، ولكن الشخصين الآخرين بلغني أنه جرى تسليمهما، وقتلا في إيران بحجة اشتراكهما بالمؤامرة، ثم إن التضييق بلغ حده على المترجم حتى أرسل إلى «فيس موريس» مستشار سفارة إنجلترا يلتمس منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الآستانة، فحضر «فيس موريس» إليه وتعهد له بما طلب، وإذ ذاك بلغ السلطان الخبر، فأرسل إليه أحد حجابه يستعطف خاطره باسم الإسلام أن لا يرضى بمس كرامة الخليفة إلى هذا الحد ولا يلتمس حماية دولة أجنبية، فثارت في أنفه حمية الإسلام، وبعد أن كان زمّ حقائبه للسفر؛ قال لفيس موريس: إنه عدل عن السفر، ومهما كان فليكن، ولكن المراقبة كانت لم تزل باقية، وكل من أراد أن يشاهده فلا بد له من إذن خاص. وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر في حنكه مرض السرطان واشتد عليه، وصدرت الإرادة السنية بإجراء عملية جراحية، يتولاها قمبور زاده إسكندر باشا، كبير جراحي القصر السلطاني، وكان هذا مقرباً جداً إلى الحضرة السلطانية، فأجرى له العملية فلم تنجح، وما لبث إلا أياماً قلائل حتى فاضت روحه، رحمه الله وعفى عنه. وإلى هنا تم الكلام على المبحث الأول من الفصل الثاني، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثاني من الفصل الثاني في صفاته وتعاليمه

وهاك ما جاء بقلم الأمير شكيب أرسلان في هامش الكتاب المذكور أيضاً وهذا نصه:

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في مطلع القرن التاسع عشر في «أسد آباد» بالقرب من همذان في بلاد فارس، وهو أفغاني الأرومة لا فارسي، يتحدر نسباً، كما يدل لقب سيادته على هذا، من العترة النبوية الطاهرة، ويجري في عروقه الدم العربي البحت الكريم.

كان جمال الدين سيد النابغين الحكماء، وأمير الخطباء البلغاء، وداهية من أعظم الدهاة، دامغ الحجة، قاطع البرهان، ثبت الجنان، متوقد العزم، شديد المهابة، كأن في ناسوته أسرار المغناطيسية، فلهذا كان المنهاج الذي نهجه عظيماً، وكانت سيرته كبيرة، فبلغ من علو المنزلة في المسلمين ما قل أن يبلغ مثله سواه، وكان سائحاً جوّاباً، طاف العالم الإسلامي قطراً قطراً، وجال في غربي أوروبا بلداً بلداً، فاكتسب من هذه السياحات الكبرى ومن الاطلاع العميق والتبحر الواسع في سير العالم والأمم علماً راسخاً، واكتنه أسراراً خفية، واستنبط غوامض كثيرة، فأعانه ذلك عوناً كبيراً على القيام بجلائل

الأعمال التي قام بها، وكان جمال الدين بعامل سجيته وطبعه وخلقه داعياً مسلماً كبيراً، فكأنه على وفور استعداده ومواهبه إنّما خلقه الله في المسلمين لنشر الدعوة فحسب، فانقادت له نفوسهم، وطافت متعاقدة من حوله قلوبهم، فليس هناك من قطر من الأقطار الإسلامية وطئت أرضه قدما جمال الدين إلا وكانت فيه ثورة فكرية اجتماعية، لا تخبو نارها ولا يتبدد أنوارها، وكان يختلف عن السنوسي منهاجاً، فجمال انكبّ على السياسة وشؤونها وذاك على علوم الدين وترقيتها، غير أن السيد جمال الدين الأفغاني كان أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الإسلامي، وتمثل عواقبها فيما إذا طال عهدها، وامتدت حياتها، ورسخت في تربة الشرق، وأدرك شؤم المستقبل، وما سينزل بساحة الإسلام والمسلمين من النائبة الكبرى، إذا لبث الشرق الإسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها، فهبّ جمال يضحي بنفسه، ويفني حياته في سبيل إيقاظ العالم الإسلامي وإنذاره بسوء العقبى ويدعوه إلى إعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير، فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب، فنفته بحجة أنه هائج المسلمين، ولم تخف دولة جمالاً وتضطهده مثل ما خافته واضطهدته الدولة البريطانية، فسجنته في الهند مدة، ثم أطلقت سراحه، فجاء إلى مصر حوالي سنة ١٨٨٠، وكانت له يد في الثورة العرابية التي أوقدت نارها في وجه الغربيين، فلما احتل الإنجليز مصر سنة ١٨٨٢ نفوا جمالاً للحال، فزايل مصر وأنشأ يسيح في مختلف البلدان حتى وصل إلى القسطنطينية، فتلقاه عبد الحميد بطل الجامعة الإسلامية بالمبرّة والكرامة، وقرّبه منه، ورفع منزلته، فسحر جمال السلطان الداهية بتوقد ذكائه ونفسه الكبيرة، فقلده السلطان رئاسة العمل في سبيل الدعوة للجامعة الإسلامية، ويغلب أن ما ناله السلطان عبد الحميد من النجاح في سياسته في سبيل الجامعة الإسلامية إنّما كان على يد جمال الدين، المتوقد الهمة، المشتعل العزم، والتحق جمال الدين بالرفيق الأعلى سنة ١٨٩٦ شيخاً وعاملاً كبيراً في سبيل النهضة الإسلامية حتى النفس الأخير من أنفاسه، وهاك ملخص تعاليم جمال الدين:

العالم الإفرنجي على اختلاف أممه وشعوبه عرقاً وجنسية، هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص، فجميع الدول النصرانية متحدة معاً على دكّ الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، الروح الصليبية لم تبرح كامنة في صدور النصارى كمون النار في الرماد، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم، كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً في عناصرها، متغلغلاً في أحشائها، ومتمشياً في كل عرق من عروقها، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني الممقوت. وحقيقة هذا الأمر ونتيجته واقعتان في كثير من الشؤون الخطيرة والمواضع الكبرى، حيث القوانين والشرائع الدولية لم تعامل فيها الأمم الإسلامية مستوية مع الأمم النصرانية، تنتحل الدول النصرانية أعذاراً لها في كرّها وهجومها وعدوانها على الممالك الإسلامية وإذلالها وإكراهها بقولها: إن الممالك الإسلامية هذه إنّما هي من الانحطاط والتدلي بحيث لا تستطيع أن تكون قوامة على شؤون نفسها بنفسها. فوق جميع هذا فهذه الدول النصرانية عينها لم تفتأ تعمل هذا من ناحية، وتتذرع بألوف الذرائع من نواح أخرى،

حتى بالحرب والحديد والنار، للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة، جميع الشعوب النصرانية مجمعة متفقة على عداء الإسلام، وروح هذا العداء مجمعة متمثلة بجهد جميع هذه الشعوب، جهداً خفياً مستتراً متوالياً لسحق الإسلام سحقاً، تأخذ النصرانية شواعر كل مسلم وآماله ورغباته التي تجول في صدره، ثم تمثلها بصور الهزء والسخرية والعبث والازدراء، فإن ما يدعوه الفرنجة عندنا في الشرق تعصباً مذموماً محرماً؛ هو عندهم في بلادهم وأوطانهم العصبية الجنسية المباركة، والقومية المقدسة، والوطنية المعبودة، وإن ما يدعونه عندهم في الغرب إباءة النفس والشمم والشرف الوطني والعزة القومية؛ يعدّونه في الشرق غلوًّا مكروهاً، وإفراطاً في حب الوطن ضارًّا، ومقتاً، وشناءة للأجنبي الغربي.

جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب عليه أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً، مستمسك الأطراف وثيق العرى، ليستطيع بذلك الذياد عن كيانه، ووقاية نفسه من الفناء المقبل. وللوصول إلى هذه الغاية الكبرى؛ إنّما يجب عليه اكتناه أسباب تقدّم الغرب، والوقوف على تفوّقه وقدرته. انتهى الكلام على الفصل الثاني، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثالث: في شدة المسلمين على الكفار في زماننا هذا وبعض آثاره

في هذا الفصل مبحثان:

المبحث الأول: في بيان تآزر المسلمين فعلاً

جاء في كتاب «حاضر العالم الإسلامي» المذكور ما نصه: في سنة ١٩١١ أغارت إيطاليا معتدية على طرابلس الغرب الأفريقية التابعة للدولة العثمانية على غير ما علة سوى الاستعمار، وفي سنة ١٩١٢م تألبت الدول البلقانية النصرانية، وأوقدت نار الحرب على تركيا، فخسرت تركيا في هذه الحرب جميع أملاكها الأوروبية، فلم يبق من جميع ما كان لها في أوروبا غير القسطنطينية معرّضة لخطر الغارات عليها، ومهدّدة شرّ تهديد، وفي تلك الغضون اتفقت إنكلترا وروسيا على خنق الثورة الفارسية، وكانت فرنسا على أثر معضلة «أغادير» تحرق الأرّم، فعضت على مراكش بالنواجذ، وأنفذت فيها المخالب، وهكذا من خلال سنتين توالت الحملات الأوروبية تترى على العالم الإسلامي حملات العدوان والاعتداء المحض، فمزقت ما كان باقياً منه حتى ذلك العهد سليماً شر ممزق، فنزل ذلك على الأمم الإسلامية قاطبة نزول الصاعقة، يصمّ الآذان دويها، فأخذ العالم الإسلامي في المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشتعلاً غضباً وحنقاً، فعادت الجامعة الإسلامية إلى سابق حالها تجري مجرى سريعاً، وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان ينبئ به على انقطاع دعاة الجامعة الإسلامية منذ خمسين سنة. الحرب الصليبية الجديدة لدكّ الممالك الإسلامية دكًّا، وصدق جميع ما كان يذيعه جمال الدين الأفغاني الحكيم العظيم، وأخذت نتائج الجامعة الإسلامية تبتدئ، ففي طرابلس الغرب انبرى الترك والعرب يقاتلون جنباً إلى جنب بروح عجيبة تبعثها فيهم دعوة الجامعة الإسلامية من بعد ما كانوا قبيل ذلك على حال من الازورار والتنافر شديدة، فلقي المعتدون الطليان أمامهم مقاتلة مستبسلين ملء صدورهم ضرم من التعصب لا يطفأ، ضرم يزيده العالم الإسلامي وقيداً، مما حمل ساسة الغرب

على الجزع والارتباك شديداً، فأخذوا يتساءلون في الخطب الكبير، وفي الذي عساه أن ينفجر انفجاراً عاماً في مشرق العالم الإسلامي ومغربه. فقال «غبريال هانوتو»، وهو وزير فرنسي من وزراء الخارجية السابقين: بالله لماذا وجدت إيطاليا طرابلس غير المحصنة كوكر الزنابير اللساعة؟ أفليس لأنها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الإسلامي أجمع، فإيطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها. ولم يكن خنق إنكلترا وروسيا لثورة إيران ومحق فرنسا لاستقلال مراكش بأقل استثارة للعالم الإسلامي من حرب طرابلس، فزادت نار الغضب احتداماً، غير أنه لما نشبت الحرب البلقانية، طفح الكيل وبلغت الروح التراقي، فبات المسلمون من الصين حتى الكونغو يرقبون أنباء الحرب ونتيجتها، وقلوبهم على أحر من جمر الغضا، فلما طير البرق نبأ الكارثة التركية في البلقان أجفل العالم الإسلامي للخطب أيّما إجفال، وبلغت صرخاته عنان السماء، فقال أحد مسلمي الهند في نداء وجهه إلى بني قومه: يوقد ملك اليونان نار حرب صليبية جديدة، ويستنصر وزراء بريطانيا تعصب النصرانية على الإسلام، ويأتمر وزراء الروسيا في بطرسبرج لرفع الصليب وشكه على قبة مسجد «آجيا صوفيا»، فاليوم هم يأتمرون ويتشاورون في هذا الخطب، وغداً يفعلون مثل ذلك للاستيلاء على مسجد عمر بن الخطاب ـ المسجد الأقصى في بيت القدس ـ أيها المؤمنون الإخوة، اتحدوا وكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فإن الواجب المقدس ليدعو كل مؤمن بالله ورسوله أن ينضم إلى أخيه المؤمن تحت لواء الخليفة أمير المؤمنين، ويجاهد في سبيل الذود عن حياض الإسلام والمسلمين.

وقال أحد زعماء المسلمين في الهند مخاطباً الدولة البريطانية: إننا ننادي الحكومة البريطانية بملء أفواهنا أن تقلع عن سياستها العدائية لتركيا، اتقاء لانفجار بركان المئات من ملايين المسلمين، انفجاراً يجر البلاء عظيماً. وأعجب ما بدا أن أخذ المسلمون يوجهون النداء تلو النداء لغير المسلمين من شعوب آسيا، يدعونها إلى التآزر والاتحاد إزاء الغرب المعتدي، فكان هذا الأمر وأيم الحق غريباً في بابه، لم يسبق له مثيل منذ نشوء الإسلام، فإن محمداً وقد جاء بالقرآن مصداقاً للتوراة والإنجيل وقال إنه خاتم الأنبياء والمرسلين، بعث الله من قبله موسى وعيسى، أمر المسلمين باحترام النصارى واليهود، وسماهم أهل الكتاب، تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان.

وقد اتبع المسلمون ما أمرهم به نبيهم حتى هذا العهد الأخير، فما كانوا قط يوماً مبغضين النصارى بغضهم للوثنيين من البراهمة والبوذيين والكنفوشيوسيين أهل الشرق الأقصى.

بيد أن هذه الحال شرعت تنقلب وتتحول منذ الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤، إذ ظفرت اليابان الدولة الشرقية الوثنية الكافرة على دولة غربية نصرانية، ودقت عنقها دقاً، فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجاً ملؤه الفخر الشرقي والحماسة الإسلامية، وتمنى كثير من رجال الجامعة الإسلامية ودعاتها لو ينتحل أبطال اليابان الإسلام، وشرع في تحقيق هذا الأمر العظيم، والتمست وسائل التقرب من اليابان، ثم أنشئت العلاقات معها، وأنشئت الصحف العديدة لنشر الدعوة، واختير المبشرون للقيام بهذا المشروع الإسلامي الكبير، فأوفد السلطان وفداً إلى اليابان على

بارجة حربية، وأخذ العالم الإسلامي بسبب ذلك يلهج بحديث إسلام اليابان، ويتناقل الأنباء في هذا الصدد، ويتباحث فيه، ويحبذه أشد التحبيذ.

قالت صحيفة مصرية سنة ١٩٠٦: إن بريطانية العظمى وفي حكمها ستون مليوناً من المسلمين لتخشى كل الخشية أمر إسلام اليابان، الأمر العظيم الذي إذا كان تغير مجرى السياسة الإسلامية العامة تغيراً كلياً. وقال شيخ من شيوخ مسلمي الصين: إذا شاءت اليابان أن تدرك منزلة لم تدرك مثلها دولة فيما مضى وأرادت أن ترفع شأن آسيا على شأن سائر القارات فلا يتم لها ذلك بتة إلا بانتحالها الإسلام ديناً.

فاستقبلت اليابان وفد المسلمين استقبالاً جليلاً، وأحلته محل الرعاية والإكرام. بيد أنها لم تكشف عن رغبة في الدخول في دين الرسالة، وكانت النتيجة أن وضع أساس للعلاقات الودية الحبية بين الشعوب المسلمة والشعوب غير المسلمة في آسيا، ومما زاد في ذلك القرب أن أخذت عرى الولاء تتوثق بسبب الحرب البلقانية وما تجلى فيها، وما حولها من المطامع الاستعمارية الهائلة، ويمكن العلم بحالة شعور المسلمين ومبلغ ما آلت إليه من الاضطراب والاهتياج يومئذ بالوقوف على الصرخات الندائية المتوالية التي أخذ المسلمون يوجهونها نحو الهندويين «الهندوس».

ومثال من ذلك نداء عظيم الخطر والشأن، موسوم برسالة الشرق جاء فيه ما يأتي: يا روح الشرق، ألا هبي من مرقدك، وادفعي عن الشرق هذا الطوفان الغربي، طوفان عدوان الفرنجة وبغيهم واعتدائهم، يا أبناء هندستان، كونوا لنا عوناً ونصراً بحكمتكم، شدوا أزرنا بحضارتكم وتهذيبكم، كونوا لنا نصراء بقوتكم، قوة الهندويين آبائكم وأجدادكم، دعوا قوة الأرواح الكامنة في قمم جبال هملايا تنبثق، فقد حان لها وحقّ من أوجدها الانبثاق، املؤوا الجو بصلواتكم إلى إله الحرب لينصر الحق على القوة الغاشمة، ويزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً، وارفعوا أصوات دعواتكم، وفي هياكل ربوات آلهتكم أن تهلك جيوش الأعداء المعتدين.

فمن تدبر هذا المآل الذي آلت إليه حالة المسلمين، ولا سيما تقربهم من الكفرة، وتوثيق عرى الولاء بينهم وبينهم، لا يسعه إلا تكبير هذا الأمر وتعظيمه، والتعجب والاستغراب. ولم يكن هذا التبدل الهائل مقصوراً على مسلمي الهند وحدهم، بل شمل أيضاً مسلمي الصين، فقد قالت صحيفة إسلامية من صحف تركستان الصينية، تدعو إلى اتحاد الصينيين قاطبة اتحاداً وطنياً منيعاً للوقوف في وجه الغرب المعتدي ما يأتي: إن أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغاً لا حد له، فهي لا تنفك تنازعنا على حريتنا التي هي أقدس شيء لدينا، وأوروبا ضربتنا الضربة القاضية إذا لم يستنصر بعضنا بعضاً، ونهبّ في يوم آت هبّة المدافعين عن الأوطان دفاع الأبطال. وفي الدور الأول من أدوار الثورة الصينية، خلع مسلمو الصين عنهم رداء العزلة، واصطفوا إلى جانب أبناء بلادهم البوذيين والكنفوشيوسيين يقاتلون معهم مستبسلين في سبيل الوطن، وقد أثنى الدكتور «صن يات سن» الزعيم الجمهوري الكبير على مسلمي الصين بقوله: إن الصينيين لن ينسوا أبداً نصر إخوانهم المسلمين لهم في سبيل تأييد نظام البلاد واستقلالها وحريتها. فلما نشبت الحرب الكونية العظمى كان العالم الإسلامي أجمع

مضطرباً اضطراباً عميقاً، ومحتدماً حنقاً على الغرب المعتدي، وشاعراً بضرورة اتحاده اتحاداً مكيناً، وساعياً جد السعي لعقد المحالفات بينه وبين غيره من الدول الآسيوية، ليتسنى له بذلك القيام بجهاده المنوي في سبيل التحرر من ربقة الغرب. انتهى الكلام على المبحث الأول، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الثاني: في أن أوروبا نفسها بإيغارها صدور المسلمين جمعت كلمتهم على الشدة عليهم

جاء في كتاب «حاضر العالم الإسلامي» أيضاً ما يأتي: قام ساسة الحلفاء خلال الحرب مئات المرات ينشرون التصريحات الرسمية أن الغاية الكبرى الوحيدة في هذه الحرب الدموية المخوضة الغمار إنّما هو إنشاء نظام عالمي حديث قائم البنيان على مكارم الأخلاق، والأسس الصحيحة، والقواعد الشريفة، كرعاية حقوق الأمم المستضعفة، وإطلاق الحرية لجميع الشعوب والأمم في اختيار حكمها، وتقرير مصيرها، وامتلاك مقدّراتها، فذاعت هذه التصريحات في الشرق أيّما ذيوع، واختزنتها الأمم الشرقية، لا بل حفظتها عن ظهر قلبها، وأخذت ترتلها ترتيلاً، فلما وجد الشرق أن الصلح لم يبن على شيء من تلك القواعد والأسس الصحيحة، ولا على مقتضى مئات التصريحات المحفوظة، بل على المعاهدات المقطوعة بين الدول بعضها مع بعض سراً وخفاء معاهدات الجشع الاستعماري والحكم والفتح، أخذ يحتدم غضباً، ويكبر نوازل الجور والبغي، ويعظم سوم هذا الخسف والذل، فأخذت مراجل العداء تشتد غلياناً في كل صقع من أصقاع الشرق، فاكفهر الجو، وقصفت الرعود، منذرة بأهوال الصواعق، ولم يكن هذا بالحادث المستغرب، إذ قد سبق للكثير من الخبراء العقلاء الغربيين الراسخين علماً بالأمور الشرقية، فأنذروا الدول الغربية المرة تلو المرة قبل انفضاض «مؤتمر فرسايل» بسوء العقبى الواقعة في الشرق، وانفجار عظيم لا بد منه. من هؤلاء المنذرين «ليون كايتاي دوق سرمونيته» وهو ثقة من ثقات الطليان في شؤون العالم الإسلامي، فقد قال في سنة ١٩١٩ في جملة حديث له ذكر في نتيجة الحرب العامة في الشرق: إن الحرب الكونية العظمى قد هزت شجرة الحضارة الشرقية، فاهتزت اهتزازاً بلغ أقصى الجذور في التربة، وبعثت فيها روحاً عجيبة، إن الشرق أجمع من الصين حتى أقصى سواحل البحر المتوسط ليميد ميداناً عنيفاً، ففي كل رقعة وبلد ترى نار العداء للغرب مشبوبة، ففي مراكش الفتنة، وفي الجزائر الثورة، وفي طرابلس الغرب عواصف الاضطراب والهياج، وفي مصر، وبلاد العرب، وليبيا، وسائر الأقطار الإسلامية، الحركات الوطنية القومية الكبرى، جميعها متماثلة الصفة العامة، وموحدة الغاية، بتماسك العالم الشرقي الإسلامي بعضه ببعض، ومناهضته للحضارة الغربية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. انتهى الكلام على المبحث الثاني من الفصل الثالث.

الفصل الرابع: في الكلام على الجامعة الإسلامية

وهل الشدة المذكورة في الآية لا تزال محتملة في هذا الزمان بعد أن أذاع السلطان عبد الحميد الجهاد العام فلم يفلح وأن ساسة أوروبا يشهدون بأن الجامعة الإسلامية اليوم أشد منها في كل زمان، وليس نداء السلطان المذكور شرعياً في نظر المسلمين

جاء في كتاب « حاضر العالم الإسلامي » ما نصه : قد هاج تيار الجامعة الإسلامية هياجاً هائلاً وثار ثوراناً عجيباً في هذه الآونة الأخيرة ، والباعث على هذا إنّما هو الإرهاق الغربي ، المتوالي الشدة والزيادة منذ الزمن البعيد ، ثم كانت الحرب العظمى فاستثارت من الجامعة الإسلامية ما لم يستثر من قبل ، ثم ولي الصلح الحرب ، وهو الصلح الذي سبق لنا فأبنا قواعده ، وأركانه الفاسدة ، وما دهى العالم الإسلامي بسببه من النوازل والفواجع ، ولا يعزبنّ عن البال أن الجامعة الإسلامية على مختلف حالاتها وتطوراتها يجب أن لا تعتبر أنها حركة سياسية دفاعية محمولة على الغرب ، رداً لاعتدائه ، ودفعاً لجوره فحسب ، بل إن منشأها الأصلي هو المشاعر النفسانية الوجدانية العميقة في المسلمين لصيانة الوحدة وتوثيق عرى الجامعة العامة ، تلك الجامعة التي قلنا فيها قبلاً إنها بين المسلم والمسلم لأقوى منها حقاً بين النصراني والنصراني ، فإن هذه الجامعة ليست دينية فقط ، بل إنها بحقيقة المعنى والمراد اجتماعية خلقية تهذيبية ، وإن القوانين والقواعد التي تتألف منها وتقوم عليها حياة الأسرة الإسلامية على مختلف العادات والأقاليم لا تتغير في موضع عنها في موضع آخر في جميع المعمور الإسلامي . قال السير موريسون : إن الحق الذي لا يماري فيه أن الإسلام أكثر من معتقد ديني ، إنّما هو نظام اجتماعي تام الجهاز ، هو حضارة كاملة النسيج ، لها فلسفتها وتهذيبها وفنونها ، وقد انقضى ما انقضى من العهد الذي ما برح فيه الإسلام والنصرانية على نضال ونزاع ، فما عرى وهن جانباً من جوانب الإسلام قط ، بل ما انفك على الدوام يشتد بعضه مع بعض ، متماسكاً متعاضداً ، حتى صار وحدة جامعة نامية نمو الجسم العضوي سائراً سيره بفعل نظامه الذاتي المستقر فيه . فالمسلمون تربط بعضهم ببعض روابط هذه الحضارة ربطاً وثيقاً لا انفصام له ، وباعتبار هذا المعنى فإن الجامعة الإسلامية إنّما هي عامة قائمة البناء في جميع العالم الإسلامي ، حتى إن المسلمين الأحرار على ما يحبذون من الآراء الغربية التي يردون شرعتها من حيث لا يرتاحون إلى دعوة الجامعة الإسلامية السياسية ، لتمشيها على الطرق الرجوعية ، يعتقدون كل الاعتقاد في وجوب الوحدة الإسلامية الشاملة المبنية على أصول الحرية وقواعدها . قال إمام حر من أئمة زعماء المسلمين في الهند ، وهو أغا خان ما يأتي : إن هناك جامعة إسلامية حقة صريحة ، ينضم إلى لوائها الحر كل مسلم مؤمن مخلص ، أعني بذلك الرابطة الروحانية الوجدانية ، والوحدة الجامعة بين أتباع صاحب الرسالة الإسلامية ، فهذه الوحدة الإسلامية الروحانية التهذيبية ، يجب أن تتعهد فتنمو أبداً ، لأنها عند أتباع النبي أسّ الحياة وجوهر النفس . فإذا كان هذا شعور المسلمين الأحرار الواقفين حق الوقوف على حضارة الغرب وتقدمه ورقيه وعمرانه ، والقائلين بوجوب الاقتباس منه والأخذ عنه ، فما أشد شعور سواد المسلمين وهم الجاهلون الرجعيون المتعصبون . أضف إلى هذا ما هو معروف في عامة المسلمين من الشناءة لاعتداء الغرب وحضارته ، الشناءة التي ليس منشؤها في كل موضع سيطرة الغرب السياسية ، بل لمجرد الإفراط والغلو في التعصب . وقد كان للحوادث السياسية في العالم الإسلامي خلال العقد الأخير تأثير كبير في هذا الإفراط والغلو ، فالتهب التعصب التهاباً بالغاً الحد ، تدفعه دوافع سياسية خلقية دينية ، وتجمعه صفة واحدة متماثلة متمكنة في نفس كل مسلم ، فباتت السلم العامّة في المعمور الإنساني

مهددة من ناحية العالم الإسلامي، هذا هو الواقع الذي يجب علينا أن نعترف به، وأن لا نخدع نفوسنا فنستصغر شأن هذه الحالة العصبية اليوم، وما يحتمل أن ينجم عنها من المخاطر الكبرى في الغد القريب، وعلى ذلك ليس من إصابة الحقيقة في شيء أن يقال إن تركيا قد سبق لها فدعت المسلمين واستصرختهم إلى حرب عامة، وحاولت جهدها اقتداح زند الجهاد المقدس سنة ١٩١٤ نزولاً على أمر ألمانيا، فلم يكن هناك الإيراء المراد فذهب الاقتداح باطلاً، بل كان دليلاً على أن الجهاد الحقيقي في العالم الإسلامي بات ضرباً من المحال، إن من حمله الوهم على هذا فهو على خطل شديد، إذ أن الجهاد لممكن أبداً كل الإمكان. قال ضابط ألماني، كان من أركان الحرب في الجيش التركي خلال الحرب العامة قولاً صريحاً، وهو: إن الجهاد الذي أعلنته تركيا قد حبط حبوطاً، لأنه في الواقع لم يكن جهاداً بحقيقة معنى الجهاد عند المسلمين. وقد سبق لنا فأبنا كيف هبّ قادة المسلمين خارج تركيا، فأخذوا يستهجنون دخولها في الحرب، وبسطنا ما ذهب إليه هؤلاء القادة من الخطط والأعمال، فسلسلة الاعتداءات الغربية الآخذ بعضها برقاب بعض منذ القديم حتى انتهاء الحرب العامة وتقرير الصلح على الأسس والأركان التي ذكرنا صفاتها الفاسدة، تقريراً كان من شأنه أن بات العالم الإسلامي أجمع خاضعاً خضوع الذل والخنوع للسيطرة الغربية، جميع هذا أثار قلوب المسلمين، فهبوا هبوب العاصفة، تقتلع كل شيء في سبيلها، أضف إلى ما تقدم أن الأهب المادية ما برحت تزداد وتستوفي.

وقد سبق للمستشرق الكبير العلامة «أرمينيوس فمباري» الخبير حق الخبرة بشؤون العالم الإسلامي، فأنذر الغرب إنذاراً منذ أكثر من عشرين سنة، قال فيه: إن السياسة الاستعمارية النهمة إنّما هي السبب في نشوء المخاطر العظمى في الشرق.

وإليك بعض ما جاء في مقاله الذي نشره سنة ١٨٩٨: إن الخطر الباعث على حرب كونية عامة يزداد في الشرق ازدياداً عظيماً على توالي الأيام، ولا يغيب عن البال أن روح العداء والمقاومة قد اشتدت، والصدور وغرت، والحفائظ اتقدت، أعني بذلك أن الشعور بالوحدة العامة والجامعة الرابطة قد صار شعوراً عاماً نامياً منتشراً في جميع الشعوب الإسلامية، وقد كان من المساعد على ذلك الوسائل الحديثة للنقل والتواصل، فباتت الحالة اليوم غيرها منذ عشر سنين إلى عشرين سنة. وليس من المستغرب أن نقدم على تنبيه الصليبيين في أواخر القرن التاسع عشر إلى المنزلة العالية التي أدركتها الصحافة الإسلامية اليوم من الخطورة والشأن، وإلى عامّ انتشارها في آسيا وأفريقية، وما لعظاتها البليغات، وإنذاراتها الموقظات، من التأثير الشديد في نفوس قارئيها المسلمين، فللصحف الوطنية السيارة والدورية في تركيا والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوة ومصر والجزائر مفعول عظيم، إذ كل ما تفتكر فيه أوروبا، وتقرره، وتقوم على إنفاذه على ما ينافي المصلحة الإسلامية، تنتشر أنباؤه في جميع هذه الأقطار بسرعة البرق، وتحمل القوافل هذه الأنباء إلى كل جهة شاسعة، وصوب سحيق في الرقاع الإسلامية، حتى إلى قلب الصين وخط الاستواء، حيث يهب المسلمون لتلقي مثل هذه الأنباء معظمين مكبرين، فالشرارة التي تستطير من مجمع من مجامعنا، أو ناد من أنديتنا، أو وليمة من

ولائمنا، فما تزال في مستطارها ومسبحها في الفضاء، حتى تجوب أقاصي العالم الإسلامي، فتقع وقوع الرعد القاصف، وما تنشره صحيفة «ترجمان» في القريم مثلاً تردده صحيفة «اقدام» في القسطنطينية ويرون صداه عظيماً في صحيفة «الحوادث الإسلامية» في كلكتا في الهند، فالجامعة الإسلامية اليوم مسترخية العرى بعض الاسترخاء، غير أن اعتداء الغرب على غير انقطاع، وعسفه المتوالي يزداد اشتداداً على الدوام، سيحملان على استجماع هذه العرى بعضها إلى بعض فتتماسك وترتبط، فتصير الجامعة الإسلامية كالبنيان المرصوص منيع الأركان، فيتوقع حينئذ من وراء ذلك حرب عالمية مشبوبة في أنحاء المعمور لا تبقي ولا تذر.

منذ نشر فامباري إنذاره هذا حتى اليوم، ما برح الأمر يتفاقم والنعرة الإسلامية تثور في وجه السيطرة الغربية، وقد زاد في هذا زيادة كبيرة النهضات القومية والحركات الوطنية الإسلامية التي كانت تكاد لا تعرف في القرن الماضي، وهي قد أصبحت اليوم على أتم ما يكون من النظام والكفاية من أسباب الذيوع والدعاية، ولنا مثال على هذا وهو صحف الدعوة للجامعة الإسلامية، وهي التي أشار إليها فامباري، فقد تعاظمت تعاظماً غير مسبوق المثيل، ففي سنة ١٩٠٠م لم يكن في العالم الإسلامي أكثر من مائتي صحيفة دعوية، فبلغ هذا العدد سنة ١٩٠٦ حدّ الخمسمائة صحيفة، وأربى سنة ١٩١٤ على الألف صحيفة، فالمسلمون يرحبون في بلادهم بأسباب النقل والتواصل مثل البريد والبرق والقطارات الحديدية، وغير ذلك مما يساعد على تطيير الأنباء ونقل الأخبار، وكل بلاد من بلاد المسلمين هي على اتصال دائم مع سائر البلدان الإسلامية إما توًّا على يد الرسل والسعاة والحجيج والسياح والتجار والبريد، وإما على يد الصحف الإسلامية والكتب والنشرات والمجلات، ففي القاهرة ترى صحف بغداد وطهران وبشوار، وفي البصرة وبومباي ترى صحف القسطنطينية، وفي المحمرة وكربلاء وبور سعيد ترى صحف كلكتا، وأما الوسائل الكبرى للدعاية في سبيل الجامعة الإسلامية فهي الطرق الدينية التي سبق لنا الكلام عليها، وهي حقاً كالسيل الطامي، فإنها ما أدركت أمة مسلمة إلا استولت على مشاعرها وقلوبها، وسيرتها سهلة الانقياد إلى تعاليمها، وترى دعاة هذه الطرق يقومون بوظائفهم على أساليب عديدة غريبة، فهم يجوبون الأقطار بألوف الأزياء المتنكرة تجاراً ووعاظاً ومرشدين وعلماء، وطلبة وأطباء، وعملة ومتسوّلين، وفقراء ومساكين، حتى ومشعوذين ودجالين، وحيثما وصلوا ترى المسلمين قد تسارعوا لاستقبالهم على الرحب والسعة، وأخفوهم عن عيون رقباء الحكومات الاستعمارية.

زد على جميع هذا أن ساد اليوم في العالم الإسلامي سيادة عامة الاعتقاد الذي يؤيده الأحرار والغلاة والمحافظون وسائر الأحزاب معاً، إن المسلمين اليوم هم في دور النهضة والانتقال والتجدد يستردّون مجدهم الإسلامي الفائت، ويستعيدون عزهم التليد. قال السير «ثيودور موريسون»: ليس من مسلم يعتقد أن الحضارة الإسلامية فانية، أو غير متجددة مترقية، إنّما يعتقد أن قد عرتها فهقرى قصيرة فحسب، فقصر المسلمون أمرهم على التطوّح في الإشادة بمجد الجدود، وتعصبوا في ذلك، وغالوا شديداً، ولكن أمرهم هذا ما كان ليختلف في صفته عن الحال التي كانت سائدة أوروبا في

خلال القرون الوسطى، يوم كان ديجور الجهل مطبقاً جميع البلاد النصرانية، يعتقد المسلم اليوم أن العالم الإسلامي سائر في طريق استئناف الارتقاء، يأخذ عن الغرب ما يزيد في استحثاثه، ويبعث فيه عزماً وإقداماً ونشاطاً، فتطورت الحياة تطوراً تبدّت دلائله في كل قطر إسلامي.

فإذا كان دعاة الجامعة الإسلامية يجهرون بمثل هذه الآراء، ويصرخون تلك الصرخات في مفتتح هذا القرن، وقد جاءت الحرب العامة مصداقاً لما جهروا به السنين الطوال، فلا جرم أن قويت شوكة الجامعة واتسع لها المجال فاشتدت قوة واندفاعاً، أضف إلى هذا أن الغرب قد انقلب بعد الحرب العظمى ضعيف المنة، واهن القوة المادية وهناً كبيراً، ثم جاء الصلح مبنياً على أركانه الباطلة، وطفق الخلاف ينشب بين الغالبين بعضهم مع بعض نشوباً قوّض مكانهم تقويضاً، وقضى القضاء الأخير على منزلتهم في عيون الشرقيين، وقد كان من شأن النزاع والمشادّة بين كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا في الشرق أن ساعد المسلمين مساعدة جليلة على زيادة تساندهم وتماسك بعضهم مع بعض، فاشتدّ إيقانهم بإدراك المبتغى، ثم إن هذا التعادي الذي قام به الحلفاء في الشرق قد سبب اضطراباً سياسياً عظيماً في الغرب، فبعد التباين واتسعت فرجة الخلاف.

قال أحد كتاب الفرنسيس في الآونة الحديثة ينذر أوروبا إنذاراً شديداً: إن العالم الإسلامي بات لا يعترف بحدود أملاكنا الاستعمارية، والعاقل الذي يريد اعتبار الحقيقة لا يعجبنّ من ذلك أقلّ عجب ما دامت الدعوة الكبرى التي نشرها ورفع علمها جمال الدين في المسلمين تسير سيراً دراكاً.

وأي شيء أدلّ على هياج الإسلام، وغليان مراجل حقده من ذلك الثوران الهائل الذي يقوم به السبعون مليوناً من المسلمين في الهند، احتجاجاً على تجزئة المملكة العثمانية؟ والأمر الأخطر أن هذا الثوران الإسلامي ليس مقصوراً على الهند فحسب، بل إنه شامل المعمور الإسلامي، وعلى ذلك فلم يغال السير «ثيودر موريسون» بإنذاره:

لقد حان وأيم الحق للأمة البريطانية أن تعتبر وتتدبر خطورة ما هو جار في الشرق، فإن العالم الإسلامي أجمع ليعجّ غضباً، ويحتدم حنقاً، من جراء تجزئة تركيا، وما هذه اللوامع النارية التي تبدو في كابل والقاهرة إلا البرق الذي تتلوه الرعود القواصف فالصواعق المزلزلة، إني قد أقمت في الهند أكثر من ثلاثين سنة عرفت في خلالها المسلمين حق المعرفة، وأرى من الواجب أن عليّ الآن أن أنذر أمتي البريطانية بشر عقبى هذا الثوران الإسلامي الناشئ عن تجزئة تركيا التجزئة المنوية، فإن ساسة مؤتمر فرسايل قد خالوا تركيا في الأناضول منقطعة عن سائر العالم الإسلامي، فليس من شعب يغضب لها، ولا من أمة تغار عليها، فما أسوأ هذا الخيال الباطل، والوهم القاتل، فمن شاء البرهان فلينظر إلى هذه الوفود الإسلامية العديدة الحالة بين ظهرانينا في لندن كأنها اللهب لا يصطلى به، فالمسلمون قاطبة في الهند من بشوار حتى أركوت قائمون قاعدون لما يرونه قد حلّ بساحة تركيا والمسلمين، حتى باتت النساء المسلمات يعولن إعوالاً شديداً، ويبكين حالة الإسلام بكاء الأمهات أطفالهن، وترى التجار وهم أبعد طبقات الأمة عن مزاولة الشؤون السياسية يفرون من حوانيتهم ومتاجرهم خفافاً إلى حيث ينظمون رقائع الاحتجاج ويطيرونها بالبرق إلى أنحاء العالم، وترى الطوائف العديدة من رجال الدين

المتقشفين، المتشددين، المضروب بهم المثل في شدة انقطاعهم عن جاري الحوادث في العالم، يخرجون من المساجد مواكب ليشتركوا في القيام بالتظاهرات والاحتجاجات.

وأغرب ما في الحالة أن الأحرار قد أخذوا ينتظمون أكثر فأكثر في عداد رجال الجامعة الإسلامية ويؤيدونها بما استطاعوا من القوة والحول، على اعتقادهم بوجوب الأخذ عن الغرب واقتباس الآراء والأفكار منه، وذهابهم مذهباً مخالفاً لغلاة الجامعة الإسلامية، وأرباب الطرق الرجوعية، والحامل كل الحامل لهم على ذلك هو اشتداد الضغط والعنف الأوروبي، فهم إزاء هذا الخطب الكبير يسعون في ردّه بموالاة الأحزاب الأخرى والتحالف معها ولو إلى حين، مع علمهم أن الأحزاب الوطنية المغالية وأحزاب الجامعة الإسلامية إذا أثارت حرباً عامة باسم الجهاد، فمن شأن هذه الحرب أن تفجّ غوراً بعيد المهوى بين الشرق والغرب، وتقضي على تلك العوالم والمؤثرات السارية من هذا إلى ذاك، وهي التي ترى اليوم دابة في كل عرق من عروق العالم الإسلامي، باعثة فيه القوة والعزم، ومع علمهم أيضاً أن حرباً كهذه تشعل نار التعصب الرجوعية في المعمور الإسلامي، ذلك التعصب الذي إذا عاد فاتقد أوهن حركة الإصلاح الحديث في الإسلام إيهاناً شديداً، فأخرها مدة مديدة. ولعل الذي عرف حتى اليوم من ثوران الإسلام لا يعد أكثر من مقدمة لما سيحدث في السنين المقبلة، ولنا دليل على هذا ظهور الدعوتين العظيمتين للإصلاح الديني في الإسلام إصلاحاً ضارباً إلى التعصب، أما الأولى فهي دعوة الإخوان التي نشأت منذ عشر سنين في نجد قلب بلاد العرب، وهي الوهابية عينها التي كانت نشأت منذ مائتي سنة خلت، وهذه الوهابية الحديثة ما برحت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى طبقت كل نجد، وعلى رأسها زعيم صحراء بلاد العرب الكبير، أعني به ابن السعود، خليفة سعود الذي كان رأس الدعوة الوهابية منذ مائة سنة، وأما الإخوان الجدد فعلى تعصب شديد منقطع النظير، وخطتهم هي حلم الوهابية القديم من الإصلاح الديني العام في العالم الإسلامي، وأما الأخرى فهي الدعوة السلفية التي نشأت في الهند منشأ يشابه دعوة الإخوان في نجد، غير أنها قد انتشرت في هذه السنين الأخيرة انتشاراً عمّ كل رقعة إسلامية، وغرضها كغرض الوهابية من حيث الإصلاح المزيج بروح التعصب وغالب أتباعها من حلقات الدراويش. هذه هي الحالة التي مع ما تنطوي عليه من مختلف العوامل المبسوطة الذكر تنخر نخراً متغلغلاً في سلم الشرق. انتهى ما أردته من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، والحمد لله رب العالمين.

نور على نور

انتشار الإسلام في أوروبا وأمريكا في زماننا وذكر حادثتين اثنتين

من ذلك حادثة أمريكي أسلم، وحادثة فرنسي عظيم أسلم أيضاً، وهاك قصتهما، فأما الحادثة الأولى فهي ما جاء في مجلة «جمعية الشبان المسلمين» سنة ١٣٤٩ هجرية، وهذا نصه: **كيف أسلم؟**

ترجمة المحاضرة القيمة التي ألقاها بالإنكليزية الأستاذ محمد أفندي عزّ الدين لوماكس الأمريكاني الذي أسلم، بدار جمعية الشبان المسلمين في ربيع الأول سنة ١٣٤٩ هجرية، ترجمها عبد الحميد سامي بيومي بكلية الحقوق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

جوهر الإسلام

الإسلام في جوهره قوة وقدرة من الخالق، وأن الله سبحانه وتعالى زيادة على وحدانيته وأبديته هو الموجود أزلاً، والموجد لكل موجود، ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة: ٢٥٥].

بين روح الإسلام والإله الواحد الأحد صلة وثيقة العرى لا انفصام لها، فهو الذي يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، حيث يجد في ضياء الإسلام أول قبس يشعّ نوره من القرآن الكريم.

بسم الله الرحمن الرحيم: ففي كلمة «الرحمن» يشعر المؤمن أن الله تعالى هو الإله الواحد الذي يسبغ على عباده النعم في الحياة الدنيا والحياة الأخرى، وأن المسلم إسلاماً راسخاً يعترف لخالقه في صلواته الخمس بالرضا والنعماء، وأما كلمة «الرحيم» فتدلنا أن الله تعالى يشمل برحمته جميع الخلائق، سواء في ذلك المؤمن والكافر، لأنه سبحانه وتعالى يعلم قبل أن يخلق الكافر أنه سيكفر، وأنه لولا لفظ «الرحيم» لما سمح للكافر أن يكون حياً يرزق في الوجود الإنساني، فمن هنا نرى حقيقة لا يدانيها الشك أن هذا النور الأعظم وهو نور الإله إنّما هو الشفقة والرحمة، ولذا نجد أن الله الرحيم لا يميت عيسى ابن مريم من جراء خطايا هذا العالم الدنيء. إن روح الدين الإسلامي الحنيف تعلمنا أن الله لم يخلق شيئاً عظيم النفع جليل القدر لأجل أن يرد إليه تارة أخرى، وأن تقرّب إليه القرابين على سبيل التضحية مقابل اقتراف الإنسان للمنكرات والآثام، ومثل هذا كما يأخذ الإنسان من أحد جيوبه مبلغاً من المال ثم يضعه في أحد جيوبه الأخرى.

أما الآية الأخرى من الكتاب الكريم وهي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة: ٢]، فتعلمنا أن المحامد في مجموعها وكليتها مرجعها إلى الله مالك الملك، والمحيط علمه بكل شيء.

وأما الآية الرابعة فتدلنا على أن الله تعالى مالك يوم الدين، لأنه هو المستثنى من الحساب: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[الأنبياء: ٢٣].

لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم روح الإسلام الذي جعله يجهر بالقول في تعاليم الشريعة السمحة للذين يقرؤون ويكتبون من المسلمين، ومن هنا نعلم أن من يوحي إليه الله بتعاليمه وأحكامه لا بد وأن يكون منزهاً ومفضلاً عن الناس كافة، فسلام الرحيم على نبينا محمد صلوات الله عليه وعليه بركات الإيمان واليقين.

ولقد نفذت روح الإسلام من محمد رسول المسلمين إلى الهداة والمصلحين أمثال عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأن هذه الروح القوية الأثر هي التي حدت النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بينما كان أعداؤه من المشركين يجدّون في البحث عنه ليذيقوه ريب المنون.

ومن الغريب أن أعداء النبي صلى الله عليه وسلم لم يقنعوا أنفسهم بترك مكة، بل تعقبوه في هجرته، وهناك ضربوا على نزله سياجاً من الحيطة لأجل القبض عليه، ولكن روح الإسلام الدفينة في الأعماق

ألهمته بأن يتناول قبضة من تراب ويقذفها عليهم، فأخذتهم سنة من النوم، تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من النجاة منهم في الصحراء حيث اختفى في غار هناك، ولا تقل إن اختفاءه في الغار يحول دون هلاكه وحتفه، ولكن الإسلام وما في ثناياه من روحانية وقوة جعل الحمام يبيض على باب الغار، ولما أفاق أعداء النبي صلى الله عليه وسلم من غشيانهم تتبعوا أثره إلى الغار مدهوشين وأخذتهم هواجس الظن، لعلمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن بأي حال أن يكون في الغار. فمن يريد أن يؤمن بوحدانية الله فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة، وبخاصة عندما أحيطت حياة النبي صلى الله عليه وسلم من يد العدوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حماية محمد صلى الله عليه وسلم بيد الإله الخافية عن الأبصار.

متى وكيف اتصل الإسلام بقلبي وهداني سواء السبيل؟

ولدت مسيحياً، ومسقط رأسي الولايات المتحدة، حيث لا دين هناك خلاف المسيحية، وحيث لا يعثر في تلك الجهة على أي نوع من أنواع الأدب التي تقود إلى الدين الإسلامي القيم، بل إلى هذا الضوء اللامع، والضياء الساطع، إلى القوة التي يرمز إليها بروح الإسلام، وهناك لا يزالون يعلمون الناس أن المسلمين عبدة أوثان، ولكن ولله الحمد في عام ١٩١٧ ميلادية اعترتني مشاعر نفسانية دخيلة حركت قلبي، ودفعت إرادتي إلى اجتياز خمسمائة ميل، لأقتات من فضلات موائد المسلمين، ولآخذ من أدبيات روح الدين الإسلامي بنصيب.

لقد كنت قبل الدخول في الإسلام والتشبع من هذا الدين؛ مدمناً على تعاطي الخمر، لاهياً بالألعاب الاجتماعية، أما اليوم فتركت هذه الأمور ظهرياً، ولا علم لي بالدافع الذي حركني لترك هذه الطفيليات، ولكنني أقول وأجزم القول بأنني أنا؛ وأتكلم هنا بلغة الإسلام؛ أن الروح الدينية الإسلامية هي التي أوحت إليّ بهذا الخير، ولقد شعرت في نفسي بأنني على استعداد للخدمة في الكنيسة ولكني إزاء ذلك وجدت أن ما استقرّ في نفسي كان يتنافر مع أوضاع الدين المسيحي وتعاليمه، فانتظرت خارج الكنيسة ولم أندمج في سدنتها، ريثما ينبثق دين أحسن من هذا الدين الذي كانت الكنائس في الولايات المتحدة سائرة على منواله، سالكة سبله وخطاه.

عام ١٩٢٦ في مدينة شيكاغو انقشع الغشاء عن عيني عندما ابتدأت في مطالعات آداب الإسلام الحقة، وأن جوهر هذا الدين حرّك دكتوراً هندياً يدعى «ميليك» بمدينة «لاهور» بمقاطعة البنجاب بالهند أن يكتب في مجلته قواعد الدين الإسلامي الخمس التي تعتبر الأركان الأولية الأساسية الجوهرية للإسلام، وهاك نصها:

أولاً: كلمة أشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثانياً: الصلاة: على كل مسلم عريق في إيمانه أن يؤدي الصلوات الخمس يومياً بعد الطهارة والوضوء بالماء النقي الطاهر، كي تبقى أرواحنا وأجسامنا وقلوبنا نقية طاهرة قبل الوقوف أمام الله.

ثالثاً: الصوم: وهي فريضة صيام شهر رمضان من كل سنة، حتى نقف بأنفسنا على ألم الحرمان من الغذاء، وتأخذنا قشعريرة الشفقة، وحساسة الرحمة على المعوزين من أبناء السبيل والفقراء ممن

يتضوّرون جوعاً، وبذلك نجني من قوة الإسلام ونفوذه على الأرواح إيماناً ثابت الدعائم لا تحركه هزّات الأباطيل.

رابعاً: الحج: وهو فرض على كل مسلم يملك القيام بأداء مناسك الحج في مكة، وحيث يستشعر المؤمن بالعظمة الربانية، ويشاهد البيت، ومقام إبراهيم، وكل الأعمال الجليلة التي أودعها الله بمكة.

خامساً: الزكاة: وهي فريضة من اليسر بمكان، فإذا كان المسلم مولعاً باقتناء المال وكنزه، أي أنه كان حائزاً للنصاب الشرعي الذي فرضه الله على المسلم، ومع هذا لم يدفع حق الله المفروض عليه سنوياً؛ فقد باء بخسران من الله عظيم، وحلت عليه الضلالة من بارئه.

هذه الأركان الخمسة التي انطبعت في شخصي الضعيف، وامتزجت بنفسي امتزاجاً قوياً شديد الالتحام من روح الإسلام، جعلتني أدين بالعبودية لإله واحد لا لثلاثة آلهة كما يقول دعاة المسيحية. انتهى.

محمد عز الدين الخادم المطيع للإسلام

المعرّب: عبد الحميد سامي بيومي

هذه هي الحادثة الأولى.

وأما الحادثة الثانية فهي أيضاً ما جاء في مجلة «جمعية الشبان المسلمين» تحت العنوان الآتي ونصه:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]

من كتاب الحج إلى بيت الله الحرام

تأليف الحاج ناصر الدين دينه والحاج سليمان بن إبراهيم

الحاج ناصر الدين دينه هو المستشرق الفرنسي المصور الشهير، أول من قدّمه لقراء العربية في مصر، وعرف المسلمين الشرقيين به الأستاذ راشد بك رستم بتعريبه رسالة «أشعة خاصة بنور الإسلام» التي وضعها ذلك الفرنسي المسلم الكبير. وفي سنة ١٣٤٧ هجرية وسنة ١٩٢٩ م لم يقعد به كبر سنه عن تأدية فريضة الحج، برفقة صديقه الحاج سليمان بن إبراهيم الجزائري، وبعد عودتهما وضعا مذكراتهما التي دوّنا فيها رحلتهما إلى الأقطار الحجازية المباركة، وبعد وفاة ناصر الدين في ديسمبر سنة ١٩٢٩م تولت مكتبة «هاشيت» الشهيرة بباريس طبع ونشر تلك المذكرات، فجاءت كتاباً وافياً، يشتمل على مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وملحق ذي فصلين، تقع جميعاً في أكثر من مائتي صفحة، وقد حلاها السيد ناصر الدين بثمان صور من صنع يده، مثل صورة الكعبة المكرمة، والحرم الشريف، ومنظر الحج بعرفات، وصلاة المغرب حول الكعبة، وجبل النور الذي تلقى عنده الرسول الأمين الوحي عند نزوله أول مرة، وجميعها آية في فن التصوير. وقد رأيت أن أعرب لحضرات قراء مجلتنا الزاهرة خاتمة هذا الكتاب لما ورد فيها من أمور حيوية جدير بالمسلمين أن يتنبهوا إليها لعل لهم فيها عظة وذكرى.

لقد استرعت أنظارنا بصفة خاصة أثناء رحلتنا أمور ثلاثة على جانب من الأهمية بالنسبة للمستقبل وهي:

(أولاً) قوة الحياة الكامنة في اللغة العربية.

(وثانياً) قوة العقيدة الإسلامية.

(وثالثاً) إصرار أوروبا في عداوتها للإسلام إصراراً ظاهراً أو مستتراً.

أولاً: قوة الحياة الكامنة في اللغة العربية

اتخذ بعض اللاتينيين ديدناً لهم إظهار اللغة العربية الفصحى بمظهر لغة ميتة وغير مفهومة عند ثلاثة أرباع المتكلمين بها من العرب، أما لغة الكلام فهي في نظر هؤلاء اللاتينيين عبارة عن لهجات عامية لا ارتباط بينها، ومصيرها الفناء بعد زمن قليل. ولكن حسب الإنسان أن يذهب إلى الشرق، إلى مصر، أو سوريا، ليتجلى له البرهان القاطع على أن اللغة العربية التي وئدت قبل أن يحين أجلها هي على عكس ما يذهبون إليه، لغة حية بكل ما في الحياة من قوة، لدرجة أن جميع الأجانب المقيمين في هذه الأصقاع لا يجدون مفرًّا من تعلمها، وإلا حيل بينهم وبين القيام بتصريف أمورهم، وفي مكة على وجه التخصيص يشاهد الإنسان أكبر مظهر من مظاهر حياة اللغة العربية، فإن لغة الكلام هناك تكاد تكون الفصحى بعينها، ومن السهل أن يفهمها جميع الناطقين بالضاد في جميع الأقطار.

أما الاختلاف الواقع بين اللهجات المتعددة فعديم الأهمية لأنه لا يحول دون تفاهم المراكشيين والسوريين واليمنيين وغيرهم فيما بينهم، إذا جمعتهم الظروف في مكان واحد، والعناء الوحيد الذي يلاقيه المتكلم ينحصر في اللهجة المصرية النطق بحرف الجيم والقاف، وهناك الألوف من الحجاج الأعاجم - غير العرب - الذين يقبلون على تعلم اللغة العربية بشغف زائد ليتسنى لهم قراءة القرآن واستيعاب معانيه، والكثيرون منهم يقدرون على التعبير بها من غير ما خطأ بالرغم من سقم نطقهم، ولقد تسنى لنا محادثة بعض الجاويين، والهنود، والفارسيين، والخراسانيين، وأهالي البوسنة، والأتراك والألبانيين، وأهل القوقاز، والسنغال، والسودان، من غير أن تصادفنا صعوبة تذكر.

أما العرب والبدو من سكان الحجاز ونجد فقد تولتنا الدهشة من الشبه الكبير بينهم وبين بدو صحراء أفريقية الشمالية في تعبيراتهم ونغماتهم وأفكارهم. واللغة العربية الفصحى تشابه في الواقع اللغة الفرنسية، وهي مثلها لغة حية، وتتفق وإياها في طريق التعبير والإدلاء، أما اللغة العامية فلا تختلف لهجاتها عن بعضها بأكثر من اختلاف لغة فلاحي شمال فرنسا عن لغة فلاحي جنوبها، ويجد الإنسان في دراسة تلك اللغة العجيبة ميزة خاصة بها، فإنها - من بين جميع اللغات القديمة - اللغة الوحيدة التي لا تزال حية للآن، ولو عاد اليوم أحد معاصري النبي صلى الله عليه وسلم لما وجد أية صعوبة في التفاهم مع جميع الناطقين بالضاد، على حين أنه لو عاد أحد معاصري قيصر لما تأتى له إلا أن يتكلم مع بعض الأساتذة المدرسين، ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن يتسنى له أن يفهمهم كل الفهم، كما أن أحد معاصري «فرنسوا الأول» لو عاد لوجد صعوبة تامة في التخاطب مع فرنسي اليوم.

وآداب اللغة العربية - دون آداب اللغات الحية - أقلها انتشاراً، لأنها أدق على الفهم، ولأن الموجود منها بين أيدينا مترجماً إلى اللغات الأوروبية؛ معظمه محشوّ بالأخطاء وعلى جانب من السخافة المزرية، وفي الواقع لأجل الإلمام بآداب اللغة العربية وتفهيمها للغير يجب أن لا يكون المترجم

لها ممن درسوا اللغة العربية حق دراستها فحسب، بل يجب أن يكون شاعراً، وأن يكون ممن عاشوا بين ظهراني العرب المسلمين وعاشروهم مدة طويلة، فأمثال هؤلاء يجدون في آداب العربية كنوزاً مدخرة قلّ أن يوجد لها نظير في جمالها ونوعها، وللغة العربية ميزة أخرى، وهي أنها منتشرة في أقطار واسعة تمتد من شواطئ الأطلانطيق إلى بلاد فارس وخليج العجم، ومن شواطئ البحر المتوسط إلى بلاد السودان، وكثيراً ما يقابل الإنسان جماعات كبيرة من المسلمين يتكلمون العربية في الأقطار الواسعة الواقعة بين بلاد فارس والهند وشواطئ المحيط الهادي، وإن في دراسة اللغة العربية فوائد لا تنكر لا سيما للفرنسيين، بل هي أكبر أهمية من دراسة اللغة اليونانية القديمة واللاتينية، وتعادل دراسة اللغتين: الإنكليزية والألمانية، ويجب أن تدرس في جميع المدارس الثانوية في فرنسا والجزائر وتونس والمغرب الأقصى.

ثانياً: قوة العقيدة الإسلامية

وقف القراء فيما أوردناه في هذا الكتاب على مقدار قوة العقيدة الإسلامية الهائلة، ولذلك لا حاجة بنا إلى تكرار ما رأيناه من المعجزات التي تجلت لنا من جراء فعل هذه العقيدة في النفوس، ولكن من باب التدليل على عظمة هذه القوة نقتطف فيما يلي بعض الفقرات الواردة في الكتاب الذي وضعه القس «زويمر» والذي أتى فيه على شرح انتشار الإسلام، أيقظته المحن التي نزلت به منذ الحرب الكبرى قال: منذ سنة ١٩٠٥ عاد خمسون ألفاً من الروسيين الذين كانوا يتسمون بأسماء مسيحية إلى حظيرة الإسلام، (صفحة ٢١٠)، وأن السودان الواسع الأرجاء بسكانه البالغين ٥٠ مليوناً من النفوس، وقبيلة هاوسا الكبيرة، وقبائل بلاد النيجر، والشاطئ الذهبي، أسلم الكثيرون منهم، بل هم على وشك أن يصيروا جميعاً مسلمين، ولا ريب أن الموج يرتفع قهراً دون أن يلقى مقاومة، (صفحة ٢٣٥)، وفي البنغال ـ مقاطعة من مقاطعات الهند ـ أسلم أكثر من ١٠ ملايين نفس، وكذلك في برمانيا ـ بجوار الهند ـ زاد عدد المسلمين بنسبة الثلث في بحر عشر سنوات.

وأخيراً نثبت هنا ما فات زويمر أن يذكره، وهو أنه يوجد في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا من اعتنقوا الإسلام، وإذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية بالنظر لقلة عدد المعتنقين ـ وإن كان عددهم لا بأس به ـ فإنه ذو أهمية كبرى نظراً لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتمون إلى الطبقات الراقية المتعلمة، ونذكر منهم على سبيل المثال «اللورد هيدلي» الإنكليزي، وصديقنا المأسوف عليه المرحوم «كريستيان شرفيس» أحد تلاميذ «أوغست كومت»، وأديب من أدباء فرنسا المعدودين، وفيلسوف من فلاسفتها المشهورين.

ولو كان الإسلام الحقيقي معروفاً في أوروبا لكان من المحتمل أن ينال ـ أكثر من أي دين آخر ـ من العطف والتأييد من جراء روح التدين التي نجمت عن الحرب الكبرى، فإنه والحق يقال يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم، فهو ـ ببساطته المتناهية كما يذهب إليه المعتزلة، وباشتماله على روح التصوف كما يذهب إليه أهل الصوفية ـ يهدي علماء أوروبا وآسيا إلى الطريق المستقيم، ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم، كما أنه

هدى وتعزية لزنوج السودان الذين ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية، ويرقى بروح ذلك التاجر الإنكليزي رجل العمل الذي يعتبر الوقت من ذهب، كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين، ويسمو بنفس الشرقي المفكر ذي التأملات والخيال، كما يسمو بنفس الغربي الشغوف بالفن والشعر، بل هو يسحر لب الطبيب العصري بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم، وبما في الصلاة من حركات منتظمة، تفيد الجسم والروح معاً، وفي وسع حرّ الفكر ـ وهو ليس ملحداً حتماً ـ أن يعتبر الوحي الإسلامي عمل من أعمال تلك القوة الخفية التي نسميها «الإلهام»، وأن يعتقد به من غير أية صعوبة، بما أنه لا يحتوي على أسرار خفية لا يسيغها العقل.

ثالثاً: عداوة أوروبا للإسلام

إن الكثيرين من القراء يعترضون على ملاحظتنا الخاصة بعداوة أوروبا للإسلام، فإن هذا الشعور السيئ لا وجود له في الحقيقة عند عامة الأوروبيين، بل هناك الكثيرون من غواة الفن وعشاق السياحة يشعرون بعطف خالص على الإسلام وإعجاب كبير بذلك الدين الجذاب الذي أتى بآيات الإعجاز.

ولكن مما يؤسف له أن أوروبا متمسكة بتقاليد سياسية يرجع تاريخها إلى عهد الحروب الصليبية ولم تحد عنها للآن، وكلما همت بنسيانها قام في الحال أعداء الإسلام أمثال «غلادستون» و«كرومر» و«بلفور» ومطران «كنتر بوري» والمبشرين من جميع المذاهب في وجهها، لصدها والعودة بها إلى تلك التقاليد العدائية. وهنا استعرض المؤلفان بعض الحوادث السياسية مما لا يجهله القراء، ومما لا يخرج بنا عن الخطة التي ارتسمتها المجلة لنفسها، ولذلك لم نر بدًّا من إغفال ما ذكراه في هذا الصدد.

كراهية الإسلام تحت ستار العلم

جرت العادة عند ما يدرس أحد العلماء موضوعاً من المواضيع أن يشغف به كل الشغف، ويرى جميع المحاسن مجتمعة فيه، وما يزال عالقاً بأذهاننا ما كان يبديه أحد أساتذتنا من الحماسة والإعجاب بأشعار «فرجيل» التي كان يحتم علينا استظهارها، وكذا الحماسة التي كان يظهرها أحد علماء التاريخ الطبيعي عند ما يقع نظره على الديدان الموجودة في أحشاء كلب ميت.

ولا يوجد لهذه القاعدة سوى استثناء واحد، والإسلام هو في هذه المرة أيضاً محور هذا الاستثناء ففي الواقع توجد اليوم جماعة من المستشرقين لا غرض لهم من دراسة اللغة العربية والبحث في الدين الإسلامي سوى تشويههما والطعن فيهما. انتهى ما جاء في «مجلة جمعية الشبان المسلمين».

وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى في قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨] والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثانية: في قوله تعالى: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

مع قوله تعالى في سورة الحجرات الآتية بعد هذه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات: ١٠]

وفيهما فصلان: الفصل الأول

جاء في مقدمة كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للعالم الأمريكي «لوثروب ستودارد» ملخص ما يوضح معنى: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[الفتح: ٢٩]، ومعنى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات: ١٠]،

وذلك بتدوين الرسالة المحمدية، وبيان أخلاق العرب القدماء وتفرقهم، والنصارى وخرافاتهم، والقياصرة وظلمهم، والأكاسرة واستبدادهم، وكيف جاء الإسلام فجمع هذه الأمم على الأخوة الإسلامية. ثم أبان أيضاً كيف أصاب هذه الأخوة ما شتت شملها، وفرق جمعها، وذلك بحب الاستبداد بالخلافة والرجوع إلى العصبية الجاهلية في الأمم العربية، فتبع ذلك أن استبدّ الترك الجفاة الغلاظ بالأمم الإسلامية فتفرّق الجمع ورجع الإسلام القهقرى، واستعرت نيران الخلاف بين الفرق المتباينة الإسلامية. ولما كثر الظلم، واشتد الحيف وازداد، وبلغ السيل الزبى، امتدت نيرانه إلى النصرانية، فضيق الترك المسلمون عليها الخناق، في غدوها ورواحها للحج، فكانت الحروب الصليبية، ولولا أخلاق الترك لم تكن هذه الحروب.

ولقد أصيب الإسلام في الشرق بالمغول وعلى رأسهم جنكيز خان، وأصيب في الغرب في بلاد الأندلس بتفرق كلمة العرب، فزالت الدولتان الشرقية والغربية، وهنالك ظهر الترك العثمانيون فملكوا أقطار الإسلام كلها بعد أن أقفرت أعظم ديار الإسلام أيام المغول، وخربت بغداد، وبلاد العراق. ثم إن أوروبا أخذت تستيقظ إذ ذاك فهجمت على بلاد الإسلام واقتسمتها، فقام المسلمون اليوم وعرفوا الحقائق، فاستيقظوا من سباتهم العميق، ورجعوا الآن إلى آية: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

هذا ملخص المقدمة التي كتبها مؤلف «حاضر العالم الإسلامي» الأمريكي، كل ذلك قصصته على صاحبي العلامة الذي يحادثني في هذا التفسير.

فقال: كلام جميل في الرحمة والأخوة الإسلامية، والله إنه نور على نور، وكيف لا يكون ذلك والكتاب أولاً: حديث العهد، ثانياً: إن كاتبه أمريكي نصراني. ثالثاً: إن فيه ملخص تاريخ النبوة وملوك الإسلام. رابعاً: إن الأخوة الإسلامية التي جاءت في هذه الآية ظهرت في أول تاريخ الإسلام ورجعت تظهر الآن كرة أخرى لإسعاد أهل الأرض والله إن هذا التفسير لو لم يكن فيه سوى هذا المقال لكفى، بل لو لم يكن للنبي العربي معجزة سوى هذه لكفت، بل لو لم يكن للمسلمين الحاليين نبراس وسلوة ومنعة وعزة سوى هذه الآراء لكفتهم في رقيهم، فإذا أنت نقلت نفس هذه المقالة لتسمعها الأمم الإسلامية المنبثة في أقطار المسكونة، فإنك حقاً تلهب في قلوبهم نار الحماسة الأخوية والمحبة الإسلامية، وتسرع في رقيهم بها، ويعلمون ما هم عليه من اليقظة والقوة، وتذهب تلك الوساوس والخوف والتشاؤم واليأس، ويحل في القلوب نور التفاؤل والتقدم والسعادة والفلاح.

فقلت: جاء في الكتاب المذكور في المجلد الأول تحت عنوان «تمهيد للمؤلف» ما نصه: إن العلم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، قد تغلغلت فيه عوامل الانقلاب أبعد متغلغل، وانبثت في عروقه فواعل التبدل أوسع منبثّ، حتى كمل اختماره، وتم استعداده، فراح يجتاز هذا الدور الخطير في التحول، ثوّار القوى إلى ما حدّ له، فإذا ما سرّحت ببصرك نحو العالم الإسلامي رقعةً رقعة، من مراكش حتى الصين، ومن تركستان إلى الكونغو، رأيت ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من المسلمين قد ثارت نفوسهم مشتدة الحركة والانفعال، نازعة إلى كل ضرب جديد من ضروب الآراء والأفكار، والمطامع

والآمال، وأن عقبى هذا الانقلاب الشامل لعظيمة جداً، وستتأثر بنتائجها العميمة أمم الأرض جمعاء ولله الأمر من قبل ومن بعد.

على أن العامل الأكبر في هذا الانقلاب هو الحرب العامة، ولكن منشأه يراه المستقصي أقدم عهداً وأبعد أصلاً، إذ أن بذوره قد ألقيت في ترب العالم الإسلامي قبل الحرب الكبرى بمائة سنة بل أكثر، ومنذ ذلك الحين درجت هذه البذور تنمو مزدادة الاستعداد والقوة الحيوية، نموًّا مستسرّ المنهج، بطيء الحركة في أول العهد، ثم على التوالي صار أوضح سبيلاً وأوسع انتشاراً، وما زال الانقلاب الإسلامي على مسراه هذا حتى أدركته الحرب العامة التي قد تضعضع منها الكيان، فكانت عامل الثورة فجأة في المعمور الإسلامي، فطفق يثور ويهتاج متنقلاً من حال إلى حال، مربدّ الجو بقاتم السحب، لا يسمع فيه السامع إلا القواصف. وإن وصف هذا الانقلاب العجيب، ودور التحول العظيم، وما إليهما من مختلف الأسباب والعلل والنتائج هو غرضنا الذي ابتغيناه من إخراج هذا الكتاب للناس، وقد كنا في ذلك من الذين يصورون الشيء كاملاً تاماً، فأتينا على بيان كل صور الانقلاب من دينية وتهذيبية وسياسية واقتصادية واجتماعية، وفي كل من هذه تناولنا الكلام على سببها وتكوّنها، ونشوئها وترقيتها، وعمومها وانتشارها، وصفاتها وحالاتها، وما فيها من قوة انسياق وعامل، أضف إلى هذا أننا لم نغفل إيضاح ما في بعض المواضع من الاختلاف بسبب الإقليم والبيئة، من حيث إننا قد بسطنا تلك المضارعة العامة والصفة الكلية، مما هو مصاحب لجميع الحركات على اختلافها مصاحبة دالة على ما هناك من وحدة متوخاة في هذا الانقلاب الإسلامي.

إن موضوع الكتاب وإن كان مختصاً بالعالم الإسلامي في المقام الأول، غير أنه تناول الكلام على غير المسلمين، كالعناصر الهندوية «الهندوس» في الهند، وسواهم استيفاء للغرض من جميع الوجوه التي لها صلة بالموضوع، لذلك جعل الكلام كافياً وافياً في شأن الشرقين الأدنى والأوسط، أما الشرق الأقصى فلم نتناول الكلام في أحواله مباشرة، ولكنا قد أشرنا إلى ما هو مشاهد من الشبه والمماثلة بينه وبين العالم الإسلامي في المجريات العامة إشارة ينبغي للقارئ أن يقيم لها وزناً. اهـ.

ولنشرع الآن في ذكر مقدمة الكتاب المذكور، فقد جاء فيه تحت العنوان التالي ما نصه:

نشوء الإسلام وارتقاؤه وانحطاطه

يفنى البرايا ويأتي الوقت مختلفاً ليخرج الدهر تاريخاً من الرمم

كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان، ظهر الإسلام في أمة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان، وبلاد منحطة الشأن، فلم يمض على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض، ممزقاً ممالك عالية الذرى، مترامية الأطراف، وهادماً أدياناً قديمة كرّت عليها الحقب والأجيال، ومغيراً ما بنفوس الأمم والأقوام، وبانياً عالماً حديثاً متراصّ الأركان، هو عالم الإسلام.

كلما زدنا استقصاء باحثين في سر تقدم الإسلام وتعاليمه، زاد ذلك العجب العجاب بهراً، فارتددنا عنه بأطراف حاسرة، عرفنا أن سائر الأديان العظمى إنّما نشأت ثم أنشأت تسير في سبيلها

سيراً بطيئاً، ملاقية كل صعب، حتى كان أن قيض الله لكل دين منها ما أراده له من ملك ناصر وسلطان قاهر انتحل ذلك الدين، ثم أخذ في تأييده والذبّ عنه، حتى رسخت أركانه، ومنعت جوانبه، بطل النصرانية قسطنطين، والبوذية أسوكا، والمزدكية قياكسرو، كل منهم جبار أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والأيد، إنّما ليس الأمر كذلك في الإسلام، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية، تجوب فيافيها شتى القبائل الرحالة التي لم تكن من قبل رفيعة المكانة والمنزلة في التاريخ، فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتتسع رقعته في جهات الأرض، مجتازاً أفدح الخطوب وأصعب العقبات، دون أن يكون له من الأمم الأخرى عون يذكر ولا أزر مشدود، وعلى شدة هذه المكاره فقد نصر الإسلام نصراً مبيناً عجيباً، إذ لم يكد يمضي على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة من «البيرينيس» حتى «حملايا»، ومن صحاري أواسط آسيا حتى صحاري أواسط أفريقيا.

كان لنصر الإسلام هذا النصر الخارق عوامل ساعدت عليه، أكبرها أخلاق العرب، وماهية تعاليم صاحب الرسالة وشريعته، والحالة العامة التي كان عليها المشرق المعاصر في ذلك العهد، إن العرب وإن كان ماضيهم ما برح منذ عهد متطاول في القدم حتى عصر الرسالة ماضياً غير مشرق باهر، فقد كانوا أمة استودعت فيها قوة عجيبة، تلك القوة الكامنة التي بدأت منذ نشوء الإسلام تظهر جلية إلى عالم الوجود، فقد ظلت بلاد العرب أجيالاً طوالاً من قبل محمد، مباءة يشتد فيها تزخار القوى الحيوية، وجيشان العوامل الروحانية، كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم وأجدادهم إيغالاً في الشرك والوثنية، وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل، حتى استحالت عناصر أمزجتهم من شدة ذلك كله، فصاروا تواقين بفعل غرائزهم وأخلاقهم إلى تبديل حالهم، وتحسين شأنهم، هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية، حالة الاستحالة الكبرى والانقلاب العظيم، والاستجداد الكبير، لما صاح فيهم نفير الإسلام أن محمداً وهو عربي من العرب، وروح قومه متجسدة ونفسهم متجسمة، استطاع وهو يبشر بالوحدانية تبشيراً عارياً من زخارف الطقوس والأباطيل أن يستثير حق الاستثارة من نفوس العرب الغيرة الدينية، وهي الغيرة الكامنة متمكنة على الدوام في كل شعب من الشعوب السامية، وإذ هبّ العرب لنصرة دعوة ابن عبد الله، من بعد ما ذهبت من صدورهم الإحن المزمنة، والعداوات الشديدة التي كان من شأنها من قبل الذهاب بحولهم وقوتهم، وانضم بعضهم إلى بعض كالبنيان المرصوص تحت لواء الرسالة، في رأسه نور للناس وهدى للعالمين، أخذوا يتدفقون تدفق السيل من صحاريهم في شبه الجزيرة ليفتحوا بلاد الإله الأحد الفرد الصمد.

أجل، هبّ الإسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع، فلاقى في سبيله جواً روحانياً خالياً، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبيزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده لا نمو فيه ولا حياة، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار ديناً يزرى عليه ويسخر منه، أما في فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى أصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين أيدي الموابذة، يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة، فكره الناس ذلك الدين كرهاً شديداً، ومقتوه مقتاً عظيماً.

وأما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية، وهو مملكة بيزنطية، فقد ألبس فيها الدين لباساً غير لباسه الأول، فاستحال إلى الأباطيل الشركية وانتشرت فيه الأوهام والخزعبلات التي كان يقوم فيها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة، فغدت النصرانية عبثاً وسخرية، وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات قد مزّقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شر ممزق، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية، والعداوات الوحشية، فنمت تلك البذور نمواً هائلاً، ولا يعزبن عن البال أنه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر، وملك عاتٍ أرهق الرعية إرهاقاً، لا قبل لأمة باحتمال مثله، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والإخلاص للدولة، زد على جميع ذلك أن هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعد حرب طاحنة، التظت نيرانها بينهما، خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها، منهوكة قواها.

هكذا كانت حالة العالم لما غشيه طوفان الإسلام، وعلى هذا الاعتبار فإن العاقبة التي رآها العالم بعيد ذلك كانت مما لا بد منه ولا متندح عنه، وجميع ما في الأمر أن كتائب المملكة الرومانية الشرقية ومتدرعة فارس، كانت من قبل خوّاضة حرب فتاكة، لم تقو الآن على صد حملة الحاملين عليها من أمة الصحراء المتعصبة، فسقطت أمام الفاتحين العرب سقوط التلاشي والإعياء، فلهذا لم يدافع المغلوبون عن أوطانهم حمساً أبطالاً، بل إن هذه الأمم التي كانت حتى الفتح الإسلامي مدقوقة العنق من جانب ملوكها، قبلت الفاتحين مستسلمة، فقام عديد أرباب البدع يتهللون فرحاً وسروراً لنجاتهم من نير المضطهدين الممقوتين، ولم يمض سوى اليسير من الزمن حتى كان السواد الأعظم من هذه الأمم المغلوبة قد دخل في دين النبي العربي أفواجاً، إيثاراً له بجدته وسذاجته على ذينك الدينين اللذين صارا غاية في الانحطاط والتدني، وقد عرف العرب بدورهم كيف يستدنى الحكم ويوثق السلطان حتى دانت لهم أمور الملك واستقرت نقطة دائرتها في أيديهم، فالعرب لم يكونوا قط أمة تحب إراقة الدماء، وترغب في الاستلاب والتدمير، بل كانوا على الضد من ذلك، أمة موهوبة جليل الأخلاق والسجايا، توّاقة إلى ارتشاف العلوم، محسنة في اعتبار نعم التهذيب، تلك النعم التي انتهت إليها من الحضارات السالفة، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة، الحضارة العربية وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي، ذلك الجماع الذي نفخ فيه العرب روحاً جديدة، فنضر وأزهر، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الإسلامية، فاتحد وتماسك بعضه ببعض فأشرق وعلا علواً كبيراً، وقد سارت الممالك الإسلامية طيلة القرون الثلاثة الأولى من تاريخها ٦٥٠ ـ ١٠٠٠م أحسن سير، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً، وتقدماً وعمراناً، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة، والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة، والجامعات العلمية المنظمة، وفيها مجموع حكمة القدماء ومختزن عقولهم، يشعان إشعاعاً باهراً، طيلة هذه القرون الثلاثة ما انفكّ الشرق الإسلامي يضيء على الغرب النصراني نوراً، ثم غابت كواكبه، وأفلت نجومه، حتى أدركته لياليه السوداء، وأجياله المظلمة.

لم يكد يستهلّ القرن العاشر حتى تبدت الظواهر الواضحة تدل على حينونة العهد الذي أخذت فيه الحضارة العربية في الانحطاط، وما كانت تلك الظواهر لتكذب فيما دلت عليه، غير أن تلك الحضارة إنّما كانت في أوائل عهد الانحطاط تهبط دركة دركة، وعلى هذه الحال المستمرة، وانقضاء العصر العربي منذ القرن العاشر، فقد دامت الحضارة العربية جلدة تنتزع حياتها من مخالب الفناء انتزاعاً، وسابقة للغرب النصراني حتى حلول النازلة الكبرى التي حلت بساحتها في القرن الثالث عشر، وكانت الأسباب في انحطاط الحضارة الإسلامية جمة أشدّها أن روح الشقاق القديمة الأصل، تلك الروح التي كانت على الدوام آفة سياسية تنخر في جسم الدولة، عادت فظهرت، إذ نشأ التنازع على إمارة المؤمنين، وهذا التنازع قد أفضى إلى فتن دموية، وهذه الفتن وما فيها من حوادث الاغتيال وسلب الأرواح قد أفنت تلك الحرارة التي عرفت في صدر الإسلام، فقام مقام الأبطال الأول، مثل أبي بكر وعمر، حاملي لواء الإسلام الأولين، أمراء دنيويون، اتخذوا الخلافة وسيلة للجور والظلم، والتباهي بمتاع الدنيا وأعراضها، وكانت الخلافة في المدينة في الحجاز، ثم نقلت إلى دمشق في سورية، ثم إلى بغداد في العراق، أما في الحجاز فلم يكن البغي ولا الاستبداد هناك مستطاعاً، لأن عرب الصحراء الأشداء، أهل الاستقلال والحرية ليس من شأنهم الخضوع لحاكم قاهر، ولا الانقياد لآمر مرهق، وقد أوصاهم النبي بالحرية والشورى، فقال لهم قولاً مبيناً: إنّما المؤمنون إخوة. وقد كانت الخلافة في الحجاز شورية قائمة على قواعد الإسلام الصحيحة وأركانه، فالأمة هي التي اختارت أبا بكر وعمر وولت كلًا منهما عليها خليفة، وكلاهما كان ينزل على رأي الأمة وحكمها، وذلك على مقتضى الشريعة الذي أوحى الله بها إلى نبيه محمد وهي القرآن الكريم، وأما في دمشق، ولا سيما في بغداد، فقد تحولت الأحوال، وتبدلت الأمور، ولا يعجبن من ذلك، والعرب الصرحاء الأقحاح، الجاري في عروقهم الدم العربي البحت، الدم المتحدر إليهم من أصلاب أبناء الجزيرة، إنّما كانوا فئة قليلة في أفواج الناس، وطوائف الخلق الذين لا عداد لهم من أهل الشام وفارس وغيرهم من سائر المغلوبين المتحلين الإسلام حديثاً، فامتزج دم الغالب بدم المغلوب، وجمع الإسلام بين الأجناس المختلفة والنحل المتنوعة.

ولما كانت جميع هذه الشعوب المغلوبة قد سئمت الذل من ملوكها السابقين فعادت بسبب ذلك لا تقوى على احتمال الإرهاق والصبر على المحنة، لحدثان ما دانت خاضعة مصافية للخلفاء المسلمين الذين أخذوا على التوالي يصطنعون ويستنكفون من هذه الرعايا عمالاً وحاشية، وبالتالي جنداً لحراسة سياج الملك والذبّ عن حياض الدولة، وما زال الأمر هكذا حتى عرا الملك العربي ما عراه من النوائب، فأخذ ظل سلطان العرب، وقد ولت غرر أيامهم يتقلص إلى الصحراء، وأنشأت حكومتهم تنقلب إلى مطية من مطايا الاستبداد الشرقي، ولما نقلت الخلافة إلى بغداد بقيام دولة بني العباس (٧٥٠م) ازدادت كلمة الفرس نفوذاً، وامتد شأنهم وسلطانهم إلى كل زاوية من زوايا الدولة وما الخليفة الأعظم هارون الرشيد بطل ألف ليلة وليلة إلا الملك العربي على شاكلة ملوك الفرس، مثل قياكسرو وكسرى أنوشروان، خلافاً كل الخلاف لما كان عليه أبو بكر وعمر وفي بغداد كما كان في

غيرها من سائر حواضر المملكة الإسلامية كان الاستبداد مقوّضاً لأركان الدولة أيّما تقويض، فغدا خلفاء النبي وهم على هذه الحال طغاة موسوسين، وألاعيب بين يدي الحظايا، لا يستطيعون القيام بعد بعبء من أعباء السلطان، ولا القيادة بزمام من أزمة المملكة الإسلامية.

ما انفكت المملكة تهبط وتتقهقر حتى تقطعت أوصالها، وتفككت أجزاؤها، وسلبت منتها، فصارت الوحدة السياسية مما لا يستطاع دوامه، لافتقار الدولة إلى قوّاد محنكين، ولعفاء ذلك المزاج الإسلامي الصافي الجامع لسجايا عرب الصحراء الأول، وقبيل ظهور الإسلام كان كل أهل مصر من الأمصار التي انتشر فيها ظلم أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، ينزعون منزعاً قومياً ويحاولون نهضة وطنية، فجاء الفتح الإسلامي طامياً قاضياً على جميع هذه المنازع، أما الآن والمملكة الإسلامية محتضرة في النزع فأنى يستطاع المجيء بمثل ما جيء به في صدر الإسلام؟ استطاع الإسلام أن يجعل الملايين من الخلق على اختلاف عناصرهم وأمزجتهم ومعتقداتهم ينتحلون الرسالة المحمدية ديناً، ولكنه لم يستطع أن يحيل هذه الملايين إلى صورة إسلامية متماسكة البنيان ثابتة الصبغة، فاعترض الازدراد شجاً، وساء الهضم فساءت نتيجته، دعا محمد العرب فلبوا دعوته حقاً، لأنه إنّما أتاهم بكتاب وآيات وآراء مما كانت عقولهم مستعدة بالفطرة لقبوله أحسن قبول، وناداهم مستفزاً نعرتهم وحميتهم، وهم إخوان نخوة سجية وخلقاً، فاستجابوا نداءه طائعين، فلما دخلت شعوب مختلفة غير عربية في الإسلام، أخذ كل شعب من هذه الشعوب يفسر بموحى غريزته رسالة النبي على ما يلائم منازعه الشعبية، وميوله التقليدية الخاصة، ويوافق روح التهذيب الذي كان عليه، فنتج عن جميع ذلك أن الإسلام الحقيقي الذي شاهده العالم في أول منشئه قد اعوجّ والتوى، ولنا أجلى دليل على هذا ما حدث في بلاد فارس حيث استحالت الوحدانية التي نادى بها محمد إلى مذهب الشيعة، فبات أهل فارس الشيعة على صلات واهية تكاد لا تربطهم بعالم السنة الإسلامي، واستحالت الوحدانية عند البربر سكان البلاد المغربية الإفريقية وغيرهم إلى حال عبدت معها الأولياء، وحدث مثل هذا عند المسلمين في الهند، على أن جميع ذلك لما شدد النبي في تحريمه والنهي عنه نهياً قاطعاً.

وما كفى ما حدث من الاختلافات الدينية، وما أصاب صورة الرسالة النبوية، حتى عمت البلوى بأن مني الإسلام بتمزق الوحدة السياسية، والانشقاقات الزمنية، فأول ما حدث من هذا النوع كان في أوائل عهد الدولة، إذ فرّ أحد المضطهدين من بني أمية إلى الأندلس، حيث أنشأ في قرطبة خلافة منافسة لتلك التي في بغداد، فاعترف مسلمو الأندلس قاطبة بهذه الخلافة حتى وبرابرة شمال أفريقيا، ومن بعد ذلك بعهد أنشئت خلافة أخرى في مصر هي الخلافة الفاطمية، وخلفاؤها متحدرون على ما زعموا من فاطمة بنت الرسول، أما الخلفاء العباسيون في بغداد فما برحوا يهبطون دركات الانحطاط، ويفقدون من دولتهم وسلطانهم حتى صاروا بعد مدة من الزمن عبيداً مطاويع بين أيدي الترك، العنصر الغريب الداخل عليهم.

وقبل أن نشرع في بيان كيفية انتقال الدولة من أيدي العرب الهجناء ذوي الدم المزيج إلى أيدي الترك وخطورة ذلك عظيمة في تاريخ الإسلام؛ نؤثر أن نقول كلمة في أسباب انحطاط التهذيب

والمدارك العقلية عند العرب، ذلك الانحطاط الذي رافقه تمزق الوحدة السياسية في جميع الأدوار الأخيرة من العصر العربي.

كان العرب في عصر صاحب الرسالة أمة كريمة الأخلاق، سليمة الطباع، نيرة السجايا، مقاديم يركبون كل صعب، تحركهم روح الرسالة بغاية غاياتها، وتبعث فيهم عزماً شديداً وغيرة متوقدة، كانوا أشداء العصبية الدينية، وهي العصبية المعروفة في كل جيل من الأجيال السامية، وعلى شدة هذه العصبية فإنهم لم يكونوا فيها على غير هدى، بل كانوا مستبصرين يستنيرون بنور العقل وهدايته، ومتمسكين تمسكاً شديداً بمعتقدات دينهم وأركانه وأصوله، غير أن دينهم هذا إنّما كان ديناً سهل الاكتناه والمأخذ واضحاً جلياً، كان جوهر تعاليم محمد الوحدانية مع السنة المعلومة، فالاعتقاد كل الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وبأن محمداً رسوله من لدنه كما أنزل في القرآن، والقيام بالفرائض المسنونة المعينة، كالصلاة والصوم والحج، إنّما هذا فحسب هو جملة الأركان التي تألف منها الإسلام الذي كان عليه العرب يوم أصعدوا في الأرض يفتحون العالم الشرقي. فالإسلام وهو هذا الدين الصريح ما كان ليقيد عقل العربي ويلقي عليه سجوفاً فوق سجوف، والعربي كان قد أدرك حالاً ثار فيه جدّه، واشتعلت غيرته، فبات تواقاً إلى اقتباس العلوم واجتناء ثمراتها، والتبسط في شؤون الحياة وتوفير أحوالها، والتكيف على حديث مقتضياتها والخروج بها عما ألفه أزماناً في فيافي الصحراء وكثبانها، لهذا لما نشر العرب فتوحهم، ومدوا سلطانهم على الأقطار الأجنبية لم يقصروا نفوسهم على التنعم بالنعم المادية واستلذاذ الترف ورخاء العيش فحسب، بل عكفوا جادّين على ترقية الفنون والعلوم والآداب وآراء الحضارات القديمة، فنشأ عن جميع هذا الجدّ والترقيات أن أخرج للناس تهذيب عربي سام، فأضاءت العقول وازدهرت ازدهاراً كان فخر الحضارة العربية، وواسطة قلادتها، ودرّة تاجها، وكان ردح من الزمن كانت فيه هذه الحضارة مشرقة الشموس، يانعة الثمار، وارفة الظلال، فسادت الحرية العقلية، وابتكرت الآراء والأفكار العلمية، ووضعت القواعد والأصول واستنبطت الأحكام، بيد أن هذا لم يكن من صنيع العرب وحدهم، بل شاركهم فيه كثير ممن كانوا متظللين ظل دولتهم من النصارى واليهود والفرس الذين كانوا في عهد ملوكهم قبل الفتح الإسلامي يذوقون الأمرين، ويسامون خسفاً شديداً في سبيل آرائهم، ومعتقداتهم الدينية التي كانوا يخالفون فيها النصرانية البيزنطية والمجوسية الفارسية.

على أنه كان لهذا العصر الزاهر حدّ وقف عنده، ثم عرا شمسه كسوفاً فظلام مطبق، فظهرت فرق رجعية، فما برحت تستقوي وتناهض غيرها من الفرق الحرة حتى تغلبت عليها، ثم أنشأت تسود سيادة شديدة ممتدة، وانقضت الأيام التي قامت فيها الفرق الحرة المعروفة على العموم بالمعتزلة مستمسكة بلباب الإسلام وجوهره الصحيح، وذاهبة إلى أن العقل إنّما هو مقياس كل شيء، وقامت الآن الفرق الخلافية المحافظة من بعدها ذاهبة إلى أن النقل والسنة إنّما هما مقياس كل شيء، وأخذ من على هذا المذهب وفيهم كثير من النصارى الذين دخلوا في الإسلام، وكانت أمزجتهم ما برحت مشربة روح دينهم البيزنطي القديم يفسرون القرآن الكريم ويؤوّلونه ثم يؤلفون بين هذا التفسير والتأويل

وبين السنة التي نقلتها الصحابة عن النبي، وأوغلوا في ذلك إيغالاً بعيداً، فنتج عن ذلك أن أصيب الإسلام بمثل ما أصيبت به النصرانية في الأجيال المظلمة من تلبيس الدين عقائد غير عقائده، ونسبة الآراء الدينية الجافة إليه وهو براء منها، فلا غرو إذا اشتد الخلاف واتسعت شقته وطال عهده بين الذين اعتصموا بالسنة والنقل فقاسوا عليهما، وبين الذين جعلوا العقل نفسه مقياساً لكل شيء، وإذ قد انتهى الحال بالإسلام إلى مثل هذا فالغلبة الأخيرة إنّما باتت متوقعة، وهي غلبة عقيدة السنة والنقل على العقل، وفي الواقع فإن تاريخ السنة والتقاليد في كل بلد من بلاد الشرق إنّما هو تاريخ السير نحو أدوار الاستبداد وعواقبه المشؤومة، كانت قد تلبدت في سماء الشرق سحب سوداء قاتمة، فلما أشرقت عليها شمس الإسلام الأولى من الصحراء حقبة من الزمن مزّقتها وبدّدتها، وكيف لا تضمحل تلك السحب وقد سادت الحرية العقلية والفكرية، غير أنه بعد انقضاء هذا الدور دور النور والحرية، عادت الغباوة والعقائد والأوهام تملأ فضاء الشرق وتستولي على عقول أبنائه، ومما ساعد على ذلك استحالة الخلافة الإسلامية من الشورى السياسية الصحيحة إلى الاستئثار فالاستبداد.

فلما رسخ الاستبداد في الدولة وجاوز أفقها بعيداً أخذت آثار ذلك تبدو جلية في موضع موضع والاستبداد بطبائعه هو عدو الحرية وقاتلها أينما وجدت، سواء أكانت حرية العقل والفكر أم حرية العمل، وكان بعض الخلفاء من بني أمية في دمشق، وقد استهواهم مذهب المعتزلة في بدء الأمر يوسعون في حرية الفكر ويرتاحون إليها، ولكن لما أخذت روح المعتزلة تظهر بمظاهر السياسة أجفلوا منها أيما إجفال وأضمروا لها القضاء عليها، فالمعتزلة حقاً لم تقصر أمرها على الآراء الفلسفية فحسب، بل تخطت ذلك فأنشأت ترفع عقيرتها منادية بالرجوع إلى حكم مثل حكم الخلفاء الراشدين، يوم كان أمير المؤمنين ينتخب للإمارة انتخاباً ولا يرثها وراثة، وهو منقاد لرأي الأمة، ونازل على حكمها وشوراها، وقام الخوارج وهم من قلب شبه الجزيرة ومن أشد العرب عصبية يؤيدون تراثهم من حرية الصحراء ويذودون عنه، وينادون بتوسع نطاقه، غير معترفين بسلطة الخليفة ولا مبالين بهيبة أمير المؤمنين وذاهبين في السلطة إلى أبعد من الحكم الجمهوري نفسه، فنشأ عن ذلك أن الخلفاء أخذوا يستدنون أتباع الفرق المحافظة ويقربونهم منهم ويعتضدون بهم، ويقصون عنهم الفرق الحرة كالمعتزلة ويشددون عليها النكير، ويستعينون بالمشايعين لهم من العرب الهجناء، ويشدون بهم أزرهم، مؤثريهم على العرب الصرحاء من شبه الجزيرة، حتى باتت الحكومة في الدولة العباسية حكومة دينية مستبدة، فرسخت عقائد الدين ملبسة لباس التقاليد وقررت حدودها، واضطهد أتباع مذاهب المعتزلة وقتلوا تقتيلاً.

وما كاد يكون القرن الثاني عشر من التاريخ المسيحي حتى أمحت كل معالم الحضارة العربية وقوّضت أركانها، وجفّ كل عنصر من عناصر الحياة فيها، وقضي على كل فكر مبتكر، ورأي مبتدع، وعاد لا يسمع صوت من أصوات المعتزلة، ولا يرى لأحد منهم أثر، وهجع العقل الإسلامي هجعته الطويلة، وما زال مغرقاً فيها حتى استفاق اليوم استفاقته الكبرى مذعوراً.

في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي تجسم انحطاط الحضارة العربية تجسماً تاماً، وبعد أن اختفت الروح العربية الأولى التي هبت من الصحراء هبوبها العجيب، أخذ العرب الهجناء يرون

ملكهم السياسي يذهب من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الدخلاء، وكان هؤلاء الدخلاء الوارثون للدولة العربية هم الترك، والترك هم العرق الغربي من الجيل الطوراني، جيل القبائل الرحالة التي كانت منذ عهد لا يعرف أوله تجوب أنجاد أواسط آسيا وشرقيها، ولما كان العرب يفتحون فارس تحاكت قوادهم وجنودهم بالترك الرحالة، وهؤلاء عندئذ يعوجون المفاوز محاولين جوار حدود فارس الشمالية الشرقية، غير أن العرب وهم في إبان سلطانهم يخشع غالب قطين الأرض لذكر خلفائهم ما كانوا ليرهبوا الترك أو يحسبوا لهم حساباً، بل رأوا في الترك نفعاً لهم، والترك قوم عرفوا بالجفاء والقسوة، لا يحسنون شيئاً أكثر من طاعة آمرهم والقتال كالمجانين، فلهذا ما كان الخلفاء لينفروا منهم في أول الأمر، بل أخذوا يستأجرون منهم جنداً من الطراز الأول لإعزاز الجيش والذود عن ذمار الدولة، ويستكثرون منهم بطانة وحرساً.

قلنا إن العرب ما كانوا ليرهبوا الترك في أول الأمر، ولكن لما وهن عظم الخلافة وذهبت ريحها تحولت الحال فآلت غير مآل، إذ تمكن الترك المستأجرون من الحلول في كل موضع قوي من مواضع الدولة ولا سيما في الجيش العربي، فأنشؤوا يتصرفون تصرف السيد الآمر والحاكم المطاع، ففتحوا أبواب التخوم العربية الشرقية، ومهدوا السبيل تمهيداً لأبناء جنسهم، فأخذ هؤلاء يتدفقون كالموج، وعلى رؤوس طوائفهم قواد أمراء، وطفقوا يعيشون في البلاد أحراراً أنى شاؤوا، ويقيمون حيث طاب لهم المقام، ويجوسون خلال الديار، ويسلبون وينهبون، ويفجعون ويفتكون.

ولما شرع الترك يدخلون في الدولة كانوا يقبلون سريعاً على الدخول في الإسلام أيضاً. بيد أن الإسلام لم يدمث من جفائهم، ولم يقوّم من أودهم كثيراً، ومتى ما جئنا نعتبر شأن هؤلاء الترك الدخلاء يجب علينا أن نفرق بينهم وبين الترك العثمانيين المعاصرين سكان القسطنطينية وآسية الصغرى، فإن الترك العثمانيين اليوم إنّما يجري في عروقهم دم مزيج بعضه أوروبي وبعضه الآخر آسيوي غربي، ويخالط مزاجهم عنصر غربي وعنصر شرقي عربي، فهم والحالة هذه يختلفون اختلافاً كبيراً، تهذيباً وخلقاً، عن آبائهم وأجدادهم الأولين، وعلى هذا كله فإن العثمانيين المتأخرين ما برحت فيهم السيم الطورانية الخشنة التي يتميز بها ترك قفقاسيا المعروفين بالتركمان عمن سواهم من الترك المقيمين في غربي آسيا، فكيف كان التركي القديم بطباعه وسجاياه ترى؟ إنّما كان في المقام الأول جندياً مجرباً، ومقاتلاً باسلاً، وهو لم يكن في ذلك العهد ذا فكر ثاقب، وعقل مبتكر، بل كان فيه شيء من حب الاطلاع والاستشفاف، فلم يقتبس غير القليل من الآراء العسكرية في شؤون القتال، فالطاعة العمياء ثم الطاعة العمياء وقتال الاستبسال فحسب، هما جميع ما كان عليه التركي يوم تقدم ليتناول قيادة الإسلام من الخليفة العربي المضعضع الواهن العظم.

حقاً ما دهى الإسلام وسائر العالم معاً مثل هذه الداهية، وما نزل بالحضارة العربية مثل هذه النازلة، وكفى الإسلام أنه دان لحكم أمة متعصبة مغالية جافة جاسية، لم يكن الرقي مستطاباً في ظل دولتها، فبات ضرباً من ضروب المستحيل. أجل، لا ينكر أن الإسلام قد اعتز بقوة حربية كبيرة جديدة ولكن قد سيء التصرف بهذه القوة التي جنت على الإسلام جنايات هائلة، وجرحته جروحاً كبيرة،

فبات نزيفاً يتقهقر سريعاً، وأول عمل قام به الترك الزاحفون هو اكتساحهم آسية الصغرى واستيلائهم على بيت المقدس في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي. غير أن جانباً من آسيا الصغرى ما برح حتى اليوم قسماً من العالم النصراني، ولما أخذ سيل الفتح العربي يتدفق في القرن السابع الميلادي من شبه الجزيرة، فما يزال يطمو على سورية حتى بلغ جبال طوروس فصدمه الروم هناك، إذ استجمعت الإمبراطورية الرومانية الشرقية من قواها ما استجمعت واستطاعت أن توقف الفتح العربي عند حد تلك الجبال على عناء وتعب شديدين، أما الآن فاجتاز الترك الحدود البيزنطية ودوّخوا آسية الصغرى تدويخاً، وأخذوا يهددون القسطنطينية وهي الحصن الشرقي الحريز للنصرانية، وكان بيت المقدس في أيدي المسلمين منذ الفتح العربي ٦٣٧م، وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيّما رعاية، وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره، فلا ضيقوا على النصارى، ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج الوافدين كل عام إلى بيت المقدس من كل فج من أفجاج العالم النصراني، بيد أن الترك بعد فتحهم البلاد لم يجروا على مثل ما جرى عليه العرب من قبلهم، فالترك لما كانوا لا يرون لذة في غير السلب وكره غير المسلمين، أخذوا يستلبون الأماكن المقدسة ويمتهنون حرمة النصارى ويحولون دون الحج فبات مستحيلاً.

فاكتساح آسية الصغرى والاستيلاء على بيت المقدس معاً إنّما نزلا نزول الصاعقة على النصرانية، فقامت لهذا الخطب وقعدت، وطفقت أوروبا تميد من أقصاها إلى أقصاها مشتعلة بغضاً دينياً ومحتدمة غضباً وحنقاً، وقام ألوف مؤلفة مثل بطرس الناسك يلهبون الصدور ناراً دينية ويحضون على حماية بيت المقدس وقبر المسيح، حتى جنّ الغرب النصراني جنونه الكبير، والتهبت الغيرة الدينية في كل جارحة من جوارحه وعرق من عروقه، وغشي التعصب على أبصاره، فهبّ يبعث البعوث الصليبية، والجحافل الجرارة دراكاً لقتال الشرق الإسلامي في سبيل الصليب.

فداهية الترك ونازلة الحروب المقدسة الصليبية كانتا شر طعنة طعن بها صدر العالم، وسبباً دائماً في سوء العلاقات بين الشرق والغرب. ففي سنة ١٠٠٠م كانت العلاقات النصرانية الإسلامية أخذت تستقيم وتسير سيراً منبئاً بالكف عن العداء، ومبشراً بازدياد تحسن الحال وخير المصير، وكانت الأحقاد التي ثارت على أثر تدفق الإسلام على حال التلاشي والاضمحلال، وظهر عندئذ أن الحدود الجغرافية بين عالم الإسلام وعالم النصرانية كادت تستقر، فليس أي الفريقين يطمع في الخروج على الآخر، ولم يبق ثمة أمر من أمور النزاع شأنه خطير وكبير غير الأندلس، حيث كان هناك مصطدم الإسلام والنصرانية المصطدم الأخير، بل على كل كانت الأندلس إذ ذاك قد باتت تعدّ حدّاً فاصلاً بين العالمين، وعلى الجملة فقد كانت علائم ازدياد الوئام والطمأنينة بين الإسلام والنصرانية متجلية واضحة، وناحية منحى حميداً، فلو قدّر لهذه الحال أن تستمر وتسير بحيث يسكن كل عالم إلى أخيه لكانت أتت بنعمة من النعم الكبرى الباقية على الحضارة والإنسانية، فالعالم الإسلامي كان ما برح حتى ذلك الأوان سابقاً لأوروبا الغربية سبقاً بعيداً، وفائقاً عليها علماً وتهذيباً. بيد أن الحضارة العربية كان قد أخذ الكمد والكلف يبدوان عليها في الحين الذي طفقت فيه نفس الغرب النصراني تجيش،

ونهمته تشتد للآفات من ريق جهله، والخروج من ظلمته وبربريته، فأي خير كان أعظم من ذلك الخير الذي كان يرجى من الودّ الوليد الذي ظهر في القرن الحادي عشر الميلادي، بين الشرق والغرب، فيما لو قيض له النمو أمداً بعيداً، بل ترى أي نفع كان أجلّ من تقارض العالمين بعضهما البعض العون واقتسام السرّاء والضرّاء؟.

أجل: لو كان ذلك لكان به نجاة كبيرة ولكانت الحضارة العربية الأندلسية وفيها علوم اليونان والرومان قد أيقظت نهضتنا من مرقدها قبل استيقاظها بعهد طويل، ولكانت روح الغرب التي تمشت في جوارحه في الأجيال الوسطى، تلك الروح الجبارة هبت فتناولت الشرق وتغلغلت في أحشائه متغلغلها في الغرب، فنجت الحضارة الإسلامية من متخبطها ومتعثرها في ذلك الحلك الداجي الذي طال عهده.

غير أنه ما كان ذلك ليكون، فقد اختفى العربي الدمث الخلق، اللين العريكة، وجاء من بعده التركي المتعصب الخشن القاسي، فعاد الإسلام يثب ويهتاج، ولكن شتان بين اهتياجه الأول بالأمس واهتياجه اليوم، أما بالأمس فقد كانت تحرك العرب روح الرسالة وفضائلها ومثلها العليا، وأما اليوم فما يحرّك الترك إنّما هو روح الطمع والفتك وحافز الاستيلاء والغصب، ومن ذلك الحين بدأ العراك يشتد، وناره تتقد بين الدولة التركية والحضارة الغربية التي كان نشوءها مرجوًّا لها عهدئذ، ودام هذا العراك قروناً، وما كانت الحروب الصليبية سوى ردّ الغارة على الترك الذين أخذوا منذ ذلك العهد يوالون غاراتهم على النصرانية برهة ستمائة سنة، حتى صدموا الصدمة الكبرى عند أسوار «فينا» سنة ١٦٨٣م، وقد كان من الطبيعي أن تأصل العداء، واستحكمت الشنأة، واستقر التعصب بين الإسلام والنصرانية مما ما برحت جراثيمه حية، وسموم ثماره نامية حتى الآن، وهذا النضال الذي تتلو أنباءه في صحف الأخبار اليوم، النضال القائم بين مصطفى كمال ومقاتلة الوطنيين وبين اليونان في آسية الصغرى، إنّما هو حلقة من سلسلة حروب بين الإسلام والنصرانية، حلقتها الأولى كانت في فلسطين بين الترك والصليبيين منذ ثمانمائة سنة، وحلقتها الأخيرة إلى اليوم هي هذه الحرب بين الترك واليونان في أغوار الأناضول وأنجادها.

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نبحث في تاريخ الحروب التي قامت بين الترك والنصرانية، إنّما ما يجب حفظه في البال أن تلك الحروب ظلت إلى اليوم عداء مزمناً، وعلة دائمة بين الشرق والغرب.

أما الشرق الإسلامي فقد قدّر له بعد أن دارت الأيام بحضارته العربية وحنا عنقه للنير التركي الثقيل أن يلاقي فوق ذلك أهوالاً أشدّ وأفدح، منهالة عليه كغيرها من الجيل الطوراني، ففي أواخر القرن الثاني عشر هبت العروق الشرقية من الجيل الطوراني، ملتفة ملتئمة حول بعضها بعضاً، مكونة وحدة دامت مدة، وعلى رأسها زعيم جبار عات هو «جنكيزخان». اتخذ هذا الطاغية ـ الطاغية الذي لا يغلب ـ لقباً له وطفق يزحف ناهباً العالم نهباً، فاكتسح في أول مرة الصين الشمالية وأنزل بها هولاً شديداً، ثم اتجه غرباً زاحفاً مدمراً، وناهباً مخرباً، فرأى العالم من بلائه ما لم ير مثله من عات قبله، هذا هو النهوض الذي نهضه المغول في ذلك العهد، وهذا اسمهم ما برح حتى اليوم إذا ما جرى

على الألسنة وجفت له القلوب واقشعرت منه الأبدان، زحف جنكيزخان بكتائب من الجند لا تحصى مصطحباً مهرة المهندسين الصينيين لصنع البارود في تخريب المدن والحصون، فكان وفرسانه سيلاً جارفاً، وناراً آكلة، وأعظم بلاء حلّ بالبشرية، لم تكن غاية المغول الفتح والاستيطان، حتى ولا الغنم ولا الاستلاب فحسب، بل هراقة الدماء، وتعذيب الأرواح، ودرس البلاد وملاشاة العمران، فذبحوا الشعوب تذبيحاً، ودكوا المدن دكاً، بحيث لم تنج بلاد حلّ فيها المغول من الهول، وكان شأنهم في قطر شأنهم في سائر الأقطار.

ومات «جنكيزخان» بعد بضع سنوات من زحفه هذا، فقام خلفاؤه من بعده وانتهجوا نهجه في الزحف وتعميم النازلة، فالمغول حقاً طعنوا الإسلام والنصرانية معاً طعنة خارقة، إذ حاق بأقطار شرق أوروبا مثل ما حاق بغيرها من الأقطار الآسيوية، وتلك آثار الهول المغولي في روسيا ما برحت شاهدة على بربرية المغول وهمجيتهم. غير أن الهول الذي نزل بالعالم الإسلامي كان أشد منه في العالم النصراني، فالمغول بزحفهم على روسيا لم يجاوزوا تخوم بولندا قط فنجت بذلك أوروبا الغربية، لكن ما أريد لأوروبا الغربية من النجاة لم يرد مثله لجانب من العالم الإسلامي، إن العاصفة المغولية بهبوبها من الشمال الشرقي في آسيا استطاعت أن تطبق العالم طرًّا من الهند حتى مصر، مقتلعة جارفة كل شيء في سبيلها، وقد كانت فارس وهي إذ ذاك ما برحت منهب الكتائب التركية تحاول النجاة بحضارتها الوليدة فدهمتها الجوارف المغولية غاشية ماحقة، فتلاشت قوة فارس وتضعضع كيانها أيما تضعضع، ثم تقدم المغول نحو العراق ليعطوا بغداد مدينة الحضارة والتهذيب نصيبها من الهول، وكانت بغداد عهدئذ قد ذهب الكثير الزاهر من عزّها ومجدها، فذوت نضارتها من بعد هارون الرشيد، وتنكر الدهر لذلك المليون من السكان، بيد أن بغداد على كل هذا كانت ما برحت مدينة عظيمة من أمهات المدن الكبرى، فيها كرسي الخلافة ومركز الحضارة العربية، فانقض عليها المغول سنة ١٢٥٨م، وأعملوا فيها أيدي التخريب والتدمير فذبحوا أهلها تذبيحاً، وكادوا يمحونها من على وجه الأرض، على أن هذا لم يكن جميع البلاء، كانت بغداد عاصمة العراق، وكانت ما برحت في العراق سدود الري العجيبة من فجر التاريخ تمثل مهارة بناتها الأولين وقدرتهم، وتقي البلاد من مهاب أعاصير الصحراء، فكانت العراق على الدوام، وفيها السدود الكبرى جنة الأرض دهري العالم، وقد تعاقب الفاتحون الكثار في البلاد دوراً بعد دور، وعصراً بعد عصر، فكان من شأن كل فاتح أن يبقى على هذه السدود، لا بل يعظم شأنها وشأن بناتها، ويعتبر كل الاعتبار قدر نفعها وخيرها للبلاد، فلما غشي المغول العراق سرعان ما قوضوا هذه السدود تقويضاً بحيث لم يبقوا منها حجراً على آخر، فعفت أقدم حضارة عرفها العالم، وخرب مهد التهذيب البشري، ومحيت آثار أعمال جدّت في سبيلها البشرية طيلة ثمانية آلاف سنة على الأقل، فخوت العراق خواءها هذا المشهود حتى اليوم، وباتت مرتدية حلة من الجفاف المحرق، ومنشأ لأوبئة الحمى المنتشرة متى ما كان فيضان، يسكن قراها الحقيرة أقوام من الفلاحين، ويجوب رحابها رحالة من البدو، يرعون ماشيتهم أرضاً كانت من قبل منابت الحضارة والتهذيب، فالنازلة التي حلت ببغداد إنّما كانت ضربة قاضية على

الحضارة العربية ولا سيما في الشرق، وكان هذه الحضارة قد أصيبت من قبل نازلة المغول بضربة أخرى في الغرب وهي نازلة الأندلس العربية، وموجز ذلك أن الإسلام بعد انتشاره في جميع أفريقية الشمالية جاز البحر وطبق أسبانيا من أقصاها إلى أقصاها، فخفقت فيها أعلامه، وأشرقت شموسه، وازدهرت الحضارة العربية الإسلامية الأندلسية ازدهاراً كاد لا يرى مثله في أي قطر آخر من الأقطار الإسلامية الشرقية، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس، وفيها كرسي الخلافة الغربية، فبلغت هذه العاصمة من العظمة والمجد مبلغاً كبيراً، حتى لعلها كانت تفوق بغداد عينها رقياً وحضارة، وقد عاش ملك العرب في الأندلس قروناً عديدة ملكاً زاهراً آمناً والعرب حاصرون للنصارى في الكور الجبلية الشمالية من البلاد، فلما بدأ سلطان العرب يضعف ويني، وقوتهم تهن أخذ النصارى يدفعون المسلمين جنوباً مستردين منهم البلاد كورة فكورة، وكانت معركة « لانافادي طولوزة » سنة ١٢١٣م، فخضدت فيها شوكة العرب، وفت في عضدهم فتاً كبيراً، ثم من بعد ذلك صارت تتوالى انتصارات النصارى على غير عياء، حتى سقطت قرطبة في أيدي المستردين من نصارى أسبانيا المتعصبين، فبادر هؤلاء إلى استئصال شأفة الحضارة العربية الأندلسية على نحو ما كان يقوم به المغول عندئذ في الشرق، فذهبت الأندلس من أيدي المسلمين، فلم يبق لهم من جميع ذلك الملك الذي كان زاهراً سوى رقعة صغيرة واقعة في الطرف الجنوبي من البلاد، وهي غرناطة التي بقيت في حوزة المسلمين حتى استكشاف كولمبوس أماركة، ثم بعيد ذلك طردوا منها، فاختفت على الأثر معالم الحضارة العربية في الغرب.

وكان الشرق الإسلامي ما زال يشقى وتتوالى عليه فجائع المغول وأهوالهم، وأمامنا الآن آخر داهية من دواهيهم، وهي زحف تيمورلنك في أوائل القرن الخامس عشر، ففي هذا العهد كان المغول الأول الغربيون قد صاروا مسلمين، غير أن الإسلام لم يذهب بالكثير من وحشيتهم وبربريتهم، واقتفى تيمورلنك آثار جنكيزخان في تذبيح الخلائق وتدمير البلاد، فما كانت نفسه تغتبط بشيء اغتباطها بمناظر الأهرام من جماجم البشر، وأي هرم أكبر من ذلك الذي شيده تيمورلنك من سبعين ألف جمجمة بعد تخريبه مدينة أصبهان في بلاد فارس، وانقضى عهد المغول الهائل في الشرق الإسلامي، ثم جاء الترك بدورهم زاحفين.

الترك العثمانيون هم من أصل القبائل التركية العديدة التي جاءت آسيا الصغرى من بعد سقوط المملكة الرومانية البيزنطية، وغالب الفضل في تشييد المجد الذي شيدوه، وعزّهم الذي بنوه، إنّما هو عائد إلى عديد سلاطينهم الذين كانت لهم الغلبة على سائر القبائل المجاورة، فاستطاعوا بذلك أن يوحدوا جميع القوى التركية العظيمة، ثم طفقت فتوحاتهم تمتد شرقاً وغرباً، وفي سنة ١٤٥٣م دكّ الترك صرح الإمبراطورية البيزنطية دكاً، وفتحوا القسطنطينية، وخلال قرن تال فتحوا الشرق الإسلامي من فارس حتى مراكش، ودوّخوا شبه جزيرة البلقان من أقصاها إلى أقصاها، وتغلغلوا في أحشاء هنغاريا حتى بلغوا أسوار « فينا »، واستطاع الترك العثمانيون ما لم يستطعه أبناء عمهم المغول من قبلهم، فبنوا مملكة منيعة الأركان، غير أن ملكهم هذا كان فيه جلف وبربرية، وذلك إنّما كان لبعدهم عن روح التهذيب والتثقيف، فإنهم لم يبرعوا في شيء براعتهم في فنون القتال، بل كانوا فيها

من أشهر الأمم وأشدها قوة وبأساً ومراساً، ولما كانوا في إبان مجدهم وسلطانهم كانت خيالتهم ورجالتهم من أفضل طراز الجيوش التي شهدها العالم، فأرعبوا بها أوروبا رعباً شديداً، وفي هذا العهد كانت أوروبا قد بدأت تستيقظ وتسير سير التقدم الصحيح، وتنشئ حضارة متدرجة مدارج الرقي والثبات، وبينما كان الشرق الإسلامي يئن من الأهوال المغولية والفتوح التركية؛ كان الغرب النصراني يشعل مصابيح النهضة، ويعدّ أسباب استكشاف أماركة وطريق الهند، ذلك الاستكشاف الخطير الشأن، العظيم النتائج مما لا يخفى على أحد، ومما يزيده خطورة هي الحالة التي كانت عليها أوروبا في ذلك العهد، فإنه لما كان كولمبوس وفاسكادي غاما يقومان بأسفارهما البحرية قبيل ختام القرن الخامس عشر كانت الحضارة الغربية محاصرة في نطاق ضيق لا تجوز دائرته القسم الغربي من أوروبا الوسطى، وهي إذ ذاك في أكره يوم من أيام نضالها وجلادها مع البربرية الطورانية، كانت روسيا تمزقها سنابك خيول التتر والمغول، وكان الترك وهم ثملون بشوكتهم الحربية، يغيرون منتصرين من الجنوب الشرقي، مهددين قلب أوروبا شر تهديد، هكذا كانت البربرية الطورانية مطبقة آسيا وشمالي أفريقيا وشرقي أوروبا يوم كانت الحضارة الغربية وهي طفلة في المهد تستقبل حكم القضاء النازل إما لها وإما عليها، وعلى الجملة فقد كانت الحضارة الغربية تنازع في سبيل بقائها أشد منازعة، مولية ظهرها السور العظيم «سور الأوقيانوس»، فلذلك لا نكاد نستطيع أن نتصور حق التصور كيف واجه أجدادنا الأوقيانوس، وشرعوا يمخرون عبابه في تلك الليلة الظلماء، والفترة العصيبة من الأجيال الوسطى، لا جرم، كانت أوروبا في تلك الحقبة إنّما تذود عن بقائها بجميع ما كان فيها من قوة وبأس، وتردّ عنها غاشية البربرية الآسيوية، وما هي إلا ليلة وضحاها فإذا بليل الخطر الآسيوي قد انجلى، وبالأوقيانوس بات طريقاً آمنة، فصارت أوروبا من بعد ذلك سيدة البحار ثم سيدة العالم بأسره.

قضي الأمر ودارت الأقدار بالشرق والغرب أعظم دورة عرفها الإنسان، فبعد أن ركبت أوروبا متن البحار صارت تستهزئ بجبابرة آسيا وعتاتها، وكانت من قبل بردح ترى النصر عليهم أبعد منالاً من الجوزاء، ثم أخذت موارد الثروة تفيض على أوروبا من وراء البحار، فاتقد نشاط القارة واشتعلت قوتها، ولا يعجبن من ذلك وأوروبا قد كشفت القناع عن أبكار بلدان، فأخذت تستورد منها خيرات لا نفاذ لها، غذاء طيباً لحياتها وصناعتها، فباتت والشرق شتان ما هما، فأي موارد كانت للشرق الإسلامي الخرب المهشم إزاء أمريكا الجنوبية والشمالية وجزائر الهند. هكذا دبت الحياة دبيبها الهائل في الحضارة الغربية، فانتفضت وهبت من مرقدها، وأخذت تخطو إلى الأمام خطوات الجبابرة، محطمة أغلال أجيالها الوسطى تحطيماً، وقابضة على طلاسم العلوم، جادة نحو العصور الحديثة.

وعلى كل هذا فقد ظل الشرق الإسلامي جامداً ساكناً، ملتفاً بخلقان الحضارة العربية التي طال على خوائها الأمد، ومتسكعاً في ديجور الظلام، ولم يكن ذلك جميع شقائه حتى تضعضعت قوته الحربية وبلغت حدّ التلاشي، فوهن عظم الترك بعد الشدة، واستغرقوا في انحطاطهم فصاروا لا يستطيعون مجاراة أوروبا اختراعاً وارتقاء، ولا تحسين فن من فنون القتال، وقد كرّت حقب كان الغرب فيها يقاتل بعضه بعضاً قتالاً عنيفاً، فلم يستطع الحملة على الشرق، فعلت منزلة اسم العثمانيين

علواً كبيراً، بيد أنه لما أغار الترك على أسوار «فينا» سنة ١٦٨٣م فردّوا على أعقابهم خاسرين، أيقنت أوروبا حينئذ أن هناك إنّما كان منقلب قوة المملكة العثمانية، فأخذ جدّ العثمانيين يعثر ونجمهم يأفل، ومنذ ذلك الحين شرع الغرب يكرّ على المملكة العثمانية الكرّة بعد الأخرى، متناشاً منها ما استطاع، ولو لم تورّث منها نار الحسد بين بعض الدول الغربية بعضاً فتطمع كل دولة فيما طمعت فيه غيرها، أعني لو لم تختلف هذه الدول في اقتسام الغنيمة لمزقت الإمبراطورية العثمانية شر ممزق منذ عهد عهيد.

ثم توالت الأيام على العالم الإسلامي وهو هاجع لا يستيقظ حتى كان القرن التاسع عشر، فتململ في مهجعه مستثقلاً وطأة الغرب، وفي خلال القرن الثامن عشر كانت الدول الغربية تحمل على جوانب العالم الإسلامي وتخضع لها الأقطار في شرقي أوروبا وجزائر الهند، وأما جلّ العالم الإسلامي ومعظمه من مراكش حتى أواسط آسيا فقد ترك وشأنه، فما كان ليعتبر هذه الفترة السانحة، بل ظل مستغرقاً في هجعته مستهزئاً بكفرة أوروبا، راضياً مسلماً بأن شقاءه إنّما هو بمشيئة الله، لا يقيم لرقي أوروبا وزناً، ولا يحسب لمستنبطاتها حساباً، هكذا كانت حالة العالم الإسلامي لما استيقظ إيقاظه في مطلع القرن التاسع عشر، فإذا بأوروبا تقف بإزائه مجنونة بثورتها الصناعية، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع، وبين يديها الغاشمتين الطبيعة مسخرة مفضوحة أسرارها، وآلات حربية جهنمية لم يحلم أحد من البشر بمثلها من قبل، فكانت النتيجة المتوقعة لما شرعت حملات أوروبا تغشى الشرق الإسلامي أخذت أقطاره تسقط الواحد تلو الآخر في أيدي الحاملين عليه، فلم يمض غير اليسير من الزمن حتى كانت دول أوروبا الكبرى قد اقتسمت جميع العالم الإسلامي، فاستولت بريطانيا على الهند ومصر، وعبرت روسيا القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسيا، وفتحت فرنسا شمالي أفريقيا، وقامت سائر الدول الأوروبية غير الكبرى واستولت بدورها على الأقطار الصغيرة الباقية من الغنيمة الإسلامية، وما زالت الحالة هكذا حتى جاءت الحرب الكونية العظمى، فكانت شاهداً على آخر دور من أدوار إذلال الشرق الغرب. ولما وضعت شروط المعاهدات بعيد أن وضعت الحرب العامة أوزارها قضي على كيان الدولة العثمانية، فلم تبق بعد ذلك دولة إسلامية مستقلة استقلالاً صحيحاً، فتم إخضاع العالم الإسلامي، ولكن على القرطاس!.

أجل، تمّ ذلك على القرطاس فحسب، والسبب في ذلك أنه لما ظهرت سيطرة الغرب على الشرق هذا المظهر القاهر السرعان ما هبت عليها عواصف شديدة عجيبة لم يسمع بمثلها من قبل، كان الشرق الإسلامي طيلة هذه المئات من السنين التي كرّت عليه وهو حان عنقه للغرب، تتطور قواه الباطنية تطوراً عظيماً، وينفعل بعضها ببعض انفعالاً كبيراً حتى آن الأوان، فانفجر البركان فكان منفجره هائلاً. وهذا المدّ، مد بحر المطامع الغربية الطامي قد غالى في إيلام الشرق مغالاة شديدة، فتحرك الشرق الجامد الساكن أخيراً، ودار الشرق الإسلامي حول نفسه، فرأى تعاسة حاله وما هو حالّ بساحته، فأخذت نفسه تجيش وتضطرب، ومشاعره تهتاج وتنبعث، وقواه تثور ثوراناً عجباً بلغ أقصى أعماقه، واستيقظت روح الإسلام في كل رقعة من رقاع العالم الإسلامي، فهبّ الـ ٢٥٠,٠٠٠,٠٠٠

من أتباع النبي محمد من مراكش حتى الصين، ومن تركستان حتى الكونغو، هبوب العاصفة الزعزع، لا يعرف مستقرها قدح الزناد في صحراء شبه الجزيرة، مهد الإسلام ثم أخذ الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الإسلامي، إذ في الصحراء هذه نشأت الدعوة الوهابية في مطلع القرن التاسع عشر وهي دعوة الإصلاح الإسلامي، ثم كان من أمرها أن ترقت واتسعت حتى بلغت في نطاقها دور النهضة الإسلامية، ثم عرفت بالتالي بالجامعة الإسلامية، ولم تكن عوامل هذه التبدلات والتحولات في العالم الإسلامي مقصورة على تلك العوامل الداخلية المنبعثة عنه فحسب، بل إن هناك عوامل وآراء وعقائد ومذاهب سياسية واجتماعية ما انفكت تتدفق من الغرب على الشرق، وجميعها يبث في الشرق الإسلامي روح الاستيقاظ والثوران. من ذلك عقائد الحكومة النيابية والعصبية الجنسية، والعلوم العملية، وحقوق العمال، حتى وأكثر من ذلك كحقوق المرأة، والاشتراكية والبلشفية.

فثوران العالم الإسلامي هذا الثوران، وشدة التضييق الأوروبي الضارب فيه ومن حوله على غير انقطاع ولا حدّ يزيدان في هيجانه فيشعلان فيه روح الحركة والعمل، إن الحرب الكونية العظمى قد أتت بعجائب عظيمة، وأرت ما لم ير من قبل، فأنشأ الإسلام يميد ويضطرب ويتمخض تمخضاً شديداً منتقلاً من حال حاضر إلى آخر مقبل، ومجتازاً دوراً غايته تجدد عالم إسلامي حديث، ولبيان كيفية هذا الانتقال والتجدد اللذين سترى ثمارهما في عالم إسلام المستقبل قد وضعنا هذا الكتاب. انتهى ما أردته من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، وبهذا تم الكلام على الفصل الأول، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني: في قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أيضاً

اعلم أن الرحمة بين الأمم الإسلامية اليوم قد تجلت بأجلى مظاهرها، ولكننا نحن في ديارنا لا نقدر أن نصفها، ولكن القادر على وصفها رجل قد أعطي صفتين: أولاً: التفرغ للاطلاع، ثانياً: عدم التحيز. وهاتان الصفتان قد ثبتتا في صاحب كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، ولأنقل لك من الجزء الثاني من كتابه فصولاً:

الفصل الأول
في أن إنكلترا وفرنسا كانتا جاهلتين حال تركيا والعالم الإسلامي إبان الحرب الكبرى، ولكن إيطاليا كانت تعرف الحقيقة فتركتهما

وهذا نص ما جاء في الكتاب المذكور:

جرت الأمور في تركيا مجاريها التي سبق لنيتي رئيس الوزارة الإيطالية فتنبأ عنها، فأكره رجال الحلفاء وهم حينئذ سادة القسطنطينية السلطان على تعيين وزارة مصافية، ففعل السلطان ذلك، فشجعت الوزارة حركة مصطفى كمال ورجاله العصاة، وأوفدت وفداً اختير أعضاؤه اختياراً إلى مؤتمر «سان ريمو» في فرنسا، حيث وقعوا بالرضا والتسليم المعاهدة التي أعدّها الحلفاء الذين استطاعوا بذلك تأييد مرامهم على قصاصات الورق لا غير، وما كان ذلك الأمر الغريب، لأن كل إنسان فيه مسكة من العقل يتيقن أن جميع هذه الصفقة التي رام الحلفاء عقدها إنّما هي ضرب من الخبل والجنون، وأن كل فرد من أفراد الحكومة المصافية من السلطان حتى أحقر الكتبة ما هو إلا

كمصطفى كمال يلتهب غيرة ووطنية، وأن العاصمة التركية الحقيقية إنّما باتت أنقرة لا القسطنطينية، وأن قوة الحلفاء لا تتجاوز في الواقع غاية مرامي مدافعهم، أما مصطفى كمال فقد قال في شأن معاهدة سيفر «معاهدة صلح تلك»: إني مستعد لقتال العالم بأسره مشرقاً ومغرباً، فباتت الحلفاء في مأزق حرج لا ريب فيه، ولا سيما بعد ما أصبحت كلمة الحلفاء تدل على بريطانيا وفرنسا لا غير، أما إيطاليا فلم تشترك في إلقاء دلوها في الدلاء، بل فعلت كما قال «نيق»: ولم ترسل جندياً واحداً ولم تدفع ليرة واحدة. لذلك لم تستطع فرنسا ولا بريطانيا حشد الجنود الكافية لسحق مصطفى كمال في الحين الذي تتكبدان فيه نفقة مائتي ألف جندي (٢٠٠,٠٠٠) لتسكين الحال في الأقطار العربية الهائجة وغيرها، وما كان سحق القوة الكمالية بالأمر السهل، إذ قدّر أركان الحرب الفرنسيون الجيش المقتضى لذلك (٣٠٠,٠٠٠) مقاتل تام العدّة، على أنه قد بقي في أيدي الحلفاء سلاح آخر هو اليونان، فتقدم «فنزيلوس» رئيس الوزارة اليونانية وأخذ على نفسه خض شوكة الترك ودق عنقهم، وذلك على شريطة أن تنال اليونان في مقابلة عملها هذا امتيازات كبيرة في مناطق آسيا الصغرى، فقبل ذلك منه، وبعد حين نزل جيش يوناني إلى بر أزمير عدده (١٠٠,٠٠٠) مقاتل، غير أن هذا الجيش قد لقي الخيبة والفشل، إذ أن المائة ألف مقاتل على كثرتها كانت أشبه بالغثاء، واجتنب مصطفى كمال الاشتباك في معارك فاصلة، ولكنه ثابر على مضايقتهم، وإيقاع الحيف بهم، بالحرب غير النظامية، كما كان شأنه مع الفرنسيين في كليكية في الطرف الآخر من الميدان، فتوغل اليونانيون في البلاد توغلاً فاحشاً، وتورطوا تورطاً شديداً، كاد يقضي عليهم على بكرة أبيهم، فازدادت القضية التركية إعضالاً وإشكالاً وعلى ما ظهر أن «فنزيلوس» ظل يبتغي نزال الترك والمضي معهم في الحرب، وذلك بصفة كونه المنتدب الثاني من قبل الحلفاء، لكن الشعب اليوناني أبى عليه ذلك، لأن اليونان ما برحوا منذ ١٩١٢ يخوضون غمار الحرب من ميدان إلى آخر حتى نهكت قواهم أشد النهك، فرأوا الاستراحة ولو قليلاً فلما كانت انتخابات تشرين الثاني نوفمبر أسقطوا «فنزيلوس» بنحو ٩٩٠,٠٠٠ صوت إزاء ١٠,٠٠٠ صوت، ثم دعوا ملكهم قسطنطين الذي كان الحلفاء قد خلعوه منذ ثلاث سنوات ليعود فيتبوأ العرش فكانت النتيجة الصافية أن اليونان باتت كإيطاليا خارجة عن أرباب الصفقة، أما الملك قسطنطين فقد استأنف القتال مع الترك من تلقاء نفسه. فكان عمل اليونان هذا العمل مناقضاً لذلك الموقف الذي وقفوه في عهد «فنزيلوس»، وعلى الجملة فإن الحلفاء باؤوا بالخسران، فردّ كيدهم في نحرهم، وسقطوا دون أمنيتهم التي حسبوها من الهنات الهينات.

في ذلك الحين كان مصطفى كمال يجهد ليس لتوحيد قوته وسلطته في آسيا الصغرى فقط، بل لاكتساب أحلاف له في الخارج، ففي المقام الأول كان ينشئ علاقات وثيقة مع العرب، الأمر الذي قد يبدو لأول وهلة من الغرابة بمكان، إذ يرى أن العرب والترك هما العدوان بعضهم لبعض ينقلب من العداوة المرة إلى الصداقة الحلوة، ولكن ذلك ليس في الواقع بالغريب البتة، لأن السياسة الفرنسية البريطانية هي التي قد خلقت هذه الأعجوبة، وأتت بهذه الخارقة، والسبب الذي من أجله عاد الاتفاق بين العرب والترك قد جلاه لورانس المعروف بروح الثورة العربية حق الجلاء، فقد قال بعد فراغه من

الخدمة العسكرية في بيان نشر له في الصحف البريطانية: إن العرب قد ثاروا في وجه الترك خلال الحرب العامة، ليس لأن الحكومة التركية كانت فاسدة فساداً شديداً، بل إنهم ابتغوا نيل الحرية، وراموا إدراك الاستقلال، فلم يخوضوا المعمعة لكي يستبدلوا سادة بسادة، كأن يخوضوا لبريطانيا أو فرنسا. كلا. بل لكي ينشئوا لهم دولة عربية، على أن هذه الحقيقة قد أفرغها أحد زعماء العرب، وهو قائد من قادة النهضة الوطنية المشتغلين بالقضية العربية في قالب أبين عن القصد، وأفصح عن الغرض، وذلك في مقال نشره في صحيفة فرنسية راديكالية، جاء فيه ما يأتي:

ينبغي لفرنسا وبريطانيا أن تعلما علم اليقين أن العرب إنّما هم للترك إخوان في الدين، توحدوا وإياهم توحداً سياسياً قروناً عديدة، بحيث هم لا يرغبون البتة في الانشقاق عن إخوانهم المؤمنين، وشركائهم المسلمين، الذين هم وإياهم كانوا في الحروب الخالية يقاتلون العدو جنباً إلى جنب وصفاً إلى صف، انشقاقاً ليس من ورائه سوى خضوع أعناقهم لنير دولة أوروبية مهما كان شكل سلطان الحكم الذي تتقلده هذه الدولة... فلذلك أي جدوى يا ترى من القول الذي يقوله المسيو مليران: لم يدر في خلدنا قط أن نعتدي بوجه من الوجوه على استقلال الأمة العربية، فليس أحد من العرب اليوم يمكن إضلاله بمثل هذا التمويه، وأخذه بمثل هذا الخداع، إن الهدنة وقعت على حسب الشروط والمبادئ التي أعلنها الرئيس ولسن، ولكن لما تضعضعت ألمانيا وتضعضع أحلافها معها؛ ديست شروط الهدنة وعهودها كما ديست الأربع عشر مادة بالأقدام، على أن النكث الذي أصاب العهود المقطوعة للعرب قطعاً جزماً لازماً في منحهم الاستقلال التام، تلك العهود المكررة المؤكدة عشرات من المرار؛ قد حمل العرب والترك على الاتفاق من جديد واستئناف الإخاء، بحيث لم تمض إلا أشهر معدودات حتى تم ذلك بين الأمتين، قد تستطيع فرنسا بحفظها جيشاً مؤلفاً من ١٥٠,٠٠٠ ألف جندي في سورية، وتكبدها إنفاق البلايين من الفرنكات؛ أن تخضع عرب سورية إلى ميقات، بيد أن ذلك ليس جميع ما في الأمر، ولا الضامن لسلامة العقبى، فحدود سورية مترامية إلى ما يليها من البلاد التي قطينها عرب وكرد وترك، وممتدة إلى الصحراء الكبيرة، فإذا ما شرعت فرنسا في قتال الأربعة ملايين من عرب سورية لم يبق ذلك مقصوراً على قتال هؤلاء فحسب، بل يتناول قتال عدو عدده أكثر من ١٥,٠٠٠,٠٠٠ مليون عربي، منتشرين في جميع الأقطار الشرقية من القبائل المسلحة الشديدة الشكيمة، الصلبة القناة، هذا ما عدا الأمم الإسلامية الأخرى المجتمعة معهم في الوحدة المتراصة الإسلامية، والحامل على جميع ذلك إنّما هو إرهاق الحلفاء، وتوالي ضرباتهم الساحقة على غير رحمة.

فإن قال قائل: إن في هذا غلوًّا فما عليه إلا أن يواقع الحقائق مواقعة ويراها عن كثب مستبصراً مستقصياً، ولكن لعمري أي نفع يرجى من الندم ولات ساعة مندم بعد أن تجري الدماء في الأقطار العربية أنهراً وغدراناً.

وفي الواقع باتت الأدلة على الاتفاق التركي العربي مشهودة جلية في مواضع عديدة، غير أن هذا الوفاق القاضي بمعاونة هؤلاء لهؤلاء لم يعترف به علناً من جانب مصطفى كمال ولا من جانب الملك فيصل الذي أنزل من عرشه، وجاء من بعد خروجه من دمشق إلى إيطاليا حيث طفق يوالي

القيام بمناوشات سياسية، مع هذا فقد اصطفّ العرب مع الترك جنباً إلى جنب في كليكية وقاتلوا الفرنسيين العدو المشترك، واشترك الترك والكرد مع العرب السوريين في إيقاد الفتن السورية التي ظلت تشب في موضع موضع وأما ما كان لمصطفى كمال من اليد في إشعال الثورة العراقية على البريطانيين فظاهر ظهوراً يغني عن البيان. انتهى.

الفصل الثاني

فيما يقوله ساسة أوروبا وعلماؤها من أن الإسلام دين الحرية وأن المسلمين أول الأمم في الحرية من أي صنف كانوا

قال الحجة الثقة أرمينيوس فامباري: كان الإسلام وما برح الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية، الدين الذي هو على الدوام مصدر الحرية وينبوع العدل وشرعة السواء، فإن كان العالم قد شهد حقاً منذ أول عهد العمران البشري إلى اليوم حكومة شورية دستورية؛ فهي لعمري حكومة الخلفاء الراشدين. اهـ.

وقال محقق إنكليزي كبير خبير في شؤون الشرق الأدنى: إن بلاد العرب التي يضرب فيها البدو الرحل هي البلاد القذة في العالم المشتملة على صحيح الديموقراطية والشورى، فالعرب فيها أبداً سادة، حريتهم يذودون عن سياجها بشفار سيوفهم، ومهج أكبادهم، وشبه الجزيرة هو منبت الحرية، فلا تعيش فيها نبتة الاستبداد. انتهى.

وقال العلامة لبيار في شأن ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨م: قال بعضهم: إن تركيا لم تكن على استعداد لتحيا الحياة الدستورية النيابية بعد الثورة، إنّما ذلك وهم شديد، فقد كان لتركيا مران سابق على الحياة الدستورية وكانت تواقة إلى إنشاء الحكومة النيابية، وعلى جانب كبير من الاستعداد لذلك أجل ثم أجل.

إن النظم الشرعية والمدنية التي كانت عليها تركيا، إنّما هي أفضل أسّ يشيد عليه الحكم النيابي، كان محمد صاحب الرسالة الإسلامية يجعل الحكم شورى بينه وبين صحابته، وقد جرى العلماء المسلمون وهم أقطاب الدين، وقادة الشرع الشريف على هذا النهج، وما برحوا هكذا حتى اليوم يتشاورون ويسترئي بعضهم بعضاً في شؤون مصالح المسلمين، فالشريعة الإسلامية هي ديموقراطية وشورية بطبائعها وجوهرها، وعدو شديد للاستبداد، وباعتبارها شريعة أساسية، فمن شأنها إذن أن تمكن الشعوب الإسلامية كافة حتى أبعدها إغراقاً في التدلي من إدراك معنى الشورى والدستور والنظام النيابي.

ثم بين العلامة لبيار في موضع آخر أن السلاطين القدماء كان لهم ديوان، وهو مجلس يضم أركان الدولة والوزراء وأصحاب الخطط العليا والمناصب الكبرى، يجتمعون فيه على مقتضى نظام في مواقيت معلومة لمناقشة السلطان في شؤون الدولة وإمداده بالمشورة الحكيمة، وقد ظلت الحال هكذا أمداً طويلاً حتى أنشئ في العهد الأخير مجلسان: الأول يعرف بمجلس الدولة، والآخر بمجلس الوزراء زد على هذا فقد أنشئ مجلس نواب مرتين: الأولى سنة ١٨٧٧م، والأخرى سنة ١٨٧٨م، ومع أن

هذين المجلسين لم يعيشا طويلاً إذ قضى عليهما الاستبداد الحميدي، فقد كانا على كل حال من سوابق المران القانوني والمراس الشرعي على نظام الدستور والحكم النيابي.

وختم العلامة المذكور كلامه بقوله: فلذلك يجب أن لا يعتبر إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م أمراً مستحدثاً مما لم يسبق له مثيل في بلاد إسلامية، بل يجب اعتباره من النظام الإسلامي المألوف، كان من قبل على ماهيته هذه، ولكن خرج به الآن إلى نطاق واسع ومجال أرحب. انتهى.

الفصل الثالث: في أن أوروبا شورية في بلادها مستبدة في غير بلادها وأهل الشرق والمسلمون لا بدّ فائزون

جاء في كتاب «حاضر العالم الإسلامي» ما يأتي: وقد أجاد «ليونل كرتس» الكاتب الإنكليزي الذائع الصيت أيّما إجادة في جلاء هذا القول، وتصريحه في كلام له في شأن الهند بيّن فيه أن التعليم والتهذيب والثمرات والخيرات التي جاء بها الحكم البريطاني ليست بكافية بذاتها لإعداد أهل الهند إعداداً صحيحاً للقيام بأعباء الحكومة النيابية، بل إن الأمر على ضد من هذا، فالتعليم والتهذيب ينقلبان خطراً كبيراً وبلية إيجابية ما لم يقترنا بمنح الهنود أزمة شؤونهم السياسية وتبعتها شيئاً فشيئاً، إن الشعب مهما كان مهذباً راقياً لن يستطع المران على فن الحكومة الذاتية إلا في حيز الخبرة الحقيقية المحسوسة والمباشرة الفعلية لا في حيز التصور والخيال. قد يقول بعضهم: إني لجوج في طلبي الذي بينت فيه أنه يجب علينا الشروع في نقل السلطة شيئاً فشيئاً نقلاً صحيحاً لا غش فيه من عاتق الحكومة البريطانية إلى عاتق حكومة الشعب، وأنه يجب على موظفي الحكومة البريطانية في تلك البلاد أن يقوموا بكل مساعدة ممكنة وعون مستطاع ومشورة صادقة للحكومة الجديدة التي تطلب منهم هذا بحق، نعم يجب عليهم أن يسدوا كل حسنة إلى هذه الحكومة الفتية، وأن يعطفوا عليها عطف الأم الحنون على وليدها وفلذة كبدها، لا عطف الظئر المأجورة التي سواء عندها أعاش الرضيع أم مات، وإذا ما أريد حقاً تعليم هذه الحكومة الجديدة فن الحكم الذاتي، وجب أن تكون حرة من كل جانب لا مطلقة من ناحية ومصفدة بالأغلال من ناحية أخرى، فإن لم يكن هذا فليس من سبيل إذن لهذه الحكومة الفتية لأن تشعر حق الشعور بأنها مسؤولة لدى الشعب الذي هو من ورائها، حتى ولا الشعب بمستطيع على هذه الحال أن يعلم ويوقن أنه هو المالك لنفسه من ضر ونفع، هذا ليجلبه وذاك ليدرأ عنه، نعم إن السبيل شاقة ولكن الشعب الذي يبتغي بملء إرادته حكماً ذاتياً لا يتسنى له الوصول إلى غرضه السامي وغايته الكبيرة إلا في الجهاد قائماً أبداً، واجتياز طريق الصعاب التي تشقّ عندها الأنفس وتركب الأهوال، وربما إلى عهد طويل حتى يستطيع بعد جميع هذا أن يذوق طعم الاستقلال الصحيح، ويعلم ماهيته فيطلب المزيد، وكلما وفر نصيبه منه ازدادت عزته حتى تستقر فيه ملكة السيادة على نفسه. إني لأفخر فخراً كبيراً بما جلبته بريطانيا العظمى إلى الهند من الخير والنفع من إنشاء النظام وتثبيته، وحمل أهل البلاد على العلم بأن الحكومة المنتظمة ما أعظم شأنها وأخطر مكانتها في عمران البلاد، غير أني على كل هذا لا أعتقد أن النظام الذي أنشأناه وتمشينا عليه حتى اليوم يظل صالحاً بعد دون أن ينقلب إلى مجلبة الضرر على أخلاق الشعب كما كان مجلبة الخير من

قبل. يجب علينا وقد حان لنا أن نشرع في تأدية هذه الأمانة الكبرى إلى أهل الهند أصحاب البلاد من بعد ما حملناها على عواتقنا حقبة ليست بالقليلة، تأدية مشفوعة بالصدق والإخلاص. يجب أن يكثر سواد الهنود في دواوين الحكومة من حيث يجب علينا أن نقوّي ساعدهم، ونزيد حولهم، ونعلي منزلتهم، وذلك لا يتم إلا إذا مكناهم من التمرن على الواجبات التي تنقل إلى نطاقهم نقلاً مزداداً، لأن مران الشعب على الحكومة الذاتية ليس أمره كأمر الطلبة الذين يتلقون العلوم النظرية جلوساً على المقاعد. لا وصول إلى الغاية التي بينها حديثاً وزير الهند إلا بركوب المشقة ومعاناة الصعب في سبيل وعرة، الأمر الذي يجب علينا العلم به حق العلم، ذلك أنا قد استطعنا الوصول إلى هذا الدور الحالي من مهمتنا في الهند بعد العناء الكبير والانتهاء إلى هذه الحال انتهاء ملتئماً كل الالتئام مع ما هو معروف لنا من التقاليد، وما بقي أمامنا من القيام بالمهمة فأمر واجب علينا خدمة لتاريخنا، ولو كان في ذلك بذل لكل عزيز لدينا وتضحية حتى لنفوسنا.

إن كلمات المستر كرتس الأخيرة يتبين معها ما هو واقع اليوم في الهند كما في سائر الأقطار الشرقية، أن الحرب العامة قد ألهبت العصبية الجنسية الشرقية حتى تركتها لظى شديداً من حيث أوهنت السيطرة الغربية وزلزلتها شر زلزال، فغدا مقبض أوروبا على الشرق مسترخياً استرخاء متوالياً يدل على قرب الزوال، وسواء كانت العاقبة من بعد ذلك خيراً أم شراً، فتقلص الظل أمر واقع لا مردّ له ولا مدافع، مما يدل على أنه لن ينقضي منذ اليوم جيل، بل عقد من السنين حتى يغدو غالب الدول الإسلامية في الشرقين الأدنى والأوسط متمتعاً بالحكم الذاتي وربما بالاستقلال التام لا عيب فيه، أما التساؤل: أتسيء هذه الشعوب التي ستصبح حرة اغتنام الفرصة فتعود تتعثر معاثر الاستبداد والفوضى؟ أو تصبح حقاً عالية الجبين في إنشاء الحكومات الدستورية المنظمة الثابتة فتنبعث هذه في طريق التقدم والارتقاء؟ فذلك أمر سيكشفه المستقبل، وإذ قد بينا لغاية الآن العوامل المختلفة العاملة في أفق تطور السياسة، سالبها وموجبها، ندع القضية مستاقة في مجراها الطبيعي بهذه العوامل، مراقبين تقلبها المستمر في هذا الدور دور التحول، وننتقل للكلام على العصبية الجنسية.

الفصل الرابع: في هياج العالم الإسلامي

قال المؤلف المذكور في صفحة ٨٩ وما بعدها ما نصه: كان العالم الإسلامي ـ قبل أن أخذ يصطدم بالغرب النصراني الاصطدام الأكبر خلال القرن التاسع عشر ـ هاجعاً هجعته التي قد تقدم الكلام عليها بعيداً من التنبه القومي وثورة العصبية الجنسية، وكان غالبه منقسماً إلى إمارات متناثرة، ولكنها قوية المراس شديدة الشكيمة، وأن ما كان في نفوس قطينه وساكنه من العاطفة الوطنية إنّما كان متجهاً نحو السلالات الحاكمة على نحو الحالة التي كان عليها سلاطين الترك العثمانيين، غير أنه كانت مظاهر العزة القومية ومبادئ الشمم والإباء جلية في غالب العناصر كالأمة العربية أمة الرسالة، إذ في العرب كانت أسباب العصبية الجنسية على بيان في الظهور وقوة في الانفعال والنمو، ولكنها كانت متفرقة وغير منتظمة تنظيماً كافيا لائتلاف المزاج الذي تغذو به العصبية عاملة فعالة، أما الشعب الإسلامي الفذ الذي كان حقاً يتمشى في عروقه ما ينبغي لنا تسميته بروح العصبية الجنسية الصحيحة،

فهو الشعب الفارسي حبيب بلاده، وعاشق موطنه القديم، وأما سائر الشعوب الإسلامية فقد كانت على شيء من مبادئ الشعور الوطني واليقظة الجنسية والروح النزاعة إلى الوحدة والتضامن، وكانت هذه الروح مستعدة بأسبابها للارتقاء والاتساع حتى تبلغ دور العمل الصحيح والحركة المؤثرة.

على أن في الأمر اعتباراً آخر، إن الإسلام قد نهى في مواضع عديدة عن العصبية، فلما انتبهت الشعوب الإسلامية إلى هذا العصر عصر العصبية الجنسية، بات الفرض الذي يفرضه الإسلام على المؤمنين أن يكونوا إخوة متضامنين متساوين، لا فرق بين عربيهم وبين عجميهم، وأضحت الغاية السياسية المقصودة في الإسلام من وحدته الإمامة الكبرى، أو الشورى الشرعية العامة أمراً مقاوماً بطبيعة الدور والزمن، بسبب إنشاء القوميات المستقلة والعصبيات المتمايزة في الملة الإسلامية، كما كانت الحال في مبدأ عصر النهضة في أوروبا إذ كانت النهضات القومية في مطلع ذلك العصر تصطدم اصطداماً عنيفاً بالعقائد الدينية الشائعة والآراء الدائرة حول وحدة البابوية والمملكة الرومانية المقدسة.

وقال أيضاً في صفحة ١٣١ وما بعدها من الجزء الثاني ما نصه: غدت الحياة السياسية في أقطار شمالي أفريقيا المختلفة العناصر والأصول حياة اضطراب تعتريها الانشقاقات والانقسامات، وكانت مراكش وما برحت أكثر الأقطار الإفريقية الشمالية وحدة والتئاماً، وثباتاً في مجموعها السياسي، مع أن سلطة السلطان النافذة حق النفاذ لم تمتد قط يوماً إلى الجبال التي تقطنها القبائل المختلفة، وأما الممالك المعروفة بالممالك البربرية «الجزائر وتونس وطرابلس» فقد كانت أكبر قليلاً من الثغور البحرية ممتدة على طول الساحل، وأما البلاد الورائية فقد كانت متمتعة بالاستقلال البدوي التام، على هذه البلاد المتبلبلة طفق الفتح الفرنسي يتدفق فبدأ غامراً الجزائر سنة ١٨٣٠م حتى انتهى بمراكش اليوم، إن فرنسا قد أرخت على البلاد سكينة، وكسبتها نظاماً ونحجاً مادياً، غير أن هذه المنافع والفوائد التي أتت بها السيادة الأوروبية في هذه الأقطار الإفريقية كما في غيرها من الأقطار الشرقية قد كان من شأنها أن خلقت نوعاً حديثاً من الوحدة والتضامن والتماسك بين البلاد، حتى غدو جميعاً على مستوى متماثل في الإجماع على شناءة الفاتح الأوروبي، وعلى نيل المطمح العام الذي يطمحون إليه، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتي بمعزل عن السيادة الأجنبية بتة، لذلك قد شهد العالم خلال الجيل الماضي نشوء «الجزائر الفتاة» و«تونس الفتاة»، وفيهما الأحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من أهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بعقائد الحكم الذاتي والحرية، أما المتجه الذي تتجهه هذه الأقوام في نهضتها فهو بغايته أميل إلى إنشاء الوحدة الإفريقية الشمالية الكبرى ثم إلى الجامعة الإسلامية العامة.

كما تقدم الكلام على هذا منه إنشاء أمة تونسية أو جزائرية منفصلة عن غيرها من سائر الأمم الإسلامية، ولا يعزبن عن البال أن جميع هذه الشعوب والأمم إنّما هي على صلات شديدة وروابط متواثقة تواثقاً كبيراً مع السنوسي، تلك الصلات والروابط التي قد أسلفنا الكلام عليها في قسم الجامعة الإسلامية.

معجزة جديدة لم تعرف من قبل

مقالاً بديعاً يظهر لنا بوضوح حديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»

ويفهمنا حقاً معنى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]

والحق يقال إن هذه أجلّ معجزة إسلامية، فالويل لأوروبا إذا جهلت هذا

قال أيضاً في صفحة ١٥٠ وما بعدها ما نصه: مما لا ريب فيه أن الحرب العامة قد هاجت الجامعة العربية هياجاً شديداً، وبعثت فيها قوة كبيرة، ولا سيما بما قضت به الحرب من إنشاء مملكة عربية مستقلة في الحجاز، مدلية بحقوق لها في سورية والعراق، وقد غمر الشعوب العربية المختلفة طوفان من الهياج والاضطراب، والهرج والمرج هنا وهناك، وثارت تطلب الاستقلال، متطلعة نحو إسقاط السيادة الأجنبية ومحوها محواً تاماً، وهي السيادة البريطانية والفرنسية والإيطالية المنتشرة في مصر وسورية والعراق وطرابلس الغرب وسائر الأقطار العربية، وقد استغرق الهياج هذه البلدان جميعها استغراقاً جعل تلك الغاية الكبرى المتوخاة من الجامعة العربية وإن كانت لم تبرح عاملاً شديداً غير ظاهرة كما كانت من قبل في صدر البرامج التي في أيدي رجال العرب القائمين بالنهضات القومية الوطنية، الذائدين عن حوض العصبية الجنسية العربية، زد على ذلك أن الجامعة العربية مشتبكة النسيج كما قلنا قبلاً بمبدأين عامين شاملين، لا يختصان بعنصرية أو جنسية دون أخرى، وهما: مبدأ الجامعة الإسلامية وجامعة العصبيات الجنسية الإسلامية، ولعل هذا المبدأ الأخير يبدو لنا نحن الغربيين موضوع التناقض الغريب من حيث هو ليس كذلك عند الشرقيين، إن الشرق وإن استمسك جهده بمبادئنا وأفكارنا في الجنسية والوطنية، وانتحل ما انتحل من عقائدنا فيهما، فهذه المبادئ والأفكار والعقائد إذا انتقلت إلى الشرق تشربتها العقول الشرقية الملأى بصنف آخر من المبادئ والعقائد الرامية إلى الوحدة الإسلامية، وتآخي جميع المؤمنين على اختلاف الأقوام والفرق بحيث نشأ عن ذلك التلبس الجامع بين القديم والجديد، وحصل التلون المختلف إلى حد غدا عنده المسلمون متى ما استعملوا الكلمات التي نستعملها نحن مثل الجنسية والجنس، ذهبوا في فهم معنييهما مذهباً مختلفاً لمذاهبنا، وقس على هذه الاختلافات والفروق التي بيننا وبين الشرقيين ما هو شائع في أفق جميع المبادئ والعقائد السياسية، خذ مثلاً كلمة الدولة، فإن الدولة الإسلامية التي يصح اتخاذها مثلاً للمقارنة ليست كالدولة الغربية المشتمل تحديدها على وحدة معينة من الناس، وأرض يسكنونها مقررة الحدود، وسلطان ممارس نافذ تمام النفاذ في كل مكان داخل حدود الدولة، بل إن الدولة في الشرق الإسلامي إنّما هي كناية عن كتلة قلت أم كثرت، غير مستقرة الشكل ولا النصاب، ولا منتظمة التركيب، لها نواة مركزية هي مصدر السلطة المنبعثة منها انبعاثاً مشتملاً على معنى الاستقلال المبهم التحديد، تعتريه آفات الفوضى ويشوبه الاختلال، ومن المعلوم أن غالب الدول الإسلامية ما برحت منذ نصف قرن تجدّ في تنظيم حكوماتها، وإصلاح شؤونها، وسائر أحوالها، ناسجة في ذلك على منوال الدول الغربية، غير أن المنازع التقليدية لم تبرح حية مشهودة المثال كما في أفغانستان، حيث إن القبائل التي عند الحدود الهندية الشمالية الغربية، وهي قبائل أفغانية متملكة استقلالاً عملياً صحيحاً،

كانت تقوم من تلقاء نفسها في المدة بعد الأخرى بشنّ غارات عنيفة على الإنكليز، غارات حروب استطاع أمير أفغانستان أن يتنصل من تبعتها تنصلاً انقطع عنده دهاء الإنكليز، والأمر كذلك في الجنسية عند المسلمين ليست الولادة في البلاد، ولا التجنس على الأصول الرسمية شرطاً لمن يريد أن يكون فرداً من أفراد أمة إسلامية في قطر من الأقطار متمتعاً حق التمتع بحقوق الجنسية الإسلامية، فوطن المسلم هو العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، لذلك يستطيع الهابط أية بلاد إسلامية أن ينال للحال أي وقت شاء حقوق الوطني المكرم ذي المقام والمنزلة بين ظهراني القوم، فالعبارة: «مصر للمصريين» مثلاً لا تعني ذلك المعنى بعينه الذي نتصوره نحن في الجاري المعتاد، فإذا ما أقام مسلم جزائري أو دمشقي في القاهرة فليس هناك من حائل يحول دون تصرفه وسلوكه، واعتباره مصرياً وطنياً حراً بصحيح المعنى والعبارة، والسبب في ذلك أن من منازع الإسلام على الدوام صيانة الوحدة بين المسلمين، الوحدة الدينية والجغرافية الإقليمية، فجميع الأقطار والممالك والبلدان الإسلامية معروفة عند المسلمين بدار الإسلام، وضدها دار الحرب، وهي المواطن التي قاطنها مسلمون يجب عليهم باعتبارهم أمة واحدة متحدة الذب عن سياجها والذياد عن حياضها، وهذا هو السبب في أننا نرى أنه كلما أصاب اعتداء أجنبي طرفاً من العالم الإسلامي هاج الطرف الآخر واضطرب وقام وقعد على غير أن يكون هناك اشتراك في المصلحة المادية يحمله على ذلك، كأنّما المعمور الإسلامي جسم واحد باعتلال عضو منه تتأثر وتعتل سائر الأعضاء، ترانا بعد جميع ما تقدم نستطيع أن نعلم كم هناك من المفكرين من المسلمين.

وقال في صفحة ١٥٤ وما بعدها ما نصه: ولعمر الحق ليس من الغرابة في شيء أن نرى الشرق وقد ارتوت نفوس شعوبه وأممه بضروب من المطامح القومية والآمال الاستقلالية التي هاجتها الحرب الكونية أعظم هياج فصيرتها ناراً ذات لهب أن ينقلب بسبب خاتمة الحرب التي نزلت عليه ويلاً عميماً وبلاءً شاملاً، مرجلاً الغليان فوّاراً، وبركاناً ثائراً، من المعلوم البين أنه قد كان من المستطاع عقد مصالحات سليمة من النقائص والمشاين، وذلك بالجري على السياسة الصحيحة الشريفة النسيج، السوية النهج، لكن مؤتمر فرسايل السلمي كان ويا للأسف الشديد متجرداً عن كل سياسة رشيدة، وتسوية حكيمة، وحصافة في الرأي، ونظر بالعواقب، فنجم عن ذلك أن تلك التسويات الفاسدة التي وضعها هذا المؤتمر قد حبطت شر حبوط، ليس في ضمان السلم لأوروبا فحسب، بل كان من شأنه إماطة اللثام ورفع الحجاب عن موقف الغرب الحقيقي إزاء الشرق، ذلك الموقف الرائع الذي عاد فظهرت فيه تلك الروح التي عرفت قبل الحرب، روح التوسع الإمبراطوري والجشع الاستعماري، روح استلاب الشعوب وإرهاقها، وانتهاب ما بين أيديها وما خلفها واستنزاف دمائها، وشد الأخنقة على ما حول رقباتها، وزد على هذا أن الحلفاء الظافرين طفقت بصائرهم تعمه أشد العمه، غير معتبرين شيئاً من التطورات النفسانية الهائلة التي حدثت في الأمم الشرقية من جراء الحرب، فلم يلجؤوا إلى تبديل موقفهم بأفضل منه على ما تقتضيه الحال المستجدة، وإلى انتهاج نهج سياسي خير من ذلك الذي انتهجوه قبلاً، بل ظلوا على المضي في معاملة الشرق بالخفة والازدراء، كأنهم يحسبون

أن الحرب العظمى التي أنّ من فدح عبئها الثقلان، ومادت من شدة وطأتها وكابوسها هذه السيارة الأرضية، ما كانت سوى مساجلة ومناوشة، وأن آسيا ما برحت ذلك الجبار المستغرق في هجعته كما كان منذ قرن خلا.

أجل، شرع الحلفاء يستهزئون بما كانوا قد نشروه خلال الحرب من أنواع التصريحات التي قرعوا بها أسماع الشعوب مئات من المرات، وضمنوا بها قواعد الحرية وأساس العدل، وأقبلوا يخلفون بوعودهم التي قطعوها لشعوب الشرق الأدنى في تقرير المصير خلال المعمعان الأكبر، وطفقوا ينشرون على الملأ سلسلة من المعاهدات السرية المعقودة بين بعض وبعض منهم في الحين الذي كانوا فيه يصرحون بالذياد عن الحرية وتقرير المصير، وأرادوا بمقتضاها تقسيم الإمبراطورية العثمانية، إشباعاً لشرههم الكلبي ونهمتهم الوحشية، ممتهنين شر امتهان إرادة أهالي البلاد ورغبتهم فيما يشتهون أن يكونوا عليه من الحكومة، وكان مؤتمر فرسايل كشافاً عن واقع المقاصد السيئة والأغراض الخبيثة التي انطوى عليها الحلفاء، إذ تجلى ذلك بتلك الطريقة الخداعة التي التزم جانبها المؤتمر في رفضه قبول وفد إيران، الذي أوفدته حكومته لبسط القضية الإيرانية ـ وإيران كانت ما برحت مستقلة استقلالاً اسمياً ظاهراً ـ فكان من الأمر أن حمل المؤتمر الوفد على البقاء في باريس مدة جعل يعلله خلالها بالسراب الذي يراه المسافر فيحسبه ماء، بينما كانت الحكومة البريطانية تشدّ الخناق على حكومة الشاه في طهران إلى أن أكرهتها إكراهاً على إبرام اتفاق باتت إيران كلها بمقتضاه بلاداً محمية في كنف الإمبراطورية البريطانية، وأما المصريون الذين كان دأبهم ودينهم على الدوام تزجية الاحتجاجات على الحماية التي أعلنتها بريطانيا منفردة من تلقاء نفسها في مصر سنة ١٩١؛ فقد أوفدوا إلى باريس وفداً لبسط قضيتهم فرفض مؤتمر فرسايل الإصاخة لأقوال الوفد، بل أفهم رجاله أن المؤتمر إنّما يعتبر الحماية البريطانية في مصر أمراً قضي وحكماً أبرم، فنجم عن جميع ذلك ما عدّ نتيجة من نتائج الحرب، وهو أن السيطرة الأوروبية على الشرقين الأدنى والأوسط قد شدّت أطنابها، وتوطدت عمدها، واتسعت آفاقها، من حيث كان يجب تهوين خطب الاستعمار وتضييق ظله.

بيان أن فرنسا وإنكلترا بعثتا الحمية في نفوس العرب فأحرق الأمّتين نار ثورتهم

وقال في صفحة ١٧٢ وما بعدها من الكتاب المذكور ما نصه: من المعلوم أن هذه الخدعة الكبرى التي قامت بها بريطانيا وفرنسا على مسرح المكر من وراء الستار لم يكن للعرب علم بها، ولا وقفوا عليها، بل أبرمت خفية عنهم من حيث إن بريطانيا جهدت كبير الجهد، وبذلت غاية المستطاع، لهياج الآمال الاستقلالية في صدور العرب وإثارة العصبية والمطامح القومية في نفوسهم، فكان من ذلك خير وسيلة، وأنجع ذريعة، لاستثارة نخوتهم في الثورة، فجعلوا يتسارعون إلى مجال الحرب، وينبعثون إلى مقاتلة الترك وخضد شوكتهم، وأنفذت الحكومة البريطانية إلى العرب عدداً من نخبة الضباط المختارين أشهرهم الأميرالاي لورانس الفتى اللوذعي النابه الشأن، الذي ما أسرع ما نال من نفاذ الكلمة والسلطة على أمراء العرب وزعمائهم مما لا حد له ولا غاية، حتى دعي روح الثورة العربية، لكن هؤلاء الضباط

الأكفاء العارفون بشؤون العرب والمعروفون بميلهم إليهم وعطفهم عليهم، إنّما قد اختيروا ليقوموا بما انتدبوا إليه من حيث لم يكونوا هم أنفسهم قد وقفوا ولا اطلعوا على المعاهدات السرية التي عقدت خفية عن العرب، وكان القصد من ذلك في الواقع أن لا يعرو همة هؤلاء المستثيرين فتور ولا انكسار، ولا يثلم وفاؤهم للعرب، بينما هم يستثيرونهم همتهم ويستوقدونهم نار القتال، وكان القواد البريطانيون لا ينفكون عن تزجية الوعود للعرب مودعة في المنشورات والتصريحات التي كانوا يذيعونها، آخذاً بعضها برقاب بعض، ثم تمت خاتمة هذه الرواية عند نهاية الحرب، فأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية مشتركتين معاً منشوراً أذاعتاه في جميع الأقطار العربية جاء فيه ما يأتي: إن الغاية التي من أجلها خاضت بريطانيا وفرنسا في معمعان الحرب في الشرق، الحرب التي أثارتها على العالم المطامع الألمانية هي أن تضمنا لجميع الشعوب التي طال عليها عهد الجور من الترك تحريرهم من الاستعباد تحريراً تاماً باقياً، وأن تنشأ حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطانها من رغبات الشعب وإرادته المطلقة دون منازع، فلم يلبث أن برح الخفاء، وانجلى المستور، وبان الصبح لذي عينين، فتبدلت الحال غير الحال، عندما وضعت الحرب أوزارها، ورجعت السيوف إلى أغمادها، ومزق العدو شر ممزق، وانتهت الرواية وأرخي الستار، الستار الذي تبدت حقائق نيات الحلفاء ومقاصدهم منقوشة فيه نقشاً جلياً، فقرأها العرب وعلموا الأسرار، ووقفوا على بواطن الأمور، بعد أن أخذوا بظواهرها، وظهرت الجنود الفرنسية تحتل شاطئ سورية، وعلم العرب حق العلم كيف خدعوا وختلوا، وغشوا، فذعروا وأجفلوا، وقاموا وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، واشتعل غضبهم، وهاجت هائجات الثورة في نفوسهم. ولولا أهل الحصافة والروية من زعمائهم، ولا سيما الأمير فيصل نجل شريف مكة المكرمة، الأمير الذي برهن حق البرهان على فائق كفايته لقيادة الرجال والقتال في الحروب، والذي استطاع الآن أن ينزل من بني قومه منزلة لا ينازع فيها من النفاذ وعزة السلطان لربما انفجر بركان العرب وتطاير من حممه ما ألهب البلاد جميعها، لكن فيصلاً كان يعرف مبلغ قوة الحلفاء العسكرية، فأيقن أن ركوب الحرب معهم إنّما هو مركب خشن، وغاية في الاستهداف والمخاطرة، ولا سيما في آونة مثل تلك الآونة، وإذ أدرك حق الإدراك قوة العرب المعنوية والأدبية في ذلك الموقف الذي كانوا فيه، طلب من أبناء قومه وبلاده أن يقوموا في بسط القضية العربية والدفاع عنها لدى مؤتمر السلم الذي كان على وشك الانعقاد، فقام بهذا الأمر راجياً تنجية البلاد من يوم عصيب، فظلت الأقطار العربية خلال سنة ١٩١٩ هادئة، ولكن هدوء الانتظار على ارتياب، والنار تحت الرماد، والأمير فيصل بسط لدى مؤتمر السلم قضيته ببلاغة معنى وفصيح منطق يحفّ بموقفه الوقار، لكنه لقي خيبة في المسعى، إذ اشتمل عهد عصبة الأمم على بيان دال على الرفق والعطف، وذلك أن الأقوام المعلومة التي كانت من قبل في الحكم التركي، وقد بلغت من الارتقاء مستوى يستطاع عنده الاعتراف بكيانها أمماً مستقلة استقلالاً معلقاً، عليها أن تتلقى المشورة والمساعدة الإدارية من دولة منتدبة حتى يأتي يوم تصبح فيه هذه الأقوام قادرة على السير بنفسها، فيطلق حبلها إذ ذاك على غاربها. ثم فقه العرب معنى الانتداب واكتنهوا ماهيته وسره، وقد كان من شأن لويد جورج أن يجود ببعض العبارات المنمقة والجمل الرائقة، مثل

قوله: إن العرب قد وفوا حقاً بعهودهم، وبرّوا بوعودهم، لبريطانيا العظمى، فيجب علينا إذن أن نقابل الإحسان بمثله، فنفي بعهودنا ونبرّ بوعودنا لهم. غير أن العرب كانوا قد قرؤوا المعاهدات السرية واطلعوا عليها فبان من العبث والأفن بعد محاولة اصطيادهم بالأشراك والأحابيل مرة أخرى، إذ عاد الختل من الذرائع الباطلة، وأمسى الخداع من الوسائل الكاذبة، وبالتالي علم العرب علماً مكيناً أنه يجب عليهم الاعتماد على نفوسهم وقوة سواعدهم ومساعيهم ومجاهيدهم، وذلك إما في مجال السياسة، وإما في مجال الحرب. انتهى ما أردناه من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، والحمد لله رب العالمين.

نظرة عامة في هذه المقالات

تلك المقالات المنقولة من ذلك الكتاب الذي حرره رجل عالم أمريكي نظر نظرة عامة في الإسلام: إن أكثر المسلمين يعيشون ويموتون ولا هم يذكرون، يعيش المسلم غالباً وهو يجهل تركيب أعضائه وجمالها، ونظام العالم المحيط به، ويجهل تركيب جسم الأمة الإسلامية التي هو عضو منها، وإن كاتب هذه السطور أحد المسلمين المساكين الذين يجهلون نظام أمم الإسلام، وما أقبح الجهل وما أفظعه، أفليس من المؤلم أن نجهل ونحن في مصر المشهورة بالعلم بلاد الإسلام وما حصل فيها. ثم يأتي رجل نصراني قد درس هو وقومه بلادهم وعرفوها، ثم أخذ يدرس أمم الإسلام، وأنا الساعة أنقل عنه، فكيف نفهم معاشر المسلمين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[الفتح: ٢٨]، ما هو هذا الظهور؟ وما معناه؟ نعم. نفهمه الآن بقول رجل بعيد عن الغرض لأنه ليس مسلماً، فماذا يقول؟ يقول فيما قدمناه:

(١) إن أحد المبشرين الإنجليز منذ (٢٠) سنة يقول: إن الدعوة النصرانية باتت خرافة من الخرافات.

(٢) ويقول: إن مبشراً بروتستانتياً يقول: إن الإسلام يسير في سبيله منذ بدايته إلى اليوم، فلم يعثر في سبيله إلا القليل، وهو لا يمقت المسيحية، فلذلك فاز فوزاً مبيناً، النصارى يحلمون بفتح أفريقيا في القدم وفتحها المسلمون في العلانية.

(٣) ويقول: إن نيوزيلانده مبشروها من عرب وتجار ابتدؤوا ذلك منذ (١٩٠٠ سنة)، وبعد عشرين سنة أصبح في كل قرية مسجد، ومدرسة إسلامية، ومعلمون مسلمون، الإنجليز عجزوا عن مقاومتهم.

(٤) ويقول بعض المفكرين الغربيين بعده بمدة قليلة: من الآن يجتاز الإسلام زمبازي وينتشر في جنوب أفريقيا فيطبق القارة بأسرها.

(٥) ويقول: الإسلام يهجم على المسيحية كما هجم على الوثنية، إذ أصبح الذين تنصروا في غرب أفريقيا على يد المبشرين يدخلون الإسلام، بل الحبشة أيضاً تسلم بعد أن كانت سداً منيعاً.

(٦) منذ خمسين سنة ما كنت ترى في الأحباش مسلماً واحداً، أما الآن فغالبهم مسلمون.

(٧) ظفر الإسلام اليوم في أفريقيا عظيم.

(٨) إن التتار بعد أن ظلم الروس بعض المسلمين ونصروهم هبوا فأرجعوا إخوانهم جميعاً للإسلام في القرن التاسع عشر لما استيقظ المسلمون.

(٩) ومقال العالم « فريدو » ملخصه أن الحرب العامة لم تصبح ظفراً لأوروبا، بل صارت ظفراً للشرق، وأشار إلى قيام الصين والأفغان والهند ومصر، وأن الروسيا التي كانت سبب إذلال فرنسا وإنكلترا للشرق قد أصبحت بعد الحرب الكبرى نصيرته، أقول: وملخص هذا كله قوله تعالى هنا: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨]، فبينما الإسلام ينتشر في أفريقيا شرقاً وغرباً إذا آسيا يزول الكابوس الذي كتم أنفاسها فانتعش الإسلام.

(١٠) ويقول: ظلم أوروبا أوقد نار الجامعة الإسلامية، ومثاله ما حصل في طرابلس من اجتماع الترك والعرب على مناوأة الطليان.

(١١) ويقول: الحرب البلقانية زادت تقارب المسلمين.

(١٢) إن مصطفى كمال بعد أن مزقت الدولة العثمانية غلب أوروبا كلها، وقال لهم: أنا أحارب العالم كله، ففاز، وهذا نصر للإسلام.

(١٣) واتفق العرب والترك سراً، وحاربا معاً في كيليكية، وإن كانوا لم يظهروا ذلك.

(١٤) ويقول أرمينوس: إن الدين الإسلامي هو الدين الفائق سائر أديان العالم شورى وديموقراطية إلى آخره. أليست هذه الجملة من حجة ثقة عند أوروبا بأجمعها هو نفسه معنى قوله تعالى: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[الفتح: ٢٨]، وهذا عجب يا رباه! أعيش في مصر بلادي، وأجد كثيراً من الطبقة المتعلمة لا يصلون الصلاة المفروضة احتقاراً للدين، بسبب انتشار المبشرين بيننا، ثم أسمع هذا العلامة في أوروبا يقول: إن هذا الدين يفوق أديان العالم. أليس أمثال هذا القول وما تقدمه أكبر معجزة للقرآن في هذا الزمان.

(١٥) ثم يقول أيضاً: إن جزيرة العرب حفظت الإسلام والحرية الخ.

(١٦) ملخص كلام المستر « كرتس » أن أوروبا لن تبقى طويلاً في الشرق، ولا يمضي جيل بل عقد من السنين حتى تصير الدول الإسلامية متمتعة بالحكم الذاتي.

هذه زبدة مستخلصة من هذه المقالات عرضتها عليك حتى يحضر في عقلك أيها الذكي منظر العالم الإسلامي العجيب، ويظهر لي أنك متعجب من هذه الأخبار، وتراها غريبة عليك كحالي حينما كنت أقرؤها، فخذها جلية خالصة، فأنت الآن تقرؤها وإخوانك المسلمون في أقطار الأرض يقرؤونها، وهل بعد هذه الأخبار يبقى ذلّ لأمم الإسلام؟ كلا. ثم كلا. أنا أكتب هذا وقد ظهرت لي أمم الإسلام شرقاً وغرباً كأنهم في خيالي قد ربطتهم رابطة الأخوية العامة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[الحجرات: ١٠]، ولقد ظهرت الآن ظهوراً واضحاً.

خطاب المؤلف

أيها المسلمون، أنتم سادة هذه الأرض، أنتم الظاهرون فيها. أيها المسلمون، أوروبا نحن علمناها وهاهي ذه تظهر علمها لنا فخذوه. أيها المسلمون، أنتم رحماء، واعلموا أن الأمم ستبلغ رشدها،

فكونوا أنتم القدوة، وانشروا السلام، وهل تنشرون السلام وأنتم ضعفاء؟ ستكونون أقوياء فتهابكم الأمم لقوتكم، وتحبكم لرحمتكم، إياكم أن تكونوا كأوروبا الشرهة الظالمة، بل كونوا رحمة للعالمين.

أيها المسلمون: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]. عجبي لأمم الإسلام، ولدين الإسلام. هذا الدين الذي نزل من السماء نوراً مشرقاً، وما كاد يصل إلى الأرض ويسير قليلاً حتى امتزج بالظلام، وأول هذا الظلام الاختلاف والشجار الذي وقع بين عظماء الأمة لأجل الخلافة فتشاجر الأمويون والعباسيون والعلويون أمداً طويلاً. ثم ذهبت الدولة كأمس الدابر، وبقي العلم، ولكن في الوقت الذي فيه كانت تحتضر المملكة العباسية أخذ العلم يرجع القهقرى، فرأينا الحكومة نامت نوماً عميقاً، وفي بلاد الأندلس وشمالي أفريقيا نفي ابن رشد، وبات الذي يقرأ الحكمة مذموماً مدحوراً، فهرب العلم من وجه المسلمين إلى أوروبا، وهاهو ذا رجع إلينا ثانياً.

إن المسلمين أرقى منهم في كل زمان بعد عصر الصحابة والتابعين

وكيف لا يكونون أرقى من السابقين في ألف السنة الماضية، وهم اليوم يقبلون كل علم وكل حكمة، اللهم لك الحمد، ولك الشكر، ولك النعمة، أنت المنعم المتفضل، أنت تحفظ الجليل والحقير والكبير والصغير. يا الله، نراك جعلت الجوهر الفرد مملوءاً من القوى المدخرة التي لو أطلقت منه لنفعت العالم كله، نراك رحمت النملة وأعطيتها أعيناً تعد بالمئات، والذبابة أعيناً تعد بالألوف، وأبدعت هذه العيون كما أبدعت عين الإنسان ونظمتها تنظيماً بديعاً تقدم بعضه، وسيأتي قريباً ما هو أجمل، فهل بعد هذا وبعد ما جاءنا من الأخبار عن أمم الإسلام يدخل في قلوبنا وهم أو شكّ أنك تترك هذه الأمم، فهل الذي يرعى تلك الحشرة الحقيرة لا يرعى هذه الأمم الكبيرة؟ إنك ترعى المسلمين، إن وعدك حق وصدق، وهاهو ذا القرآن ظهرت معجزاته، هاهم أولاء المسلمون متحفزون أليس من أعجب العجب أن يختفي العلم بعد نفي ابن رشد بالأندلس، فيظهر في الشرق وفي الغرب رجال عظماء، فيظهرون باسم الصوفية ويذمون العلم المشهور، ويعلمون الناس بقدر إمكانهم كمحيي الدين بن عربي رحمه الله وأمثاله، ونرى نفس ذلك العصر يظهر فيه السيد الرفاعي الكبير، والسيد عبد القادر الجيلاني، والسيد أحمد البدوي رضي الله عنهم أجمعين، الذي تحتفل الأمة المصرية بمولده الآن جمادى الثانية سنة ١٣٤٩هـ، وهو من ذرية السيد محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسن بن عليّ رضي الله عنهم أجمعين، وقد ولد في فاس سنة ٥٩٦ هـ، وتوفي بطنطا ببلادنا المصرية، فالسيد أحمد البدوي قد اجتمع بالجيلاني والرفاعي في بلاد العراق، أفليس من عجب أن نرى القرن السابع يظهر فيه ابن الفارض، والرفاعي، والدسوقي، والسيد أحمد البدوي، وابن عربي.

فهذه ثمان قرون مضت، وهؤلاء لهم القدح المعلى في الإسلام، فماذا جرى إذن؟ أصبحوا هم وأصبح كثير غيرهم لهم عجائب وغرائب وكرامات لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه، فهؤلاء الصلحاء العظماء أصبحوا بعد موتهم قبلة الأمة، لماذا؟ لأن كراماتهم لا نظير لها، فمنهم من يأتي بالأسرى، ومنهم من يحيي الموتى وهكذا، فتلقى العامة ذلك بالقبول، وسارت

الأمة أجيالاً وهي فرحة بربها، لأن جماله وحكمته تظهر بخوارق العادات التي يظنون أنها أعظم مظهر للألوهية، وحجبوا عن جماله الحقيقي، وهي عجائب السماوات والأرض، ونظام هذا العالم.

إن كل نفس تواقة إلى الجمال، والجمال التكويني إنّما هي عجائب السماوات والأرض بالعلوم فلما طمست البصائر، ونامت الأمة، حولت عقولها إلى أكاذيب وخرافات تفرح بها الصبيان.

فيا عجباً! رباه دين ينبذ نبذاً، ولا يعرف الناس إلا خرافات منسوبة إليه، ثم يبقى إلى زماننا هذا، ثم نراه ينتشر انتشاراً مدهشاً، أليس هذا أيضاً من العجب. ثم نرى ما نكتبه الآن في التفسير مقبولاً مع أنني لم آل جهداً في مزج الفلسفة به والمسلمون يتقبلونها، هاأنتم أقبلتم على زمان العلم، ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾[الحاقة: ١٩]، أنا أحمد الله عز وجل إذ جعل هذا الكتاب فاتحة خير لأمم الإسلام التي تعطشت للعلم، ولا محيص لها منه، بعد أن أحاطت بها أوروبا، ورأت مخترعاتها وعلومها، فإسلام بلا عمل لا بقاء لأهله بعد زماننا، والمسلمون في المستقبل حقاً هم ﴿ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠].

لقد قرأت في الإحياء ما يفيد أن الإمام الغزالي كان يخاطب أهل زمانه كما نخاطب نحن الآن الأطفال، لا كما أخاطب أنا المسلمين الآن، فإنه لما أراد أن يفهم علماء زمانه أن الأسباب تترتب عليها المسببات لم يأت بمثال إلا بالوضوء والغسل، لأنه رأى أن فقهاء زمانه كانوا لا يغرمون إلا بالفقه. وقال هو أيضاً: إن ترتيب أجزاء كتاب الإحياء قد جعله هو على ترتيب كتب علم الفقه، ليكون ذلك أنساً للفقهاء. أما نحن الآن فإننا نخاطب أمة قد استيقظت، وعقولاً ارتقت، ونفوساً علت، نحن الآن نخاطب المسلمين علماءهم وعامتهم، خطاباً صريحاً، وننقل لهم عن الفرنجة الحق فيقبلون، ولقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: إن المسلم الذي لا يقبل العلم إلا عن مسلم، وينبذه إذا كان عن غيره أشبه بمن قدم له الماء في محجم الحجام وهو مغسول ونظيف، فلم يقبله بحجة أنه كان فيه دم، فهكذا هؤلاء الأغبياء من المسلمين الذين لا يقبلون الحقائق إذا وردت عن الكفار.

فأما نحن في زماننا فلسنا في حاجة إلى ضرب هذه الأمثال، لأن أمتنا اليوم قد بلغت الحال التي بها تستحق أن تتولى زمام العلوم، وهل بعد البيان بيان؟ هاأنا ذا أعاين حال المسلمين بما يرد من جميع الأقطار أنهم بكل علم مغرمون. اللهم لك الحمد إذ خلقتنا في زمان النهضة، وصرفت عنا السوء وعلمتنا، وأنعمت علينا بالقبول، أنت خير الناصرين، أنت الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين.

فصل في ذكر مثال واحد لرحمة المسلمين لغير أمم الإسلام من رجال العصور المتأخرة لأنهم رحمة للعالمين

فلما سمع ذلك صديقي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير قال: كل ما تقدم حسن وجميل، ولكني أريد الساعة أن تذكر لي خبراً عن عظيم من عظماء الإسلام كان نعمة على غير المسلمين، على شرط أن لا يكون من أمثال عمر وأبي بكر، ومن معهما من الخلفاء الراشدين، ولا من غيرهم من المشهورين في سائر الأقطار، ليكون ذلك مثالاً لرحمة المسلم لغير المسلم، لأن ظاهر الآية: ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾[الفتح: ٢٩] ربما يظن بعض الناس أن رحمة المسلم خاصة بالمسلمين.

فقلت: إن المسلم رحيم بالمسلم وبالذميّ، وبكل معاهد ومؤمن، فالذمي له ما لنا، وعليه ما علينا، ونحن لا نحارب ولا نعادي إلا من حاربنا، وهم الذين في دار الحرب، أما المثال الذي تريده فهو ما جاء في هامش كتاب «حاضر العالم الإسلامي» المذكور بقلم الأمير شكيب أرسلان في الجزء الأول، ولنختم به الكلام في هذه الآية تحت عنوان «السيد الأجلّ»، فقد اطلعوا في ينان على تاريخ محرر في سنة ١٦٨٤ يقال فيه إنه لما زحف جنكيزخان إلى الغرب جاء السيد الأجل عمر بألف فارس وقدّم له الطاعة فأكرمه وجعله من بطانته (١٢٠٦ ـ ١٢٢٩)، ولما آل الأمر إلى السلطان أوغوناي (١٢٣٠ ـ ١٢٤٢) ولاه ثلاث ولايات، وهي: «فونغ، تسينغ، يون ناي»، ثم استدعاه إلى باكين، وعهد إليه بمنصب عال، ثم لما تولى السلطان نانفو (١٢٥١ ـ ١٢٥٩) عهد إليه بإدارة ست نظارات بالاشتراك مع «ثاول هوان»، ثم جعله مديراً عاما لمقاطعة «يانغ كينغ»، فأحسن الإدارة جداً، فعهد إليه بنظارة الاستخبارات. ثم لما زحف السلطان إلى بلاد تسوتشوان جعله ناظر للميرة العسكرية، فقام بها أحسن قيام، فلما تولى السلطان «قوبيلاي» أعطاه رتبة الوزارة، وجعله عضواً في مجلس أمانة السر الأعلى، وكان كلما تقلد عملاً ظهرت فيه فضائله، وحاز رضا السلطنة، وسنة ١٢٧٤ تقدم إليه السلطان في أن يقبل ولاية ينان، وكانت أحوالها مختلفة، وكان أهل ينان شديدي الغباوة والجهل، فلما ذهب إلى هناك وجد القيادة في يد أمير من بيت السلطنة، فخاف هذا منه، وأراد أن يجاذبه الحبل، إلا أن السيد الأجلّ بحكمته وحسن سياسته استماله إليه وصيره صديقاً، وكانت تلك الولاية في غاية الانحطاط والبلاد خراباً، فنشر السيد الأجلّ العلم وبنى المدارس واعتنى بتهذيب الأخلاق، وكذلك وجه همته إلى عمارة الأرضين، فمهد الطرق، وبنى المعابر والجسور والسدود لأجل المياه مما تلافى به خطر القحط، فكانت بعض الأنهار تطغى على الأراضي فتذهب بها زروع الفلاحين، فجعل لها حواجز تقي من ضرر الطغيان، وكانت أراضي أخرى تعطش في الصيف من قلة المياه، فبنى خزانات وحياضاً احتياطاً من جراء العطش، وأزال المغارم والمظالم، وأبطل السحرة، وشيد ملاجئ للأيتام والعجزة، وخفف المكوس، وأحدث نموذجات زراعية يحتذى على مثالها، وحفر الآبار، وأقام الأسواق، وأدخل في طاعة الدولة ما لا يعد ولا يحصى من الأقوام، وأثناء وجوده في تلك الولاية عمّر مساجد للإسلام، ولكنه شيد أيضاً هياكل لكونفوشيوس ولبوذا، وكانت ولايته تضم عشرين مقاطعة فيحدها من الشرق سونغ، ومن الغرب بيرمانيه، ومن الشمال التبت، ومن الجنوب آنام، وبحسن سياسة السيد الأجلّ خضع ملوك التونكين وآنام لسلطان الصين.

ومن نوادر حكمته أن ملك لوبان ثار على السلطنة، فصدر الأمر للسيد الأجل بالزحف إليه، فلما سار بالجيش رآه الناس حزيناً كئيباً، فسألوه عن سبب كآبته فأجاب: لست كئيباً لكوني ذاهب إلى الحرب، بل لكوني أتصور منكم كثيراً سيهلكون في هذه الملحمة بدون ذنب اقترفوه، وإنهم سيقتلون وينهبون أناساً كثيرين موادعين لا ذنب لهم أيضاً. ولما وصل إلى مكان الثورة أرسل إلى الثوار يعرض عليهم التسليم، فلبثوا ثلاثة أيام لا يجاوبون، فهاج العسكر، وطلب القواد الإذن بالهجوم، فلم يأذن لهم، بل راجع رئيس الثوار في أمر التسليم، فأظهر الطاعة ولكن لم يسلم البلدة، فوثب رؤساء الجند

عن البلدة، فغضب السيد الأجلّ، واستدعاهم وقال لهم: إن ابن السماء أمرني أن أتولى بلاد ينان، وأحكم فيها بالعدل والأمان، لا بالقتل والعدوان، فلا أرضى أن تهاجموا البلد، ما دام الثائرون وعدوا بالطاعة، فإن أبيتم إلا سفك الدماء فجزاؤكم القتل، ثم أوثق الضباط الذين أرادوا الهجوم خلافاً لأمره، فلما سمع الثوار بما حصل جاؤوا وسلموا، وسكنت البلاد، وأطاعت عن بكرة أبيها. وكان سائر العمال يقتدون بسيرة السيد الأجلّ ويتباهون بأعماله، فأمنت السوابل، واستراحت الرعية، وساد العدل وفاضت الخيرات، وعمرت البلاد، وصار يقال: هنيئاً لبلاد ينان.

أما آثاره في الزراعة فلا تزال بقاياها إلى الآن، وأن كثيراً مما بناه من الجسور لا يزال قائماً إلى يومنا هذا. وكانت بلاد «تشاوثيان» تطغى عليها الأنهر، فتتحول إلى بحيرة، فحفر السيد الأجلّ نهراً حدر إليه تلك المياه كلها، فصرفها عن الأراضي التي كان الماء يغمرها من قبل، وحفر ترعاً كثيرة، وخلجاً لسقيا البقاع المحتاجة إلى الريّ، وجعل بريداً مؤلفاً من ٣٦٠ فارساً وحراساً بقدرهم يسهرون على السدود، بحيث إذا حصل فتق في أحدها أسرعت البرد بإخبار الحكومة، فجمعت الحكومة الأهالي، ونهضوا لرتق الفتق.

ومات السيد الأجلّ رحمه الله سنة ١٢٧٩، فكان له مأتم عم الصين بأسرها، وبكاه أهل ينان كما يبكي الأولاد أباهم، وعم الحداد البلاد المجاورة إلى بلاد سونغ وتبت وغيرها، وذبحت القرابين في البلاط السلطاني، وخلف خمسة أولاد و١٩ حفيداً، فكان خلفه في الإمارة ابنه، ثم ابن ابنه، وتداول أحفاده الإمارة، وكانوا جميعاً أعضاء للسلطنة.

وفي أيام دولة «مينغ» راجع السلطان «تاي تسوكا هوانغ تي» (١٣٦٨ ـ ١٣٩٩) تراجم وزراء الدولة السابقة، فلم يجد بينهم في الحكمة والعدل والرفق بالرعية، ووفرة آثار العمران، مثل السيد الأجلّ، فأمر بتسجيل سيرته في كتاب خاص بقيد المآثر اسمه «ين تشه شو»، وأن يدرس هذا الكتاب للطلبة وينشر في المملكة، وقد ثبت هذا السلطان لقب السيد الأجلّ، وهو الأمير الأمين المحسن وأمر ببناء هياكل فيها القرابين عن روحه، وسنة ١٤٠٥ صدر أمر الحكومة الصينية بتأليف سيرة للسيد الأجلّ بقلم «تشينغ هو»، ويوجد في بلاد ينان هيكل باسم الأمير «هيان يلنغ» وهو لقب السيد الأجلّ عند الصينيين، ولا تزال أعقاب السيد الأجلّ إلى اليوم، وأسرته معروفة منذ سنة ٨٥٠. انتهى ما أردته من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، وبهذا تم الكلام على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾[الفتح: ٢٨-٢٩]. كتب ظهر يوم الاثنين ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣١م، والحمد لله رب العالمين.

الجوهرة الثالثة في قوله تعالى:

﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِى وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾

اعلم أيها الذكي أن هذا الإنسان فوق الأرض المخلوق من الطين في الأعم الأكثر هائم على وجهه، جاهل لا يدري لِمَ خلق.

الله أكبر، إن الإنسان يشبه ما شاع وذاع في زماننا، من أن الجواهر الفردة والذرات الدقيقة أصبحت الآن موضوع عناية علماء الألمان خصوصاً وعلماء العالم عموماً، إذ يقولون إن فيها قوى كامنة، وتلك القوى المخبوءة يعوزها أعمال عظيمة حتى يمكن استخراجها، ذلك أن كل مادة فإنها مكونة من مواد كهربائية سالبة وموجبة، وهي مكبوسة مكدّسة مضغوطة، فأصغر المادة الذي لا يرى إذا أزلنا ضغطه وخرجت القوى الكامنة فيه غيرت لنا معالم الحياة، لأنها قوى لا حد لها، وقد تقدم هذا كثيراً.

أقول: إذا كانت هذه حال الذرات التي لا نراها في الطين والتراب والماء، الله أكبر، فكيف تكون حال هذا الإنسان إذن؟ الإنسان نهاية الإبداع في أرضنا هذه، فإذا كانت هذه حال الذرات التي منها تركب عالمنا، فكيف يكون حال الإنسان الذي هو نهاية الإبداع؟.

الإنسان يشبه هذه الذرة، فهو يهيم على وجهه، ويعيش كالحيوان منبوذ كالذرّة، والجوهر الفرد، ولكن يستخرج قواه أناس منه مجبولون على صفات خاصة به خرجوا من هذا الطور الطبيعي وأيقظوه إلى استخراج ما كمن فيه من القوى، ولذلك تجد الرجل المهذب الراقي بوحي أو بتعليم يقدر أن يؤثر في نوع الإنسان كله بآرائه وأفكاره، ومن أوليات هذه الوجهة التي أتى بها الأنبياء الصلاة والركوع والسجود، فإن هذا الإنسان الذي يعاشر السباع والطيور والأنعام يقف ويقول: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام: ٧٩] الخ، وهذا عجب! الجوهر الفرد قواه مادية باستخراجها يرفعنا مادياً، ولكن هذه النفس الإنسانية باستخراج ما فيها من القوى ترجع إلى أصل هذا الوجود وهو الله، فتخاطبه قائلين: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: ٥].

يا عجباً! هذا الإنسان المركب من ذرات أرضية وما حولها، يركع ويقول: اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت الخ، ويقول: سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره.

هذا الإنسان الصغير الجسم الضئيل يعاشر الحيوان، ويقف ويخاطب خالق هذا العالم كله وطبقاته التي لم يعرف الناس لها حداً إلى الآن، وفيها شموس يعدونها بآلاف الملايين، وبعضها كما في الجوزاء أكبر من شمسنا (٢٥) مليون مرة، وضوء شمسنا بالنسبة لها أمر صغير. سبحان الله، أهذا الإنسان هو الذي يخاطب خالق هذه العوالم كلها، ثم هو نفسه الذي يفكر في الشرق والغرب، وفي أعلى وفي أسفل، في ثانية واحدة.

نعم. الإنسان هذا وصفه، وهذه حاله، أيقظه الأنبياء وهذبوه وربوه، وغاية الأمر أن الديانات قديماً كانت تنزل على الناس بمقتضى استعدادهم، وكل دين أرقى مما قبله، ولما جاء ديننا رفع تلك الشبهات والخرافات، لأن الله يريد أمماً أرقى من السابقة موحدين صادقين، وقد أمر جميع الأمم أن تتحد به، وما من دين إلا وقد أمر متبعيه بالصلاة والتوجه لله، ألم تر إلى غاندي المصلح الهندي الشهير، فانظر كيف يصف الصلاة في دينه البوذي الذي نزل به بوذا قبل المسيح عليه السلام، وكيف نراه يوقن بالصلاة ونفعها، أنا لا أقول إن هذا الدين لم ينسخ. كلا. هو منسوخ بديننا، وإنما الذي يهمني أن أقوله: إن وجود الصلاة إلى الآن في دين البوذية، وإعلان غاندي أن الصلاة نافعة معجزة

لديننا ولنبينا، لأن الله يقول: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ ﴾[النساء: ١٦٣] الخ، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ﴾[النساء: ١٣١]، ويقول: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[غافر: ٧٨].

فإذا أسمعتك ما قاله المهاتما غاندي في الصلاة فإني أسمعك معجزة، أسمعك شيئاً لم تألفه، أنت تعرف أن اليهود والنصارى لهم صلوات وإن كانت منسوخة بصلواتنا، ولكنك في الغالب لم تسمع إذا كنت بعيداً عن ديار الهند أن هناك صلوات وإن كانت منسوخة يتلوها قوم وينتفعون بها، لأن الله رب الناس ورب الحيوان، أما كون الدين منسوخاً فشيء آخر، وإذا كان المهاتما غاندي ينتفع بالصلاة، فكيف يكون المسلم إذن؟.

وهذا نص ما قاله بالحرف الواحد: جاء في جريدة الأهرام يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣١ تحت العنوان التالي ما نصه:

الصلاة في نظر المهاتما غاندي

وقع نظري على أحد أعداد جريدة «الهند الفتاة» الصادرة أخيراً، وفيها فذلكة مختصرة عن رأي المهاتما غاندي في الصلاة، فرأيت ترجمتها لكي أشرك إخواننا الشبان بالأخص في آراء ذلك الرجل العظيم، خصوصاً أن الكثير منهم ينظر إلى الصلاة نظرة استهزاء وسخرية، ويعتبر التمسك بها نوعاً من الجمود.

قال المهاتما من ضمن أحاديثه على ظهر الباخرة «راجوتانا»: وربما كانت مسرتي عندما أقوم لصلاة المساء تفوق ما أشعر به من الغبطة والمغزل دائر بيدي، ويشترك معي في صلاة المساء جميع أصدقائي من هندوس ومسلمين وبارسيين وسيخ. أما في صلاة الصباح المبكرة فلا يشترك معي منهم إلا القليل، ولقد سألني صديق مسلم عن الصلاة، وما أراد مني أن أعطيه وصفاً نظرياً، ولكنه سألني عما شعرت به نحوها من تجارب عملية، ولقد راقني سؤاله هذا كثيراً، وليس غريباً عليّ أن أصرح على رؤوس الأشهاد بأنه لم يكن لي سبيل إلى النجاة إلا بسبب الصلاة، كما أني لا أنكر الناس أني لو لم أكن أصلي لكانت تضمني الآن إحدى دور المجاذيب. ولقد أتى علي حين من الدهر كثر ما لقيته فيه من مرارة العيش ومن اليأس الوقتي الذي رماني فيه بعض الجماهير، ولكن ما كان أسرع نهوضي من يأسي وقنوطي ببركة صلاتي وقنوتي.

لم تكن الصلاة فيما مضى جزءاً لازماً من حياتي، ولكنها أتت بنت الضرورة حينما وجدت أني لن أكون سعيداً بدونها، وكلما زاد اعتقاد الناس في الله زادت رغبتهم في الصلاة. ولربما أكون قد بدأت حياة الإلحاد، ولكن قد أتى عليّ نور من الله حينما بدأت أشعر بأن لزوم الصلاة للروح، أكثر من لزوم الأكل للجسم، لأن مرض الجسم يحتاج إلى الحمية لكي يصح، ولكن كلنا يعلم أنه لا يوجد حمية من الصلاة لكي تصح الروح، وفي حين أن التخمة ربما تأتي لنا من كثرة الأكل، فإننا لا نجد تخمة صلاة للروح.

ولقد ترك لنا ثلاثة رجال عظماء وأعني بهم: بوذا، وعيسى، ومحمد، اعترافاً بأنهم لم يروا سعادة الحياة إلا على ضوء مصباح الصلاة، كما أن ملايين من الهندوس والمسيحيين والمسلمين الأتقياء لا يجدون لهم سلوى إلا في الصلاة، وقد يعدّهم البعض كذابين، ولكني كباحث عن الحقيقة المجسمة أحب أن أؤمن بهذا الكذب، لأني وجدت أن نتيجة تصديقي له كانت عماد نجاحي، ومع أني لا أستبشر خيراً من الجو السياسي، ولا أرى في أفقه إلا يأساً، فإني دائماً في غاية الاطمئنان والأمان، لدرجة أن الكثيرين صاروا يحسدونني على اطمئناني هذا، وما كل ذلك إلا من الصلاة.

إني لست رجل تعاليم راقية ولا فلسفة عميقة ولكني بكل خضوع يمكنني أن أدعي بأني رجل صلاة، ولست مع كل هذا أعلن كبير أهمية على الطريقة التي بها تؤدى الصلاة، فالنتيجة في النهاية واحدة.

بقيت مسألة صعبة، وهي أن البعض لا يعتقدون وجود إله، لا يمكنني أن أقول لهذا البعض إلا أن يرمي بتلك العلوم التي تربك عقله عرض الحائط ويسلم بأننا بني البشر ما أوتينا من العلم إلا قليلاً فلندرس هذه المسألة بعقل طفل صغير، وفي الحقيقة إننا أصغر حتى من الذرّة، لأن الذرّة المتناهية في الصغر تطيع قوانين الطبيعة من شد وجذب وسقوط وارتفاع، ولكننا بني الإنسان في كبرياء جهلنا وقحة آمالنا وعجرفة صلفنا نقف وجهاً لوجه ضد هذه القوانين وننكرها. وما دمت قد سلمت بوجود إله وكنت به من المؤمنين؛ فإني لا أرى ما يمنعك لحظة واحدة عن الصلاة، ولا أقبل فلسفة من يدعي بأن مجرد حياتنا في الدنيا هي نوع من العبادة، وعلى ذلك لا لزوم للصلاة لأن الأنبياء أنفسهم وقد كانوا على اتصال دائم بالروح العلوي كانوا يقومون بالصلاة، ويجددون إيمانهم كل يوم، فما أولانا بني البشر بأن نصلي ونتضرع إلى الله يومياً ونجدد إيماننا. إنني أيها الإخوان ضامن لكم بعد ذلك خلو بالكم من كل ما يمكن أن يسبب له أقل تعاسة أو أدنى شقاء. انتهى بتصرف.

أ. حلمي مطر

أستاذ علوم من جامعة منشستر

فضل الله على الناس

إن الله ذو فضل على الناس، الناس محبوسون في الأرض، أنا لا أدري كيف كان هذا الإنسان قبل أن ينزل إلى الأرض، وإنّما أنا أصف الإنسان الساعة بما وقر في نفسي، فأقول:

إني الآن موقن إيقاناً تاماً بأن صانع هذا العالم لا حد لرحمته، رحمة وعدل وحكمة وجمال وبهاء وإبداع في الصنع، لا يسع من يقرأ هذا التفسير وما فيه من العلوم إلا أن يقول ذلك ويعتقده، وليست تعقل نفس بعد هذا أن يكون وجود الناس في الأرض لقصد التعذيب، كلا. فكل عذاب لم يرد به إلا سعادة، هذا لا أشك فيه، فهو يقين. نعم هناك ما هو فوق علمي وطاقتي، ولا يتسنى لي معرفته، بل أسلم به، وأومن به، وهو عذاب الكفار الدائم، فهذا آمنا به، ولو أننا عرفنا سره لكنا من عالم أرقى من عالمنا، فكفانا ما عرفنا الآن، ونكل أمر الباقي إلى الله، حتى يطلعنا على السر بعد الموت إن استحققناه. فإذا كان هذا هو اليقين عندي، فإني أبني عليه ما يأتي، فأقول: لعل أرواح الناس كانت

قبل نزولها إلى الأرض غبية جاهلة بتفصيل العوالم، وإن كانت تعرف الكليات فعلومها تحيط بالكليات وتجهل الجزئيات، فبعث الله فيها غريزة حب المادة وعشقها فانحدرت إليها وانغمست فيها وحبست. ومن عجب أن يكون هذا السجن الأرضي أشبه ببستان جميل، وهو أعظم سجن وأبدعه، وهو يعطينا درساً كأنه يقول لنا: أنا سجنتكم في الأرض لأعلمكم، أرسلت أنبياء وحكماء وعلماء، وأنزلت ماء، وأمرتكم بالطهارة والصلاة لتكملوا، ووضعت فيكم غرائز الطعام والشراب واللباس والحرب والعداوات، ليكون ذلك كله مهمازاً يدفعكم إلى العلم والعمل، وهذا كله هو الرقي والسعادة، وأوعزت إلى علماء إسبارطة باليونان أن يمرنوا الصبيان من الصغر على تحمل الضرب، فيشبون على الشجاعة، وأوعزت إلى بعض قبائل السودان أن يضربوا الشاب أمام الفتيات ضرباً موجعاً قاسياً فلا يصرخ، فيستحق أن يتزوج الفتاة لشجاعته، وألهمت بعض القبائل أن لا يتزوج الشاب فتاة فيها إلا إذا قتل سبعاً، أو نمراً، أو نحو ذلك، كل ذلك لاستخراج ما كمن في نفوسكم من العجائب والقوى الكامنة، فلا شجاعة إلا بالتحمل، ولا أنوار للنفوس إلا بالصلوات والحكمة والعلم.

أنتم يا أهل الأرض مسجونون، ولكن الذي سجنكم حكيم، ولم يرد من السجن ذلكم، بل أراد استخراج كنوز نفوسكم ورقيها وإسعادها. وقد وضع لكم في الأرض أشجاراً وأزهاراً وأنهاراً وجبالاً وأودية وبحاراً، لتكون هذه مكملات لكم، تارة بالنصب والتعب في استخراج ما بطن فيها، وتارة بتعاطي ما فيها من الأغذية والأدوية والثمرات، وكل هذا تكميل لكم، واستخراج لقواكم، وخير السجون ما جمع بين الحبس والعمل والطهارة، انظر ما كتبناه في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[البقرة: ٢٢٢]، وكيف يقول «بتنام الإنجليزي» في كتابه «أصول القوانين»: إن النظافة والاستمرار في العمل يقللان من الجرائم، والطهارة في الشريعة الإسلامية من محاسنها، فلن ترى نظيفاً عاملاً إلا وهو بعيد عن الجرائم، قليل الأوزار.

وازن أيها الذكي بين أدنى الحيوان، وهي تلك الخلايا الصغيرة التي تعيش في الماء، ولا تموت مطلقاً إلا بعدوٍّ يفاجئها، أو بانقطاع غذائها، وكيف تعيش دهوراً ودهوراً لولا الطوارئ، كيف كانت حياتها ضئيلة من حيث الارتقاء، وفيها طبعاً أرواح ضئيلة، ثم انظر إلى الحيوانات التي هي أرقى منها وأرقى إلى أن تصل إلى الإنسان فتجد علماً وحكمة ورقياً وشجاعة وقرباً إلى الله بالصلاة، حتى يقول الله في المسلمين: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾[الفتح: ٢٩]. انتهى الكلام على الجوهرة الثالثة، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الخميس ٥ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

الجوهرة الرابعة: في قوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩]

صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده. لك الحمد اللهم ولك الشكر. ما أعظم نعمك، إن هذا الزمان هو الذي اشتد فيه ظهور المعجزات، معجزات النبوة المحمدية، كيف لا، ألم أذكر في السور الأولى من هذا التفسير أن الفرنسيين انقضوا على بلاد سوريا ففتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً وقتلوا القوم تقتيلاً.

ألم أقل في سورة «آل عمران» عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾[آل عمران: ٢٣] الآيات، إن هذه الآيات إنّما نزلت لأجل رقينا نحن أبناء المسلمين عموماً، والعرب خصوصاً، وقلت إن «ا ل م» في أول السورة تشير إلى هذه القصة المبتدأة بهذه الحروف «ا ل م»، وأن اليهود لما اتكلوا على شفاعة آبائهم، وعلى تخفيف العذاب عنهم يوم القيامة ذهب ملكهم، وملك المسلمون بلادهم، وقلت: إن المسلمين اليوم قد دخل عليهم من الخرافات والجهل في الدين ما أزال نخوتهم، وفرّق جمعهم، وأبنت هناك أن أبناء العرب من بحر الظلمات، وهو المحيط الأطلانطيقي وبلاد السودان إلى بلاد العراق والموصل وما بينهما متفرقون، مع أن بلادهم متلاصقة، وتفرقهم إنّما جاء من الجهل المحيط بهم ومن بعض الشيوخ المخرفين والرؤساء المغرورين الدجالين، وما أكثرهم في بلاد الإسلام، هذا نموذج لما قلته هناك من أسرار «ا ل م» التي نزلت لإيقاظنا نحن الآن، لأننا نحن الذين حبستنا أي الأرض، ونحن في حاجة إلى الهداية، فهدايتنا جاء بعضها عن طريق هذا الرمز العجيب، كنت أقول هذا هناك وأنا واثق برقي هذه الأمة، ولكن لم يكن ليخطر لي أن هذا الرقي أصبح قاب قوسين. كلا. أنا كنت واثقاً برقي المسلمين عموماً وأبناء العرب خصوصاً، ولكن هل كان يدور بخلدي أني أعيش حتى أقرأ ما ستسمعه أيها الذكي الآن؟بل هل كان يهجس في خاطري، أو تحدثني نفسي بأن ما ستسمعه الآن يحصل ونفس هذا التفسير لا يزال يطبع. كلا. لم يكن ذلك بخلدي، ولكن زماننا هذا زمان انقلاب في كل شيء، انقلاب في الشرق، وانقلاب في الغرب، حتى أقرأ اليوم في جريدة الأهرام أثناء طبع هذه السورة يوم ٤ نوفمبر سنة ١٩٣١ تحت عنوان «العراق وعصبة الأمم» وهذا نصه:

جنيف في ٢ نوفمبر روتر. قال السر فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق أمام لجنة الانتداب: في أيديكم مفتاح الباب الذي لا بد لهذه البلاد الفتية من المرور إلى البلوغ التام والتحرير الكامل، فأسألكم أن تفتحوا هذا الباب. وقال أيضاً: إن العراق برهنت على أنها أهل للقبول في مجمع الأمم المتمدنة الراقية. انتهى. وعلقت الجريدة على هذا التلغراف بمقال هذا نصه:

العراق وعصبة الأمم

بعد إلغاء الانتداب، ومستقبل الحالة في سوريا

خطب السر فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق أمس أمام لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف مؤيداً طلب انضمام العراق إلى عصبة الأمم بعبارات مؤثرة.

والذي نعرفه أن مسألة انضمام العراق إلى العصبة في السنة المقبلة قد بت نهائياً بين الدول، وأنه لم يبق لتقريرها رسمياً إلا بعض معاملات شكلية لا تؤثر في الموضوع، وانضمام العراق إلى العصبة يعني إلغاء الانتداب الذي فرض عليها في مؤتمر سان ريمو فرضاً. وقد رفضته منذ إعلانه وتمسكت بهذا الرفض إلى النهاية. ولم تشأ إنكلترا أن تضيف إلى مشاكلها الكثيرة في تلك البلاد مشكلة أخرى بمحاولة إكراهها على الاعتراف رسمياً بالانتداب، بل جعلت علاقاتها معها على أساس المعاهدات المعقودة في سنة ١٩٢١، ثم في سنتي ١٩٢٦و١٩٢٨، وقد كفلت لنفسها في هذه المعاهدات الإشراف

على المصالح المسؤولة عنها لدى عصبة الأمم بصفتها دولة منتدبة، ومكنت العراق في الوقت نفسه من عدم الاعتراف بالانتداب وعدم التقيد بنصوصه وأحكامه، فكانت دولة منتدبة على العراق في نظر عصبة الأمم ودولة مخالفة له في نظر حكومة بغداد. على أن الشعب العراقي الذي رفض الانتداب رسمياً لم يسعه القبول ضمناً تحت ستار المعاهدات، فكان دائماً يطالب بتعديل ما يراه ماساً باستقلاله من موادها، وكانت معظم الوزارات التي توالت في دست الحكم تصطدم بالإنجليز من جراء ذلك، فتفوز ببعض الشيء أحياناً وتفشل أحياناً، إلى أن وقع الاصطدام الأخير مع وزارة المرحوم عبد المحسن السعدون، وهو الاصطدام الذي أدى إلى انتحاره، بعد ما بددت الآمال التي عقدها على حسن نيتهم وشعر بقوة ضغط الشعب عليه وضياع مركزه لدى الوطنيين من أبنائه.

ووقع اصطدام آخر أثاره الهاشمي باشا وزير المالية في عهد وزارة ناجي باشا السويدي. وبلغت الأزمة حينئذ أقصى حد من التعقد، حتى خيل إلى الجمهور أن الملك سيعجز عن تأليف وزارة جديدة.

ودارت مباحثات خطيرة في تلك الأثناء حملت جلالته على الاقتناع بأنه أصبح في الإمكان الوصول إلى اتفاق مع الإنجليز، فأقنع نوري باشا السعيد بذلك، وعهد إليه في تأليف وزارة اشترك فيها بعض الوطنيين المتطرفين، وأسفرت المفاوضات التي قامت بها وزارة نوري باشا السعيد عن عقد معاهدة تنص على الجلاء والاستقلال، ولا تبقي لإنكلترا من مظاهر السيطرة غير ثلاثة مطارات: اثنان منها غربي الفرات، والثالث جهات البصرة. ولم تقابل هذه المعاهدة على ما فيها من مزايا لا يستهان بها بارتياح المقامات الوطنية، لطول مدتها من جهة، ولأن العراقيين يريدون استقلالاً خالصاً من كل شائبة من جهة أخرى. وقد أيدت إنكلترا طلب العراق الانضمام إلى عصبة الأمم، وأعلنت أنه أصبح في حالة من الرقي لا يحتاج معها إلى إرشاد دولة منتدبة. وسيدخل العراق العصبة في السنة القادمة على أساس المساواة التامة مع الدول المشتركة فيها، ومن دون أقل قيد أو تحفظ يتعلق بالأقليات أو غيرها، سوى القيود التي تنص عليها المعاهدات العامة، كما صرح جلالة الملك فيصل لمندوب الأهرام في أثناء مروره أخيراً بالإسكندرية.

ومتى دخلت العراق عصبة الأمم وخطت هذه الخطوة الواسعة في طريق استقلالها؛ تعذر إبقاء البلاد المجاورة لها، والتي هي أقرب إلى الحضارة منها تحت الانتداب. وهذا ما أدركته فرنسا، وصرح به مندوبها أخيراً في عصبة الأمم. فالطريق الذي سار عليه العراق ستسير عليه سوريا أيضاً، إذ لا يعقل أن يقبل السوريون ـ كما قال ممثل فرنسا لدى لجنة الانتدابات ـ بنظام أبعد عن الاستقلال من نظام العراق، مع كونهم لا يقلون عن العراقيين علماً وحضارة وخبرة في شؤون الحكم.

وخلاصة القول: إن دخول العراق عصبة الأمم سيكون فاتحة دور جديد في تاريخ الشرق الأدنى، ومقدمة لانقلابات سياسية خطيرة قد تكون في مصلحته ومصلحة السلم. انتهى ما جاء في جريدة الأهرام.

أقول: هل كان يخطر لي وأنا حيّ أرزق، ونفس هذا التفسير يطبع، أن أسمع أن العراق وسوريا على أبواب الاستقلال. اللهم إنك أنت الواسع المغفرة، الحكيم العليم العدل، أعدت إلى الشرق شرفه

وكماله وعزته بعد أن أدّبته وربّيته بالنوازل والمحن، إن كتّاب ـ بالتشديد ـ زماننا المسلمين خصوصاً والشرقيين عموماً من أسعد الكتّاب ـ بالتشديد ـ في الأرض، لأنهم يرون ما يدعون إليه من الرقي قريب المنال، سريع الحصول، والله هو الولي الحميد. انتهى الكلام على الجوهرة الرابعة، والحمد لله رب العالمين.

الفتح الإسلامي في زماننا وآثار النبوة المحمدية في نهضة الشرق الأقصى

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة، وعلى الفتح المبين. اللهم إنك أنت الفتاح العليم، المحسن المهيمن، الجليل الرحيم. تالله لم يكن ليخطر لي في الخيال، ولا في الأماني، ولا في الأحلام، أن أقف في حياتي قبل أن أموت على ما سمعت به عن بلاد الإسلام من الفتح الإسلامي المبين، حقاً إن هذا زمان الفتح المبين، الذي يضاهي الفتح المبين أيام النبوة، وأيام عصر الصحابة والتابعين، نعم هو حق، هو حق وصدق مبين، كيف لا وقد كنت قبل اليوم أظن في نفسي أن هذا التفسير ربما تقرؤه أمم قراءة جدية بعد موتي، وتثور به في وجه الجهالة العمياء، فتطمس معالمها، وتزهق روحها، وتجعلها في خبر كان.

كنت أقول ذلك أشبه بالأماني والأحلام، ومعلوم أن الأماني والأحلام تضليل، ولكن ماذا حدث؟ اليوم حدث ما لا عين رأت إلا قليلاً، ولا أذن سمعت إلا نادراً، ولا خطر على قلب كثير من المؤلفين، حدث ما ذكرته في تفسير البسملة في أول هذه السورة من حضور الشاب التركستاني الذي قص عليّ أخبارها ونشرها في الجرائد فوق ما كتبته في أول السورة، هذا الشاب اليوم أي في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١م قد قبل في كلية الآداب في علم الفلسفة في الجامعة المصرية، فماذا يقول؟ يقول: لقد فتحت مدارس في بلادنا التركستان الصينية، ودرسنا فيها العلوم الحديثة، وأنا درستها فيها، وأن السبب في ذلك انتشار كتاب «نظام العالم والأمم» و«التاج المرصع»، ومثل بلادنا بلاد الصين ومسلموها نحو (٧٠) مليوناً، وبعض أهل اليابان أسلموا، واتصلوا بإخوانهم في التركستان والصين، وإسلام أهل اليابان بسبب رجل من بلاد التتار أحضر لهم «التاج المرصع» مترجماً. انظر مقالة تحت عنوان «معلومات جديدة» في «المقطم» يوم ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١.

أكتب هذا الآن ذاكراً نعم الله عز وجل، أكتبه وأنا دهش أن بعض الكتب التي سبقته ونشرت قبله قد أدّت الغرض المقصود الذي كنت أرجوه منه بعد مفارقتي هذه الدار.

إن هذه الأخبار فيها معان سامية، ومرام شريفة، وأسرار لها ما بعدها فتح سريع، وخطوات واسعة. اتصل المسلمون اتصالاً لم يعهدوه، وانتشر الإسلام انتشاراً غريباً لم نعهده، واتصل الإفريقي بالأندونسي والجاوي والسومطري، والصيني والياباني، والأفغاني والهندي والتركستاني، والتتاري والقازاني. اتصل المسلمون اتصالاً لم يعهدوه.

هذا من آثار: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[الفتح: ١]، فرحم الله الشيخ الدباغ لأنه هو الذي قرأت عنه أن الفتح معناه الفتح العلمي، ذلك الفتح الذي نشر أيام النبوة في سائر الأقطار، ثم أصبحت

بقايا العالم الإسلامي أشبه ببقايا الماء الآسن في البرك والمستنقعات، ثم كانت الحركة العلمية الحاضرة، فانبعث المسلمون ونفضوا غبار الذل، وغادروا الكسل، وأخذوا يجددون مجداً مضى، وعزاً قضى، وسعادة أدبرت وملكاً ذهب، وأخذنا نسمع باقترابهم وتواصلهم، فلله الحمد وله المنة.

أكتب هذا وسيقرؤه شبان هم يعيشون الآمال معنا في هذه الحياة الدنيا وهم مفكرون، وآخرون لا يزالون صبياناً، وآخرون هم أجنة في بطون أمهاتهم، وآخرون هم في ظهور أصلاب آبائهم. كل هؤلاء وهؤلاء سيقرؤون ما كتبناه الآن أو يسمعون به، فيبعث في قلوبهم من الحمية العلمية الإسلامية ما لا أعلمه أنا ولا أكثر المسلمين الحاليين، وسيحدث ذلك في قلوبهم شعوراً قوياً يحملهم على ركوب الطيارات، التي أنا الآن وأنا أكتب هذا في صباح يوم الأربعاء يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١ بعد الفجر، كأني أراهم فوق طياراتهم راكبين من بلاد التركستان الصينية، أو البلاد اليابانية، أو البلاد الصينية، وقد وصلوا بها إلى البلاد المراكشية والجزائرية والتونسية، وهم يحلقون فوق رؤوس إخوانهم المسلمين وقد قابلوهم بالتصفيق والفرح المبين، هذا هو الذي أتخيله الآن، كأنه حقيقة أراها بعينيّ، ولقد أطمعني ما تحقق من انتشار ما أكتبه وذيوعه في بلاد الإسلام؛ أن هذه الحقيقة قد قرب وقتها وأظلّ زمانها، وأقبل حينها، ولتعلمنّ نبأه بعد حين، وهكذا يقابل المصري والسوري والمراكشي والطرابلسي جميل شبان الشرق الأقصى بمثله، فيركبون طياراتهم، ويردّون إليهم الزيارة قاصدين الأفغان والتركستان والصين واليابان والهند وإيران وبلاد الترك وغيرها من بلاد الإسلام. كل هذا خيال اليوم وحقيقة الغد. ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[الفتح: ٢٨].

وما لي أذهب بعيداً، إن زماننا زمان انقلاب إسلامي عجيب. فبينما يخبرني هذا الشاب التركستاني النابغة الذي يجيد أربع لغات، وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين بما ذكرت عن الشرق الأقصى، وتسمع أذني هذه الأخبار السارة العجيبة، إذ بالجرائد والأخبار تأتي سراعاً بأخبار مدهشة ذلك أن المسلمين اجتمعوا في مؤتمر إسلامي عام في القدس في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١، وتلقت رئاسة المؤتمر برقيات التأييد من الملك علي بن الحسين والأمير عبد الله أمير شرق الأردن، والإمام يحيى عامل اليمن، وخديوي مصر السابق، وقد حضر المؤتمر مندوبو البوسنة والهرسك واليوغسلاف والصرب، وكانوا يكررون مراراً: الله أكبر، الله أكبر، عند ذكر أسمائهم، والحضور نحو (٢٠) ألفاً. ثم اشتغل المؤتمر بتأليف لجانه الفرعية، فقرر أن يجري تأليف اللجان الآتية:

(١) لجنة المحافظة على الأماكن المقدسة والبراق.

(٢) لجنة الثقافة الإسلامية وجامعة المسجد الأقصى.

(٣) لجنة سكة حديد الحجاز.

(٤) لجنة الاقتراحات.

(٥) لجنة الدعاية والنشر.

(٦) لجنة الوعظ والإرشاد.

(٧) لجنة المالية والتنظيم.

(٨) لجنة القانون الأساسي.

هذا ما جاء في الجرائد المصرية يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ أثناء طبع هذه السورة.

اللهم إنا نحمدك ونشكرك، أحكمت صنعك، وأجدت تدبيرك، وجعلت تفسير هذه السورة موافقاً في زمان طبعه لحادثة حضور الشاب التركستاني إلى البلاد المصرية يحمل لنا نبأ بلاده، ولحادثة المؤتمر الذي هو الآن منعقد في فلسطين، وقد حضره مندوبون من أكثر أقطار الإسلام.

اللهم إن هذا هو النصر المبين، وهو عينه الفتح الإسلامي.

اللهم إن المسلمين اليوم أشبه بالمسلمين أيام النبوة قبيل الهجرة، ففتحهم الآن فتح علمي سامي تعليمي، وسيعقبه قريباً الفتح السياسي العظيم، وسيكون المسلمون سياج النظام العام، وحماة العدل والرحمة لسائر الأمم والأجناس، وسيكونون: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠] يحملون السلام العام لأهل الأرض، لأن فتحهم علمي، والأمم الآن سيكون فتحها فتحاً علمياً، لأن الناس اليوم يسمعون ويعقلون.

وإلى هنا تم الكلام على سورة «الفتح»

والحمد لله رب العالمين.

كتب صباح يوم الأربعاء ٩ ديسمبر سنة ١٩٣١م.



تفسير سورة الحجرات

هي مدنية

آياتها ١٨ ،نزلت بعد «المجادلة»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (١) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ
لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ (٢) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ
مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ (٤) وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا
لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا
بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ (٦) وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ
ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ
وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ (٨) وَإِن طَآئِفَتَانِ
مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي
حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ
(٩) إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (١٠) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ
خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن
لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ
ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا
فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ (١٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾
۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن
تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ
عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ
بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

هذه السورة ثلاثة أقسام :

القسم الأول : في تفسير البسملة .

القسم الثاني : في آداب المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ .

القسم الثالث : في آداب المؤمنين بعضهم مع بعض ، من قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ إلى آخر السورة .

القسم الأول : في تفسير البسملة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

جرت عادة الشعراء أن يبدؤوا قصائدهم بالغرام ، ليكون ذلك داعية لاستماع القائل ما بعده ، يصف جمال المرأة ومحاسنها ، فيصغي السامعون للشاعر ، ثم ينتقل بهم إلى المدح ، فالاستجداء ، فيخرج بالجوائز السنية والهبات الذهبية ، ولقد تقدم أن الخلفاء الراشدين منعوا ذلك ، أما القرآن فإن براعته استهلاله البسملة ، والبسملة تصف الله بالرحمة ، رحمة هي مصدر جمال الرجال والنساء ، وجمال النجوم والجبال والشجر والدواب ، وما جمال الفتيات الساحر إلا أثر من آثار الرحمة ، ولكنه جمال يهيج الشهوات ، والشهوات غريزية في الناس ، فليست في حاجة إلى ما يهيجها ، والأمم اليوم في حاجة إلى إثارة ما كمن من صفات الكمال في الناس ، وفي آثار الرحمة من الجمال ما لا حدّ له .

ولقد شرح الله الرحمة فجعل لها سورة بأكملها ، فقال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٢] ، إذن سورة « الرحمن » الآتية من مفصلات الرحمة في البسملة كما قدمنا في غير هذا المكان ، فصلت الرحمة هناك تفصيلاً واضحاً ، وفي سورة « الفتح » قبل هذه السورة جعلت أصول الرحمة هناك الفتح ، وهو انكشاف الحقائق الذي ترتب عليه كل فتح في الإسلام ، فإذا قيل في سورة

« الرحمن »: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ففي سورة « الفتح » يقال: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[الفتح: ١]، وعلى هذا الفتح دانت أمم وأمم، وفتحت بلاد وبلاد، أما الرحمة في هذه السورة فإنّما هي الرحمة العملية، أي: رحمة الفضائل والأخلاق:

(١) أدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم رفع الصوت عنده.

(٢) وعدم الإصغاء إلى نقل الكلام حتى يحق الحق ويبطل الباطل.

(٣) والصلح بين الطائفتين.

(٤) واحترام الأخوة الإسلامية.

(٥) واجتناب الاستهزاء والسخرية، وكل فعل يؤذي الإخوان.

(٦) وترك اللمز.

(٧) والتنابز بالألقاب، والسباب.

(٨) واجتناب كثير من الظن.

(٩) والتجسس.

(١٠) وترك الغيبة ونحو ذلك.

(١١) ثم التعارف.

(١٢) والإيمان بالبرهان واليقين.

ولما أتممت هذا المقال، جاء صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير، فقال: كأنك فهمت أن الرحمة هنا موجهة إلى ما في السورة وهي المطالب الثانية عشرة. فقلت: إن الرحمة عامة، وهاهنا جاءت هذه المطالب تذكرة بها، وأمثلة لها، وهذه من المطالب التي نقلت عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه إذ قال: لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير البسملة. أو ما معناه، فهو من نحو هذا الباب دخوله، ومن هذه الناحية وجهته، وبها وصوله، وإن كان له علم فوق ما عرفناه وحكمة فوق ما ألفناه، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله. فقال: إنك قد جعلت أكثر السور على هذا النحو، فإنك قد فسرت البسملة في أكثر السور بالمطالب التي فيها، فجعلت تلك المطالب مثلاً للرحمة هنا، ولكن يخيل لي أن في هذه السورة طرائف مستحدثة، وبدائع مستحسنة، ولكن لا أجد في لساني قدرة على التحرير والتصوير، ولا في جناني قوة على التقدير والتفكير. فقلت: نعم هاهنا معان شريفة، ودقائق منيفة، ولطائف بديعة، وعوارف رفيعة، وجواهر مكنونة، وطرائف مصونة، وطرائق مسنونة. انظر رعاك الله إلى هذه الآيات، ففيها آداب الأمم، وأحوال اجتماعها وتعارفها، بحيث لا يكون هناك اختلاف، ولا اضطراب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا حرب ولا جدال.

وهاهنا يبدو للخواطر سؤال، فيقال: إن الله هو الرحمن الرحيم، ومن أجلّ الرحمات أن لا يجعل في النوع الإنساني هذه المثالب، وأن يخلصهم من تلك الشوائب، حتى لا يعوزهم النصائح القرآنية، ولا الزواجر الإسلامية، وهذا السؤال يعوزه بحث هام، وتنقيب عن مصادر هذه العوالم ومواردها، وأولها وآخرها، حتى نفهم الرحمات، ونعرف هاتيك الآيات البينات.

اعلم ألهمك الله الحكمة، وجنبك الزلل، وأماط عنك الغوائل، وألبسك ثوب الوقار، أن ما نراه من هذا الوجود الذي اختلط فيه الخبيث والطيب، والحسن والقبيح، إن هو إلا حركات في خيال هذه الأكوان وخطرات فيه كالأوهام.

لقد علمت أيها الأخ الذكي مما مر بك في سورة «النور» أن الجواهر الفردة والذرات التي وصل إليها التحليل ليست هي بمادة، وما هذه المسماة بالمادة إلا نقط كهربائية يجري سالبها حول موجبها، إما نحو ستة آلاف ملايين الملايين، وإما أقل، وإما أكثر، فإن كانت أقل، فلتكن الأنوار أو الأصوات، وإن كانت أكثر فلتكن الأحجام الصلبة، والأجسام الثقيلة، ولقد مر هذا غير مرة في هذا التفسير.

سبحانك اللهم وبحمدك، أنت القدوس، جميل جليل، لا إله إلا أنت، إن عالمك إلا حركات فما هذه الحركات؟ هي حركات في أثير، وما هو الأثير؟ وما المحرك لها في ذلك الأثير؟. إلى هنا وقفت عقول الأمم في زماننا، وصفوا الأثير بأنه عالم لو جسّم لكان أثقل من الحديد أضعافاً مضاعفة، انظر هذا المقام في أول سورة «الصافات»، ولكنه لا حجم له، ولا يحسّ به ولا يرى، ونحن نقول: إذن هو كخيالنا.

الله أكبر، إن في خيالنا لحركات، وتلك الحركات لها وجود حقاً، ولكن حركات خيالنا نتائجها معقولات، لها نتائج في خارج أجسامنا وأعمالنا في رقي مدننا، ونظام أخلاقنا، إذن هي موجودة، وحركات العوالم موجودة، ووجود ما في أذهاننا ضعيف، ووجود ما في الخارج قوي، فالأول سريع الزوال، والثاني نراه آماداً طويلة، ولكن الأصل هو الحركات على كل تقدير، فلتدم الأحجار والجبال والنجوم، ولتعش دهوراً ودهوراً، ثم تفنى، ولكنها معدومة أو في حكم المعدومة، فهذا الجبل الذي نراه، والحجر الذي فيه، والشمس والقمر، والشجر والدواب، كلهن حركات وأضواء متراكمات، ظهرن للعيون بهيئات مختلفات، ولكن العلم يقول: كلا. ثم كلا. أيتها العيون، أيتها الأسماع، لا وجود، لا وجود، كل هذه حركات، والمحرك لا نراه، له وجود كامل، وهو تام الرحمة، ومن رحمته أنه أراد أن يصوّر في هذه المجاهل أرواحاً ويلهمها علماً، وتحبه ويحبها، فماذا يصنع؟ صنع هذه الحركات، فأبرز بها نور الكهرباء، فضغطه، فتراكم وازدحم وانحصر انحصاراً شديداً في الذرات والجواهر الفردة وبهذا التراكم أصبح مشاهداً محسوساً، وما عوالمنا إلا تنويع وتجديد، واختلاف في الصور والأشكال وإذا كان أصل العوالم سالب الكهرباء وموجبها، فهكذا نشأت كلها على هذا النمط، سماء وأرض، وجماد وحيوان، أعلى وأسفل، حي وميت، أسود وأبيض، رفيع ووضيع، كافر ومؤمن، عالم وجاهل ملوك وسوقة، ذكي وبليد. وهناك تفاعل وتفاعل، فهذا التفاعل به دوام الوجود وترقى هذه الصور تعيش الأرواح الحيوانية، وهي لا حياة لها إلا بهذه الصور التي مبدؤها تلك الحركات، وأقرب شيء إلينا ما مر في سورة «الفتح» من أن في كل قطرة كسن الإبرة لا تزيد على جزء من عشرين ألف جزء من البوصة المربعة خمسة ملايين خلية حمراء بها يحمر الدم، وهي عاملة ناصبة جاهدة، وتسعة آلاف خلية بيضاء هي المدافعة عن المملكة الجسمية، لتحافظ عليها من الذرات الداخلات في الجسم لإهلاكه إذن أرواحنا لا ارتقاء لها إلا في جو مشبع بالعراك والخلاف، والاشتباك، والاختلاط، والاختلاج،

وكل أم يتبعها ولدها، فإذا كان هذا هو الأصل البعيد والأصل القريب، والأخير يشبه الأول، فهكذا تكون هذه النفوس، ففيها تكون العداوات والشحناء، والحسد والبغضاء، كما تكون المحبة والولاء والشوق بالوجدان.

هذه طبائع عوالمنا ما هي إلا حركات، والحركات متضادات، وبغير هذا لا وجود للمادة، والمادة فيها تربى الأرواح. وبعبارة أخرى: إن وجود العالم وجود ناقص، والإنسان تبع للناقص مستمد منه ناتج عنه، والنتائج على مقتضى المقدمات، ولقد قدمنا أن الله رحيم، ومن أجلّ رحماته أنه يخلق خلقاً من روحه هو وهي النفوس الإنسانية، وهذه النفوس أيضاً ناقصة، ولا كمال لها إلا بالتطور والتشكل والتطور والتشكل إنّما يكونا في المادة، والمادة ناقصة، فإذا كان هذا طبع الوجود الناقص، طبعه التناقض فلم تبق إلا مرتبة واحدة وهي تصفية الأخلاط، وإزالة هذه النقائص، لذلك أنزل الأنبياء والحكمة في الأرض، فأعطوا الناس دروس المحبة والمودة والموعظة الحسنة، ومنها هذه السورة، فالله ـ وإن كان رحيماً ـ لا يخلق المستحيل، ومن المستحيل أن تخلق أرواحنا كاملة، كما كان من المستحيل أن يكون للمادة وجود أولي، فإذا كان أصل الوجود المادي معدوماً فالكمال معدوم من باب أولى، فمن الرحمة انتهاج خطة ارتقاء الأنفس في مدارج الكمال، وهذا هو الذي جاء في سورة «الحجرات».

إن ارتقاء النفوس البشرية لا سبيل له إلا التدرج نحو الكمال، فليكن الناس في أول حياتهم كالأسود شراسة، وكالأنعام شراهة، فليرفعهم العلم إلى درجات الملائكة الكرام، والوجود الكامل لغير صانع العالم مستحيل، فقول القائل: لم خلق الله نفوسنا ناقصة ثم هو يكملها، وهلا خلقها كاملة من أول وهلة؟ معناه لِمَ لم يكن كل إنسان أصلاً للوجود. وبعبارة أخرى: لِمَ لم يكن كل إنسان إلهاً إذ لا كمال إلا له، فإذا خلقنا نحن كاملين فمعناه أننا آلهة، وهذه هي الحقيقة، كل ما عدا صانع العالم أصله العدم والوجود طارئ عليه، وهو لا يقبل من الوجود الطارئ إلا قليلاً قليلاً، حتى يصل للكمال الذي يليق به. وبعبارة أخرى أيضاً: يصل إلى مرتبة لا يتعداها، وغيره يصل إلى أقل أو أكثر منه، هذه هي الحقيقة، وهذا هو جواب أصل السؤال.

جمال في جمال

يخيل لي وأنا أكتب هذا الموضوع أن كل ذرات الوجود مشرقات، وأنها تفتحت أكمامها، وازدهرت فأشرقت الأنوار المخبوءة فيها، التي يحاول علماء الألمان وروسيا استخراجها للانتفاع بها في الأعمال، وكأنها كلها الآن مضيئة.

الله أكبر، نعم كلها موسيقى، ألم تر أن حركاتها منتظمات، ألم تر أن حركاتها في النور تكون من أربعمائة مليون مليون في الثانية إلى ٧٠٠ مليون مليون فيها، أي من ابتداء لون الحمرة إلى انتهاء لون البنفسجي. جميل والله هذه المناظر، حركات تعد بالملايين في الثانية في ذرات لا حصر لعددها، قد حجبت روحي عنها، روحي التي تعيش في وسط هذه الأنوار وهذه الحركات، روحي المسكينة المحجوبة الممنوعة عن أن تسمع تلك الحركات وتشاهد تلك الأنوار، نعم حجبها الله، حجبها عن ذلك الجمال وعن تلك الأنوار رحمة منه بروحي، لأنها لو سمعت تلك الموسيقى، أو رأت تلك الأنوار،

وشاهدت أساليبها في الحديد والنحاس والرصاص والماء والهواء والجبال، وشاهدت أفانينها المختلفات وضروبها العجيبات، وسمعت تلك الأغاني، وأنواع الموسيقى، وضروب اللحن الشجية لذابت من اللذة، ولهلكت من وفرة الجمال، أنا الآن أعيش في جمال منظور، وجمال مسموع، ولكني عنه محجوب، رحمة من الله بي.

ومن رحمته بالحيوان أيضاً أنه غشي على عقله، وعلى بصره، وعلى سمعه، وشغله بتحصيل قوته، ومطاردة عدوه، ولولا ذلك لشاهد تلك الأنوار، ولذهل من جمال الأصوات في موسيقى الذرات. ألم تر أن الجمال تهيم عند سماعها للغناء، وأن الحيتان في البحار العظيمة تصطاد بالآلات المطربات الشجيات النغمات، إذن الجمال محبوب عند كل حيوان كما هو محبوب عند الإنسان، فكان احتجابه عنه رحمة به، وإلا لهلك الأولون والآخرون.

الذرات مركبات من جمال وباختلاف حركاتها وتنوع صورها كان هذا الوجود، المملوء بالمتناقضات المؤلمات المؤذيات، من الحر والبرد، والحلو والمر، والخبيث والطيب، ولكن أصل الوجود غلب عليه وهو الجمال، ألا ترى إلى الشجرات المزهرات، والشموس الطالعات، ألم تر كيف ترى صباحاً قطرات الندى على الورق وهي أشبه بقطع الماس الجميلات، ألم تر كيف يستبين لك منظر نسيج العنكبوت، وقد جلله الندى بهيئة خيمة من الجواهر البديعة والماس المشرق البهيج، غلب الجمال على ظواهر الطبيعة بعد أن ظهرت بمظهر الغضوب الشموس، لأنها تريد أن ترجع إلى أصلها، وتظهر أصل جمالها، فإذا غاب عنا تنوع حركات الكهرباء في الذرات من حيث جمال ألوان أضوائها، وبهجة موسيقاها، فوالله لم يغب عن عيوننا مشاهدة باهر جمالها في الليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، فالجمال باق وإن أحاطت به المؤلمات والمزعجات، والإنسان يشاهد ذلك، والعناية الإلهية تريد أن ترقيه، فماذا تصنع؟ خلقت فيه قوى متضادة، وألهبته بالحسد والحقد والعداوات والحروب، وقالت: أيها المسلمون، حاربوا كل من يؤذيكم وأنتم تنشرون دعوة الإسلام، ويا علماء الألمان والرومان والروسيا وجميع أوروبا اخترعوا المهلكات، وابتدعوا ما تشاؤون من المنذرات، وأشغلوا نفوسكم بذلك حتى تغيب عقولكم عما أمامكم من الجمال الذي ينم على أصل الجمال، وبهذه الشواغل تعيشون أمداً مقدراً، ولو أن الجمال غلب عقولكم مما تشاهدون ولم تشبه شوائب الحسد والطمع والمباراة والمنافسة لهلكتم ولصرتم في خبر كان.

وهذه المزعجات جعلت رياضة لكم، ليكون الكمال الوارد إليكم قليلاً قليلاً بقدر ما تسمح به قواكم فتستنبطونه استنباطاً في أثناء مجادلاتكم. كما أن خير المآكل في صحة أبدانكم ما كان غير مركز فتأخذ منه الخلايا حظها قليلاً قليلاً. فأما الأغذية المركزة فإنها تطغى على الجسم شر طغيان، فتكون فيه بثور وقروح وأمراض. إن كل ما أخذ بلا تعب ونصب، فهو عند من ناله مرمي منبوذ، لا تعيره نفسه التفاتاً، ولا له عندها منزلة، فكل مبذول مطروح، وأحب شيء إلى الإنسان ما منع.

فلما سمع صاحبي ذلك وهو شديد الإصغاء إلي؛ قال: إن هذا لون آخر من ألوان العلم، وصورة محيرة، ونعمة ونعيم، وحكمة من الله الحكيم العليم، لم يرد على نمطها درس فيما درسناه،

ولم نر لها شبهاً فيما قرأناه . فقلت : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٠م .

القسم الثاني من السورة
التفسير اللفظي للسورة كلها

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قبل البدء في تفسير هذا القسم ، نذكر صلة هذه السورة بما قبلها ، فنقول : سورة « الفتح » قد ذكرت بعد « القتال » ، لمناسبة أن الأولى كالمقدمة ، والثانية كالنتيجة ، إذ الفتح إنّما يكون بعد القتال . أما هذه السورة فهي أشبه بما يعقب الفتح ، فإن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي صلى الله عليه وسلم بينهم وقد استتب الأمر ، فإذن يجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ وما الآداب التي يكونون عليها ؟ فإنهم إذا كانوا في الأمثال المضروبة في التوراة والإنجيل قد تراحموا فيما بينهم وسجدوا وركعوا وعبدوا ، ثم نموا وعظموا ، وقوّوه ، وغاظوا الكفار ، فليكن البحث بعد ذلك في طريق المعاملة بينه وبينهم ، ثم كيف يعامل بعضهم بعضاً ؟ فهذا هو ملخص السورة وترتيبها ونسقها مع ما قبلها . ولنشرع في تفسير الألفاظ ، فنقول : قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي : لا تتقدموا ، من قولهم : مقدمة الجيش لمتقدميهم ، إن حقيقة قولهم : جلست بين يدي فلان ، أن تجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريباً منه ، فسميت الجهتان يدين مجازاً للمجاورة ، ومعنى لا تتقدموا بين يديه ، لا تفعلوا أمراً من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وهذا على سبيل الاستعارة التمثيلية صور المعقول بصورة المحسوس . وبعبارة أخرى : لا تقطعوا أمراً دون أن يحكما به ، وفي ذكر الله معه تعظيم له صلى الله عليه وسلم ، والمقصود من هذا المعنى الانقياد لأوامره ونواهيه ، فلا يعجلون بقول أو فعل قبل أن يقوله صلى الله عليه وسلم ، أو قبل أن يفعله . فلا يذبحون يوم عيد الأضحى قبل ذبحه ، فإن الذبح بعد الصلاة ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه ، ولا ترفع الأصوات عنده كما حصل من الشيخين ، إذ اختلفا في أمر فارتفعت أصواتهما بحضرته لما قدم وفد من بني تميم ، وهذه أمثلة قد أسند لكل منها أنه سبب نزول الآية وهي عامة شاملة لا تخصّ ما ذكر ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في التقديم ومخالفة الحكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ورفع أصواتكم عنده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما تعملون ، ولما كان ثابت بن قيس بن شماس جهوري الصوت ، وفي أذنه وقر ، كان يتأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوته ، فنزل فيه وفي أمثاله قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ إذا كلمتموه ، فإذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذي يبلغه بصوته ، وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، أو أن تقولوا يا محمد يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع السكينة والتعظيم : وهذا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ في الأمرين المتقدمين خشية ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ففي الرفع والجهر استخفاف قد يؤدي إلى الكفر المحبط إذا ضم إليه قصد الإهانة وعدم المبالاة ، ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس ، فدعاه

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، لقد أنزلت هذه الآية، وإني رجل جهير الصوت فأخاف أن يكون عملي قد حبط، فقال عليه الصلاة والسلام: لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك في أهل الجنة. فقال: رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً. فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ مراعاة للأدب ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى طهرت تلك القلوب وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق، وقال عمر رضي الله عنه: أذهب الشهوات عنها، والامتحان اختبار بليغ ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لغضهم وسائر طاعاتهم:

(١) ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر ثابتاً أنه سيقتل في سبيل الله، فلما كان يوم اليمامة في حرب مسيلمة قتل، وكان عليه درع فرآه رجل من الصحابة بعد موته في المنام. فقال له: إن فلاناً رجلاً من المسلمين نزع درعي فذهب به وهو في ناحية من العسكر عند فرس يستن في طيله، وقد وضع على درعي برمته فأت خالد بن الوليد، فأخبره حتى يسترد درعي، وأت أبا بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقل له إن علي ديناً حتى يقضيه عني، وفلان من رفيقي عتيق، فأخبر الرجل خالداً، فوجد الدرع والفرس على ما وصفه فاسترد الدرع، وأخبر خالد أبا بكر بتلك الرؤيا، فأجاز أبو بكر وصيته، قال مالك بن أنس: لا أعلم وصية أجيزت بعد موت صاحبها إلا هذه.

(٢) ولما نزلت الآية الأولى كان أبو بكر لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخي السرار، وما حدّث عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم كلامه حتى يستفهمه مما يخفض صوته، لذلك مدحهم الله بغضّ الصوت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن العرب كانوا يعاملون النبي صلى الله عليه وسلم على عاداتهم فيما بينهم.

(٣) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى بني العنبر، وجاؤوا بعيالهم سبايا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رئيس السرية عيينة بن حصن الفزاري، جاء بعد ذلك رجالهم يفدون الذراري، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائل في أهله، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم، وأعتق نصف الذراري، وقبل فداء النصف الثاني.

(٤) وأيضاً لما جاء عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة، وهو راقد، نادوه وقالوا: يا محمد اخرج إلينا، وذلك للمفاخرة كما هو معلوم في فن الأدب والحديث، لذلك ولأمثاله نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ من خارجها سواء أكان من خلفها أم من قدامها، والحجرة قطعة أرض محجورة بحائط، والمراد حجرات نسائه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لأن العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة، لا سيما لمن كان في منصب النبوة ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ ﴾ الصبر ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من الاستعجال لما فيه من الأدب ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لأنه اقتصر على النصح والتقريع لهؤلاء المسيئين للأدب. وبهذا تم الكلام على القسم الثاني من السورة، والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث من السورة

روي أنه صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق، وكانت بينه وبينهم إحنة في الجاهلية، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين إليه، فحسبهم مقاتليه، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: قد ارتدّوا، ومنعوا الزكاة، فبعث خالد بن الوليد فوجدهم يصلون، فسلموا إليه الصدقات، ورجع، فنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ أي: بأي نبأ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق، فإنّ من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذي هو نوع منه. والفسوق الخروج من الشيء، يقال فسقت الرطبة عن قشرها، وفي مقلوبها: فقست البيضة، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها، وأيضاً: فقست الشيء، إذا أخرجته من يد مالكه مغتصباً له، ويستعمل في الخروج عن القصد بركوب الكبائر، وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في قراءة أخرى: «فتثبتوا»، والتثبت والتبين متقاربان، وهما طلب البيان، يقول: فتثبتوا كراهة ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ﴾ أي: كراهة إصابتكم قوماً جاهلين بحالهم ﴿فَتُصْبِحُواْ﴾ فتصيروا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ مغتمين غماً لازماً، متمنين أنه لم يقع، فقوله: «فاسق» على هذا هو الوليد بن عقبة، وأنت ترى أن الفسوق خروج عن الحق، وهل كان الوليد كذلك؟ إن الوليد أخطأ في ظنه فليس فاسقاً، فالأولى والأحق أن يراد العموم، أي: أيّ فاسق، والتقييد بالفاسق يدل على قبول خبر الواحد العدل إذ لو توقفنا في خبره لسوينا بينه وبين الفاسق، ولخلا التخصيص من الفائدة. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ المعنى أن فيكم رسول الله على حال يجب تغييرها، وهي أنكم تريدون أن يتبع رأيكم في الحوادث، ولو فعل ذلك لعنتم، أي لوقعتم في العنت، وهو الجهد والهلاك، وكأن هذا يشير إلى الرواية السابقة على ما قيل إن بعض المؤمنين زينوا له صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد، وإن بعضهم كانوا يتصونون، ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك، وهم الذين استثناهم بقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ﴾ فحبهم للإيمان إلى آخره حملهم على ذلك لما سمعوا قول الوليد، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: أولئك المستثنون هم الذين أصابوا الطريق السوي، وعن أبي نضرة، قال: قرأ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾، قال: هذا نبيكم يوحى إليه، وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا فكيف بكم اليوم؟ أخرجه الترمذي وصححه، وقوله: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ﴾ أي: حبب إليكم الإيمان فضلاً الخ؛ مفعول لأجله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز ﴿حَكِيمٌ﴾ يفضل وينعم بالتوفيق على الإفضال. ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ تقاتلوا ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تعدّت عليها ﴿فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ترجع إلى حكمه، أو ما أمر به، ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾

بفصل ما بينهما على ما حكم الله ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ واعدلوا في كل الأمور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ يحمد فعلهم بحسن الجزاء، نزلت في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده صلى الله عليه وسلم بالسعف والنعال، ولما نزلت قرأها صلى الله عليه وسلم، فاصطلحوا وكفّ بعضهم عن بعض، وهذا دلالة أنه يجب معاونة من بغي عليه بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة، وأيضاً الباغي مؤمن وإذا قبض عن الحرب ترك، لأنه فاء إلى أمر الله. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ لأنهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إذا اختلفا واقتتلا، ذلك أن الإيمان قد عقد الأخوة بين المؤمنين، فهي كأخوة النسب أو أحق، وقد جرت العادة أنه إذا حصل مثل ذلك بين الأخوين في النسب فإنهم يجدّون في رفعه بالصلح، فالإخوة في الدين أحق بذلك، ووضع الظاهر موضع المضمر في أخويكم مضافاً إلى المأمورين للمبالغة في التقرير والتخصيص ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة حكمه والإهمال فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على تقواكم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض، إذ قد يكون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر، والقوم مختص بالرجال، وهو جمع قائم كزائر وزور، ويقال أيضاً إنه مصدر نعت به فشاع في الجمع ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: ولا يعب بعضكم بعضاً، فإن المؤمنين كنفس واحدة، ويصح أن يقال: ولا تفعلوا ما تلمزون به، ومن فعل ذلك فكأنّما لمز لنفسه، واللمز: الطعن باللسان. ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ ولا يدع بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختص بلقب السوء عرفاً ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الاسم هنا الذكر، من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم، أو باللؤم، أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم الإيمان واشتهارهم به. يقال إن الآية نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن النساء يقلن لي: يا يهودية بنت يهوديين. فقال لها: هلا قلت إن أبي هارون وعمي موسى وزوجي محمد. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نهي عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث وضعوا العصيان موضع الطاعة. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ كونوا منه على جانب، فليتأمل المؤمن وليحتط حتى يعلم أمن الأمور العملية ذلك الظن فيجب اتباعه أم من حسن الظن بالله فكذلك؟ أم في الإلهيات والنبوات حيث يخالفه الدليل القاطع فيحرم اتباعه، أم هو ظن سوء بالمؤمنين فكذلك؟ أم هو في الأمور المعايشة فيباح. ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: ذنب كالثالث والرابع فيما تقدم ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين من: الجسّ، وفيه معنى الطلب كالتلمس، وفي قراءة بالحاء من: الحسّ، الذي هو أثر الجسّ، كما يقال للحواس الجواس. وفي الحديث: «لا تتبعوا عورات المسلمين، فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته».

يروى أن سلمان الفارسي كان مع رجلين موسرين وهم مسافرون للجهاد، فقالا له يوماً: انطلق فاطلب لنا طعاماً، فانطلق إلى أسامة بن زيد بأمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهو خازن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يجد عنده طعاماً، فأخبرهما، ثم أرسلاه إلى طائفة من الصحابة فلم

يجد، فأخذا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاءا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما؟ قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا لحماً. فقال: ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ولا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته، والغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته، ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ هذا تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض أخيه على أفحش وجه، والمبالغة في الآية ظاهرة في الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى «أحدكم»، وجعل المأكول لحمه أخاً وهذا الأخ ميت، وعن قتادة: كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها كذلك فاكره لحم أخيك وهو حي. ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ أي: إن صح ذلك وعرض عليكم هذا فقد كرهتموه، ولا يمكنكم إنكار كراهته، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما وجد منكم منه، فإذا اتقيتم تقبل الله توبتكم، وأنعم عليكم بثواب المؤمنين التائبين ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ من آدم وحواء فكيف يغتاب بعضكم بعضاً؟ وكيف يسخر بعضكم من بعض وتتنابزون الخ، ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ﴾ الشعب الجمع العظيم المنتسبون إلى أصل واحد، وهو يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر فالبطون، فالأفخاذ، فالفصائل. فخزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، وعباس فصيلة. ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، لا للتفاخر ولا للحرب واللمز والنبز والسخرية، وظن السوء بالأخ في الدين ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فبالتقوى من العلم والأخلاق والأعمال الشريفة تتفاضل النفوس لا بالأنساب، فمن أراد الشرف فليلتمسه منها. قال عليه الصلاة والسلام: «من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق الله». وقال عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس إنّما الناس رجلان: مؤمن تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله». ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ كرم القلوب وتقواها ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ببواطنكم. روي أن نفراً من بني أسد قدموا المدينة في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين وكانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصدقة ويمنون، فنزل: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا ﴾ إذ الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة قلب، ولم يحصل لكم وإلا لما مننتم على الرسول بالإسلام وترك المقاتلة ﴿ وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ فإن الإسلام انقياد ودخول في السلم، وإظهار الشهادتين، وترك المحاربة يشعر به ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي: ولكن قولوا أسلمنا، والحال أنه لم تواطئ قلوبكم ألسنتكم بعد ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بالإخلاص وترك النفاق ﴿ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ ﴾ لا ينقصكم من أجورها ﴿ شَيْئًا ﴾ يقال: لات يليت، إذا نقص ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بالتفضل عليهم ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ لم يشكّوا، يقال: رابه فارتاب. ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في طاعته، والمجاهدة بقسميها تصلح للعبادات المالية والبدنية ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الذين صدقوا في إيمانهم ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي: أتخبرونه بقولكم آمنا ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يخفى

عليه خافية ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي: يعدّون إسلامهم عليك منة وهي النعمة الثقيلة من المنّ ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ أي: بإسلامكم، منصوب على نزع الخافض ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ على ما زعمتم، مع أن الهداية لا تستلزم الاهتداء ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ادّعاء الإيمان، فلله المنة عليكم، وهذه الجملة جواب «إن» ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ما غاب فيهما ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سرّكم وإعلانكم، فكيف يخفى ما في ضمائركم. انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة في مباحث هذه السورة

مباحث هذه السورة قسمان:

قسم بين النبي صلى الله عليه وسلم والأمة، وقسم يخص الأمة.

والثاني تخلية بترك الرذائل، وإما تحلية بالفضائل.

والقسم الأول هو:

(١) لا يقدم المؤمنون على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة.

(٢) التهيب والإجلال له.

(٣) لا يتجاوز صوتهم صوته.

(٤) تكون أصواتهم أخفض من صوته دلالة على الترحيب ومراعاة للأدب.

(٥) لا يخاطبون باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضاً، بل يخاطبونه بالنبي والرسول.

(٦) من خفضوا أصواتهم عند رسول الله، كما كان يفعل عمر وأبو بكر وثابت رضي الله عنهم امتحنت قلوبهم للتقوى، وخلصت بالاختبار كما يمتحن الذهب بالنار ليخرج خالصه.

(٧) بنو العنبر الذين نادوه من وراء الحجرات، وهكذا عيينة بن حصن ومن معه من وفد بني تميم إذ قالوا وقت الظهيرة وهو راقد: يا محمد اخرج إلينا، أكثرهم لا يعقلون.

(٨) الصبر خير لهم حتى تخرج وتكلمهم.

(٩) ذم المنّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان، وأن المن إنّما يكون لله إذا هداهم إلى الإيمان إن صحت لهم الهداية.

وهذه المسائل التسع فتح باب لمعاملة ذوي العلم وخفض الصوت عندهم، واحترامهم لشيوخ العلم والفضلاء في الإسلام.

القسم الثاني في
التخلية بترك الرذائل

(١) لا نسمع كلام الفاسق بل نتثبت لتظهر الحقيقة وإلا وقعنا في فتنة جهلاً، وندمنا غماً.

(٢) نقبل كلام العدل، وهو يوجب الظن لا اليقين.

(٣) إذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة، فامتنعوا عن طاعة الإمام العادل بتأويل محتمل، ونصبوا لهم إماماً، فالحكم فيهم أن يبعث إليهم الإمام ويدعوهم إلى طاعته، فإن أظهروا مظلمة أزالها

عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا على البغي قاتلهم الإمام حتى يفيئوا إلى طاعته، ثم إن هؤلاء لا يتبع مدبرهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا يذفف على جريحهم، أي: لا يجهز عليه. وأتي علي عليه السلام يوم صفين بأسير، فقال: لا أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين. ثم إنه لا ضمان في نفس أو مال على إحدى الطائفتين، فأما إذا كان البغاة فئة قليلة لا منعة لها، أو لم يكن لها تأويل، أو لم ينصبوا إماماً، فلا يتعرض لهم إذا لم ينصبوا قتالاً ولم يتعرضوا للمسلمين، فإن فعلوا ذلك فهم كقطاع الطريق في الحكم، هذا ملخص ما جاء عن الأئمة في قتال الباغين. أما الآية التي نحن بصددها، فالكلام عليها أعم، فليصلح المسلمون بين المتقاتلين قلوا أو كثروا، فإن بغت إحدى الطائفتين، فلتقاتل الباغية، ومتى فاءت فليكن الصلح بالعدل.

(٤) العدل في كل الأمور.

(٥) شوّق الله المسلمين وحضهم على الصلح بين إخوانهم، وحبب إليهم ذلك بذكر الأخوة وتكرارها.

(٦) تقوى الله وعدم مخالفة أحكامه ليرحمهم بتلك التقوى.

(٧) ترك السخرية، فلا يسخر رجل برجل، ولا امرأة بامرأة.

(٨) ربما يكون المسخور منه خيراً من الساخر، كما كان الأنبياء يسخر منهم الجهال ثم يعلونهم كما حصل لنوح عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[هود:٣٨].

(٩) لا يكن لمز من المؤمن للمؤمن، وهو الطعن والضرب باللسان، وإذا عاب المؤمن المؤمن فكأنّما عاب نفسه، وإذا فعل الإنسان ما يستحق به اللمز بأن عرض نفسه لذلك، بسبب الوقوف مواقف التهم مثلاً، فكأنّما لمز نفسه وعابها، وأيضاً إذا عاب الإنسان غيره كان ذلك حاملاً لذلك على عيبه فكأنه عاب نفسه.

(١٠) لا يكن تنابز بالألقاب، فإذا عمل الرجل سيئات ثم تاب عنها، فإن الله نهى أن يعير بما سلف من عمله، وأيضاً لا يقول المؤمن لأخيه: يا فاسق، يا منافق، يا كافر، ويا حمار، ويا خنزير، وهكذا كل ما يكرهه المنادى به، أو يفيد ذماً له، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام: كالأعمش، والأعرج، فلا بأس بها.

(١١) النهي عن ظن السوء بالمسلم مع التكلم به، كما قال سفيان وغيره لم يقيد بذلك، وعن سوء الظن بالله.

(١٢) لا يبحث المسلم عن العيوب المستورة، ولا يتتبع عورات الناس، حتى لا يظهر ما ستره الله. يقال: نظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك.

(١٣) لا يذكر بعض المؤمنين بعضاً بالسوء في غيبته. روي أن عائشة، قالت: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: حسبك من صفية كذا وكذا، أي: قصيرة. فقال: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته، أي خالطته مخالطة يتغير بها طعمه وريحه، لشدة نتنها وقبحها. وقال ميمون بن سيار: بينا أنا

نائم إذا بجيفة زنجي وقائل يقول : كل يا عبد الله . قلت : وما آكل؟ قال : كل بما اغتبت عبد فلان . قلت : والله ما ذكرت فيه خيراً ولا شراً . قال : ولكنك استمعت ورضيت . فكان ميمون لا يغتاب أحداً ، ولا يدع أحداً يغتاب أحداً عنده .

(١٤) تقوى الله في أمر الغيبة ، وفي جميع المنهيات .

هذه هي التخلية عن النقائص المذكورة في هذه السورة ، والحمد لله رب العالمين .

التحلية بالفضائل

(١) إن الناس مخلوقون من ذكر وأنثى ، ثم كانوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، فيكون الناس على هذا كأغصان الشجرة وأوراقها وأزهارها وأثمارها ، فإنها كلها متصلة متحدة مجتمعة على أصل واحد وكما أنه لا فضل لورقة على ورقة في الشجرة ، إلا بما امتازت به ، ولا فضل لزهرة على ورقة ، ولا لثمرة على زهرة إلا بما فضلت به الزهرة وفضلت به الثمرة ، هكذا لا فضل لأحد من الناس على آخر إلا بالتقوى ، فالأتقياء كالأزهار والأثمار ، وغيرهم أقل من ذلك ، يقال : إن ثابت بن قيس لم يفسح له رجل في المجلس ، فقال فيه : ابن فلانة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من الذاكر فلانة؟ قال ثابت : أنا يا رسول الله . قال : انظر في وجوه القوم ، فنظر ، فقال : ما رأيت يا ثابت؟ قال : رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : إنك لا تفضلهم إلا بالدين والتقوى ، فنزلت في ثابت هذه الآية ، ونزل في الذي لم يفسح له : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ ﴾ [المجادلة : ١١] .

(٢) قيل لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذن ، فقال عتاب بن أسيد بن القيص : الحمد لله الذي قبض أبي ولم ير هذا اليوم ، وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ، وقال سهل بن عمرو : إن يكره الله شيئاً يغيره ، وقال أبو سفيان : لا أقول شيئاً ، أخاف أن يخبره رب السماء ، فنزل جبريل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا ، وسألهم عما قالوا فأقرّوا ، فأنزل الله هذه الآية ، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب ، والتكاثر بالأموال ، والإزراء بالفقراء ، لأنهم متساوون في النسب ، فلا تفاخر لبعض على بعض ، لكونهم أبناء رجل واحد وامرأة واحدة ، وفي البخاري لما سئل : أي الناس أكرم؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم ، فلا زالوا يدققون في السؤال حتى قال في العرب : فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا أي تعلموا .

وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه ، فلما خرج لم يجد مناخاً ، فنزل على أيدي الرجال ، ثم قام فخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس ، إن الناس رجلان : برّ تقيّ كريم على الله ، وفاجر شقيّ هين على الله ، ثم تلا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات : ١٣] الخ . ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

قوله « المحجن » : عصا محنية الرأس كالصولجان ، وقوله « عبية الجاهلية » أي كبرها وفخرها . اهـ .

تذييل السورة

اعلم أن ترك الرذائل المذكورة مقدم على التحلية بفضائل الائتلاف، ولذلك قدم في السورة على تعارف بني آدم، فأولاً تعظيم الرسول، وقبول قوله، ثم الآداب العامة بين الناس، ثم يكون اتحادهم بالتعارف وبالبحث والعلم، وهذا هو المقصود الأعظم. ألا تعجب من هذا المقام؟ ألا تعجب كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة وأبناء العرب واقفون؟ انظر إلى هذا تجده رمزاً إلى اتحاد نوع الإنسان كله، كأنه يقول: ليس الإسلام كاليهودية، إن اليهودية جعلت ديناً خاصاً بجنس واحد وهم بنو إسرائيل، أما دين الإسلام فلا أبيض ولا أحمر، ولا عربياً ولا عجمياً، بل الناس فيه سواء.

انظر أيها الذكي للأمم الحاضرة، انظر إلى أمريكا التي مدحت اتحادها لك سابقاً، وذممت الأمم الإسلامية الحاضرة لجهلها وتقاطعها، انظر أليس البيض هناك يحقرون أن يكونوا مع السود في مركبة واحدة في القطار، ذلك لمجرد اللون، انظر كيف سبقونا في العلم والأخلاق، ولكن لا تزال فيهم تلك النقيصة المزرية، وهي اعتبار اللون فارقاً، انظر كيف يؤذن بلال على ظهر الكعبة والعرب الذين هم أهلها واقفون، انظر، إن ذلك ناطق بأن هذا الدين هو الذي سيجمع الأمم جمعاً حقيقياً لا جمعاً صناعياً، فليجدّ النوع الإنساني، فالأمم الإسلامية التي بعدنا ستفهم هذا، وستقرأ كل العلوم والصناعات وتجدّ وتحوز الحكمة، وإذن يقودون أهل الأرض. انظر كيف يقول صلى الله عليه وسلم: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، ولم يقيد التفقه بعلم خاص، يريد إذا علموا كل ما يجب علمه في أحوال الدنيا والآخرة.

ولا جرم أن العرب الذين قال الله فيهم ذلك هم نحن أبناء مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وسوريا واليمن ونجد والحجاز وحضرموت والبحرين والعراق والموصل والسودان، فهؤلاء خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام على شرط العلم الذي لم يقيده إلا بعض الفقهاء بلا حق، فهل نحن الآن خيار الأمم؟ أقول: نعم على شريطة العلم الذي يلزم للأمة في دينها ودنياها، ولكنا الآن لسنا خيار الأمم، لأننا جهلاء، والمخرج من هذا الجهل أن يقوم أهل العلم بحث هذه الأمم المتجاورة على العلم كما شرحته في سورة «آل عمران»، فيدرسون العلم في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية، وإذن يتعارفون، لأنهم تقاطعوا بالجهالة الكتعاء فصاروا أمماً عمياء متفرقة متشاكسة فإذا عرفوا وتعلموا جميع العلوم التي درستها أوروبا واليابان وأمريكا وزادوا عليها، ثم اتحدوا مع إخوانهم الترك والفرس والأفغان، وسائر أمم الإسلام، فإذن يكون خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، وهذا الذي أقوله الآن سيكون بعد نشر هذا التفسير وغيره، وسيعرف أبناء العرب ذلك، ويعملون به قريباً، وسيكون قراء هذا التفسير قائدي تلك الحركة من أمم الإسلام. انتهى صباح يوم الجمعة ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٥م.

لطائف هذه السورة:

اللطيفة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾

اعلم أيها الذكي أن هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع:

في هذا الشهر وهو شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ منذ أيام كنت سائراً إلى جهة المنيل لمجرد الرياضة حيث النسيم عليل، والجو جميل، والدنيا مشرقة، والنيل جار، والأشجار مزهرات، والزروع نضرات إذا بامرأة مريضة، تمشي وهي عرجاء صفراء، قد ازداد ضعفها، ونحل جسمها، فخطر لي أن هذه لا تطلب للزوج، ولا يرغبها الأزواج، وما كان أسرع الخاطر إذ ذاك إلى إرخاء العنان، والخوض في المعمعان، والعروج إلى طرائف المعاني، والوصول إلى درجات المعالي.

هنالك هنالك أخذ العقل يقول: الناس جميعاً في الأرض ممتحنون، لا يطلب الرجل امرأة لزواجها إلا بعد أن يأنس بجمالها، ويرتاح لخلالها، ويسره مرآها، ويروقه مبدؤها ومنتهاها، نعم هذا نوع من الامتحان، امتحان في الجمال، امتحان في الأخلاق، امتحان في القوة الجسمية والقوى العقلية، فالمشوّهة الخلقة، والقبيحة الوجه، والسيئة الخلق، والغبية العقل، لا يرغبها أحد من الرجال إذا أيقنوا بذلك، ولكن النقص فاشٍ، والطيور على أشكالها تقع، والكمال درجات.

فيا عجباً لنظرة فاترة، وخلسة ماضية، أحضرت علماً وحكمة، وأفادت نوراً وفهماً. القبح ذكر بالجمال، والمرض أذكرنا بالصحة والكمال.

خلال ثلاث يجدّ في طلبها الإنسان: خلة الصحة في الجسم، وخلة انتظام الخلق، وخلة الكمال في تفكر العقل. هذه هي الخلال الثلاث اللاتي قدمناها في سورة «الفتح» وكانت من آيات الله في زماننا إذ كانت هذه الثلاث كما قدمنا الفتح العلمي: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾[الفتح: ١] والأخلاق الجميلة ﴿ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾[الفتح: ٢-٣]، ومن مقدمات هذا قوة الأبدان، وهذه الثلاثة هي مقاصد العلم في زماننا كما ترجمته لك من أقوال علماء زماننا.

أفلا تعجب الآن؟ نرى الله يقول لنا في هذه السورة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[الحجرات: ٣] ولا جرم أن هذا الامتحان يرجع إلى علم الأخلاق من حيث تطبيقه عملاً، وهو إحدى الدعائم الثلاث، إذن دعائم الحياة الثلاثة هو ذا الامتحان حصل في أحدها، فالله امتحن قلوب طائفة زمن النبوة، ولا جرم أن امتحان القلوب أغمض من امتحان الأجسام. الحياة كلها امتحان امتحن الله قلوب بعض المؤمنين بالتقوى ليعلمنا الامتحان في الأعمدة الثلاثة، لأنه إذا امتحن فيما أغمض، فالامتحان فيما هو أسهل من باب أولى. وصرّح بالامتحان في سورة أخرى سماها «الممتحنة» فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ ﴾[الممتحنة: ١٠] إذن الله امتحن قلوب قوم بالتقوى، وأمرنا يوماً ما أن نمتحن النساء المهاجرات، فالأعلم يمتحن من هو دونه، والرجل أعلم من المرأة، فهو يمتحنها فيعلم إيمانها.

كل هذه الأوليات الدينية تفتح لنا أبواب الامتحان، فلنمتحن كل شيء في هذه الدنيا، وإذا امتحنا عقل الإنسان فامتحان جسمه وأخلاقه وامتحان كل صغير وكبير في هذا الوجود من باب أولى ومن ترك الاختبار والامتحان، وعاش عالة على المجموع لم يفكر وهو محمول على تفكير غيره وامتحانه فإنّما هو طفل يتيم يربيه المحسنون.

يمتحن الطبيب المريض إما بجسّ نبضه بحاسة اللمس، وإما بسماع عدد الضربات، وشدتها وضعفها بسمعه، وإما بمشاهدة البول في القارورة بحاسة بصره، وبمشاهدة لسانه أنظيف أم عليه طبقة تغشيه، هكذا علينا أن نمتحن ما نباشر من أعمالنا من جميع وجوهه، ومن الطرق المختلفات: من اتكل على غريزته فهو أشبه بالحيوان، والغريزة يجزئها ظاهر الأمور، ألم تر إلى الفراش يرى النار فيتجه إليها فيحترق، وإلى الذباب يقع في العسل فيموت، هكذا غرائزنا إذا وقفنا عندها أخلت بنا في أحرج المواقف وأشد الأزمات، فمن بهره رائع الجمال واغترّ به، أودته جهالته، وأحاطت به خطيئته، وقامت بجهله قيامته، فظواهر الجمال، لا تغني عن دخائل الأعمال، وزخرف الظواهر وزينتها تغرّ الجاهلين، وتقعد بالعاجزين، وتودي بالغافلين، وهاك جوهرة نفيسة، وزهرة جميلة، أختم بها هذا المثل، وهي ما قرأته في كتاب «مسرات الحياة» للورد أفبري المولود سنة ١٨٣١ المتوفى سنة ١٩١٣، تحت عنوان «الرجل الكامل»، قال: ما تلك الصفات التي نتوخاها في الرجل الكامل في هذه الحياة؟ وما هي المزايا التي يتمتع بها العصامي العبقري ويمتاز عمن سواه؟ ثم أجاب قائلاً: هي أولاً: العقل الرزين المصون. ثانياً: العواطف الشريفة كالمروءة، والإحسان، والحبّ العام، والكرم ومكارم الأخلاق. وثالثاً: صدق النظر في قضايا العقل والتثبت في أحكامه. ورابعاً: قوة بدنية تصون هذه الخلال وتحفظها من الزوال، وتساعد على تنفيذها في المجتمع العام، وإذا لم يكن العقل رزيناً صائب الحكم أسرع في حكمه، فكان الخطأ حليفه، والألم نصيبه، وقد أحاطت به المصيبة، وإذا لم تكن العواطف نبيلة، والأخلاق شريفة، والنفس عفيفة، فإن الإنسان يكون عابداً لنفسه، واقفاً عند حسه. جاهلاً حب جنسه، بعيداً عن الأنس به. وإذا لم يكن الجسم حديدياً والأعصاب قوية متينة، فإن عمله يكون ضئيلاً، ونفعه قليلاً، وحرمانه طويلاً، لا يذكي ناراً، ولا يدفع عاراً، ولا ينفع جاراً. وإذا كان القصد نبيلاً، والنية حسنة، ولكن قوة الحكم عاجزة عن إدراك الحقائق، متعثرة الأذيال، غبية عمياء، فإن ضرها يكون أكثر من نفعها، وخطؤها أكثر من الصواب.

قال تكيري: نحن نمدح الرجل فنقول هو عبقري، هو كامل، كيف يكون هذا الكمال؟ أيكون بالشرف أم يكون بالظرف واللطف؟ أم يكون بالشجاعة والإقدام؟ أم يكون بالعقل؟ أم يكون باجتماع هذه الأوصاف كلها فيه؟ وظهور أثرها على يديه، بأسلوب تصحبه الرقة واللطف والشفقة والعطف والحنان، إن الرجل الكامل يجمع ذلك كله ويفوقه هو أندر من الكبريت الأحمر، وأعزّ من بيض الأنوق، هو أبعد مما نظن. إن الملوك يقدرون أن يعطوا الناس ألقاب الشرف، وصفات الإعظام والكمال. ولكنهم لن يتسنى لهم منح نفس الكمال، فهم يمنحون الأقوال فحسب، وكل منا يتسنى له أن يكون كاملاً نبيلاً متى أردنا. انتهت ترجمة تلك القطعة من ذلك الكتاب.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذه القطعة الإنجليزية تشبه نظيرتها في سورة « الفتح »، وغاية الأمر أنها هناك مجملة وهنا أشبه بتفريع عليها، ولكن خطر لي هنا سؤال وهو: إذا كان الامتحان مشروعاً شرعه الله ؛ وقد أمر المسلمين وقتاً ما أن يمتحنوا المهاجرات في حال خاصة، وهو نفسه امتحن قلوب رجال للتقوى، أفلا نفكر نحن في هذه المسألة المشهورة الاجتماعية، وهي أن الزوجين يمتحنان عند الزواج، أهما صحيحان أم مريضان؟ فقلت: هذا حسن، ولكنه بسورة « الممتحنة » أليق، فانتظره هناك في تفسيرها إن شاء الله تعالى. وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾[الحجرات: ٣]، والحمد لله رب العالمين. كتب صباح يوم الخميس ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣١م.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾[الآية: ٩]

إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الآية: ١٣]

وفي هذه اللطيفة أربع مقالات:

المقالة الأولى: في قوله تعالى:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ ﴾

يأمر الله المسلمين أن يصلحوا بين أي طائفتين من المسلمين اقتتلوا، وليكن الصلح بالعدل، فلا يتعصب لمن كان من غير أمته، كما لا يجوز للإنسان أن يشهد لأبيه، أو أخيه، أو لغني، أو لفقير؛ الخ كما تقدم في سورة « النساء ».

فإذا بغت طائفة ولم تقبل الصلح فليقاتلها المسلمون، ومتى رجعت الباغية فليكن الصلح بالعدل، ولم يقتصر على الصلح بين المسلمين، بل جعلهم إخوة، ثم أمر المسلمين بالتقوى، وهذا يعقبه الرحمة العامة، والرحمة هنا في الأرض الأمن والسعادة، والعز والسؤدد، وعظمة الأمم الإسلامية.

هذه يا رب أوامرك، ولقد علمنا علماً يقيناً أن نبينا صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا على هذه الشريطة، ولكن الخلفاء الأمويون والعباسيون لم يتقوا الله في أمر الخلافة وإن كانوا في حكم الرعية غالباً عادلين. عصى المسلمون أمر الله وتعصبوا لقبائلهم وأنسابهم. لم يرض عمر رضي الله عنه أن تساق الخلافة إلى ابنه عبد الله بن عمر، لماذا؟ لأن الأمر شورى بين المسلمين، أما أن يأتي خليفة فيقول: إن الخلافة لابني، فهذا ليس له، بل هو حرام عليه، لأن المسلمين ليسوا قطيع غنم يورثون، فأين الشورى؟ وأين آية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾[الحجرات: ٩] الخ، وآية: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ [الحجرات: ١٠]. ولقد جاء في كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » في صفحة ١٠٦ وما بعدها من الجزء الرابع ما يأتي:

ظهر بنو أمية وتسلطوا واستبدوا ، وآل علي بن أبي طالب يطالبون بالخلافة ، ويسعون في إدراكها ، وأول من طلبها بعد علي ابنه الحسن ، ثم تنازل عنها لمعاوية سنة ٤١ هجرية ، فغضب أشياع العلويين في الكوفة من تنازله وهاجوا ، وأمير الكوفة يومئذ زياد بن أبيه الداهية الشهير ، فشدد في إخماد الثورة ، وقتل جماعة من أشياع علي ، فيهم حجر بن عدي وأصحابه ، فتربص العلويون ينتظرون موت معاوية لعل انتخاب الأمة يقع على واحد من أبناء علي فترجع الخلافة إلى أهل البيت ، ولم يخطر لهم أن يبايع معاوية لابنه ، فلما علموا ببيعته نقموا عليه ، وزادهم نقمة ما علموه من تهتكه وقصفه ، واشتغاله بالصيد عن أمور الخلافة . ومن قول عبد الله بن هشام السلولي في ذلك :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دمـاء بني أميـة مـا روينـا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

وكان أوجه العلويين يومئذ الحسين بن علي ، فلما مات معاوية سنة ٦٠ هجرية وتولى ابنه يزيد أبى الحسين أن يبايعه ، على أن أكثر الذين بايعوه من أهل التقوى عدّوا بيعتهم خرقاً لحرمة الدين ، وكان الحسين في المدينة ، فلما طلبوا منه أن يبايع يزيد فرّ إلى مكة وأكثر شيعته في الكوفة ، فكتبوا إليه وحرضوه على القدوم إليهم لينصروه ، فأطاعهم ، ولما اقترب من الكوفة قعدوا عن نصرته ، وبعث إليه أمير الكوفة يومئذ عبيد الله بن زياد جنداً حاربه ، فدافع عن نفسه وأهله حتى قتل قتلته المشهورة في كربلاء يوم عاشوراء من سنة ٦١ هجرية ، ثم ندم الشيعة على قعودهم عن مناصرته ، فخرجوا بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤ هجرية يطالبون بدمه ، وسموا أنفسهم التوابين ، وأمير الكوفة لا يزال عبيد الله بن زياد ، فأخرجوه منها ، وولوا عليهم رجلاً منهم ، فتغلب ابن زياد عليه ، فنهض المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهو من جملة الذين طمعوا بالسيادة لابتزاز الأموال في أثناء تلك الفوضى واختلال الأحوال ، وكان المختار عالي الهمة ، فجاء الكوفة يطالب بدم الحسين ، ويدعوا إلى بيعة محمد ابن الحنفية أخي الحسين من أبيه ، فتبعه على ذلك جماعة من الشيعة سماهم « شرطة الله » وزحف على ابن زياد فهزمه وقتله ، وقتل أكثر قتلة الحسين ، ولكن محمد ابن الحنفية لم يكن راضياً بتلك الدعوة ، فبعث إلى المختار يتبرأ منه ، فحول المختار دعوته إلى عبد الله بن الزبير ، وكان عبد الله قد نهض عند نهوض الحسين ، لأن أباه الزبير بن العوام كان من جملة الطامعين بالخلافة بعد مقتل عثمان كما تقدم ، وأقام عبد الله في مكة يدعو إلى نفسه ، على أن المختار لم يخلص النية في دعوته لأحد ، لأنه إنّما كان يريدها لنفسه ، فلما علم ابن الزبير بغرضه بعث أخاه مصعباً على العراق فحارب المختار وقتله سنة ٦٧ هجرية . أما الشيعة العلوية فانقسمت بعد مقتل الحسين إلى فرقتين : إحداهما تقول إن الحق بالخلافة لولد علي من فاطمة بنت النبي ، والأخرى تقول بتحولها بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد ابن الحنفية وهي الفرق الكيسانية ، وأكثرهما ظهوراً وتصدياً الفرقة الأولى ، فبايعوا بعد الحسين ابنه علياً المعروف بزين العابدين ، وتسلسلت الخلافة بعده في أعقابه حتى صار الأئمة ١٢ إماماً وهم : علي ، والحسن ، والحسين ، وزين العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد التقي ، وعلي النقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . وتفرّع من

الشيعة العلوية أيضاً فرق أخر بايعت غير واحد من أعقاب علي كالزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين، والإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وفرق أخرى لا محل لذكرها. وكان بنو أمية إذا سمعوا بظهور أحد دعاة العلوية بذلوا جهدهم في قتله، فقتلوا بعضهم وسموا البعض الآخر، وصلبوا آخرين، فأصبح دعاة الشيعة يتسترون خوف الفتك بهم، فلاقى العلويون في أيام بني أمية ضنكاً شديداً، وكادوا يهلكون جوعاً، وأصبح همّ أحدهم قوت عياله، حتى تولى خالد القسري عامل بني أمية المتوفى سنة ١٢٦ هجرية، فأعطاهم الأموال ورفق بهم، فعادوا إلى طلب الخلافة، وخالد هذا غريب الأخلاق، فمع كونه من عمال بني أمية، فقد كان ينصر العلويين، ويستعمل أهل الذمة كما تقدم. انتهى ما أردته من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي»، والحمد لله رب العالمين.

هذه حال المسلمين بعد العصر الأول، فأين الصلح، وأين الحق، وأين الشورى؟ معاوية أمر الناس بالمبايعة بالخلافة لابنه، كيف هذا وأين الشورى؟ تربص العلويون موت معاوية، ولهم الحق، لأن الأمر شورى، ولكنه أمر بمبايعة اليزيد، إذن لا شورى، إذن هو ملك عضوض، إذن القرآن لم يعملوا به، ثم هؤلاء الشيعة العلوية بعد قتل الحسين رضي الله عنه اختلفوا، فالكيسانية ساقوها إلى محمد ابن الحنفية، وغيرهم جعلوها في ولد الحسين رضي الله عنه، حتى صارت الخلافة إلى المهدي ابن حسن العسكري وهم ١٢ إماماً، ثم كانت فرقة الإسماعيلية وغيرهم، وكل طائفة تعتقد أن إمامها معصوم، وهذا ورب العرش هو الارتباك. هذه أمور لا توافق القرآن، بل هي اعتقادات أضرت بالمسلمين.

أيها المسلمون، الشورى بينكم والصلح، أيجوز في ديننا أن نسمع أن طوائف من المسلمين تكفر غيرها لمجرد شبهة؟ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ١٠].

الشيعة العباسية والعلوية

لو كان الأمر شورى بين المسلمين كنص القرآن، وكفعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، أي: لو فعل المسلمون بدليلين يقينيين، وهما نص الكتاب، ودليل الإجماع؛ لم تكن هناك شيعة عباسية وعلوية يطالبان بالملك، بل كان أولو الرأي يجتمعون ويقررون الخلافة لمن حاز صفاتها، ولكن المسلمون هربوا من ذلك خيفة ظهور الحقائق، فالتجؤوا إلى العصبية وأيدوها بالسيف.

ظلم بنو أمية العباسيين والعلويين، وقطعوا رحمهم، فماذا جرى بعد ذلك؟ اتحد الفريقان، ودبروا المكائد، لنيل الخلافة سراً، وهما معاً من بني هاشم أعداء بني أمية من أيام جاهليتهم، وبايع السفاح والمنصور محمد بن عبد الله بن حسن المثنى بن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية لتقدمه عليهم في الفضل، فالأمر إذن شورى بين الرهطين، وهذا حسن جداً، سارت دعوة العباسيين في بلاد الفرس وغيرها وسكت العلويون، لأن العباسيين بايعوهم ومنهم السفاح والمنصور. وأمر إبراهيم الإمام العباسي أبا مسلم الخراساني وهو رئيس شيعتهم أن يقتل كل من يشك فيه، وقتل مروان بن محمد إبراهيم الإمام، فانتقلت الإمامة إلى إخوة الإمام المقتول، والعلويون وأنصارهم لا يعترضون،

لأن عدوهم لا يزال حياً ودولته قائمة، ولما سقطت دولة الأمويين غدر المنصور بالعلويين، وقتلهم تقتيلاً، ومنهم صاحب البيعة محمد بن عبد الله.

اللهم ليس هؤلاء على سنن القرآن، استبد الأمويون بالخلافة، وتركوا الشورى، وحاربهم العباسيون، والأمويون يطاردونهم، ففازوا، فيكون الغدر والقتل، فأين الآية، وأين الشورى، وأين القرآن؟ اللهم إنك عظيم وعلي، أنت تعلم ضعف هذه الأرض، وأنهم ضعاف لم يصلوا إلى الكمال ولذلك حبستهم في هذه الأرض، والمحبوسون قد اعتادت الحكومات أن ترسل لهم قوماً يعظونهم في السجون، ولكن تغلب عليهم طباعهم، فهؤلاء غلبت عليهم طباعهم، ورجعوا إلى الجاهلية في الخلافة، أما في حفظ الدولة فلا.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: هذه أمور عظيمة فحدثني بالتفصيل في هذا المقام، فالإجمال لا يغني عن التفصيل. فقلت: يا صاح إن أردت إلا الإفصاح، فاسمع ما جاء في الجزء الرابع من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» في صفحة ١٠٨ وما بعدها تحت عنوان «الشيعة العباسية» وهذا نصه:

وكان في جملة المطالبين بالخلافة من أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم بنو العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، لكنهم كانوا لا يتصدون لطلبها، والأمويون في إبان دولتهم، وإنّما كانوا يدعون إلى أنفسهم سراً، وكان العلويون والعباسيون في أيام ضيقهم واضطهادهم يتقاربون، لأنهم من بني هاشم، وكلا الرهطين أعداء بني أمية من قبل الإسلام، والمضطهدون يتقاربون في أي حال.

وظل العباسيون يتسترون في دعوتهم وهم مقيمون في الحميمة من أعمال البلقاء بالشام، حتى ضعف شأن بني أمية، فهموا بالنهوض، واتفق في أثناء ذلك أن الفرقة الكيسانية دعاة ابن الحنفية صارت دعوتها بعده إلى ابنه أبي هاشم، وكان أبو هاشم هذا يفد على خلفاء بني أمية من المدينة إلى الشام، فيمر في أثناء الطريق بالحميمة، ففي بعض وفداته على هشام بن عبد الملك آنس هشام منه فصاحة وقوة ورئاسة مع علمه بطمعه في الخلافة، فخافه، فدسّ إليه في أثناء رجوعه إلى المدينة رجلاً سمّه في لبن، فشعر أبو هاشم بالسم وهو في بعض الطريق، فعرج إلى الحميمة، وصاحب الدعوة العباسية يومئذ محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فنزل عنده، ولما أحس بدنو الأجل خاف ضياع البيعة وهو بعيد عن أهله، فأوصى إلى محمد المذكور بالخلافة بعده، وكان معه جماعة من شيعته سلمهم إليه وأوصاه بهم، فلما مات أبو هاشم تهوّس محمد بالخلافة وأيقن بالنجاح، لأنه اكتسب حزب الكيسانية جميعاً فأخذ في بثّ الدعاة سراً، ثم توفي وقد أوصى بالخلافة بعده إلى ابنه إبراهيم وعرف بالإمام، فأخذ إبراهيم الإمام في بث دعاته، وبدأ بخراسان لوثوقه بأهلها أكثر من سائر أهل الأمصار، ولأن الشيعة الكيسانية أكثرهم في خراسان والعراق وقد نصروا العلويين مراراً، فبعث إليهم دعاة الكيسانية الذين كانوا مع أبي هاشم، وأوصاهم أن يطلبوا بيعة الناس باسم «آل محمد» أي أهل النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يعين العلويين ولا العباسيين، وكان الخراسانيون قد ملوا الدولة الأموية، فهان عليهم أن يبايعوا لآل محمد، وهم يحسبون الأمر يكون مشتركاً بين العباسيين والعلويين، وتوفق إبراهيم الإمام في أثناء ذلك إلى أبي مسلم الخراساني القائد العجيب، فأتم أمرهم وسلم لهم الدولة كما هو مشهور.

بيعة المنصور للعلوية ونكثه

وكان بنو هاشم العلويون والعباسيون لما رأوا اختلال أمر بني أمية اجتمعوا بمكة وفيهم أعيان بني هاشم علويهم وعباسيهم، وتداولوا في قرب انحلال دولة الأمويين، وفي من يخلفهم من آل البيت، وكان في جملة الحضور أبو العباس السفاح، وأخوه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وهو أبو جعفر المنصور، وغيرهما من آل العباس، فأجمع رأيهم على مبايعة أوجه العلويين يومئذ وهو محمد بن عبد الله بن حسن المثنى ابن الحسن بن علي الملقب بالنفس الزكية، فبايعوه لتقدمه فيهم، ولما علموه له من الفضل عليهم، وبايعه أبو جعفر المنصور في جملتهم، ولعل هذه المبايعة هي التي أسكتت العلويين عن طلب الخلافة في أثناء انتشار دعاة العباسيين في طلبها، كأنهم اتفقوا أن تكون الخلافة مشتركة في أهل البيت، لأن العباسيين كانوا يطلبون بيعة الناس باسم «آل محمد»، وليس باسم الإمام إبراهيم أو غيره من بني العباس.

أما دعاة الشيعة العلوية الذين كانوا يدعون للعلويين في العراق وفارس وخراسان قبل انتقال البيعة إلى العباسيين فقد رضوا بذلك الانتقال غير مخيرين، وفي جملتهم أبو سلمة الخلال المثري الفارسي الشهير، وكان يقيم في حمام أعين بضواحي الكوفة، وكان شديد التمسك بدعوة العلويين، وقد بذل ماله وجاهه في سبيل نشرها، فلما سمع بانتقال البيعة إلى بني العباس كظم وتربص ليرى ما يقول الناس، ثم علم أن إبراهيم الإمام عين أبا مسلم وأرسله إلى خراسان ومعه الوصية المشهورة: من اتهمته فاقتله، وقد أطاعه النقباء فأطاعه أبو سلمة في جملتهم، وهو يتوقع أن تكون البيعة شورى بين الشيعتين، ولما بلغه أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قتل إبراهيم الإمام؛ أضمر الرجوع إلى الدعوة العلوية، ثم جاءه إخوة الإمام، وفيهم أبو العباس السفاح وإخوته وسائر أهل بيته، وقد انتقلت البيعة إلى أبي العباس المذكور، فأنزلهم أبو سلمة عنده، ورأى نفسه عاجزاً عن نقل البيعة، فسكت، فبقيت لآل العباس، وكان أبو مسلم وسائر النقباء والقواد يحاربون عساكر الأمويين في خراسان وفارس والعراق، فلما غلبوهم وملكوا خراسان وما يليها جاؤوا العراق وبايعوا أبا العباس، فسكت العلويون خوفاً على أنفسهم من ذلك التيار العظيم، وهم يتوقعون مع ذلك أن تكون الخلافة شورى بين الرهطين، وعلم العباسيون بما كان يضمره أبو سلمة من نقل الخلافة إلى العلويين، فشكوه إلى أبي مسلم سراً، فدسّ إليه رجلاً قتله بالكوفة غيلة، وأشاعوا أن بعض الخوارج قتله، وقد قتلوا كثيرين غيره ممن شكّوا في إخلاصهم حتى تم الأمر لهم.

أما آل الحسن بن علي الذين كانوا قد بايعوا أحدهم محمد بن عبد الله في المدينة، وبايعه معهم سائر بني هاشم، ومنهم أبو جعفر المنصور، فلما علموا بذهاب دولة بني أمية ومبايعة أبي العباس السفاح سنة ١٣٢ جاؤوا إليه في الكوفة يطالبونه ببيعتهم، فاسترضاهم أبو العباس بالأموال، وقطع لهم القطائع، وكان في جملة القادمين إليه عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة، فأكرم السفاح وفادته، وعرض عليه ما يرضاه من المال، وقال له: احتكم علي، فقال عبد الله بألف ألف درهم فإني لم أرها قط، ولم يكن هذا المال موجوداً عند السفاح، فاستقرضه له من رجل صيرفي اسمه ابن أبي

مقرن ودفعه إليه، واتفق وعبد الله المذكور عند السفاح أن بعض الناس جاءه بالجواهر التي كانت عساكر العباسيين قد اغتنمتها من مروان بن محمد، فجعل السفاح يقلب الجواهر بين يديه وعبد الله ينظر إليها ويبكي، فسأله عن السبب، فقال: هذا عند بنات مروان، وما رأت بنات عمك مثله قط. فحباه به، ثم أمر الصيرفي أن يبتاعه منه، فابتاعه بثمانين ألف دينار «نحو مليون درهم»، وأمر أبو العباس بإكرام عبد الله وإنزاله على الرحب والسعة، وهو يتوجس مما في ضميره، فبثّ عليه العيون، فآنس عنده طمعاً، فزاده عطاء، فعاد عبد الله إلى المدينة مثقلاً بالأموال، ففرقها في أهله، وكانوا أهل فاقة، فلما رأوا تلك الأموال سرّوا.

وأما عبد الله فما زال مضمراً المطالبة بالخلافة لابنه على ما تمت المبايعة عليه، والعباسيون يخافون ذلك، والسفاح يسترضيه وسائر أهله بالأموال كما رأيت، فلما توفي السفاح سنة ١٣٦ هجرية خلفه أخوه أبو جعفر المنصور، وكان رجلاً شديد البطش لا يبالي بما يرتكبه في سبيل تأييد سلطانه، فكان همه قبل كل شيء أن يتحقق ما في نفس بني الحسن في المدينة، لأن لهم في عنقه بيعة، فبثّ عليهم العيون، وأراد اختبارهم، فبعث بعطاء أهل المدينة على جاري العادة من قبل، وكتب إلى عامله فيها: أعط الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحد بعطائه، وتفقد بني هاشم ومن تخلف منهم عن الحضور، وتحفظ بمحمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن. ففعل العامل ذلك، فلم يتخلف عن العطاء إلا محمد وإبراهيم المذكوران، فكتب إليه بذلك، فتحقق المنصور أنهما ينويان القيام عليه، وقد سكتا في أثناء خلافة أخيه، لأنه كان يكرمهما، ويغدق الأموال عليهما، والمنصور لا يرى ذلك، فلما رأوا تضييقه عزموا على الخروج، فبثوا الدعاة في خراسان وغيرها يدعون شيعتهم إلى بيعتهم، فعلم أبو جعفر بذلك، فبعث من يقبض على كتبهم في الطريق، واحتال في استطلاع أسرارهم، وأراد استقدام ابني عبد الله، وكتب إليه يستقدمه بهما، فأنكر عبد الله أنه يعرف مقرّهما، فأصبح همّ المنصور التخلص منهما ومن سائر طلاب الخلافة من العلويين، وخصوصاً بني الحسن وهم يقيمون في المدينة، فبعث إلى عامله فيها أن يقبض عليهم جميعاً، ثم أمره أن ينقلهم إلى العراق فنقلهم وهم مثقلون بالقيود، والأغلال في أرجلهم وأعناقهم، وقد حملهم على محامل بغير وطاء، ولكن ليس فيهم محمد ولا إبراهيم ابنا عبد الله لاستتارهما، فجاؤوا ببني الحسن وعدتهم بضعة عشرة رجلاً، فأمر المنصور بقتلهم فقتلوا إلا بضعة قليلة. أما محمد بن عبد الله صاحب البيعة، فلم يقع في الفخ، فبعث المنصور إلى عامله في المدينة يشدد في طلبه، فلم ير محمد بداً من القيام، فظهر بالدعوة، فبايعه أهل المدينة بعد أن استفتوا إمامهم مالك بن أنس، فأفتاهم بالخروج معه. فقالوا: إن في أعناقنا بيعة لأبي جعفر. فقال: إنكم بايعتموه مكرهين، وإن بيعة محمد بن عبد الله أصح منها، لأنها انعقدت قبلها.

وكان أبو حنيفة أيضاً على هذا الرأي يقول بفضل محمد هذا ويحتج إلى حقه، فحفظ لهما المنصور هذا القول، فتأدت إليهما المحنة بسبب ذلك، فلما تمكن من محمد وقتله سنة ١٤٥ هجرية أصبح من أكبر المضطهدين لهما، فضرب مالكاً على الفتيا في طلاق المكره، وحبس أبا حنيفة على القضاء كما هو مشهور.

وكان لنكث المنصور ببيعة محمد بن عبد الله تأثير عظيم في أذهان العلويين، لأنها جاءتهم بغتة، وكانوا يظنون ذلك لا يصدر من أهل البيت، كما صدر من بني أمية، فتحسروا على أيام بني أمية وتمنوا رجوعها.

ذكروا عن محمد بن عبد الله في أثناء قيامه أنه سمع شاعراً يرثي بني أمية، فبكى فقال له عمه: أتبكي على بني أمية وأنت تريد ببني العباس ما تريد. فقال له: يا عم لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفاً لله منهم، وإن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم، ولقد كان للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبي جعفر.

سياسة العباسيين في تأييد سلطتهم

القتل على التهمة

قد رأيت فيما تقدم أن بني العباس قاموا يدعون إلى أنفسهم وهم بين خطرين عظيمين:

الأول أن يحاربوا بني أمية ويتغلبوا على أحزابهم.

والثاني أن يأمنوا جانب العلويين في مسابقتهم إلى الخلافة.

وكانت الحوادث قد علمتهم أن الدولة لا تقوم بالدين والتقوى فقط كما قامت في عصر الراشدين، وكما أرادها بنو علي، وأن العلويين إنّما عجزوا عن نيلها لاعتمادهم في دعوتهم على شرف نسبهم، وصدق تدينهم، وأن معاوية لم يغلب إلا بالدهاء والحيلة، وأن عبد الملك لم يستطع استبقاءها إلا بالفتك وشدة البطش، فلما انتقلت البيعة من العلويين إلى العباسيين بمبايعة أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية لمحمد بن علي العباسي كما تقدم، ثم أفضت بعده إلى ابنه إبراهيم الإمام، وتوفق هذا إلى أبي مسلم الخراساني، ورأى فيه الشدة والدهاء جعله قائداً على نقبائه ودعاته، وأوصاه وصية هي محور سياسة العباسيين في تأييد دولتهم هذا نصها:

إنك رجل منا أهل بيت، احفظ وصيتي، انظر إلى هذا الحي من اليمن، فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله.

فخرج أبو مسلم من عند الإمام إبراهيم بهذه الوصية، وقد عمل بها، وعول عليها، فكان يقتل كل من اتهمه، أو شك فيه، فبلغ عدد الذين قتلهم في سبيل هذه الدعوة ٦٠٠,٠٠٠ نفس قتلوا صبراً بدون حرب في بضع سنين، وفي جملتهم جماعة من كبار الشيعة، وفيهم غير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة كأبي سلمة الخلال الذي نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم بسيفه، وكان يقال له وزير آل محمد، كما يقال لأبي مسلم أمير آل محمد، فحالما استشار السفاح أبا مسلم بشأنه، واتهمه بنقل الخلافة إلى العلويين أشار أبا مسلم بقتله، فقتلوه، وقتلوا عماله على الأطراف، وفعل نحو ذلك أيضاً بسلمان بن كثير، وهو من أكبر دعاة الدولة العباسية قبله، وكان شيخاً جليلاً لم يدخر وسعاً في نصرة تلك الدعوة، فبعد قتل أبي سلمة بلغ أبا مسلم عنه ما بلغه عن أبي سلمة، فأحضره إليه

وقال له: أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم. قال: فإني قد اتهمتك، فخاف سليمان وقال: أناشدك الله. قال: لا تناشدني فأنت منطو على غش الإمام، وأمر بضرب عنقه. ناهيك بمن قتلهم من غير الشيعة وفيهم الأمراء والقواد، قتل بعضهم بالحيلة والبعض الآخر بالغدر، ومنهم الكرماني وأولاده وكبار رجاله وغيرهم بشر كثير، حتى سئم الناس فعله وملوا سفك الدماء، وأصبح المسلمون حتى رجاله لا يدعى أحدهم إلى مقابلته إلا أوصى وتكفن وتحنط، وثار من ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس، وصاح في رجاله: ما على هذا اتبعنا آل محمد، أن تسفك الدماء وأن يعمل بغير الحق. فتبعه على رأيه أكثر من ٣٠,٠٠٠ رجل، فوجه إليهم أبو مسلم جنداً قاتلهم وقتلهم.

المنصور والدولة العباسية

فبهذا وأمثاله مهد أبو مسلم الخلافة لبني العباس، فساعدهم أولاً على إخراجها من بني أمية إلى أهل البيت، ولم يكتف ببيعة العباس، وقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولكنه حرضهم على قتل من بقي من بني أمية بالإغراء أو التخويف على ألسنة الشعراء، ويقال إنه هو الذي أوعز إلى سديف الشاعر مولى بني هاشم أن يقول ذلك الشعر في مجلس السفاح وفيه سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان السفاح قد أمنه وأكرمه وأمن سائر بني أمية، فيقال إن سديفاً دخل يوماً على السفاح وعنده سليمان بن هشام، فأنشد سديف قوله:

لا يغرنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أمويا

فتأثر السفاح وأمر بسليمان فقتل، ودخل شاعر آخر، فقال شعراً آخر، وكان عند السفاح نحو سبعين من رجال بني أمية، فقتلهم، وبسطوا النطوع على جثثهم، فأكلوا الطعام وهم يسمعون أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

وقيل في كيفية قتلهم غير ذلك، وأن الذي قتلهم عبد الله بن علي عم السفاح، وهو مشهور بكرهه لبني أمية، وشدة نقمته عليهم، ولكن لا خلاف في أنهم قتلوا غدراً سنة ١٣٢ هجرية وهم آمنون، كما قتل الأمراء المماليك بمصر في أوائل القرن الماضي. والغالب أن أبا مسلم أوعز إلى العباسيين بقتلهم لئلا يقفوا في سبيل دولتهم، فأشار إلى سديف أن يحرضهم على ذلك بشعره، ولم يقل سديف ذلك حباً ببني العباس بل كرهاً لبني أمية، وانتقاماً لآل علي، لأنه من الشيعة العلوية، وهو يظن الخلافة شورى بين الشيعتين، فلما رأى المنصور استقلّ بها بعد ذلك نقم على العباسيين، وهجاهم بأشعار بلغ خبرها المنصور، فكتب إلى عامله أن يأخذ سديفاً فيدفنه حياً، ففعل.

وبعد أن قتل العباسيون من كان في قبضتهم من الأمويين عمدوا إلى استئصال شأفتهم من سائر البلاد، ولم ينج منهم إلا قليلون، أهمهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، ففر إلى الغرب، وأسس دولة بني أمية بالأندلس كما سيأتي، وتولى استئصال شأفة الأمويين من بني العباس عبد الله ابن علي، فبالغ في ذلك حتى نبش قبورهم، ومثل بجثثهم، انتقاماً لما فعلوه قبلاً بالأئمة من آل علي،

وخصوصاً زيد بن زين العابدين، فاستخرج جثة هشام بن عبد الملك من قبره، وهو لم يبل، فضربه ثمانين سوطاً ثم أحرقه.

وبعد أن تخلص المنصور من الأمويين لم يدخر أبو مسلم وسعاً في تخليص الدولة من أقربائه آل العباس أنفسهم، وفي جملتهم عبد الله بن علي المتقدم ذكره، وقد طمع بالخلافة، فحاربه بأمر المنصور، وغلبه، وقبض على ما في عسكره من الغنائم والأسلحة، فأراد المنصور أن يوجه همه إلى بني الحسن منافسيه في الخلافة، فاشتغل خاطره بأبي مسلم، وأصبح خائفاً منه على سلطانه بعد ما بلغ إليه من النفوذ والشهرة والدالة، ولم يكن همه إلا قتله ليتفرغ للعلويين، فاتهمه بأنه ينوي إخراج الملك منهم، فاستحق القتل عملاً بوصية الإمام. وكان المنصور قد خاف أبا مسلم وعزم على قتله من عهد خلافة أخيه أبي العباس، ولكن أبا العباس لم يرد الإقدام على ذلك، فلما مات السفاح وخلفه المنصور صمم على قتله، ولكنه استخدمه في حرب عمه عبد الله بن علي، فضرب عدويه أحدهما بالآخر، فأيهما قتل صاحبه انفرد فيسهل على المنصور قتله، فلما فرغ أبو مسلم من حرب عبد الله بن علي احتال المنصور في استقدامه إليه من خراسان في حديث طويل، وأدخله عليه دخول الزائر الأمين، وقد أكمن له أناساً بالسلاح وراء الستر، فأخذ سيفه منه وحادثه، وتدرّج من العتاب إلى التوبيخ، حتى إذا أزفت الساعة صفق المنصور، فخرج الكامنون بأسلحتهم وقتلوه سنة ١٣٧ هجرية، فأمر به فلفوه بالبساط، ثم دعا بعض رجال خاصته، وشاورهم في قتله، ولم يقل لهم إنه قتله، فقال له أحدهم: إن كنت قد أخذت من رأسه شعرة فاقتله ثم اقتله. فأشار المنصور إلى البساط، فلما رأى أبا مسلم فيه وتحقق موته قال: عدّ هذا اليوم أول يوم من خلافتك.

ولما فرغ المنصور من أبي مسلم لبث يتوقع ما يبدو من رجاله الخراسانية لعلمه أنه ارتكب بقتله خطراً عظيماً، فما عتم أن ثار عليه جماعة منهم يعرفون بالراوندية، وكادوا يفتكون به لو لم يدافع عنه معن بن زائدة. فقتل الراوندية جميعاً، ولكنه أصبح لا يأمن على نفسه من مثل هذه الثورة، فبنى مدينة بغداد بشكل حصين يقيه غائلة ذلك عند الحاجة، ثم عمد إلى تخليص الخلافة من آل علي، فحارب محمد بن عبد الله وقتله. ثم رأى من آل العباس من ينازعه عليها منهم عمه عبد الله وكان أبو مسلم قد غلبه، ولكنه لم يتمكن من قتله، فاحتال المنصور في استقدامه بأمان بعثه إليه مع ولديه، فجاء فحبسه عنده. ثم علم سراً أن ابن عمه عيسى بن موسى ينوي الخروج عن طاعته، وكان والياً على الكوفة. فتجاهل وبعث إليه، وقد دبر أمراً كتمه عن رجال بطانته، فلما جاء عيسى استقبله المنصور بالترحاب والإكرام، ثم أخرج من كان في حضرته من الحاشية واستبقاه وحده وأقبل عليه، وقال: يا ابن العم إني مطلعك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي؟ فقال له عيسى: أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه. فقال المنصور: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه، وفي قتله صلاح ملكنا فخذه إليك واقتله سراً. فأطاعه عيسى فسلم إليه عمه فمضى به إلى الكوفة.

وأضمر المنصور أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص وسلمه إلى أعمامه إخوة عبد الله ليقتلوه به فيكون قد استراح من الاثنين معاً. أما عيسى فكأنه شك في نية المنصور، والناس يومئذ يتهم بعضهم بعضاً خوفاً من وصية الإمام، فاستشار بعض ذوي مشورته، فحذروه من عاقبة ذلك فحبس عمه ولم يقتله. ولما طلبه المنصور منه دفعه إليه حياً فقتله في بيت جعل أساسه على الملح.

وأمثلة ما أتاه المنصور من الدهاء والفتك في تأسيس دولته كثيرة. وكان يعطي الأمان ثم ينكث كما رأيت فعله بعمه عبد الله وكما فعل بابن هبيرة عامل بني أمية على واسط لما بويع السفاح، وأرسل أخاه المنصور لمحاربته، فجرت السفراء بينهما واتفقا على أن يدخل ابن هبيرة في أمان بني العباس، فكتب له العباس أماناً ظل ابن هبيرة أربعين ليلة وهو يشاور فيه العلماء حتى تحقق صحته ورضي به، فبعثه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس فأمره بإمضائه. وكان رأي أبي جعفر في بادئ الأمر أن يفي بما أعطاه، ولكن أبا مسلم ـ وكان لا يزال حياً ـ أشار على السفاح أن يقتله قائلاً: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد. لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. فبعد أن جاء ابن هبيرة إلى أبي جعفر مستأمناً غدر به وقتله، لأنه اتهمه، ثم اتهم أبا مسلم وقتله بعد أن أمنه كما رأيت، وشاع نكث الأمان والغدر عن المنصور وتحدث به الناس. فلما قام محمد بن عبد الله العلوي في المدينة خافه المنصور كما تقدم، فبعث إليه يعرض عليه الأمان ويعده خيراً، فأجابه محمد: أي أمان تعطيني؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله؟ أم أمان أبي مسلم؟.

وظل المنصور وأبو مسلم قدوة لمن جاء بعدهما بالدهاء والفتك. على أنهم لم يكونوا يبطشون أو يفتكون إلا في من نازعهم على الخلافة، فهذا يقتلونه على الشك. أما أحكامهم فيما خلا ذلك ففي نهاية العدل والرفق كما سيأتي. أما من كان في نفسه مطمع في الخلافة أو ما يتعلق بها فحكمه حكم المجرمين، فكل من يطلب الخلافة لنفسه أو يسعى فيها لأحد كانت حياته في خطر، فإذا دعي للمثول بين يدي الخليفة اغتسل وتحنط استعداداً للموت.

وكان المنصور أيضاً قدوة لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس، وقد فرّ من العراق فالشام إلى المغرب خوفاً من القتل، فنصره رجاله، وخصوصاً مولى له اسمه بدر، سعى في تأييد سلطانه مثل سعي أبي مسلم في الدولة العباسية، فلما استتب له الأمر سلبه كل نعمة وسجنه، ثم أقصاه حتى مات، وفعل نحو ذلك في رؤساء الأحزاب الذين نصروه، وسيأتي الكلام على ذلك.

واشتهر فتك العباسيين بالذين ينصرونهم في تأييد دولتهم، حتى صار الخلفاء أنفسهم يشيرون إلى ذلك إذا أعوزهم الاستدلال به. فالأمين لما رأى طاهر بن الحسين يتفانى في نصرة أخيه المأمون وقد تولى قيادة جند الخراسانيين وغلب على جند الأمين وكاد يذهب بدولته؛ كتب الأمين إليه: بسم الله الرحمن الرحيم، اعلم أنه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف، فانظر لنفسك أو دع. وفي الواقع إن المأمون لما استتب له الأمر في الخلافة بسيف طاهر المذكور عمل على قتله بحجة مثل حجة المنصور بقتل أبي مسلم، فأهدى له خادماً كان رباه وأمره أن يسمه ففعل. اهـ ما أردته من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي»، والحمد لله رب العالمين.

فانظر أعزّك الله أيها الذكي في هذه الأمم الإسلامية، وكيف:

(١) يأمر هشام بن عبد الملك سراً بقتل أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية الذي تدعو له الفرقة الكيسانية.

(٢) ثم إن أبا هاشم لما أحس بالموت أوصى بالخلافة لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس.

(٣) ولما تولى ابنه إبراهيم الإمام أصبح ما كان يأمر به كأنه كتاب منزل، وكيف يأمر أبا مسلم بقتل كل من يتردد فيه، وكيف يقتل ٦٠٠.٠٠٠ غدراً في منازلهم وفي طرقهم، والله حرم القتل. فهل يباح القتل لأجل الملك؟ فأين الشورى؟ وأين آية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾[الحجرات: ٩] الخ.

(٤) وكيف بايع العباسيون باسم آل محمد، ثم استبدّوا بالملك وقتلوا العلويين، بأي كتاب؟ أم بأية سنة؟ وبأي عقل؟.

(٥) وكيف يقتل أبو سلمة الخلال المثري الشهير غدراً وظلماً المتمسك بالعلويين؟.

(٦) وهاهنا أمر عظيم حلّ بالأمة، هذا عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء إلى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه، فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم، وفي نفس الوقت حضرت جواهر نهبها عسكر العباسيين من مروان بن محمد، فلما رآها عبد الله أخذ ينظر إليها ويبكي إلى آخر ما تقدم من أنه بكى لأن هذا كان عند بنات مروان، وما رأت بنات عمك مثله قط، وأعطاه تلك الجواهر. هذه الحكاية وحدها إن صحت تدل على تغير الأخلاق في بعض آل البيت، ذلك لأن عصر النبوة كان عصر زهد! فما هذا البكاء، وما هذا التحيب؟ إن أخلاق الأمة إذ ذاك تغيرت، لأن الأمة نسيت أخلاق النبوة، وأنس الناس بالترف والنعيم، وبيت النبوة الذي هو النور المشرق في الأمة أيضاً أحاطت ببعض حجراته الظلمة، النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلي وغيرهم يحقرون المال، وفاطمة رضي الله عنها تطحن على الرحى، ثم إنا نسمع أن عبد الله يبكي للجواهر ويفرح بالمال، ذلك تغير عظيم في أخلاق الأمة حتى سرى إلى بعض رجال بيت النبوة، تغيرت أخلاق الأمة، فبعد أن كان الخليفة حارساً لأموال الأمة كعمر رضي الله عنه أصبح مترفاً منعماً كالعباسيين والأمويين، واشرأبت لهذا أعناق العلويين. هذا كله لأن الخلافة بعد أن كانت عفيفة عن مال الأمة أصبحت شرهة على مالها، وطلبت لذلك، وكل من وصل إليها اعتبرها غنيمة له، وما أقبح هذا الجهل بأمة الإسلام!.

(٧) ثم كيف نرى أبا جعفر يبعث في طلب بني الحسن الذين كانوا نصراءه بالأمس، وكيف يقتلهم جميعاً بعد أن أحضرهم مثقلين بالقيود والأغلال. وكيف يضرب مالكاً على فتواه في طلاق المكره. وكيف حبس أبا حنيفة. ذلك لأنهما أفتيا بأن بيعة محمد بن عبد الله صحيحة ولا بيعة للمنصور، ثم كيف يقتل من كان هو مبايعاً له بالأمس من آل بيت النبوة.

(٨) اللهم إنك أنت المهيمن العليم الحكيم، أمر إبراهيم الإمام بإذلال العرب على يد أبي مسلم الخراساني، فقتل منهم مئات الألوف في منازلهم، فحرمه الله الملك إذ قتله الأمويون، تولى أخوه السفاح بعده فلم يشفق على بني أمية لما تم له النصر، وأهلك القوم فلم يدم له الملك، ومات ولا ذكر

لعقبه. فتولى أبو جعفر المنصور، فأوقع بالطائفتين العلويين من ناحية وأقاربه العباسيين من جهة أخرى، وقتل أبا مسلم. كل ذلك مخالف للقرآن والعقل، وتولى الخلافة ذريته فلم تطل المدة حتى رأينا ما يأتي:

(٩) اختلف الأمين والمأمون، ولكل أنصار، فأنصار الأول العرب، لأن أمه زبيدة حفيدة المنصور. وأنصار الثاني الفرس، لأن أمه فارسية، وكان في خراسان بين أخواله وشيعته، فنصره الخراسانيون كما نصروا أجداده.

إن الفرس هم الذين أقاموا هذه الدولة، ولهذا حقروا العرب بعد أن كان بنو أمية رافعي شأنهم وهاهنا زاد امتهان العرب، فالدولة عربية ظاهراً فارسية حقيقة، فلما مات المأمون سنة ٢١٨ تولى الخلافة أخوه المعتصم، وأمه تركية من بلاد السغد في تركستان، فشبّ محباً للأتراك، وصار لا يأتمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين، وهي أول مظاهر جرأتهم على الخلفاء، ولم يكن له ثقة بجند العرب، لأن العباسيين أذلوهم فضعفوا واستكانوا، ومن المدهش أن أخاه المأمون أوصاه بمحاربة العرب، ولذلك منعوا من أعمال الدولة، وآخر عربي تولى عملاً عنبسة بن إسحاق الضبي سنة ٢٣٨ هجرية، ولقد أراد المعتصم كما زهد في رجال العرب أن يزهد في بلادهم، فبنى سامرا بالقرب من بغداد، وأقام فيها جنده، وأنشأ فيها كعبة، وجعل حولها طوافاً، واتخذ منى وعرفات، غرّ بذلك أمراء كانوا معه لما طلبوا الحج خشية أن يفارقوه، فصار بذلك لفظ عربي مرادفاً لأحقر الأوصاف عندهم.

ومن قولهم: العرب بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه. وقولهم: لا يصلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبي ينصره الله به. وأصبح الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولة من الفرس والترك والديلم وغيرهم، وصار الخلفاء يؤيدون مناصبهم بالأجناد وبذل المال، وقلت العناية بالعرب وأحزابهم، وهذا سرّ، إنك تسمع ابن طولون والإخشيد والمماليك البرية والبحرية كانوا يحكمون مصر، وتلك هي السنة التي سنها العباسيون من التجائهم إلى غير العرب وانحيازهم إليهم، ناهيك ما فعله المنصور، إذ أمر رجاله أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة، تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم، أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم، وأن يكون اللباس الأسود عاماً فيهم، وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الأمويين، فلا بد للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها «السواد» تغطي سائر ألبستهم، وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٣٧]، وبعث إلى عماله في سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك.

نتيجة أعمال الأمويين والعباسيين في الإسلام

نحن الآن أيها الذكي لم نكتب هذا حباً في التاريخ، إن التاريخ لا معنى له إلا الاعتبار والذكرى والتأسي، والله يقول: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾[الأعراف: ١٠٠-١٠١] الآيات.

الله أكبر: نحن الآن في تفسير آية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩] الآيات التي تأمر بالصلح أولاً والإخاء ثانياً، ولكنا لما قرأنا تاريخ أسلافنا، ألفيناهم بعد العصر الأول هجروا الشورى بتاتاً، ورجعوا إلى عادة الجاهلية الأولى ملطفة بالإسلام. فلما فعلوا ذلك أخذوا يتخذون غير العرب لإذلال العرب.

الله أكبر، إن الغنم بالغرم، أذل العباسيون العرب، لماذا؟ لأجل الخلافة، ولم ذلك؟ لأن الخلافة تعطيهم الحرية في الأموال والدولة، ولكنها لو كانت تلك الخلافة خلافة صادقة بحيث لا يتصرف الخليفة في مال ولا في حال إلا بالشورى؛ لم يتناحروا ولم يتقاتلوا عليها، ولم يبكِ عبد الله من ذرية الحسن رضي الله عنه أمام السفاح لأجل الجواهر والمال، لبس العباسيون ملابس الفرس، هجروا العرب، أمر المعتصم بألا يأخذوا من العطاء، فماذا جرى؟ أصبح أولئك الخلفاء تحت إمرة الفرس تارة والترك أخرى، فقتلوا من الملوك العباسيين ٣٨ من ٥٩ خليفة، وبعضهم سملوا عينيه، وأصبح يسأل الناس على أبواب المساجد. اقرأ هذا المقام موضحا في سورة «الأحقاف» عند آية: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، فهناك ترى كيف قتل باغر التركي المتوكل وهو في حال سكر، وكيف قتل غيره وغيره.

إذن بنو العباس استعانوا بغير العرب لإذلال العرب، فصاروا هم أول من أذلهم الفرس والترك. كل ذلك لترك الشورى، ولنسيان القرآن، واتباع العصبية الجاهلية، يتعصب العباسيون، لمن يتعصبون؟ لأجل المال لا غير والسلطان، فتكون النتيجة الوبال على الذرية. إن ما صنعه العباسيون مع العرب بقي أثره إلى الآن، ألم تر كيف حدثنا التاريخ بالمماليك البرية والبحرية وبالأمة العثمانية التي أذلت المصريين وأكثر بلاد العرب، ذلك لأن الأمم العربية ذهبت غالباً عصبيتهم فناموا، ولم يظهر فيهم نابغون يذكرونهم مجدهم مثل من ظهروا اليوم، فناموا نوماً عميقاً. إن ما فعله العباسيون سرى في بعض أمراء الأندلس، فإنهم كانوا يستعينون بجيرانهم من الفرنجة على إهلاك المسلمين. وانظر إلى قصة برّاق في سورة «الأحقاف» أيضاً في الآية المذكورة، وكيف كان يقابل بابا رومة ودوق فينيزيا وبارونات أوربا. وكيف جاء بوعد من البابا لأمير أشبيلية «جندل بن حمود» أنه هو الذي يكون أميراً على بلاد الأندلس على شرط أن يغير على قرطبة ليخضد شوكة المسلمين، ففعل بهذه الوصية، وأغار على قرطبة، فكان الفرنجة في نفس الوقت مغيرين على أشبيلية، وفضحوا البكر والمرأة بحضرة أبيها وزوجها، وقتل ٣٠ ألف لأجل المحافظة على العرض، ومثلهم وأكثر منهم لأجل المحافظة على الدين، كل ذلك وجندل بن حمود مغرور بوعد البابا وبارونات أوربا ودوق فينيزيا، وقد خاب ظنه، فإنهم قتلوه في قرطبة غدراً بعد أن ساعدهم في إذلال المسلمين، أما عسكره فإنهم رجعوا فوجدوا أشبيلية مدينتهم قاعاً صفصفاً، وقابلهم عسكر الفرنجة بالقتل والإهلاك، فطلبوا الأمان.

هذا مثل واحد مما ذكرته هناك في سورة «الأحقاف» عند آية: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠] إلى آخره.

الله أكبر، إذن أمم الإسلام بعد أزمان النبوة قد خالفوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة.

الله أكبر، إذن بعض ما نحن فيه الآن نتائج ما كان من آبائنا. اللهم إني أحمدك حمداً كثيراً على نعمة العلم، وعلى أن وفقتني للإلمام بما حصل لأمتنا حتى يكون ذلك نبراساً لمن بعدنا، فنكون أرقى حالاً مما نحن عليه الآن.

اللهم إننا نحن الآن مغمورون في بحار من الجهالة ورثناها عن بعض أسلافنا الغابرين. هاهم أولاء بعض شيوخ الطرق في زماننا، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، يحملون الرايات، ويتخذون النقباء، ويعطون العهود، ويطوفون بالبلاد، لماذا هذا؟ هم لا يعلمون سر ذلك، ولكن سرّه أظهره التاريخ، كان العباسيون والعلويون يفعلون ذلك لما فاتتهم الخلافة، وكان أبو مسلم الخراساني تحت إمرته نقباء بني العباس.

وبهذه العهود والمريدين والتلاميذ استرجعوا الخلافة، وفتكوا بمن هم أحق منهم وهم العلويون ذهبت الدولة العربية، ولكنا لا نزال نرى النقباء والتلاميذ في جميع بلاد الإسلام، وهؤلاء وإن كانوا يريدون التقوى والصلاح كان أمرهم فيما مضى راجعاً لطلب الخلافة كما ترى في دولة الفاطميين بمصر، وحسن بن الصباح ببلاد الفرس في قلعة الموت. هذه فكرة عامة، وصورة مصغرة ترينا حالهم لننظر في مستقبل بلاد الإسلام.

اعتراض على المؤلف

فلما اطلع صديقي العلامة على هذا، ودرسه حق دراسته؛ قال: ما أجمل هذا البيان، إننا كثيراً ما قرأنا التاريخ، ودرسنا القرآن وتفسيره، ولكن تطبيق التاريخ على القرآن نادر عند آبائنا السابقين، فأنا أحمد الله على نعمة العلم وانتظام التاريخ مع آي القرآن. ولكن هنا تبدّى لي سؤال، وهو أنك بهذا البيان قد كسرت قلوباً صحيحة، ونفوساً بريئة، فإنه بناء على هذا البيان يكون مجدنا القديم ضائعاً، إذن تاريخنا أسود وآباؤنا ظالمون جهلاء. إن هذا القول يقبض القلب وينكس الرأس. ثم إنك نقلت عن الفرنجة الذين لا يرجى منهم مودة للمسلمين مدح هؤلاء الملوك، فكيف تجمع بين الذم والمدح، وهل العقول تقبل الضدين؟ يا سبحان الله.

إذن جميع المدح إنّما هو تظاهر من المادحين، لأن ما قرأته الآن في هذا المقام ظاهر من التاريخ فهو لا شك فيه، إذن المدح هو المشكوك فيه.

فقلت له: أيها الصديق إن المدح والقدح كلاهما حق. فقال: وكيف ذلك؟ قلت: لقد قدمت في هذا التفسير في سورة «سبأ» وغيرها أن الأمة أشبه بطفل، وكل قرن في حياتها يعتبر سنة واحدة في حياته، إذن الأمة اليوم كمراهق في السنة الرابعة عشرة، ولكنها اليوم أدركت البلوغ قبل ١٥ سنة كما يدرك الشاب بالاحتلام قبل السن، والدليل على ذلك أنها اليوم تقبل العلم والحكمة المنشورة بعد أن كانت لا تقبلها، ولا تعرف لها وزناً ولا طعماً.

إن الطفل في أول أيامه يصيبه التخبط والجهالة، لا سيما إذا كان يتيماً، وهذه الأمة لما فقدت الخلفاء الراشدين بعد النبي صلى الله عليه وسلم أخذ المسلمون يتخبطون في ديجور الظلام، ونسيت الأمة الشورى، لأن الشورى إنّما تكون بين البالغين، فأصبحت الأمة كرة طرحت بصوالجة تلقفها

الأمويون فالعباسيون فالأمراء الخارجون عليهم وأمراء الأندلس، ثم دالت الدولة، ولكن بقيت الذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين.

إن ما اتفق لآبائنا هو الأس الذي نبني عليه نظام مدنيتنا، وكيف نتجه للشورى ونحرص عليها، ونصطفي الأمراء ورؤساء الجمهوريات إلا إذا رأينا عِبَرَ الدهر في آبائنا الأولين، والذي منعنا أن نسير على الطريق المستقيم إنّما هو الجهل بالتاريخ وبعظاته وآلامه وبالشرع نفسه.

أما الآن فقد عرفنا الحقائق، وأن آباءنا كانوا في زمان لم ينضج فيه العقل الإسلامي في أمر الخلافة والحكومات، فشردوا كل مشرد، وباؤوا وأصبحوا ذكرى للذاكرين، هذه ذكرى لنا، ولقد عرفنا اليوم والمعرفة أساس العمل، فهاهنا سائق للحكومة المنظمة وقائد، أما السائق فهي الآلام التي حلت بآبائنا الأولين، وأما القائد فهو ما نراه من الحكومات المنظمة في بلاد أوروبا وأمريكا واليابان وغيرهما، وهؤلاء لم يكن لهم نظراء قبل ظهور نبينا العربي عليه الصلاة والسلام. هذا ما كان من أمر الحكومات العام.

النظام العام في الإسلام

فأما فيما عدا ذلك من النظام العام فكانت دولهم أعدل دول الأرض، وقد بقي ملك العباسيين إلى القرن السادس وملك الأندلس إلى القرن التاسع، فهذه حكومات كان العدل هو الغالب فيها، وظهر في تلك الممالك العلماء والحكماء والشعراء والمهندسون، وجميع من يحتاج إليهم العمران، بل هم قدوة أوروبا وحاملو لواء العلم في العالمين.

هاهو ذا الشرع والمذاهب والقرآن باقية محفوظة، هاهو ذا القرآن والشريعة باقيان لم تمسهما يد الحدثان، فلم يقدر المنصور أن يمنع الحج بقبته التي بناها لتكون مطاف الحجاج ببغداد، ولا المعتصم لما جعل في سامرا مناسك الحج ولا غيرهما، فها هي ذي مناسك الحج والقرآن باقيان، وهل مزقت تلك الفرق المتشاكسة وهي اثنتان وسبعون فرقة دين الإسلام؟ كلا، بل مزّقت وحفظ الإسلام.

أشرق دين الإسلام في العرب وانتشر في الأقطار، وتنقلت رئاسته من العرب إلى الفرس إلى الترك إلى أمراء في سائر الأقطار، هذه سنة الله في خلقه، تنتقل الشمس في أبراجها والقمر في منازله، والمادة في صور الجماد والحيوان، إن المادة خلق الله والدين لله، وهو القائل: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فهذا هو العدل وحسن النظام.

إن المسلمين في المستقبل غير المسلمين الماضين، فهؤلاء يسلم لهم الدين والعلم والحكمة والاعتبار بالتاريخ، وسيكون الأمراء والملوك والخلفاء آباء للأمم الإسلامية، لا ذئاباً يفترسون المسلمين، وسيكون أمرهم شورى بينهم.

المسلمون السابقون كانوا خير أمة أخرجت للناس في زمانهم، ذلك أن دولهم كانت خيراً من دولتي الفرس والروم، ولما ضعف أمرهم ارتقى النظام في ممالك أوروبا، فنحن الآن لا نكون خير أمة أخرجت للناس إلا إذا اعتدلنا في الخلافة والإمارة، وكان أمراؤنا أشبه قوم بأبي بكر وعمر وعثمان والنبي صلى الله عليه وسلم.

هذا من حيث النظام العام في المملكة، فأما الأفراد فإنهم سيعلمون ما نقوله في هذا التفسير، ويعملون به عن اعتقاد وإخلاص وصدق ويقين، وذلك ما قررناه مئات المرات من أن القيام بأي عمل من أعمال الأمة لنظامها فرض من فروض الكفايات، فهو من جهة عمل نافع للأمة، ومن جهة أخرى سعادة للمرء في الآخرة، بل يقول إمام الحرمين وغيره: إن ذلك أفضل من فرض العين، لأن القائم بهذا العمل دفع الحرج عن بقية أمة الإسلام.

وأمة هذا اعتقادها ويقينها لا جرم تكون خير أمة أخرجت للناس، فإذا كانت الأمم يعمل أفرادها للجاه والمال مثلاً؛ فهاهنا أمم الإسلام يعملون الأعمال العامة تقرباً لله تعالى، فيكونون أرقى من جميع الأمم، هذه هي أمة الإسلام في مستقبل الزمان. انتهى.

جمال العلم.ونور الحكمة
وأزهار الحدائق العلمية.وبهجة القرآن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سبحانك اللهم وبحمدك، أنت المنعم المتفضل الحكيم، معلم الحكمة، وملهم كل حشرة ودابة وإنسان وملك كريم.

بينما كنت أكتب في مقالة في سورة «ق» في بيان جمال العلم وبهجة الحكمة وأسرار اليقين في معنى «ألم» في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق: ٦-٨]؛ وقد استبان بعض أسرار «ا ل م»؛ وأن هذه الحروف في سورة «ق» لها صلة وثيقة بها في أول سورة «البقرة»؛ وأنها فيها مفتاح فتحت به أسرار في زماننا كانت مغلقة الأبواب، وأن الشبان في عصرنا وفيما بعد عصرنا سيفتحون بهذه الحروف خزائن كانت مغلقة على القرون المتأخرة في أمم الإسلام الذين أغرقتهم مطامع آبائهم في أحوال هذه الحياة، ومطامع الأمم الذين يحيطون بهم، فألهتهم عما يحيط بهم من العلوم كالفلك وعلم النبات والحيوان، فخرجنا نحن في الأرض حائرين لا ندري أين نتوجه، فألفينا هذه المفاتيح التي أعدها الله لزماننا، فيأنس بها الشبان الأذكياء، فينالون منها ما يريدون، ويضارعون الأمم المحيطة بهم، بل يكونون أرقى الأمم، لأنهم إذ ذاك يكون ما يعملون لدنياهم هو عين ما يقرّبهم إلى ربهم، وهذه مزية لم يسبقها سابق، ولن يلحقها لاحق، وقد فصلت هناك المقام تفصيلاً، واستبان من قراءة التاريخ في ابن خلكان وغيره أن ملوك المسلمين تداولوا هذه الحروف فيما بينهم، وجعلوها رموزاً في الكتابات الرسمية، فأدت الغرض الشريف، وحقنت دماء، وحفظت ممالك، ولكن لم يفضّ ختام تلك الأسرار من الوجهة الإلهية والنظام الاجتماعي إلا في زماننا، أي: عند الحاجة إليها، كما استعملها أولئك الملوك في أغراضهم السياسية، تمهيداً لما زاولناه في هذا التفسير من المناهج الشريفة، والمقاصد المنيفة، وإسعاد الأمم، وإثارة الهمم، وطمس معالم التفرق والانحلال، وتشييد حصون الوئام، ورفع بنود الارتقاء والاتحاد، واستباق الخيرات في سواء السبيل.

أقول: بينما أنا أكتب ذلك إذ حضر صديقي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير، فقال: ما أجمل ما وصفت، وما أحسن ما صنعت، ولكني أذكرك بما أبنت في سورة «الحجرات» من تفرق وانحلال، واختباط واختلال، وبهتان وضلال، وجهل ووبال، في الممالك الإسلامية، وما أحيط بها من كل ضرّ وبلية، فقد ذكرت أنهم كانوا في غيهم يلعبون، وهم في كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون.

فما كادت شمس الذات المحمدية تغرب من سماء الوجود، وتلاها الشفق بعد الغروب في أزمان أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، حتى عسعس الليل، وعبس الدهر، وكلح وجه الزمان وبسر، وأصبحت الخلافة ملكاً عضوضاً، لا فرق فيها بين الأمويين والعباسيين والفرس والترك والأندلسيين، وكل دولة إسلامية هذا شأنها وذلك دأبها، ولما كان هذا التفسير لم يقصد به مجرد إرشاد الأمم، وإثارة الهمم، بل أريد به ما فوق ذلك من إظهار الحكم الإلهية، والنظم الحكمية، وآثار العجائب الربانية، أليست هذه الأمم المختلة النظام في حكوماتها، الشاردات في غيها وشرها، خلقاً خلقه الله بيده، فليكن تبيان الحكمة في ذلك الاضطراب بعد النظام، والملك بعد الخلافة.

إن النفس تواقة إلى مناظر أزهار الحكمة في رياضها، وإلى ثمار العلم في حدائقها، حتى تطمئن إلى حقائق التكوين، وبدائع الإيجاد، إن الأمم التي وقفت عند ظواهر التشريع، ولم تعرف السر المصون، ولا الجوهر المكنون، في النظام العام تمسي وتصبح وهي خاملة، وتصبح ديارها فيما بعد خاوية على عروشها، وبئرها معطلة وقصرها غير مشيد. إن القاصرين على ظواهر التشريع مثلهم كمثل ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[إبراهيم: ٢٦]، والذين أدركوا سر النظام مثلهم كمثل ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٥]، فالأولى كشجرة الحنظل، والثانية كشجرة النخل. إذا تقرر هذا فأنا أرجو أن تبين لنا ما السر؟ ما هذا الخلاف؟ والتفرق والانحلال بعد العصر الأول، وكيف ينزل دين من السماء عظيم، يزلزل الأرض زلزالاً شديداً، ثم يرفع الإنسانية أجيالاً، ثم يختفي وراء الحجاب، وتلبس الأرض رداء الحداد عليه، وتلبس الإنسانية ثوباً قشيباً من مدنية حديثة، وحاملو هذا الدين نائمون هائمون. فأنا أود أن تشرح لنا هذا المقام ليتحد التشريع مع التكوين، وتلتئم الحقائق مع الظواهر، والعقائد مع الفروع، وهذا به ارتقاء الأمم وسعادتها إلى حين.

فلما أتم ذلك، قلت له: لقد أجدت في صوغ عبارات السؤال، واصطفيتها بصفاء نفس وجودة قريحة، حتى تجلت بيضاء نقية للقارئين. فاعلم أيدك الله بالفهم، وألهمك الحكمة، وأنار بصيرتك بالعلم، أن آية «ق» التي ذكرتها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾[ق: ٦] الخ فيها الجواب عما تقول. فقال: وكيف كان ذلك؟ فقلت: إن فيها ذكر النبات، والنبات أنواع مختلفات، ولكم من نبات قد خفيت منافعه حيناً عن البصائر ثم ظهرت فجأة إلى الوجود كما حصل في زماننا هذا، فإن امرأة إفرنجية في مصر نشرت ـ قبل أواخر سنة ١٩٣١ الفرنجية، أي قبل ثلاثة أشهر من كتابة هذا الموضوع ـ في الجرائد المصرية أنها جربت الرجلة المسماة «البقلة الحمقاء»، وهي كثيرة في بلادنا المصرية، تقول

إنها جربتها، إذ شربت ماءها بعد أن عصرتها وقد كانت مريضة بالسكر، وكان السكر ٦٠ في المائة، فأخذ يقلّ حتى شفيت تماماً. وما كادت تعلن هذا في الجرائد حتى صنعت آلات لعصر الرجلة، وبيعت للناس، وأخذ المرضى يفعلون ذلك رجاء الشفاء.

هذا هو الذي تم في أيام كتابة هذا الموضوع في بلادنا المصرية، وإنّما ضربت هذا المثل المفيد في علم الصحة بتجربة امرأة أرادت الخير للناس إلا لأجعله نظير ما في القرآن من العلوم، فالدين نزل من السماء بقول الله، ونظام الزرع بفعل الله، فإذا رأينا نظامه الذي صنعه بيديه تخفى أسراره على نوع الإنسان. ينظر الأشجار والزروع ولا يفقه منها إلا قليلاً، ويبسم الزهر في وجوه الناظرين وهو يقول: انظروا إلى جمالي، ولكن ما أوتيتم من علمي إلا قليلاً، فهكذا يسمع الناس الكلام الموحى به، ويبتهجون ببلاغته إن كانوا من الأمم العربية، أو باحترامه وتقديسه إن كانوا من غير الأمم العربية، ثم يسمعون خطاب الوحي: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٨٥]، ويسمعون أيضاً: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[آل عمران: ٧]، فنوع الإنسان على الأرض ليس مقياساً لنظام الطبيعة المنظورة، ولا لنظام الكتب السماوية المسموعة، لأن السمع والبصر ليسا يقدران على الحكم في قول بليغ، ولا نظام زهر بديع، بل الحاكم العقل الإنساني، والعقل الإنساني مغموس في حمأة الطين، فهو يعطي من العلم بقدر، كما اتفق لهذه المرأة الإفرنجية في «البقلة الحمقاء»، وكما يلقى من الفكر لأناس يعيشون في زماننا وبعده لإدراك بعض أسرار الآيات القرآنية كالمفاتيح الآتي ذكرها في سورة «ق» كما قدمناه.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أنا أقارضك الثناء، فأنت أثنيت على تنميق السؤال وإيضاحه، وأنا كذلك بدوري أثني ثناء مستطاباً على الإجابة، ولكنها ليست بكافية، وإنّما علمتنا مسألة طبية جاءت للتنظير والتشبيه، ولكن المهم أن ندرك سر اختلاف الأمم الإسلامية التي سبقتنا وقد أوضحتها ما سر هذا الاختلاف وهذا الخمود الطويل؟ وما حكمته التكوينية؟ ولم أستفد من هذا الجواب إلا أن بعض أولي الألباب يلقى إليهم فهم أمور في الإسلام كما ألقي إلى هذه المرأة في الطب.

وملخصه أن أمم الإسلام المتأخرة غشي على عقول كثير من أكابرها فغاب عنهم كثير من الحقائق، وبعضها أخذ يظهر الآن، أي إن السر كل السر إنّما هو الاستعداد، فالاستعداد إذا وقف عند حد محدود بما أحيط به من غواشي الظلم داخلاً وخارجاً يقف عن الفهم، إذن الدين فيه السر المصون، والجوهر المكنون، والصراط المستقيم، ولكن العقول لم تهتد إليه، وستهتدي الآن وتنظم دول الإسلام.

هذا شرح ما أجملته، فإذن سر النظام هنا أن الفضائل - وإن كانت موجودة فعلاً - لا تعطى إلا لمن يستحقها، فهذا الجواب مع نفاسته مجمل لا يشفي الغليل. فقلت: حياك الله وبياك، فإن أبيت يا صاح إلا الإفصاح، فهأنا ذا ألقي عليك التفصيل بعد الإجمال.

اللهم منك الحول، ومنك القوة، اعلم أيها الأخ الوامق للحكمة، الفرح بها، المستعد لفهمها، أن الناس إذا لم يفهموا المحسوسات لا يدركون المعقولات، ومن عجز عن فهم ما أدركته الأبصار فهو

عن إدراك ما وراءها أعجز، ومن كثرت مدركاته البصرية وكل محسوس وعقلها بروية كثرت ما وراءها من علومه الحكمية. فلأشرح الآن لك أيها الذكي خمسة أنواع من العلوم:

(١) نظام النبات.

(٢) نظام الفلسفة العام.

(٣) نظام الحكومات كحكومتنا المصرية اليوم.

(٤) نظام الديانات العام.

(٥) النظام المجمل للمذاهب الإسلامية.

وكل ما سأفصله في هذا المقام فهمته مما فتح بمفتاح: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[ق:٦-٨].

فهذا الذي ذكرته الآن هو نفس هذه التبصرة وهو الذكرى، فإنا إذا فكرنا في أمر النبات وجدناه يحل هذه المشاكل كلها. والنبات منظور، وهذا المنظور يحل لنا مشاكل المسموع والمعقول. فقال: إن ما تذكره الآن أشبه بالألغاز، والتعريف يجب أن يكون أوضح من المعرّف، فأين الإيضاح هنا؟ فقلت: خلق الإنسان من عجل. هاهنا خمسة فصول:

الفصل الأول: في النبات

إن في النبات فاكهة وحباً وخضراً للإنسان، وفيه حشائش وتبن للحيوان، وفيه أغذية لأدنى الحشرات ولكل حيوان، وكم في الأرض من فضلات نباتية وحيوانية عفنة قذرة يعيش عليها أدنى الحيوان من علق ودود ونحوها من المخلوقات، إذن النبات يغذي أشرف حيوان يكاد يلتحق بالملأ الأعلى وهو الإنسان، وأخس حيوان يكاد يلتحق بالطين اللازب وهو الدود، وبينهما درجات لا يكاد يحصرها العد، وكل حزب بما لديهم فرحون، فلا الدود يبغي فوق ما لديه، ولا الإنسان يتنزل عما أمدّ به، فهذه الحيوانات اقتسمت النبات وأكلته، وكل يسعى لطلب رزقه فيما استعد له وله خلق، وهو معرض عما وراء ذلك، وهو بذلك فرح سعيد، ولم نجد من هذه الأنواع من الحيوان أحداً يلقي نظرة عامة على جميع النبات إلا بعض خواص الإنسان.

الفصل الثاني: في نظام الفلسفة العام

قلنا في الفصل السابق إن الدود قد يعيش في فضلات النبات والإنسان يأكل منه، وإنهما هما وما بينهما من أنواع الحيوان مقتسمات أنواع النبات، وقلنا إن هذا الإنسان وحده هو الذي فكر فلاسفته في النظام العام لهذا النبات. إن المفكرين في النبات أيضاً، أي المذكور في حيز «ا ل م» في سورة «ق» ـ وهي الحروف التي هي مفتاح من مفاتيح العلوم الآتي إيضاحها هناك ـ يكونون فرقاً شتى، فمنهم من يبحث في خشبه للصناعة، ومنهم من يبحث في شيرجه وزيته للأكل، أو حبه للتجارة، أو منافعه للطب إلى غير ذلك من مباحث لا يستطاع حصرها إلا في مجلدات، وإذا رفعنا طرفنا إلى ما فوق ذلك وجدنا هذا النبات إن هو إلا نوع واحد من أنواع الوجود، ولكل نوع علماء اختصوا به، كما رأيت لكل طائفة

من النبات حيوانات خاصة تتعاطاه وتغتذي به، فقوم للنظر في عموم النبات من حيث تكوينه ونسبته إلى الحيوان، وقوم يدرسون نفس علم الحيوان ونسبته إلى النبات، وآخرون يدرسون علم المعادن، وآخرون يدرسون الطبائع العامة للعوالم كالمغناطيس والضوء والكهرباء والحرارة والصوت، وهذه طبائع عامة لا تختص بقسم من أقسام الطبيعة، وهذا كله في العالم الأرضي، وهناك طوائف يرتفع بعضها إلى العلويات ويكونون فرقاً شتى، وأعلاهم من ينظرون نظراً كلياً في تركيب النجوم والشموس والأقمار والسيارات والأرضين وذوات الأذناب والمجرات والسدم، ويحصرون العوالم حصراً عاماً. وآخرون فوق ذلك يحصرون العالم العلوي والسفلي بعد أن يكونوا قد أحكموا العلوم الرياضية بقدر طاقتهم ويفكرون في النظام العام. هذه نظرات أكابر الفلاسفة في الدنيا الذين مثلهم بالنسبة لأصحاب العلوم الجزئية في العوالم السماوية والأرضية كنسبة نوع الإنسان بالنسبة للحيوانات الأرضية التي قاسمته الأغذية في المخلوقات النباتية، فكان كما الدود مشاركاً للإنسان وللحشرات وغيرها في اقتسام الأغذية النباتية، واختص الإنسان بالبحث العام في النبات، هكذا المفكرون في الأمم اقتسموا النظر في العوالم العلوية والسفلية، واختص أكابر الحكماء بالنظر العام في العوالم كلها، وانتقلوا منها على جهة اليقين والمسرات والبهجة إلى صانع العالم، وتعلقوا بالصانع ونسوا الصنعة وراءهم، وقرؤوا: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾[النجم: ٤٢].

إذا فهمت هذا أيها الصديق فقس عليه نظام الحكومات، وأضرب لها مثلاً نظام حكومتنا المصرية، لأنه أقرب إلينا في التمثيل، وهذه الأمثال كلها جعلناها مقدمة لما تريده أيها الأخ الذكي من إدراك السر في التناقض والاختلال والاختلاف الواقعات في القرون الإسلامية الخالية حتى تلتئم العقائد والنظام العام مع التشريع الظاهري كما طلبته أيها الأخ العليم، فهذا تفصيل الكلام على:

الفصل الثالث: نظام حكومتنا المصرية

إن حكومتنا المصرية نراها مكونة من:

(١) قرية لها عمدة ومشائخ وخفراء.

(٢) فمركز مكوّن من قرى.

(٣) فمديرية مكونة من مراكز.

(٤) فوزارة الداخلية المكونة من مديريات.

(٥) فالوزارة العامة المكونة من وزارات، وهذه الوزارة فيها وزارات مثل الداخلية والخارجية والحقانية والأشغال والزراعة والمالية، وفيها مصالح كثيرة، كل هذه تبع للوزارة العامة، وكل جماعة في وزارة مكبون على عملهم، لا يعرفون إلا قليلاً عن عمل غيرهم في الوزارات والمصالح الأخرى، كما لا يعرف حيوان البر عن حيوان البحر إلا قليلاً، وكما لا يعرف عالم الحيوان الأرضي عن عالم الكواكب إلا قليلاً.

(٦) وفوق هذه الوزارة القوة العليا التي تولي تلك الوزارات التي تستند إلى رجال دار النيابة الذين تصطفيهم الأمة للقيام بتمثيلها.

فأنت ترى أيها الذكي أن كل طائفة تقوم بعملها وتعرض عما سواه، وإذا خالفت ذلك اختل النظام، كما تقتسم أنواع الحيوان من أقلها وهو الدود مثلاً إلى أعلاها وهو الإنسان أصناف النبات، ولكن فريق واحد يكون نظره عاماً في الأمة كلها، وهو القوة التي تنظر في شؤون الوزارات كلها، ولا تهتم بجزئيات الأعمال بل أعمالها عامة، وليس لها أن تنزل عن الكليات، كما اختص نوع الإنسان دون سائر الحيوان بالنظر العام في النبات المشترك بينه وبين الحيوان، كما اختص الحكيم العظيم في نوع الإنسان بالنظر العام في الوجود وإن شاركه غيره في النظر في الجزئيات العلمية، وقس على حكومتنا المصرية حكومات العالم المتحضر، فهذا مثال له مجمل، وهذا توضيح وشرح لما بعده، وهو نظام الديانات العام في الأرض.

الفصل الرابع: في نظام الديانات العام في الأرض

اعلم أن في الأرض من أنواع الديانات ما يختلف باختلاف العقول والأفهام اختلافاً كاختلاف أنواع النبات باختلاف أصناف الحيوان في التغذية والانتفاع، فكما رأينا من بقايا النبات المتعفن المنبوذ في الأرض والبرك والمستنقعات ما يتعاطاه الدود وأخس أنواع الحشرات والعلق، ورأينا منه ما هو فاكهة وحب لنوع الإنسان الذي يكاد بعضه يكون من نوع الملائكة الكرام، هكذا نرى من الديانات ما تنزل إلى دركات الانحطاط لغباوة معتنقيه، وإنهم في نوع الإنسان أشبه بالدود في نوع الحيوان، فأعوزهم ذلك إلى دين يواتيهم ويسدّ حاجاتهم، ويكون ذلك الدين على قدرهم لا يتجاوز ما تقبله نفوسهم، وتمتلئ به أفئدتهم، وهم به فرحون.

ومثال ذلك ما ستراه في سورة «البينة» في الجزء الأخير من القرآن، إذ ترى هناك في حديث رئيس البعثة الأزهرية الصينية أن عدد الديانات في تلك البلاد خمسون ديناً، وعدد السكان ٤٠٠ مليون إنسان، ومن الديانات عبادة الجمال والنور والنار والدواب المختلفات، وكذلك ترى في تفسير نفس تلك السورة أن في الحبشة من يعبدون الأشجار ويقدسونها، وبعضهم يقدس الطبيعة ويعبدها، وترى الذين يعبدون الأشجار يقومون حولها في كل عام، ويقومون بواجبهم الديني، وكيفية ذلك أن يدهنوا جذوعها بالسمن ويقفون حولها وهم يرقصون، ويغنون مختلف الأغاني، ويقصد أهالي قبيلة «لادرمون» بعض الجهات التي تكثر فيها الأشجار، ويتناولون حولها بعض المشروبات، كالجعة واللبن وشراب العسل وغيرها.

هذا قلّ من كل من ديانات هذا الإنسان. ما هذه الديانات المختلفات في عالم الإنسان إلا نماذج مطابقات لمختلف العقول والعواطف والأميال على النحو الذي اختلفت فيه أغذية الحيوان في النبات من دود يتعاطى القاذورات، ومعه حشرات كذلك، إلى أنعام تأكل الأبّ، إلى الإنسان يتعاطى الفاكهة والحب، وما مثل دين الإسلام إلا كمثل النوع الإنساني فيما مثلنا، إذ نظر نظرة عامة في جميع النبات فبحثه وفكر فيه، وإلا كمثل حكماء الأمم الذين نظروا نظرة عامة في أنواع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية وجدّوا فيها، فاتخذوا كلياً من الجزئيات وكلًّا من الأجزاء، ونظروا نظرة عامة وتوجهوا به إلى صانع العالم، وأخذوا يشوقون الأمم إلى الوحدة العامة، والنظام العام، وإلى صانع ذلك النظام،

وهذا هو مقصود دين الإسلام، فهو لا يحصر المتدين في مصنوع من المصنوعات، وإن كان في كل مصنوع سر من أسرار الربوبية، ولكن دين الإسلام يقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥] فهذا دين عام يعوزه مفكرون يقومون به من نوع الإنسان، تكون نسبتهم إلى هذا النوع الإنساني كنسبة الإنسان إلى الحيوان من حيث النظر في أمر النبات من حيث عمومه لا من حيث اقتسام أصناف الحيوان لأصنافه المختلفة تغذية وتمتعاً وحباً، بل يكون نظرهم عاماً لمنفعة العموم، وإذا ظهر هذا السر المكنون في هذه الفصول الأربعة فقد وصلنا إلى المقصود من هذا المقال وهو:

الفصل الخامس: في النظام المجمل للمذاهب الإسلامية

لا جرم أنك أيها الذكي بأدنى التفاتة لما مضى تعرف سر المذاهب الإسلامية التي بدراستها نصل إلى مقصودنا من هذا المقال، فما هذه المذاهب الإسلامية؟ هي الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، ومذاهب الشيعة المختلفة، والزيدية، والإباضية، وفرق مختلفات متفرقات، وكل امرئ اتبع مذهباً من هذه المذاهب أكبّ على عمله، مخلصاً فيه، واثقاً به متقرباً إلى الله، قائماً بعمله على الوجه الذي أراده الله له، فترى الشافعي مكباً على قراءة الكتب المقررة مثلاً في الجامع الأزهر، كابن قاسم، وكتاب الخطيب الشربيني على متن أبي شجاع، والتحرير، والمنهج، وأمثالها، وقس على ذلك بقية المذاهب، وكل هذه مستخرجات من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وتراهم يستدلون بالأحاديث المنوعة والأدلة المختلفة، وكل طائفة تتبع أقوال أئمتها وإن خالفوا أقوال غيرهم في الفروع التي لا ضرر فيها على الأصول، وبدوام ذلك أجيالاً وقروناً أصبح كل مذهب كأنه عقيدة راسخة، وإن كانوا يتوارثون عن الآباء والأجداد، احترام المذاهب الأخرى كابراً عن كابر، لا جرم أن هذه المذاهب ليست إلا جزئيات لهذا الدين الكلي، فبينما ترى الشافعي والحنبلي والزيدي والإمامي ونحوهم يدرسون شروط الصلاة وأركانها، ونواقض الوضوء، وأركان الحج، والبيع الصحيح والفاسد، والطلاق والرجعة، والدعاوى والبينات، والشركة والإجارة ونحوها.

تراهم لا يفكرون، ولن يفكروا، بل لن يخطر بأذهانهم النظام العام لهذا الدين الإسلامي الذي جاء لإنقاذ الإنسانية كلها من شر الملوك الظالمين، والمسلطين القاهرين، ذلك أن كل فريق من هؤلاء المتعلمين المخلصين لا يعدو أن يكون مثله كمثل عمدة قرية من قرى مصر، أو شيخ من مشايخها، أو مأمور من مأموري المراكز المصرية، أو مدير من المديرين، أو وزير من الوزراء، ولا جرم أن كل واحد من هؤلاء ليس له أن يتجاوز وظيفته في الحكومة المصرية، هكذا هؤلاء العلماء قد وضعوا في مراكز خاصة فعليهم أن يقوموا بها حق القيام، وليس من حقهم عادة أن ينظروا نظرة عامة في الأحوال العامة للأمم الإسلامية، فيكونوا في أمم الإسلام أشبه بالقوة المدبرة في الحكومة المصرية التي تولي الوزراء، وتعطي كل ذي حق حقه، وتنظر نظرة عامة في المصالح المصرية، أو يكونوا أشبه بالإنسان في مثل النبات، إذ يختص من بين الحيوان بنظرة عامة لنظام النبات، أو كمثل دين الإسلام إذ جاء لنظرة عامة في جميع الكائنات، هكذا كانت ولا تزال أحوال أمم الإسلام إلى وقتنا هذا، ولا عيب على الناس في ذلك، فلا لوم على حنفي ولا شافعي ولا زيدي ولا مالكي في هذا القصور، لأنه

قصور موروث من أيام أن اضطربت الأمة اضطراباً شديداً، وزلزلت زلزالها، وقال المسلمون: ما لهذه الأمة ما لها، فرجعت الأمة إلى بعض جاهليتها، وأحيت ما مات من عوائد العصبية والنسب وإرجاع الخلافة للأنساب وحدها، وأخذ الأموي يناوئ العباسي، والعباسي يناوئ العلوي، ويناوئ جميع هؤلاء الأمم الأخرى من ترك وفرس وكرد متقلبين.

وكل يدعي وصلاً لليلى وليلى لا تقرّ لهم بذاكا

أنزل الله هذا الدين على محمد صلى الله عليه وسلم وقال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى ﴾ [الحجرات: ٩] الخ. وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

هذه المزية هي التي قامت بها النبوة خير قيام، فما كاد عصر النبوة وأيام الصحابة بعدها تمر حتى عصفت عاصفة الأنساب، ورويت لها الأحاديث، وقامت الضجة، واعجباً! ليست الخلافة للمال، وكل خليفة يجمع المال ولا يكون كأبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، فهو ليس خليفة، لأن هذا ليس على طريقة ديننا، شرب الخلفاء الخمر، لبسوا الحرير، كنزوا المال، هل هذه خلافة؟ صدق رسول الله، فهي ملك عضوض.

لا عجب إذا رأينا أبا حنيفة يضرب، ومالكاً يهان ويؤذى، واستمر إذلال العلماء في أعصار خلت، ولم يكد أحد يرفع بصره إلى النظر في الأمر العام الذي أعدّ له هذا التفسير حتى يزجّ في السجن ويؤذى ويهان، ودامت الأمة على ذلك أجيالاً وأجيالاً، وأرباب المذاهب في أعمالهم دائبون مخلصون إذ لا مخلص لهم ولا منفذ إلى المستوى الأعلى الذي فيه ينظرون نظرة عامة في دين الإسلام، وكانوا كلما جاء المسلمين عالم بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، ومنهم من كان يكتب ما شرحناه الآن تحت ستار التصوف، وآونة تحت ستار الفقه، كما ترى منه شذرات في كتب الفقه في المذاهب الإسلامية المختلفة لأمم الإسلام، ذلك هو الحاصل في أمم الإسلام إلى هذا اليوم.

نظرات حكماء الإسلام الذين أعدّهم الله للمسلمين بعد ظهور هذا التفسير

إن هؤلاء الذين منهم من هم اليوم أحياء يدرسون، ومنهم من هم في بطون الأمهات، أو في ظهور الآباء، فهؤلاء سيكونون مستنيرين بالنور الإلهي، وذلك بدراسة العلوم المحيطة بنا في الأرض وفي السماء، وهؤلاء تشرق نفوسهم بالأنوار الإلهية، لأن هذه العجائب مملوءة نوراً إلهياً، وبالبحث فيها يزدادون قوى وعلماً وحكمة، وتشرق عقولهم، فهؤلاء بعد تلك الدراسة ينظرون في دين الإسلام فيقولون: ما هذه المذاهب إلا أنوار جزئية لدين كلي، وهذا الدين الكلي يعوزه حكماء يفكرون فيه فيكونون للمذاهب المختلفات أشبه بالإنسان المختص بالنظر العام في النبات مع مشاركته للحيوان في التغذية بالنباتات، وكالقوة الحكومية المستمدة من نواب الأمة ومجلس الشيوخ، والأعيان التي تخصص لكل وزير عمله، وكالحكيم الذي ينظر للعلوم كلها نظرة عامة.

وقد شارك علماء الحيوان والنبات والفلك الخ وارتقى عليهم، وكدين الإسلام الذي جاء ومقصده عام لا يتقيد بشجر ولا بحجر ولا بكنيسة، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾[البقرة: ١١٥]. فهذه الطائفة هي التي تجعل لأمم الإسلام وحدة عامة للعالم كله، لأن هؤلاء يقولون للمسلمين: أيها المسلمون، إن الخلافة والرئاسة ليست للمال، إن هذا خطأ محض وجهل فاضح، ليس هذا ديننا، ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ٩٠]، ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾[الإنسان: ٩].

وإذا كان إطعام رغيف لمسكين يحتاج إلى إخلاص بلا جزاء ولا شكورا كما نرى نور الشمس يصل إلى أهل الأرض، هكذا يجب أن يكون خليفة المسلمين، فإن كان غير ذلك فهو كاذب، الخليفة ليس هو ذلك المترف المنعم. كلا. فإما أن يكون كأبي بكر وعمر وعلي وعثمان، وإما لا، نحن لا نطلب خليفة محجباً ولا منعماً، إن هذه جهالة أعظم الجهالات. هنالك نهدّ كل ما بناه الآباء من الخلاف والشجار الذي شجر بينهم وهم كانوا مجتهدين فيه، فلهم جميعاً أجر فيما اختلفوا فيه، لأنهم كانوا فيه مخلصين، وكل منهم كان يعتقد أن الحق في جانبه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذلك هو تحقيق الحق، وهذا هو الجواب عما سألتني عنه أيها الصديق، فهذه الأمم الإسلامية لما كانت في مبدأ أمرها لم تطق صبراً على الأخلاق الشريفة النبوية والعمرية والبكرية والعلوية والعثمانية، فرجعت القهقرى درجة فدرجة، فلما علم الله منهم ذلك، وأنهم لا يحملون الأمانة كما أديت إليهم، ولا يتورعون عن ذلك؛ سلط الله على العرب الفرس فدخلوا بينهم والترك وغيرهم، وقال: أيتها الأمم، إن العرب قد أخلوا بشروط النبوة فادخلوا معهم وفرّقوا جمعهم، لأنهم لم يجعلوا الخلافة بالشورى، بل جعلوها للعصبية، فإذا كان الأمر كذلك فإني أذنت للأمم أن يزاحموهم ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾[النبأ: ٢٦]، فدخل الفرس فزاحموهم، ودخل الترك كذلك، ثم استبدّوا بهم، ذلك هو العدل الإلهي، وهانحن أولاء الآن وأنا أكتب هذا وأنا من النسب العربي الصميم، أقول هذا هو التاريخ الإسلامي مجملاً، وهذا كان شأننا، وهؤلاء الحكماء الآتون بعدنا سيصلحون ما أفسده الزمان، وأتى به الحدثان، وسيقولون للأمم الإسلامية كفى كفى:

ما مضى فات والمؤمل غيب ... ولك الساعة التي أنت فيها

فقال صديقي بعد ذلك: هذا حسن، وكيف بقي هذا إلى هذا الزمان، وهذه نيف و١٣ قرناً، وهي زمان طويل، فلماذا تأخر هذا الإصلاح إلى هذا الزمان؟ فقلت: أيها العزيز، اعلم أن هذا العالم فيه أمران اثنان أحدهما يعمل في ثانيهما، فالعامل هو العقل العام المسلط على ثانيهما وهي المادة التي ما هي إلا حركات في خيال الكون المسمى بالأثير، وإنّما سميناه خيالاً لأنه يشبه خيالنا نحن، فخيالنا نحس فيه بقوة عاقلة منظمة، والحركات في الأثير المنبثّ في هذا الفضاء الذي عبرنا عنه بالخيال هي هذه المادة، فالمادة مجموع حركات منظمات يتصرف فيها عقل، وأظهر هذه المادة الشموس والأقمار والنجوم الثوابت والسيارات، تشرق الشمس على الآفاق فيكون نبات، وهذا النبات يأخذ في النمو أمداً على مقدار ما حدّد له، وبعد نصبه وتعبه تظهر فيه أزهار جميلة تحكي أنوار المشرقات وتستمد

منها الضوء، بل تتجه للشمس عند طلوعها وعند مغيبها اتجاهاً ما، هكذا تلك العقول الكلية المدبرة لعوالمنا الأرضية تربي عقولاً جزئية في أرضنا كالعقول الإسلامية، ولكن زهر تلك العقول لا يأتي إلا في حينه، ولن يتعدى طوره، تقديماً وتأخيراً، فإذا رأينا أممنا الإسلامية اليوم قد بزغ فيها فجر الإصلاح، وأخذت أزهار العقول الإسلامية في نباتها تضيء للملأ فهذا هو الناموس العام، فلا زهر لشجر إلا بعد حين يناسبه، وهذا الدين لم يمض له إلا ١٣ يوماً من أيام الله الصغرى، وهي القرون بعد أن استعدت الأمة لظهور مصلحين هم أزهارها، كما لم يزهر النبات إلا بعد استكمال قواه في أمده المعلوم.

هذا جواب ما سألتني عنه أيها الأخ في أمر أمم الإسلام من حيث خلاف الأولين وشجارهم، والغفلة المستحكمة، ثم اليقظة الحديثة، ثم الإصلاح الذي بزغ فجره، وما حكمة الله في ذلك؟ وما سنن النظام؟ فقال: لم أكن والله لأتوقع هذا الكشف والإيضاح، ولم يكن ليخطر لي أن أنال هذا الفتح المبين، ولكن ما نوع التعاليم التي تخص بها طائفة المصلحين في أمم الإسلام؟ فقلت:

بهجة وجمال في ذكر التعاليم الخاصة بالمصلحين من حكماء الإسلام في مستقبل الزمان

اعلم أيها الصديق أن هذه الطائفة في أمم الإسلام مثلها كمثل من ذكرناهم في الأمثلة السابقة، بل كل ما سأقوله الآن يستنتج مما قررته لك الآن، فهم كالملوك الذين يستندون على الشورى بالنسبة لوزرائهم، وكالحكماء الكبار بالنسبة لعلماء العلوم الجزئية، وكالأنبياء بالنسبة للمجتهدين كأبي حنيفة والشافعي، ومجتهدي الشيعة وهكذا، وكالإنسان بالنسبة للحيوان في مثال الأغذية النباتية والنظرة العامة فيها، فهؤلاء علومهم تكون موجهة للكليات كما ترى في القرآن.

إن القرآن والنبوات موجهان للأمور العامة، ولو أن النبوة اختصت بجانب دون جانب من العلوم لم تكن نبوة، بل هذا الاختصاص لطوائف يخلقون تابعين للنبوة، ولقد جاء في كتاب «الإتقان في علوم القرآن» في الجزء الثاني في صفحة ١٧٦ وما بعدها ما نصه:

قال ابن تيمية في كتاب ألفه في هذا النوع: يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[النحل: ٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة. وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ «البقرة» و«آل عمران» جدّ في أعيننا، رواه أحمد في مسنده. وأقام ابن عمر على حفظ «البقرة» ثمان سنين، أخرجه في الموطأ. وذلك أن الله قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص: ٢٩]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[النساء: ٨٢]، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحونه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟ ولهذا كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو وإن

كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة؛ فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم، ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة، وربما تكلموا في بعض ذلك بالاستنباط والاستدلال، والخلاف بين السلف في التفسير قليل، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوّع، لا اختلاف تضادّ، وذلك صنفان:

أحدهما: أن يعبر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى، كتفسيرهم الصراط المستقيم بعض بالقرآن أي أتباعه، وبعض بالإسلام فالقولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كل منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ صراط يشعر بوصف ثالث، وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله، وأمثال ذلك، فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه، مثاله ما نقل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾[فاطر: ٣٢] الآية، فمعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات. والمقتصد يتناول فاعل الواجبات، وتارك المحرّمات، والسابق يدخل فيه من سبق فتقرّب بالحسنات مع الواجبات، فالمقتصدون أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون، ثم إن كلًّا منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت والمقتصد الذي يصلي في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار، أو يقول: السابق المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد الذي يؤدي الزكاة المفروضة فقط، والظالم مانع الزكاة. انتهى ما أردته من كتاب «الإتقان في علوم القرآن»، والحمد لله رب العالمين.

وقد أطال في ذلك صاحب الإتقان، ونحن نكتفي بهذه الشذرة استدلالاً على ما أردناه وهو أن هذه الطائفة آراؤها عامة موجهة لإسعاد المجموع بما هو عام، فأما الفروع فلها شأن آخر.

إذن سلف الأمة الذين شادوا مجدها لم يكن نظرهم محصوراً في الجزئيات كما هو شأن جميع المذاهب الإسلامية في الأعصر المتأخرة، فإنهم أفرغوا جهدهم في استقصاء الفروع، ونسي أكثرهم النظام العام الذي كان يبثه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في تعليمهم، أفليس هذا من العجب! أو ليس من العجب العجاب أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل كما قدمناه هنا قريباً، ويقولون: تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، وقد كانوا يبقون مدة في حفظ السورة، وانظر كيف يقول أنس: كان الرجل إذا قرأ «البقرة» و«آل عمران» جد في أعيننا، وكيف يقيم ابن عمر على حفظ «البقرة» ثمان سنين، وكيف يقول صاحب كتاب الإتقان: إن كتب الطب والحساب تشرح وتفهم فكيف بكتاب الله تعالى؟.

عجب وألف عجب يا رب! إذن ما جاء في هذا التفسير موافق ومناسب لما كان عليه الصدر الأول، إذن هذه سنة إسلامية جميلة، فأحمد الله على العلم والحكمة، إذن الفكرة العامة وحب

العلم، وحب الله، وحب الأمة، نتائج هذا القرآن، وهـو المقاصد العامة التي يبثها المصلحون الآن في أمم الإسلام.

آراء «جون راسكن»

المولود سنة ١٨١٩ المتوفى سنة ١٩٠٠

أفلا تعجب أيها الذكي من علماء أوروبا؟ أولئك الذين شربوا من مناهل علوم آبائنا، كيف يقولون هذا؟ راسكن يقول في قطعة تحت عنوان «التعليم الحقيقي»: إن التعليم سواء أكان لأدنى الطبقات أو أعلاها لا عبرة فيه بما كثر منه أو قل على شريطة أن يكون مغرياً للمتعلم على الإكباب على العلم، وأن يعرف كيف يدير حركة أعماله ويتقنها. الخ. اهـ.

وأوضح منه وأصرح وأنسب لموضوعنا قول غيره تحت عنوان «تعليم الأطفال»:

إن مقاصد التعليم الهامة تنحصر في توجيه همة المتعلم إلى الإكباب على القراءة والفهم. ثم قال: كما أننا لا نتعاطى جميع ما يعوزنا من الطعام طول النهار وقت الصباح؛ هكذا لا نحمل أذهاننا مشاق تحصيل جميع العلوم في صباح الحياة وأول العمر، بل العمر كله زمان مهيع لتحصيل العلوم، ومن ذا الذي يعدّ الطالب لذلك، ويحدث في قلبه غراماً وعشقاً للتحصيل أمد الحياة إلا الأساتذة المعلمون والمدرسون الصادقون الخ.

فهذان الرأيان مجمعان على أن الغرام بالتحصيل، والولوع بالعلوم هو الذي يبعث في الأمم رجالاً يكونون مصابيح يضيئونها، وقناديل ينيرون سبلها، وكواكب في دجنات الظلمات، وحنادس دهر الدهارير، مع معرفة ما يعملون، وإدراك كنه ما يزاولون.

ضرب مثل لحكماء الأمم الإسلامية في المستقبل بيعسوب النحل

(١) قال فاضرب لي مثل هؤلاء المصلحين في أمم الإسلام بعدنا الذين يصلحون ما أفسدته يد الأيام وحوادث الدهر، ويعلمون أمم الإسلام كيف يصلحون بين طائفتين من المؤمنين اقتتلوا، وكيف يقومون بالعمل بآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويصرفونهم عما وقع فيه آباؤهم من الشجار على الخلافة والإمارة، وأن ذلك إنّما جعله الله تجربة يحترس من مثلها الأبناء، فلا تكون الممالك المتحدة ولا اليابان ولا الصين ولا ألمانيا أولى منهم بالاتحاد والاجتماع وترك الشجار على عرض الدنيا الزائل، وإن كان للآباء في ذلك تأويل وهم جميعاً ناجون، المخطئ منهم في اجتهاده، ومن هو على صراط مستقيم.

(٢) ثم ما علامة هؤلاء المصلحين؟ فقلت: إنّما مثل هؤلاء الذين يأتون بعدنا من حكماء أمم الإسلام كمثل الخشرم: فقال: وما الخشرم؟ فقلت: يعسوب النحل، وهي الملكة التي تقود الآلاف المؤلفة من النحل في الخلية. فقال: وما المناسبة بين المشبه والمشبه به: فقلت: لعلك اطلعت في خلايا النحل على تلك الأشكال المسدسات المنتظمات الملتئمات المجتمعة معاً. قال: نعم اطلعت. فقلت: وهناك ترى من تلك الأشكال المصنوعة من الشمع ما ملئ عسلاً، ومنها ما جعل منزلاً لبيض النحل يربى فيصير ذكوراً للنحل أو يصير نحلاً عاملة. انظر هذا المقام في سورة «النحل»، والأشكال هناك

مرسومة موضحة. وهناك أيضاً ترى منازل أخرى ممتازة بيضاء، وهي قليلة بالنسبة لغيرها، فهذه البيوت تربى فيها تلك الملكات أو اليعاسيب أو الخشارم، فترى الملكة تأمر أن تغذى الذرية العاملة والذكور بعسل معتاد. أما اليعاسيب الصغار فإنك ترى عسلهن أنقى وأجمل وأصفى، قد اصطفاه النحل من مواد خاصة حتى تخرج اليعاسيب أو الملكات ذوات أجسام أقوى وغرائز أصفى فتدير الخلية كلها، وتكون حفاظاً ونوراً للجميع. هذا في الممثل به، أما الذي ضربنا له هذا المثل، وهم المصلحون في أمم الإسلام المستقبلة فإنهم طائفة نسبتهم في القلة إلى أمم الإسلام كنسبة اليعاسيب على الآلاف المؤلفة في الخلية الواحدة، وهذه اليعاسيب عند بلوغهن سناً معلومة يتقاتلن، ومن غلب فهو القائم بنظام هذه الدولة النحلية الصغيرة، وهذه الطائفة الإسلامية التي ضربنا لها هذا المثل يقرؤون من العلوم أجملها ويضربون في كل علم بسهم، وتكون تلك العلوم أغذية لنفوسهم كما اغتذت الملكات النحلية بأنواع ما جناه النحل من رحيق الزهر الجميل، وهذا التشبيه حق، فإن العلوم زهرات هذه الدنيا وثمراتها، والرحيق المختوم المخبوء في تلك الزهرات هو محاسن نظام هذه الدنيا الجميل، وحب صانع العالم، وحب الأمم الإنسانية، وارتقاء النفس عن السفاسف وشوق النفوس، وعشقها للإنسانية، ورقيها وسعادتها، فهذا هو الرحيق المختوم المخبوء في زهرات هذه الدنيا، وزهرات هذه الدنيا هي العلوم والمعارف.

فما مثل العلماء المعتادين في الأمم الذين أغرموا بعلوم اللغات كعلوم اللغة العربية الاثني عشر وعلوم اللغات الأخرى، أو بعلوم خاصة من رياضية أو طبيعية، أو فرع من فروعها، أو صناعة من الصناعات المتفرعة عليها، أو بعلم القانون في أي أمة من الأمم، أو بعلوم ظواهر دين من الديانات. أقول: ما مثل هؤلاء إلا كمثل النحل العاملة في خلايا النحل اللاتي تتلو عند رؤيتها: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾[الصافات: ١٦٤]، فلكل منها عمل خاص، وأعمال الخلية موزعة عليها توزيعاً عادلاً، والملكة رباط الجميع، فهؤلاء النحلات كلهن اقتسمن أعمال المملكة، وغذاؤهن وهنّ أجنة ليس من العسل المصفى، فهذا الغذاء غير المصفى في الصغر مناسب لأعمالها عند إدراكها، فالعمل فرعي والغذاء غير مصفى. أما اليعسوب فغذاؤها مصفى، وعملها عام للجميع.

فإذا رأينا علماء اللغة أو الفقه أو الرياضيات أو صناعة من الصناعات، فإن هؤلاء كالنحل القائمات بأعمالهن في الخلية، وإذا رأينا المغرمين بالحكمة العاشقين للعلم الذين يلمون بجميع أطراف هذه العلوم ويختصون هم بالمثل الأعلى؛ قلنا: هؤلاء هم حكماء هذه الأمة القائمون بتدبيرها بعدنا، المجدّون في إصلاحها. هذا جواب سؤالك الأول.

أما علاماتهم فأقول: إن لهم علامتين: العلامة الأولى: تؤخذ من الجواب الأول، فهم المغرمون بجمال هذه الدنيا من العلويات والسفليات، العاشقون لكل علم ولكل فن، المكبّون على صفوة العلوم، المحبّون لصانع العالم ولعباده الوالهون بأمم الإسلام أن ترقى. العلامة الثانية: أن الناس يصغون إليهم، ويميلون إلى كلامهم، ويستمعون لهم، وتقبل القلوب عليهم، ويعمل العقلاء بأقوالهم وآرائهم بشوق وتوق. فهاتان هما العلامتان. فقال: حسن ولكن أي الكتب يقرؤها الإنسان حتى ينال

هذه الدرجة الرفيعة؟ فقلت: السماوات والأرضون والبحار والأنهار والسحب والجبال، هذه هي الكتب التي يقرؤونها، وكتاب الله الدال على ذلك. فقال: هذا أجمل، إن هذه المذكورات مبذولة للناس جميعاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فقلت: فإن أردت يا صاح إلا التخصيص؛ فإني أقول: إن هذا التفسير وما يماثله من الكتب العامة لمؤلفي الإسلام في زماننا وفيما قبله مزارع تنبت فيها وتزهر عقول وعقول، والاستعداد هو الذي به يمتاز الجيد من الرديء، والخبيث من الطيب، والسابق والمقتصد، والأول والآخر، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾[القصص: ٦٨-٦٩]، فإذا رأيت أيها الصديق أمثال الخلفاء الراشدين وسداد حكمهم وبارع حكمتهم وما أوتوا من ذكاء وفطنة، حتى قال بعض حكماء أوروبا في عصرنا ونقلنا عنهم ذلك في هذا التفسير: إنهم كانوا أذكى من قياصرة الروم وأكاسرة الفرس في زمانهم، فما ذلك إلا من التعاليم التي كانوا يتلقونها من النبوة عند تلاوة الآيات القرآنية كما تقدم، وأنهم كانوا لا يحفظون شيئاً حتى يفهموا حقائقه، وما هي هذه الحقائق؟ هي التي ظهر لنا نتائجها في أعمالهم، فتراهم يحوطون أممهم والأمم الخاضعة لهم بعطفهم ورحمتهم، لأنهم فهموا معنى آية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٧]، فصاروا هم رحمة للعالمين، لا للمسلمين وحدهم، فعمّ عدلهم وفهموا أن الغنائم لم تكن لأجل شهواتهم، بل كانت لإصلاح المجموع. فلذلك نبذوا التنعم ظهرياً، ورضوا بالخبز الذي لم ينخل، وتركوا عرض الحياة الدنيا وهكذا، وهذا نموذج لصفوة العلوم التي يصطفيها أئمة المسلمين بعدنا، الذين يكون مثلهم في أمم الإسلام كمثل الإنسان في نوع الحيوان، أو كمثل دين الإسلام بالنسبة لسائر الديانات يعلو عليهم. فهؤلاء المصلحون بعدنا تكون وجهتهم المصلحة العامة وقيادة مجموع الأمة، يحترمون المذاهب كلها، ويحبون العلوم كلها، ويكونون للمسلمين آباء، فإذا رأوا الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والشيعة والزيدية والإباضية وأمثالهم مكبين على فروع زاولوها، وأحاديث تلقفوها، وعاشوا على ذلك وماتوا، فليقروهم وليغرموا هم بجمال العوالم، وحب المجموع الإسلامي، وحب الله عز وجل، وتوجيه همم المسلمين إلى المثل الأعلى.

ذلك أيها الأخ جواب ما سألتني عنه. فقال: بقي لي سؤال واحد، وأنا لك شاكر. فقلت: وأنا إن شاء الله مجيب. فقال: من أين أتت لك هذه الإجابات مع أنك قبل أن ألقي السؤال عليك لم يكن لك به علم.

فقلت: إن الإجابات أحس بها في قلبي وقت السؤال، فينشرح صدري للإجابة فأجيب. فقال: وهل كل ما ينشرح صدرك له يكون علماً؟ فقلت: ذلك له ميزان. فقال: وما هو ذلك الميزان؟ فقلت: الميزان هو الدين أولاً، والعقل ثانياً، والنظر لحاجة الأمم الإسلامية ثالثاً، فإن وافقها فهو حق، وإن خالف الدين أو العقل أو لم يكن له دخل فيما يحتاج إليه المسلمون لم يكن خير جواب فلا أجيب به. فقال: لقد أطلت عليك بالأسئلة، ولقد أفدت خير إفادة، فأنا أحمد الله على هذه النعم.

فقلت: ﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾[يوسف: ٣٨].

إنتهى ظهر يوم الثلاثاء ٥ يناير سنة ١٩٣٢م النصف الثاني من شهر شعبان سنة ١٣٥٠ هجرية.

نور على نور

في أخلاق عصر النبوة، وفي الخلافة الإسلامية

وفي فروع الدولة العباسية المنفصلة عنها

وفي جميع الممالك الإسلامية من عصر النبوة إلى الآن

حضر صاحبي العلامة الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير في اليوم التالي لكتابة هذا المقال، وقال:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله الكرام. أما بعد: فإني اليوم أريد منك أن تبين لي أمرين، قد أشكلا علي فيما تقدم. أما أولهما: فإنك ذكرت في الأمر السادس عند تعليقك على أعمال الدولة العباسية أن عبد الله بن الحسن والد صاحب البيعة جاء إلى السفاح الذي اغتصب الملك من ابنه فأكرمه وعرض عليه المال فأعطاه ألف ألف درهم الخ، وأن ذلك يدل على أن أخلاق بعض آل بيت النبوة قد تغيرت في القرن الثاني بعد القرن الأول، وأن الترف صار مرغوباً فيه بعد أن كان مبتعداً عنه، فأرجو أن تذكر لي شذرة من أخلاق رجال العصر الأول ليكون تذكرة وتبصرة. فقلت: أذكر أن المغيرة ـ كما ذكرته في بعض هذا التفسير ـ لما قال له رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية: إنكم تموتون فيما تطلبون. فقال المغيرة: يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار، ويظهر من بقي منا على من بقي منكم.

وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر، لما خوّفه بجموع الروم وأنهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل، فقال عبادة: يا هذا لا تغرّن نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه. وإن كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم. لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما شيء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإننا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا.

وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٤٩]، وما منا رجل إلا ويدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة، وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا همّ فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنّما همنا ما أمامنا. وأما قولك: إننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا؛ فنحن في أوسع السعة، ولو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه. اهـ.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: كفاني ما ذكرت في الأمر الأول. نحن الآن في تفسير آية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾[الحجرات: ٩]، هاهو ذا الخلاف المستحكم بين المسلمين في العصور الأولى ماثل أمامنا، فما رأيك أنت في الخلافة؟ فقلت: رأيي ذكرته في بعض أجزاء هذا التفسير.

فقال: أريد أن تصرح به هنا، لأن هذا مقامه. فقلت قد كتبته في مجلة «المعرفة» في شهر يناير سنة ١٩٣٢. فقال: أرجو إثباته هنا مأخوذاً من فحوى ما هنا. فقلت: قد جاء فيها تحت العنوان الآتي ما يأتي، وهذا نصه:

آراء خطيرة في الخلافة الإسلامية

مبحث الخلافة الإسلامية مبحث مهم من المباحث العلمية الإسلامية، وكل علم لا يعرف الناس أدوار تاريخه يكونون في دراستهم له وأحكامهم فيه أشبه شيء بمن يبني بيته على شفا جرف هار، وبمن يستسمن ذا ورم وينفخ في غير ضرم.

إن الخلافة الإسلامية في الأعصر الغابرة لعبت دوراً عظيماً مهماً، وشغلت أمم الإسلام قاطبة، وتفرقوا فيها فرقاً شتى وأحزاباً متباينة، وينشأ الناشئون من الأبناء على ما عوّدهم الآباء.

وينشأ ناشئ الفتيان منا ... على ما كان عوّده أبوه

وكل حزب بما لديهم فرحون، وهل يتسنى لطفل تربى على مذهب خاص في أمر الخلافة أن يفكر في القرآن وفي الإجماع؟ بل يظل على عقيدته حافظاً لطريقته لا يتعداها، جامداً عليها لا يتخطاها، إن أكثر نوع الإنسان في الأرض مقلدون، جمدت القرائح وتعارضت الظنون، ووقفت الحركة العلمية الإصلاحية في جميع الشؤون، حتى إذا قرعت القارعة، وأصابت الصاعقة، وأحاطت بنا الأمم، ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٦]، أذاقونا سوء العذاب ونحن غافلون. فتعالوا أيها المسلمون أتل عليكم نبأ الخلافة، وأبد رأياً مجملاً يقبل التفصيل والتحوير.

إن أمر الخلافة لن يستقر قراره ويتم الرأي فيه إلا بالبحث في أحوال الخلفاء السابقين، والوقوف على أعمالهم، حتى نستنتج نتائج منها، ثم نعتبر بما فعله أسلافنا، ونبني على ذلك الأساس عملاً بقوله تعالى: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[الحشر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأعراف: ١٠٠].

إن الخلافة إذا كانت مقيدة بالشورى موجهة للمصلحة العامة بإخلاص، تصبح خدمة عامة لا ينتطح في أمرها عنزان، ولا يرثها الأبناء عن الآباء، فإن كانت غير ذلك كانت أداة سوء تتقاذفها في أيدي الجهال، وتأبى أن ينالها الأبطال. توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفه أبو بكر فعمر فعثمان فعلي رضي الله عنهم.

درسنا مجمل أخلاق الخلفاء الراشدين فلم نجد أبا بكر وصى بها لابنه واستنكر عمر قول من طلبها لابنه عبد الله، ثم لم نر أحداً منهم استكثر من الأموال واتبع الشهوات، ذلك شأن الخلافة في

الإسلام. إن أمر الخلافة شورى بين المسلمين: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨]، هذا هو الصراط المستقيم.

مضى عصر الراشدين، وتولاها الأمويون وأولهم معاوية، فاستبدّوا بالأمر فقاومهم بنو هاشم ففتك بهم الأمويون فتكاً ذريعاً، ثم اشتد العباسيون والعلويون في مقاومة الأمويين، وساعدهم شيعتهم الفارسيون ويطلهم أبو مسلم الخراساني، وأكثروا من موضوعات الأحاديث، وما كاد الأمر يتم للعباسيين حتى قلبوا ظهر المجن للعلويين وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، وقتل المنصور محمد بن عبد الله، وهو الخليفة الحقيقي صاحب البيعة الصحيحة.

هنالك أصبح الخليفة العباسي بعد تشريد الأمويين يقتل العلويين باليمين وأبناء عمه العباسيين بالشمال، بل كثيراً ما كانوا يقتلون شيعتهم غدراً كأبي مسلم الخراساني وجعفر البرمكي وغيرهما كثير. ولقد تغالى العباسيون في إذلال العرب كما تغالى بنو أمية في إعلاء شأنهم على غيرهم، وما قاله إبراهيم الإمام لأبي مسلم: من ترددت في أمره فاقتله، وحرّضه على قتل العرب، فقتل منهم ٦٠٠ ألف رجل غدراً وهم آمنون.

مات الرشيد وخلفه الأمين والمأمون، وأم الأول عربية، وأم الثاني فارسية، فنصر الفرس ابن أختهم، وشردوا العرب كل مشرد، وأذلوهم ومنعهم المعتصم العطاء. ولما كانت أم المعتصم تركية من بلاد الصغد أصبح مغرماً بالترك غير واثق بالعرب ولا بالفرس أجمعين.

هنالك أصبحت الخلافة في العباسيين اسماً بلا مسمى، وتنازع القواد من غير العرب الرئاسة، وصار الخلفاء آلات صماء في أيديهم، فقتلوا منهم ٣٨ من ٥٩، وسملوا أعين بعضهم، حتى زالت الدولة على أيدي التتار، وكل ما حصل للعباسيين تم نظيره في الأندلس، وقد كانوا يستغيثون بجيرانهم من الأسبان على إخوانهم، فيهلك الفريقان، فربما كانوا يقتلون المستجير بهم غدراً، كما حصل لجندل بن حمود أمير إشبيلية، إذ وعده البابا ودوق فينزيا وبعض دوقات أوروبا أن يكون ملك الأندلس كلها إذا ساعدهم في فتح قرطبة، فبرّ بوعده لهم، فقتلوه غدراً وخربوا إشبيلية.

هذه شذرة من تاريخ الخلافة وما يتبعها من الإمارات في الإسلام. وكان ذلك كله عقاباً على ترك الشورى المنصوص عليها في القرآن.

والذي أراه:

أولاً: أنه يجب على كل أمة عربية أو غير عربية أن تعمم التعليم للذكور والإناث بقدر الإمكان.

ثانياً: يجتمع أمراء الإسلام المفوضون من أممهم في أمر الخلافة، لينتخبوا أميراً منهم لها، على شريطة ألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم، من صلح أو حرب أو غيرهما كما كان يفعل الخلفاء.

ثالثاً: أن يكون الانتخاب لسنين محدودة أو لمدة الحياة، فإذا انقضت المدة في الأول أو مات في الثاني فلينتخبوا سواه بالشورى، فإذا أعيد انتخابه في الحالة الأولى فلا بأس بذلك.

رابعاً: يجب أن يراعى في الخليفة أمران مهمان وهما: (١) أن يكون جيشه أقوى جيوش الأمراء. (٢) أن يكون أهل مملكته أعلم من سائر الأمصار، ولا يكون للنسب فضل إلا في الترجيح إذا تعارض

أميران واستوفيا ما ذكرناه. ونستأنس للشرطين المذكورين بقوله تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[البقرة:٢٤٧].

خامساً: كل أمير تسيطر عليه دولة أجنبية لا حق له في تولي أمر الخلافة، لأن رأيه تابع لرأي من فوقه، وهذا ضار بالمسلمين.

سادساً: إذا تعذر الاجتماع في هذا الزمان لضعف وافتراق كلمة؛ فليتربص المسلمون الوقت المناسب.

فأما الخلافة الضعيفة التي يتولاها من لا يحوز هذه الثقة، فما هي إلا شبكة صائدين، وحيلة محتالين، فهل المسلمون عقار يتناوله الأبناء عن الآباء؟ كلا، إنهم خير أمة أخرجت للناس، وهم شهداء عليهم، فليكونوا بالأولى لخلفائهم مصطفين ولهم مشيرين وعلى أعمالهم شاهدين ولاعوجاجهم مقوّمين.

هذا ما أراه في شأن الخلافة، وفوق كل ذي علم عليم. هذا هو ما كتبته في مجلة «المعرفة»، والحمد لله رب العالمين.

فلما سمع صاحبي هذه المقالة قال: حسن هذا الرأي، ولقد ذكرت فيه أن الدولة العباسية اضمحلت وضعفت واستبد بها عمالها، فهل من سبيل إلى معرفة الفروع التي تفرعت لها تلك الدولة أيام ضعفها؟ فقلت: نعم. جاء في الجزء الأول من «تاريخ التمدن الإسلامي» ما يأتي:

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى وسعها السواد بين الفرات ودجلة. ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم في مدينة بغداد، وإليك فروع المملكة الإسلامية على عهد الرضي بالله في الربع الأول من القرن الرابع للهجرة:

الولايات	حكامها
البصرة	في يد ابن رائق
خوزستان	في يد البريدي
فارس	في يد عماد الدين بن بويه
كرمان	في يد أبي علي محمد بن إلياس
الري وأصفهان والجبل	في يد ركن الدولة بن بويه وغيره
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	في يد بني حمدان
مصر والشام	في يد الإخشيد
خراسان وما وراء النهر	في يد السامانية
طبرستان وجرجان	في يد الديلم
البحرين واليمامة	في يد القرامطة

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الأمر استفحالاً أن الخدم والأجناد أصبحوا مطلقي الأيدي في قصور الخلفاء، يستبدون في أعمالها ويسومون الخلفاء صنوف الإهانة وأنواع العذاب، كما فعل جند المغاربة والأتراك في المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه، لأنه قصر في عطائهم. فإنهم دخلوا حجرته وجروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع الأخرى لشدة الحر. وبقي بعضهم يلطمه، وهو يتقي بيده، وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبي الشوارب القاضي وجماعة فأشهدوهم على خلعه، ثم سلموه إلى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام. ثم أدخلوه سرداباً وجصصوه عليه فمات. ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للأتراك ولا لغيرهم من غير عرب قريش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بني العباس. فما زالت الخلافة العباسية في بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦هـ، ففرّ من بقي من أهله إلى مصر والتجؤوا إلى سلاطينها المماليك، فأنزلوهم على الرحب والسعة، إلى أن فتح السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم. وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعاً نيفاً وخمسين خليفة، منهم ٣٧ في العراق، أولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون من مصر.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: ما أحسن التفصيل بعد الإجمال، ولو أننا وقفنا على مجمل الدول الإسلامية من أول عصر النبوة إلى الآن؛ لكان ذلك أشد جمالاً وكمالاً. فقلت: هاك جدولاً ببيان ذلك وهذا نصه:

جدول الدول الإسلامية منذ ظهور الإسلام إلى الآن				
اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الخلفاء الراشدون	مكة	٠٤	٠١١	٠٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٠٤١	١٣٢
العباسية	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
الأموية بالأندلس	قرطبة (الأندلس)	١٩	١٣٨	٤٢٢
الحمودية	مالقة (الأندلس)	٠٩	٤٠٧	٤٤٩
الحمودية	الجزيرة (الأندلس)	٠٢	٤٣١	٤٥٠
العبادية	أشبيلية (الأندلس)	٠٣	٤١٤	٤٨٤
الزيرية	غرناطة (الأندلس)	٠٥	٤٠٣	٤٨٣
الجهورية	قرطبة (الأندلس)	٠٣	٤٢٢	٤٦١
ذو النونية	طليطلة (الأندلس)	٠٣	٤٢٧	٤٧٨
العامرية	بلنسية (الأندلس)	٠٧	٤١٢	٤٧٨
التوجيبية	سرقوسة (الأندلس)	٠٩	٤١٠	٥٣٦

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
ملوك دانية	دانية (الأندلس)	٠٢	٤٠٨	٤٦٨
النصرية	غرناطة (الأندلس)	٢١	٦٢٩	٨٩٧
الأدارسة	مراكش (أفريقيا)	١٠	١٧٢	٣٧٥
الأغالبة	تونس وغيرها (أفريقيا)	١١	١٨٤	٢٩٦
الزيرية	تونس وغيرها (أفريقيا)	٠٨	٣٦٢	٥٤٣
بنو حماد	جزائر الغرب (أفريقيا)	٠٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش وغيرها (أفريقيا)	٠٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالي أفريقيا (أفريقيا)	١٣	٥٢٤	٦٦٧
بنو حفص	تونس (أفريقيا)	٢٢	٦٢٥	٩٤١
بنو زيان	جزائر الغرب (أفريقيا)	١٠	٦٣٣	٧٩٦
بنو مرين	مراكش (أفريقيا)	٣٥	٥٩١	٩٥٧
الشرفاء	مراكش (أفريقيا)	٢٨	٩٥١	لا تزال
الطولونية	القطائع (مصر)	٠٥	٢٥٤	٢٩٢
الأخشيدية	الفسطاط (مصر)	٠٥	٣٢٣	٣٥٨
الفاطمية	القيروان والقاهرة (مصر)	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الأيوبية	القاهرة (مصر)	٠٩	٥٦٤	٦٤٨
المماليك البحرية	القاهرة (مصر)	٢٧	٦٤٨	٧٩٢
المماليك الشراكسة	القاهرة (مصر)	٢٣	٨٧٤	٩٢٢
العائلة الخديوية	القاهرة (مصر)	٠٧	١٢٢٠	لا تزال
الزيادية	زبيد (اليمن)	٠٩	٢٠٤	٤٠٩
اليعفورية	صنعاء الخ (اليمن)	٠٩	٢٤٧	٣٤٥
النجاحية	زبيد (اليمن)	٠٨	٤١٢	٥٥٣
الصليحية	صنعاء (اليمن)	٠٣	٤٢٩	٤٩٥
الهمدانية	صنعاء (اليمن)	٠٨	٤٩٢	٥٦٩
المهدية	زبيد (اليمن)	٠٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن (اليمن)	٠٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	اليمن (اليمن)	١٧	٦٢٦	٨٥٨
الطاهرية	اليمن (اليمن)	٠٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة الرسية	صعدة (اليمن)	١٧	٢٨٠	٧٠٠

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
أئمة صنعاء	صنعاء (اليمن)	٠٠	١٠٠٠	لا تزال
الحمدانية	الموصل الخ (سوريا)	٠٩	٣١٧	٣٩٤
المرداسية	حلب (سوريا)	٠٧	٤١٤	٤٧٢
العقيلية	الموصل وغيرها (سوريا)	٠٧	٣٨٦	٤٨٩
المروانية	ديار بكر (سوريا)	٠٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة (سوريا)	٠٨	٤٠٣	٤٨٩
الدلفية	كردستان (فارس)	٠٥	٢١٠	٢٨٥
الساجية	أذربيجان (فارس)	٠٤	٢٦٦	٣١٨
العلوية (الزيدية)	طبرستان (فارس)	٠٤	٢٥٠	٣١٦
الطاهرية	خراسان (فارس)	٠٥	٢٠٥	٢٥٩
الصفارية	فارس (فارس)	٠٣	٢٥٤	٢٩٠
السامانية	تركستان وفارس	١٠	٢٦١	٣٨٩
خانات ايلاك	تركستان	٢٤	٣٢٠	٥٦٠
الزيارية	جرجان	٠٦	٣١٦	٤٣٤
الحسنويهية	كردستان	٠٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه	العراق وغيرها	٢٠	٣٢٠	٤٧٧
الكاكويهية	كردستان	٠٢	٣٩٨	٤٣٣
السلاجقة وفروعهم	جنوبي آسيا	٥١	٤٢٩	٧٠٠
الدانشمندية	سيواس وغيرها	٠٥	٤٩٠	٥٦٠
الأتابكة البوريون	دمشق	٠٦	٤٩٧	٥٤٩
الأتابكة الزنجيون	سوريا وبين النهرين	٢٠	٥٢١	٦٤٨
الأتابكة البكتجينيون	أربلا وغيرها	٠٣	٥٣٩	٦٣٠
الأرتقية	ديار بكر	٢٥	٤٩٥	٧١٢
شاهات أرمينية	أرمينية	٠٨	٤٩٣	٦٠٤
أتابكة أذربيجان	أذربيجان	٠٥	٥٣١	٦٢٢
السلغرية	فارس	٠٩	٥٤٣	٦٨٦
الهزارسبية	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٠٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٠٨	٦١٩	٧٠٣

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
آل عثمان	الأستانة العلية وغيرها	٣٥	٦٩٩	لا تزال
خانات المغول	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٤٣
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٠
خانات العشائر الذهبية	قاراختياي	٤٠	٦٢١	٩٠٧
خانات القرم	القرم	٤٦	٨٢٣	١١٩٧
خانات جاغتاي	تركستان	٢٦	٦٢٤	٧٦٠
الجيلاريون	العراق وغيره	٠٦	٧٣٦	٨١٤
المظفريون	فارس وكردستان	٠٦	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خراسان	١٢	٧٣٧	٧٨٣
الكرتيون	هراة	٠٨	٦٤٣	٧٩١
القراقيونليون	أذربيجان وغيرها	٠٥	٧٨٠	٨٧٤
اق قيونليون	أذربيجان وغيرها	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم	إيران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال
التيموريون	تركستان والتتر	١١	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	تركستان والتتر	١٩	٩٠٦	١٠٠٧
المنجيون	تركستان والتتر	٠٦	١٢٠٠	١٢٨٤
خانات خيوا	تركستان والتتر	٣٥	٠٩٢١	١٢٨٩
خوقند	تركستان والتتر	١٧	١١١٢	١٢٩٣
الجانيون	استراخان	١١	١٠٠٧	١٢٠٠
الغزنويون	أفغانستان وبنجاب	٢٢	٣٥١	٥٨٢
الغوريون	أفغانستان وهندستان	٢٠	٥٤٣	٦١٢
سلاطين دهلي	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٦٢
ملوك البنغال وحكامها	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
ملوك جانبور الشرقيون	جانبور (الهند)	٠٦	٧٩٦	٩٠٥
ملوك مالوا	مالوا (الهند)	٠٧	٨٠٤	٩٢٧
ملوك كجرات	كجرات (الهند)	١٤	٧٩٩	٩٨٠
ملوك خانديش	خانديش (الهند)	١٢	٨٠١	١٠٠٨
البهيمية	الدكن (الهند)	١٨	٧٤٨	٩٣٣
الشاهات العمادية	برار (الهند)	٠٥	٨٩٠	٩٨٠

اسم الدولة	كرسي ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ	سنة انقضائها هـ
الشاهات النظامية	أحمد نجر (الهند)	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
الشاهات بريد	بيدر (الهند)	٠٧	٨٩٧	١٠١٨
الشاهات العادلية	بيجابور (الهند)	٠٨	٨٩٥	١٠٩٧
الشاهات القطبية	كولكندا	٠٧	٩١٨	١٠٩٨
إمبراطورو المغول	هندستان (الهند)	٢٦	٩٣٢	١٢٧٥
أمراء أفغانستان	أفغانستان	١٥	١١٦٠	لا تزال

وخلاصة ذلك أن الدول الإسلامية التي ظهرت من أول الإسلام إلى الآن نيف ومائة دولة، عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس، فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والأمراء والأتابكة والأخشيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم. من العرب والفرس والأتراك والشراكسة والأكراد والهنود والتتر والمغول والأفغان وغيرهم. ومن عواصمهم المدينة والكوفة والشام وبغداد ومصر والقيروان وقرطبة والأستانة وصنعاء وعمان ودهلي وغيرها. انتهى ما أردته من كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي»، والحمد لله رب العالمين.

بهجة الجمال في تاريخ الأمم الإسلامية
في جواب اعتراض على المؤلف في هذا المقام

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مسامرتي في هذا التفسير فقال: يخيل لي أن هذا المقام قد خرج عن دائرة التفسير خروجاً يؤدي إلى أن يحسب الإنسان نفسه في تيهاء المعارف ومفاوز العلوم، أو كأنه غريب في وسط هذا المعمعان العلمي، فأين آية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات: ٩] من هذه الدول المتشاكسة، والأحوال المتناقضة التي لا حد لها ولا نهاية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنت بما صنعت هنا خرجت عن دائرة المفسرين جميعاً، فإنهم قليلاً ما يتطرّفون إلى مثل هذه المشاكل والمشاجرات والحوادث، علماً منهم بأن كلام الله لم ينزل لمثل هذه الأمور، هو نور والنور غير الظلمات.

فقلت: حياك الله أيها الأخ، أنا أعلم أنك تعبر بهذا عن آراء كثير من إخواني المسلمين شرقاً وغرباً، وهذا القول أثار في نفسي آثاراً جميلة صالحة:

وحرّك وجدي بعد ما كان نائماً ... برأد الضحى مشغوفة بالترنّم
فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدي شفيت النفس قبل التندّم
ولكن بكت ليلى فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدّم

أذكرتني بقول ابن الفارض:

أجد الملامة في هواك لذيذة ... حباً لذكرك فليلمني اللوَّم

أن ملامتك أيها الصديق إغراء:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... إن مسها ضجر مسته سرّاء

فلما سمع صاحبي ذلك قال: أخذت في الغزل بدل الإجابة، وذكرت الخمر المذمومة طباً وشرعاً. فقلت: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١]، هاجت بلابل شوقي للمباحث الجميلة، والآيات البديعة، في هذا الوجود وحكمته، والعلم وروعته.

أيها الأخ الذكي، سأحدثك الساعة مجيباً عن اعتراضك بما يثلج صدرك ويشرحه، ويصلح بالك، فأجعله في ثمانية فصول:

(١) في النظر في عالم الحيوان.

(٢) وفي بروز الإنسانية من وسط معامع الهيجاء الثائرة في الشهوات البهيمية، والسطوة السبعية وتسلطها على القوتين، والاعتدال فيهما.

(٣) وأن هذه النظرات العلمية ظهرت على لسان «كونفيشيوس» الفيلسوف الصيني في القرون الأولى.

(٤) ثم قفاه «سقراط» في جمهوريته وانتحى نحواً آخر في سياسة الأمم، وهما في النتيجة متآخيان متقاربان، وإن لم يعرف أحدهما أخاه، لتباعد الديار، وانقطاع الأخبار.

(٥) ثم تطبيق علوم تلك الأمم البائدة على الأمم الإسلامية في القرون الأولى، وكيف تطوروا في سياستهم على مقتضى ما ذكره «سقراط»، فكان أوائلهم على المنهج الأتم، وتنزل الأبناء عن سنن الآباء دركة فدركة إلى أن انحطوا إلى أسفل سافلين في سياساتهم.

(٦) ثم تبيان أن ذلك لم يخلقه الله سدى، بل جعله بصائر ونوراً لنا نحن المسلمين في هذا العصر الذي جاء كالفاصل بين أمدين متناقضين، أمد مضى بحوادثه وتجاربه التي جعلت سلالم يصعد عليها الجيل الحالي والجيل المقبل إلى قمة السعادة والهناء.

(٧) ثم بيان أن تجارب الآباء وحوادثهم لم تظهر آثارها أكمل إلا في زماننا هذا، لأن الله يريد أمماً تكون في سعادة وحبور.

(٨) ثم تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس بالعلم والعرفان في هذا الزمان.

الفصل الأول: نظرتي في عالم الحيوان

اللهم إن نورك مشرق علينا، في كل حين شمس تشرق، وقمر يضيء، وكواكب تزين، ومجرات كثيرات الشموس، وسدم بعيدات الأمكنة، طويلات الأزمنة، من حيث وصول أنوارها إلينا.

رباه، جمل صنعك، بهرت حكمتك. رباه، خلقتنا في وسط هذا النور والجمال، وجعلت فينا قوى تحثنا على أعمال لنا نحن، فماذا وجدنا؟ وجدناك يا رباه بعثت في الحيوان نشاطاً بقوى ثابتات فيه سميناها «القوى الشهوية»، تلك القوى حركته لطلب القوت، وطلب النسل، وعاش في هناء وحبور رأيناك منحته غرائز، تلك الغرائز تكفلت بحفظ الفرد، وحفظ النوع، وحفظ السعادة الزوجية، في مقابلة أحوالنا المنزلية، وحفظ الجماعات في مقابلة أحوالنا السياسية.

هذه يا رب حال الحيوان الذي يحيط بنا، أنت القائم بشأنه، فالنور الذي يحيط بنا من كل جانب وتراه عيوننا قد أعطى الحيوان في داخله قوى تضيء له طرق الحياة، مشابهات من حيث حقائقها له مشابهة ما.

إن الحيوان بنوره الداخلي الموازي لنور الكواكب الخارجي من حيث الهداية قد كفاه أمر السعادة الشخصية المنزلية والسياسية، ولكنا من جهة أخرى وجدنا أموراً عجيبة، وجدنا قوى الغضب في كواسر الحيوان أغرته أن يسطو على أمثال الغزلان والأرانب من آكلات الحشائش. تسطو الكواسر من الطير على بغاثها، والسباع والنمور والوحوش على ذوات الظلف والحافر وغيرها، مجزرة هائلة، وميدان واسع للقتل والفتك والنهش، بينما نرى كل نوع من حشرات، أو طير، أو زواحف، أو كواسر؛ مسوقاً بغريزته للتعاطف والتواد والتراحم، بالعواطف تعارضت واتجهت إلى اتجاه الإهلاك والتدمير والذعر والخوف والعداوة والعدوان، ملحمة مجزرة مهلكة، جنائز تتبعها جنائز، وضحايا وراءها ضحايا، في وسط هذه المعامع والمجازر برز خلق جديد.

الفصل الثاني: في ظهور الإنسان بين أنواع الحيوان

ظهر بين هاتيك المجازر والمعامع خلق جديد هو الإنسان، وما هو؟ هو حيوان اجتمعت فيه القوة الغضبية مع القوة الشهوية، فهو سبع وغزال ونمر وأرنب وذئب وطاووس، هو جماع كل حيوان فظهر التضارب في أخلاقه، والخلط في أفعاله، كما كان بين الأسد والشاة والنمر والغزال، ولكنا رأينا له حالاً ثالثة سميناها «عقلاً» عقلت القوة الأسدية أن تطغى، والقوة الشهوية أن تحيد عن الصراط السوي، وهنالك كان الظن أن يكون هذا الإنسان معتدلاً، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، فإننا رأينا المجازر والمذابح والغارات التي تشنها الآساد على الغزلان، تفعل مثلها وأشد منها الأمم القوية مع الضعيفة، ومن الخجل أن الكواسر من الطير، والفواتك من السباع لها العذر في الفتك بآكلات الحشائش فأما الإنسان فإنه حيوان زاد في شرهه عن كل حيوان، فهو يغير على غيره ليأكل من تعبه وعرق جبينه ليكون الغنم له والغرم على غيره بلا علة إلا طغيانه. ولا سبب إلا جهله وخطله المبين.

هذه صفات أكثر نوع الإنسان، ولقد ارتقت عن هؤلاء طائفة منهم فقالوا: قف أيها الإنسان قف، أين عقلك؟ إنك لغوي مبين، نحن تنزلنا عن الحيوان شرفاً، ونزلنا دركات في طرق العماية، ألسنا أشرف منه قدراً، ألسنا أرفع منه مرتبة؟ أفلا نكون نحن بررة أتقياء، فعلينا أن نجعل المجموع مساعداً للمجموع فلنقم بالقسط، ولنترك لكل امرئ ما كسب، بل لنزهد نحن فيما في أيدي غيرنا، ولنكن آباء رحماء للناس، هذه مزيتنا لا غير، لقد علمنا مما جربنا أن الله سريع الحساب، وبهذا نزل الكتاب، ألم تروا أيها الناس أن الإنسان إذا أكل فوق طاقته، فإنه يتحمل تبعة جهله، ويعطى الدواء المر الكريه، فيكون الغنم بالغرم، أليست البطنة تذهب الفطنة؟ بل ألم يظهر في علم الطب حديثاً أن كل مأكول قد طبخناه نقص من مادة الحياة فيه مقدار عظيم، وما لا يطبخ يعطي قوة الحياة لنا كاملة، إذن أيها الناس نحن غافلون، اتباع اللذات والشهوات له رد فعل، فالله سريع الحساب لنا في نفس الحياة فضلاً عما بعدها، وأيضاً إذا توغلنا في اللذات وجدنا قوانا ضعفت، وكل جيل يكون أضعف مما

قبله، والعاقبة مخزية موقعة في الدمار والهلاك، فهذه الطائفة من نوع الإنسان قالت: كلا، فلتكن حكومات، وليكن نظام، فانظر:

الفصل الثالث: فيما نقل عن كونفشيوس الفيلسوف الصيني العظيم

بقلم الكاتب الأمريكي «ول. دورانت» مؤلف قصة «الفلسفة وعصور الفلسفة»، وقد ذكر أسماء ١٢ عظيماً اختارهم من بين عظماء التاريخ مثل:

(١) إن التقويم المصري عثر عليه قد ألف سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد، وهذا من باب عجائب العلم.

(٢) ومثل بوذا المتوفى سنة ٥٤٢ ق. م.

(٣) ومثل كونفشيوس المتوفى سنة ٣٧٨ ق. م.

(٤) ومثل سقراط المتوفى سنة ٣٩٩ ق. م.

(٥) ومثل قيصر المتوفى سنة ٤٤ بعد الميلاد.

(٦) ومثل المسيح.

(٧) ومثل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة ٦٣٢ ب. م.

(٨) ومثل روجر بيكن المتوفى سنة ١٢٩٤ ب. م، الذي يدعون أنه أول من استعمل البارود.

(٩) ومثل غوتنبرج المتوفى سنة ١٤٥٤ ب. م مخترع المطبعة.

(١٠) ومثل كولمبوس كاشف أمريكا سنة ١٤٩٢ ب. م.

(١١) ومثل «جيمزوط» مخترع الآلة البخارية سنة ١٧٦٩ م.

(١٢) الثورة الفرنسية.

هذه هي الحوادث التي اختارها ذلك الكاتب الأمريكي التي يعدها بحسب نظره هو أنها أعظم ما أثر في العالم الإنساني، وأنا الآن لست أريد إلا سيرة كونفشيوس الفيلسوف الصيني الذي عاصر سقراط ولم يكن بينهما معرفة ولا مواصلة، فهل لك أن أحدثك عن أولهما، ثم أحدثك عن ثانيهما؟ أحدثك عن أولهما في هذا الفصل، لماذا أحدثك عنه؟ لأنه شرح المسألة التي أنا الساعة بطريق حلها، مسألة نظام هذه الدنيا، هذه الدنيا الجميلة في نظر الفيلسوف، المرتبكة الموحشة في نظر الجاهلين.

الله أكبر، أنت كبير، أنت عظيم، عجبنا يا رب لهذا الإبداع! عجبنا يا رب لإبداعك! تعاليت وارتفعت عنا، وأرسلتنا إلى الأرض، وقلت لنا: أيها الأطفال اذهبوا إلى الأرض فعيشوا فيها، وسترون موتاً وحياة، وعزًّا وذلًّا، وقاهراً ومقهوراً، وغالباً ومغلوباً، وحيوانات ذرية تسطو على الإنسان، وعلى الأسد، والأسد يسطو على الإنسان، وإنساناً يحارب إنساناً بالسيف والنار والحديد والبارود والغازات السامة، فتذهلون من هذا المنظر، وتقولون موت وحياة، وفراق ووصال، ما هذا ما هذا. ولكني اخترت منكم طائفة يعيشون بينكم وهم غرباء عنكم، يعيشون فيكم وأرواحهم في الحقيقة كأنها مخلوقة منفصلة عن أجسامهم، وكأنهم في عزلة عن المادة، أشهدتهم صنعي، وأفهمتهم حكمتي، وأن ما يشاهدونه إنّما هو المظاهر التي تشبه مظاهر السينما «دار الصور المتحركة» يراها المتفرجون صوراً تتبعها صور والنفس باقية خالدة لن تموت، وما هذه الصور إلا أحوال مختلفات

عارضات على النفس التي لا خلاص لها من هذا البحر المتلاطم وهو المادة إلا بما يعتريها من نحس وسعد وموت وحياة، فالأهل والأحباب على مريضهم وميتهم يكون، والنبي والحكيم والفيلسوف يضحكون سروراً لما تجري به المقادير عليهم وعلى غيرهم، لأنهم للناس آباء، والناس كلهم أبناؤهم، وقد أشهدهم الله وأطلعهم على مجمل سره المصون المكنون، فعرفوا أنه رحيم، وما عمله إلا لتخليص النفوس من الجهالة، ورقيها إلى أن تصل إلى مبدعها الحكيم، فتشاهد الجمال والجلال، فهذه الطائفة منهم كونفشيوس وهو حكيم كبير. قال الكاتب الأمريكي في ذلك مذكوراً في مجلة «المقتطف» في شهر نوفمبر سنة ١٩٣١ م:

ولا بد لنا من رمز يمثل الصين، الصين العظيمة التي يدعوها أبناؤها «كل ما تحت الشمس»، والصين القديمة التي ما زالت تدوّن تواريخ ملوكها وأعمالهم منذ أربعة آلاف سنة إلى الآن، وإني لأغتنم هذه الفرصة لأعرض على نظر القارئ فقرة من كتابات كونفشيوس، فإنها تحتوي على حكمة خالصة من الشوائب وهي من كتاب «المعرفة العظيمة». قال: إن الأقدمين الأمجاد كانوا إذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية وينشروها بين الناس ينظمون أحوال ممالكهم، وقبل أن ينظموا أحوال ممالكهم كانوا ينظمون أحوال أسرهم، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا يهذبون أخلاقهم، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون نفوسهم، وقبل أن ينقوا نفوسهم كانوا يحاولون أن يكونوا صادقين ومخلصين في تفكيرهم، منزهين في أغراضهم، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين كانوا يوسعون معارفهم، وتوسيع المعرفة كان يجيء عن طريق البحث والمشاهدة، شاهدوا الأشياء والأفعال فاكتملت معارفهم، ولما اكتملت معارفهم خلصت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم فتنقت نفوسهم فانتظمت أسرهم، ولما انتظمت أسرهم انتظمت دولهم وأصبحت الأرض كلها تمرح في السعادة والوئام.

ولما كنا مرائين في الفكر، ونرفض أن نرى الأشياء على حقيقتها؛ كالديمقراطية مثلاً والزواج والاستعمار ونظام الطبقات في أوروبا وأمريكا، فنحن لسنا مخلصين في تفكيرنا، ولما كنا غير مخلصين في تفكيرنا تعذر علينا أن نبلغ بنفوسنا مراتب الكمال، وأن ننظم حياتنا، ولما كنا لا نستطيع أن ننظم حياتنا الشخصية لم نستطع أن ننظم أسرنا، وإذن فدولنا في حالة اضطراب وفوضى.

هذا هو الدرس البسيط الذي يلقيه علينا كونفشيوس، إنني أحسد أولئك التلاميذ الصينيين الذين كان يفرض عليهم أن يحفظوا أقوال كونفشيوس عن ظهر قلب، فقد وجدت كل سطر من سطوره يصل إلى صميم الحقيقة، وفي الوقت نفسه يمكن تطبيقه، وإذ أخلو إلى نفسي أقول: لو أن بعض هذه الحكم طبع في نفسي من عشرين سنة لكنت فزت باتساق النفس، والكرامة الروحية، والفهم الهادئ، والخلق المتين، والأدب الخالص، وهي الصفات التي يتصف بها الصينيون المثقفون الذين عرفتهم، أنا لا أعرف رجلاً طبع أمة بطابعه كما طبع كونفشيوس أمة الصين، فلنتخذ تاريخ وفاته رمزاً وحافزاً، إن هذا الرمز ينطوي على القصائد الغنائية البديعة التي نظمها شعراء دولة «تانغ» الصينية، وصور المشاهد الطبيعية المتسمة بسمة التصوف والشوق، والآنية الصينية الكاملة شكلاً

وزخرفاً، وحكمة حكماء الصين وفلاسفتها، إن حضارة من أعظم الحضارات القديمة تلخص في اسم كونفشيوس. وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع: في آراء سقراط في جمهوريته

لقد عرفت أيها الأخ الذكي أن كونفشيوس في الصين بنى نظام المدينة والأخلاق كلها على اتساع المعارف، واتساع المعارف بناه على البحث والمشاهدة، وبالبحث والمشاهدة كملت المعارف فخلصت الأفكار، وهذبت الأغراض والأخلاق وصفت النفوس فانتظمت الأسر فالدول.

يا سبحان الله! إذن أمم الإسلام لا رقي لها إلا بمعرفة المشاهدات واستقصائها بحثاً وتنقيباً، فيعرفون إذن علوم الكائنات حولهم، ويطالعونها، ويدرسون آثار الأمم البائدة التي ورثوا هم أرضهم وديارهم، ومتى درسوا ذلك عرفوا الخطأ فتحاشوه، إذن لندرس الآن هذه العوالم المحيطة بنا من صنع الله تعالى، وندرس تواريخ أسلافنا من العباسيين والأمويين والصحابة والتابعين، ثم نرى الحسن فنفعله والقبيح فنجتنبه، لا أننا نتغنى بسطوة الملوك وجبروتهم، ومنحهم الشعراء أموال الأمة جزافاً، ولننبذ كل ما كان فيه استبداد كميراث الخلافة الإسلامية بالمبايعة القسرية، وتوارث المسلمين بها كما تتوارث النعاج الخراف، كل ذلك لن يكون إلا بالدراسة، وهذا الإجمال الذي قاله فيلسوف الصين فصله سقراط المعاصر له.

فقد جاء في الجمهورية في الكتاب الرابع حكاية عن «اديمنتس» الذي تدخل في الموضوع وسأله قائلاً: وبماذا تدفع عن نفسك يا سقراط؟ ـ يريد بذلك أن سقراط حرم على رجال الدولة القائمين بالحكم أن يتمتعوا بالأموال، بل يجب أن يكونوا زهاداً على الهيئة التي رأيناها في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وأن لهم هم سعادة روحية، وتبتلاً، وصلة بربهم، تجعلهم أسعد ألف مرة من المترفين البائسين الجاهلين ـ إذا احتج أحد عليك بأنك لم تبلغ برجال هذه الطبقة «الحكام» أوج السعادة؟ مع أن اللوم عليهم في عدم سعادتهم، لأن الدولة دولتهم عند التحقيق، ومع ذلك فليس لهم فيها حظ الذين يملكون الأراضي ويشيدون الأبنية الفخمة، ويفرشونها فرشاً يتفق مع فخامتها، ويذبحون الذبائح، ويولمون للأصحاب، ويملكون الفضة والذهب، وكل ما هو ضروري لإسعاد الناس، وقد يقال إنهم كصغار المستخدمين ليس لهم في المدينة إلا الخفارة.

سقراط: نعم، بل يظهر أنهم يقتصرون على القوت، ولا يأخذون معه مالاً كالآخرين، فلا يمكنهم السفر على نفقتهم إذا أرادوه، ولا تقديم الهدايا للحظايا، وإنفاق الأموال على الرغائب الأخرى، كما يفعل المحسوبون سعداء، وأمثال ذلك من الأمور مما طويت عنه كشحاً.

اديمنتس: فأضيف ذلك إلى شكواي.

سقراط: أفتسألني أيّ دفاع أقدّم؟.

اديمنتس: نعم.

سقراط: أظن أننا إذا استأنفنا السير في الجهة نفسها أدركنا الدفاع المطلوب، مع أنه لا يستغرب كون هؤلاء الحكام أسعد السعداء حتى في هذه الأحوال، على أننا لم نؤسس الدولة لمجرد إسعاد قسم

من أهلها، بل لإسعاد الجميع معاً على قدر الإمكان، فغرضنا في إنشاء الدولة اكتشاف العدالة، كما أننا في دولة أخرى ساء نظامها نكتشف التعدي، وبعد اكتشاف هذي وتلك يمكننا البت في المسألة التي أمامنا، فنحن جادّون في الوقت الحاضر في إنشاء دولة سعيدة، لا في أن نخص أفراداً منها بالسعادة، بل أن نسعد جميع أفرادها على السواء، ثم ننظر في دولة هي نقيض هذه أحوالاً، فلو صورنا شخصاً بشرياً فانتقدنا منتقد بأنا لم نزين أجمل أقسام الصورة بأبهى الألوان، لأن العيون وهي أجمل أعضاء الجسم لم تلون بالأرجواني بل بالأسود، فيجب أن نفكر في أنه دفاع كاف قولنا له: أيها الناقد مهلاً، لا تتوقع منا أن نلون العيون باللون الجميل بحيث لا تبقى عيوناً، وهكذا يقال في بقية أعضاء الجسم، ولكن انظر أنا جعلنا الجسم كله جميلاً بتلوين كل عضو فيه باللون الملائم، فجرياً على الطريقة نفسها في مثلنا الحالي توجب علينا أن نسبغ صنوف السعادة على الحكام فيصيرون غير ما هم. اهـ.

وجاء في الكتاب السادس من الجمهورية في صفحة ١٥٥: إن هؤلاء الحكام فضلاً عن زهدهم في المال، وأنهم آباء الدولة، يجب أن يدرسوا كل علم ليصلوا إلى معرفة الله عز وجل الذي عبر عنه هو بالخير، وهذه الدراسة مفصلة في هذا التفسير، مجملة في الجمهورية، وإنّما طلب ذلك لأن تلك الدراسة توجب حب صانع العالم ومتى كان هذا الحب تمت السعادة وصار هؤلاء الحكام خلفاء له في إدارة أرضه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[ص: ٢٦] الخ.

وقسّم في الكتاب الثامن من الجمهورية الحكومات إلى خمسة أقسام: أرستقراطية، وتيموكراسية وأوليغاركية، وديموقراطية، واستبدادية. فالأرستقراطية حكومة الفلاسفة، وهي الحكومة العادلة المشروحة شرحاً وجيزاً فيما تقدم، ثم يظهر بعد ذلك الخلف على غير طريقة السلف، فيظهر خلف الفلاسفة غير مراعين الحكمة، فيصبح الأمر بيد القوّاد، ويقومون بالدولة بدل الفلاسفة، وهي التيموكراسية، ثم يظهر بعد ذلك الطمع في المال، وتذهب الحماسة من الجنود، ويصبح المال هو المقصود بعد أن كانت الحكمة في الأرستقراطية، والحماسة في التيموكراسية، فالمال إذن يكون هو المقصود في الأوليغاركية، فإذا أصبح هذا مقصود أكابر الأمة فهم إذن مجرمون، لأنهم يخدمون الشهوة الساقطة، شهوة البطن والفرج، وإذن يصبح المال في يد الحاكم، فيقوم الشعب ويحاسبهم حساباً عسيراً، وتنزع الأمة إلى الثورة، فتكون الحكومة بالانتخاب، والانتخاب يرجع فيه إلى الأفراد كلهم وهي الديموقراطية، وتكون الحكومة الاستبدادية إذا لم يمكن ضبط الأفراد.

هذه هي الحكومات وأنواعها، ومن رأي سقراط أن أعلاها أولها، وآخرها أقلها شأناً. والديموقراطية وهي الرابعة على حسب زمانه لقلة المواصلات رديئة، ولكن في زماننا قيمتها عظيمة، وهذه الحكومات ذكرناها هنا لنبني عليها ما نريد من الكلام في الفصل الخامس.

الفصل الخامس

في تطبيق علوم تلك الأمم على أممنا الإسلامية في القرون الأولى

فإذا رأينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبذل قصارى جهده في التبري من مال المسلمين ويكتفي بأقلّ القوت، ورأينا أبا بكر قبله والنبي صلى الله عليه وسلم وعلياً وعثمان رضي الله عنهم، فإننا نقول

هذه الحكومة فيها اقتراب مما وصفه سقراط، وإذا رأينا أن العصر الأول لما ذهبت دولته، ورأينا الأمويين والعباسيين في القرن الثاني يقاتل بعضهم بعضاً؛ وإن كانوا مجتهدين والمجتهد له أجر، ورأينا أمثال عبد الله من ذرية الحسن وقد حضر عند السفاح، ورأى المال المنهوب من بني أمية، وهو جواهر وحلي للنساء، وهو يطلبه من السفاح، لأن ابنه كان هو صاحب البيعة؛ فإنا لا نشك أن هذا الجيل أقل من الجيل في القرن الأول، لأن بعض آل البيت أحبوا المال، وقد كان علي رضي الله عنه وعمر يتبرأان منه ويهربان، وهذا يأخذ ألف ألف درهم، ويأخذ جواهر لبنات آل البيت، وقد كانت تنفر منه وتحقره فاطمة رضي الله عنها، فالسفاح في المثال المتقدم المشروح آنفاً قبل هذا المقام في الطبقة الثانية وهي التيموكراسية فهو إلى الحماسة أقرب، وعبد الله من ذرية الحسن الذي أشبه بالطبقة الثالثة وهي الأليغاركية، وهي التي مقصد أربابها المال، فهو إذن في رتبة شهوية كما كانت التي قبلها حماسية. وبعبارة أخرى: إن أمثال الخلفاء الراشدين إلى الحكمة أقرب، وأمثال السفاح إلى الحماسية أميل، وأمثال عبد الله المذكور إلى دولة المال أقرب وهي التي يعقبها الاضطراب.

هذا ما استنتجناه من قراءة التاريخ المذكور هنا، ثم أصبح أبناء الخلفاء بعد ذلك جميعاً على نسق واحد، وهو هذه الطبقة. طبقة المال والشهوة البهيمية، فأما جنودهم من الترك والفرس وغيرهم فهم أقرب إلى الحماسية، فأصحاب الحماسة أذلوا أصحاب الشهوة، أي: الطبقة الثانية أذلت الطبقة الثالثة.

اللهم إنك أنت المحمود على نعمة العلم، نحمدك أنك عرّفتنا لماذا انتقمت من المسلمين بعد العصر الأول وسلطت بعضهم على بعض، وألبستهم شيعاً، وذاق بعضهم بأس بعض، لأنهم لم يكونوا في الذروة العليا من مقاصد الملك، وهو العدل والصدق والإخلاص، وإعطاء كل ذي حق حقه، أي أنهم لم يكونوا خلفاءك أنت على عبادك في الأرض، وبعضهم أخلد إلى الأرض واتبع هواه في الميل إلى عصبيته، وأبناء بيته، وتفضيلهم على سواهم، وأنت ما أرسلت نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم إلا للعدل العام، وهجر العصبية الجاهلية، لذلك عاقبتهم بالتخاذل، وجعلت الملك في أيدي غيرهم، وجعلتهم خاضعة أعناقهم لقوادهم من الترك وغيرهم.

هاهنا ظهرت الحكمة في تسليط بني هاشم بعضهم على بعض، فالعباسي يقتل العلوي، والعلوي يطالب بالملك، والله يقول: كلا. لا ملك لأنكم تريدون مطلباً أدنى، وهذا الدين نزل لما هو أعلى، فكونوا متعادين لأسلط بعضكم على بعض، وذلك جزاء الذين لا يعدلون.

خطاب من المؤلف إلى السفاح العباسي وعبد الله الحسني

أيها السيدان العظيمان، أزلتما دولة الأمويين، وأخذتما جواهرهم ونقودهم، لمن هذه النقود، ولمن هذه الجواهر؟ أهي لكما أم للأمة؟ ستقولان: إن لنا في بيت المال كذا وكذا، وتحتجان بفروع علم الفقه، والفقهاء مختلفون، وعمر رضي الله عنه يرى غير رأيكما، لندع فروع الفقه جانباً، نحن نريد تربية الأمة، إن الأمة لا تربى بهذه الطريقة، لا تربى الأمم بأن تجعل طائفة منها تختص بالمال، وتجعل غيرها مسخرة لها، فهذا مثال العين وصبغها بالصبغ الأرجواني الذي ذكره سقراط ضربه مثلاً لطبقتكم الشريفة، يرى علم الحكمة المدون قبل النبوة أن طبقة الحكام أولى بأن تزهد وترضى كما

ترضى العين بصبغها البسيط، وتتباعد عن أن تتزين كما تتزين العرائس، وأن تكون مترفة، إن المترف لذليل، وكثرة المترفين تسقط الأمم، الوقوف عند فروع الفقه والجدل فيها إضاعة لجمال الإسلام. يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[الإسراء: ١٦].

أليس هذا هو دين الإسلام؟ أيليق بنا أن نجعل جسم أمتنا أعضاء مصابة بالشلل، لندع الفلسفة والحكمة العقلية جانباً، ولنرجع إلى النبوة، ماذا رأينا فيها؟ رأينا إعراضاً تاماً عن مال الأمة من نبينا صلى الله عليه وسلم وخلفائه، فماذا جرى بعد هؤلاء؟ رأيناكما أيها السيدان تتهاديان مال بني أمية، فأنت يا سفاح تواسي به عبد الله الحسني لأنك اغتصبت الخلافة من ابنه وهو يتشوق للمال ويفرح، وأنتما معاً نسيتما أن المال مال الأمة إن لم يكن بعلم الفقه، فليكن بعلم الأخلاق، وعلم القرآن، وعلم النبوة وسيرة الصحابة، أين رأي الأمة في هذا المال، نحن أيها السيدان نحفظ حقكما وشرفكما ونعدكما مجتهدين، والمجتهد مخطئاً ومصيباً مرحوم، ولكن الاجتهاد شيء وتربية الأمة شيء آخر، هاهو ذا كونفشيوس الفيلسوف الصيني يجعل نقاوة الضمير وتهذيب النفس، ونظام الأسرات، ونظام الممالك كل ذلك موقوف على البحث في المحسوسات وفهمها ودرسها، وهاهي ذه النبوة المحمدية الشريفة قد ظهرت أنوارها في الخلفاء الأربعة، نسمع أصحابه رضي الله عنهم يقولون: من حفظ «البقرة» و«آل عمران» جدّ في أعيننا، وهذا عجب، ونسمعهم يقولون: ما كنا نحفظ آي القرآن حتى نفهمها. وهذا تقدم قريباً، هذه «البقرة»، وهذه «آل عمران»، ونحن الآن نحفظهما ونحفظ القرآن كله، ونحفظ علوماً وعلوماً، ولكن أين ملوكنا وحكامنا وقضاتنا الذين أشبهوا أبا بكر وعمر وأمثالهما، أخبراني أيها الشريفان العظيمان، وقولا لي يقع في خاطري أن النبوة كانت تلقي عليهم تعاليم تبعثهم على النظر في ملكوت السماوات والأرض، حتى ترسخ محبة الله ومحبة الخير للناس في نفوسهم أولاً، وتعاليم أخرى تجعلهم يفكرون في الأمم والدول والأخلاق والأحوال. وإلا فلماذا نسمع كما تقدم أن بعضهم يحفظ السورة في سنين معدودة، ما هذا الحفظ، وما هذا البطء إلا بتفهم المعاني التي ذكروا أنهم يتعلمونها من نبينا صلى الله عليه وسلم.

خطاب المؤلف للمسلمين

أيها المسلمون نحن اليوم نسلم تسليماً قاطعاً أن تعاليم الخلفاء الراشدين ومن كان معهم مجهولة عندنا، ونقرّ ونشهد كما جاء في الأحاديث السابقة المنقولة عن «الإتقان» للسيوطي أن حفظ آيات من القرآن أيام النبوة كانت متبوعة بمعان نجهلها نحن الآن، بدليل أننا لم نجد رجالاً يضارعون الخلفاء الراشدين في تعميم العدل في الأمم، نقرّ بهذا ونعترف به، ونقرّ بأن التعاليم التي فهمها الصحابة أو أكثرهم لم يعرفها أكثر الناس بعد ذلك وضربوا عنها الذكر صفحاً. نعم، الشريعة كلها بلغت هذا لا شك فيه، إنّما الأمور التي وقرت في الصدور، وهي التي تهذب الأخلاق وتحفظ الدول، وتحفظ المال للأمة؛ جعلت نسياً منسياً غالباً. أقول: فلعل ما أطلنا به في هذا التفسير يحوم حول بعض تلك المعاني الشريفة، ففيه بهجة الجمال السماوي والأرضي، وفيه نظام الدول والممالك، وكيف يكون

زوال الملك تابعاً للشره على المال. فلعل هذا الكتاب يكون فاتحاً باباً يلجه المسلمون بعدنا ويدخلون منه الحقائق الخلقية والنظم الدولية، فلا عجب في ذلك، فقد رأينا النيل يجري من خط الاستواء وبين منبعه ومصبه في البحر الأبيض المتوسط ما يربو على ألفي ميل، ولم تظهر ثمراته إلا بالقرب من مصبه في بلادنا المصرية. أما في السودان فثمرته قليلة، فلعل دين الإسلام كذلك بالنسبة لزمانه القديم بعد العصور الأولى وزمانه الحديث اليوم، والله هو الولي الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل السادس
في أن الله عز وجل هو الذي أسس ذلك التاريخ لنا نحن

ذلك أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. والعلم والدين لا تظهر فوائدهما التامة إلا بعد التجارب الكثيرة، وهانحن أولاء رأينا تجارب الآباء، سنأخذ اليوم حذرنا مما وقعوا فيه، ونؤسس الممالك على الشورى، ولا نكون مغرمين بالمال كالطبقة الشهوية، ولا بالعظمة كالطبقة الحماسية، بل نكون مغرمين بالعدل، سائرين على منهاج الخلفاء الراشدين، وما عدا ذلك فنحن ندعه. وهانحن أولاء عرفنا حقيقة التاريخ والله بالمرصاد لمن غفل في السياسة، كما إنه بالمرصاد لمن غفل في تدبير الطعام والشراب، فالمقصر والمغالي فيهما مخذول مقهور مهان ذليل، فمن أكثر من الطعام أورثه الأسقام، وشرب الدواء الكريه المر، هكذا من طغى في الملك منع لذيذ النوم، وأصبح محسوراً مقهوراً.

خطاب الله للأفراد والأمم

إن ما نراه من عقاب للأفراد وللأمم من حيث الإسراف في المأكل والمشرب، ومن حيث الجهل بالمحبة العامة في الأمم يفهمنا فهماً علمياً، كأن الله عز وجل يخاطب الأفراد قائلاً: أيها الناس، هاأنا ذا أنزلتكم في الأرض، وأعطيتكم الحب والفاكهة والخضر، وبوّأتكم في الأرض منازل وقصوراً لأنظر أتكفرون بجهل نعمي ووضعها في غير موضعها، أم تشكرون بالنظام العام؟ وقد أعددت لكم العدة، وأقمت العدل بينكم، وأنا سريع الحساب في الدنيا قبل حساب الآخرة، فمن أكل فوق طاقته، واتبع شهوته، فإني أعددت له أمراضاً مختلفات تذله ثم تقتله، وإذا أراد البرء منها أعددت له أطباء وأمرتهم أن يحضروا له العقاقير المنافية لمزاجه ولذوقه، وأعطيتهم الأسلحة والمشارط، وقلت لهم: أيها الأطباء من استغاث من هؤلاء الجاهلين بنظامي وهو مريض فجرّعوه كؤوس الأدوية يشربها صبراً وعلقماً، ومزّقوا جلده بأسلحتكم المعدّة لذلك، وأدخلوا تحت جلده مواد تحقنونه بها، زيادة في تعذيبه، ونكالاً به، لأنه جهل نعمتي، وهذه الأدوية المرّة ما هي إلا أنواع من السموم التي تحتمل أجسامهم تحملها، وتقدر على أن تسوغها وتتمثل بها، فمن عاش من هؤلاء عاش عليلاً سقيماً، ومن كثرت أدويته أوردته موارد الهلكة، وعجلت به إلى عالم الأرواح ليعرف مستقره ودرجته في عالم الأموات.

هذا خطاب الله الذي يخيل لنا أنه يخاطبهم به في كل زمان ومكان، وكأنه عز وجل يخاطب الأمم قائلاً: أيتها الأمم، هاأنا ذا خلقتكم والحشرات وبقية الحيوانات حولكم، وكثير منهن لها ممالك

منظمات، ومحبة ومساعدة تامة كالنمل والنحل، أما أنتم فإن أي أمة جهلت المحبة العامة وتقاطعت وأصبح أفرادها بعضهم لبعض عدو كما حصل في أمم العرب وأمم الإسلام المتأخرين، فوعزتي وجلالي لأسلطن عليهم من هم أكثر منهم التئاماً، وأوصلهم رحماً، وأقربهم محبة، وأحسن منهم نظاماً في مدينتهم وإن كان دينهم أقل من دينهم، وشرفهم أدنى، ولكن المودة العامة نامية، فهؤلاء أسلطهم على هؤلاء المتقاطعين يسومونهم سوء العذاب، ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً، ويزيدونهم تقاطعاً بالوشايات والنكايات، ويصيرون لهم أشبه بالخدم والعبيد حتى يستيقظوا من نومتهم.

فالأمم العظيمة التي استحكم نظامها وإن كان كثير من رجالها فاسقين أسلطهم على الأمم المتقاطعة وإن كان أكثر رجالها صالحين، لأني أريد المودة العامة، والمحبة الملتئمة، التي تشمل الأمة كلها نظاماً وإتقاناً، فأي أمة قصرت في ذلك فإن من هي أحكم منها نظاماً تسطو عليها، وتهتك سترها، وتذلها، وتغير عليها بسلاحها ومدافعها وبارودها وطياراتها، فتقذف عليها النار من الجو، ومن السفن البحرية، ذلك جزاء الجاهلين.

هذا ما خطر لي اليوم ١٤ يناير سنة ١٩٣٢ ميلادية، ٥ رمضان ١٣٥٠ هجرية بعد الظهر، والحمد لله رب العالمين.

الفصل السابع

في بيان أن تجارب أيامنا هذا زمان ظهورها

إذا رأينا الفارس إذا مات في الهيجاء اختص باللحم الطيور، وبالعظام الوحوش، وأخذ الخيالة ما عليه من سلاح وكراع، وهذا هو المسمى بالسلب كسبب كما يقول عنترة شعراً:

لي النفوس وللطير اللحوم وللـ ـوحش العظام وللخيالة السلب

وإذا دفن في جدثه، فللدود والحشرات تراث لحمه وعظمه، ولورثته ماله وعقاره، وللأمة والتاريخ حوادثه وأخباره، لم يخلق الله خلقاً عبثاً، فإذا مات آباؤنا الأول، فلنا نحن أفضل ميراث عنهم، وهي العبرة في التاريخ، لأن الدود استوفى حظه، والورثة نالوا مرادهم، فلنستوف نحن ميراثنا الآن، ولنقل أن الأئمة رضي الله عنهم كأبي حنيفة ومالك وابن حنبل ومن بعدهم كانوا تحت سلطان قاهر وسيف مسلط، وملوك مغتصبين، فأهان المنصور الأول والثاني، وأما الثالث فقد امتحن وأهين في مسألة خلق القرآن، إذن فلا سبيل إلى إطالتهم في أمر نظام الدولة إلا بمقدار، أما أنهم يجسرون على تطبيق القرآن على الدول والممالك فلا.

(١) مثل أن يستنتجوا من آية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾[البقرة: ٢٤٦] أن المدار في الملك على قوة جسمه وعلمه. وأما مسألة شرف الآباء فليست مقياس ذلك، وهاهم أولاء بنو إسرائيل يقولون: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه لأننا من بيوته، ونسبنا أرفع من بيت طالوت ونسبه، وأيضاً ليس عنده سعة من المال، والمدار في الملك على المال والنسب، أي أنهم يريدون الطبقة الثالثة، وهي التي تملك بسبب سلطان القوة الشهوية، وهي «الأوليغاركية»، أي: المالية، فيصبح المدار في الملك على المال. فقال الله لهم: كلا. أيها الناس، المدار على العلم بدل المال،

واستعداد المرء من حيث ذاته هو لا أصله. فهذا رجوع إلى أعلى طبقة، وهو طبقة الأكابر والحكماء بقدر الإمكان. فهذه الآية تهدم الركن الركين في استيلاء العباسيين الأمويين ويرجعون إلى الشورى.

(٢) وهل يستطيع أصحاب الشافعي ومالك وابن حنبل وأبي حنيفة أن يرفعوا أصواتهم أمام ملوك هذه الدول، فيقولون: أيها الملوك، أما سمعتم قول الله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى: ٣٨] وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وقوله من قصة بلقيس: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[النمل: ٣٢-٣٣] الخ، وقوله في قصة فرعون إذ يشاور الملأ في أمر موسى إذ قال للملأ حوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾[الأعراف: ١١٠-١١١] الخ.

يا عجباً مملكتان شرقيتان يذكرهما القرآن، ملكة تقول: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، وملك عات يقول للملأ حوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾[الأعراف: ١١٠] القرآن صريح في الشورى، لا ملك يورث، ولا مال يؤخذ إلا بأمر نواب الأمة، أي: أهل الحل والعقد. فهذا كله ترك منذ العصور الأولى، لأن الحكومات مستبدة، وكل من رفع رأسه قتل أو أهين، ودرج الخلف على ما سنه السلف، ورضي الناس بالملوك وعاشوا في ظلالهم وهم كارهون أو غافلون.

أكتب هذا الليلة، ليلة الثلاثاء ٤ شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ، أكتبه وأنا مقبل على زمان سعادة وهناء لأمة الإسلام بعدنا، وسيكون هذا من مقومات النهضات، وبناء الحكومات على أساس وطيد، فلا المال ولا النسب، ولكن الكفاءة والعلم وضبط الملك، فهانحن أولاء جئنا في زمان لا حرج فيه على الكاتبين، نظرنا في تجارب الآباء فاستنتجنا منها هذه النتائج، وهي واجبة علينا، فأما من قبلنا فقد كانوا في زمان لا يستطيعون فيه أن يرفعوا أصواتهم حتى يرفع السيف على أعناقهم، وأنا لست أقول إنهم لم يدونوا ذلك هم دونّوه، ولكنهم لم يطوّلوا فيه كما أطالوا في البيوع والزكاة والصلاة وما أشبهها، والعلة هي الخوف مع أن هذه المسألة حفاظ لما عداها، لأنه لا صلاة ولا حج ولا غيرها والناس غير آمنين في منازلهم، والأمن يكون أكمل إذا أسند الأمر إلى أهله.

الفصل الثامن

في تبيان نعمة الله علينا وعلى الناس في زماننا وبعده

إن الله عز وجل سيسأل كل ذي علم عن علمه، والله سيسألني عن تقصيري في النشر بعد الفهم. يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] الخ، ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٥٩-١٦٠].

وسيسمع هذا أقوام بعدنا فيرون أن أهم ما في القرآن متروك، فلم يستنتج منه الناس علوماً فيوجبوا قراءتها. مثال ذلك: علوم الآثار كآثار الآشوريين، والبابليين، وقدماء المصريين، والفرس، وما أشبه ذلك، تلك الأمم الخالية التي عثر الناس عليها في الحفائر والمقابر، وعلى الألواح والطروس،

والورق، ورقّ الغزال، والبردي، أليست هذه هي التي يقول الله فيها كما قدمناه مراراً: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ [إبراهيم: ٤٥-٤٧] الخ. ألست ترى أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على مكر الملوك المستبدين في الأمم الإسلامية الذين ذكرناهم، وكيف كانوا يمكرون ويحتالون في حيازة ملكهم، وأننا نحن يجب علينا أن ندرس ذلك، ومن المدهش أن علماء الإسلام أجملوا ذلك، فجعلوا تلك العلوم من فروض الكفايات، ولكن المسلمين تركوا ذلك كله جهالة كما أوضحناه.

إن هذا المقال يطول إذا استطردنا فيه بذكر قصص القرآن وحوادث الأمم، كل ذلك ذكر لنظام الدول والممالك، وأنا أحمدك يا الله إذ وفقت لوضع نبذ في هذا المقام تدل على البقية وعلى من يأتون بعدنا، أن يدرسوا الفلسفة، ويستخرجوا خلاصتها مع خلاصة القرآن ويرقوا الأمم. إن هذا الزمان مبدأ لأمم أسعد حالاً وأرقى شأناً، ولذلك أنعم الله بهذا التفسير. ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف: ٦٤]. كتب ليلة الثلاثاء الساعة ١٢ أي نصف الليل ٤ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ، ٢ يناير سنة ١٩٣٢.

نظرتي في عوالم العقول وعوالم الحقول والمزارع والثمرات والتسليم لله لمناسبة ما كتبته في هذا المقام

رباه، أمرت نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسلم وجهه لله، وأمرتنا بذلك التسليم في آية: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾[آل عمران: ٢٠] الآية.

وأمرت المسلم أن يقول في أول كل صلاة: ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[الأنعام: ٧٩]. رباه، هانحن أولاء وجهنا وجوهنا لك، وسلمنا أمورنا إليك، ورجعنا إلى كتابك، وانتظرنا الفتح منك. رباه، هانحن أولاء نزلت أرواحنا إلى هذه الأجسام في أرضك، ونظرت في أحوال الأمم التي نعيش معها، والأمم الخالية فألفينا عجباً. ألفيناك فعلت في عقولنا ما فعلته في حقولك وحقولنا:

(١) ذلك أنك أنزلت المطر مدراراً في خط الاستواء أكثر أيام السنة، ولم يعوز المخلوقات الحية هناك حرث للأرض، ولا ري للشجر، فالأرض تجود بالشجر والمطر فوقها والثمار غزيرة، والمخلوقات الحية قريرة العين بتلك الثمرات اللاتي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

(٢) ثم رأينا أمماً أخرى في مناطق أخرى يعوزها حرث الأرض لاستخراج نباتها، وقد كفاه المطر السقي.

(٣) وأمم أخرى كأمتنا المصرية يعوزها أمران: حرث لأرضها لتقليب الطين فيها، واستخراج للماء من الآبار ومن النيل حتى يكون لها زرع وثمر. هكذا رأينا المواهب العقلية والحكمية:

(١) فهانحن أولاء نرى أنبياء ظهرت الحكمة في قلوبهم فبثوها للأمم، وهؤلاء الأنبياء لا يعوزهم معلمون أرضيون، وليسوا في حاجة إلى دراسة النظريات الفلسفية.

(٢) ونرى حكماء في الأرض يعوزهم بحث وتنقيب في مقابلة القسم الثاني فيما تقدم.

(٣) ونرى علماء يعوزهم أمران: تدريب عقولهم بالبحث، واستخراج العلم من مخزون علوم الأنبياء والحكماء.

هذه أقسام المواهب العلمية المقابلة لمنابت المزارع والحقول والأشجار الأرضية. إذن نحن اليوم من الفريق الثالث، فعلينا أن نجدّ لاستخراج ما كمن في عقولنا من المواهب في مقابلة حرث الأرض لاستخراج الزرع منها، وأن نقرأ ما انبعث من منبع النبوة من العلم، فلا ندع عقولنا بلا تفكير لئلا تهلك الأمة، كما تهلك أمتنا المصرية جوعاً إذا تركت حرث أرضها، ولا ندع علوم آبائنا الأولين ولا حكماء الأمم ولا علم الرسالة المحمدية، لئلا تهلك أمتنا الإسلامية، كما تهلك الأمة المصرية إذا تركت ماء النيل جانباً وأخذت ترقب المطر، ولا مطر غزير في بلادها. رباه، هذه طريقتنا في حياتنا الدنيا، نكتب هذا، وسيكتب نظيره من بعدنا، ونسلم أمورنا إليك، ونحن نوقن أن هذه المواهب وهذه المعارف ليست لنا، بل هي منك، وهي هبة لعبادك، فكل من كانت لديه أي حكمة من أمم الإسلام في زماننا أو بعده؛ فإنه مأمور أن يسلم أمره لله، وأن يسعى في نشرها في أمته، وأن يعلم أنه لا فضل له في معرفتها ولا في نشرها، كما لا فضل لأشجار خط الاستواء في غزارة ثمراتها، ولا لحقول الزراع المصريين في تغذية عبادك بحبوبها، فأنت الزارع في الحالتين، وأنت المهيمن على الأمم منها. فهأنا ذا أفوض أمري إليك، وأقول أسلمت وجهي لله اتباعاً لأنبيائك، لا سيما خاتم الرسالة صلى الله عليه وسلم، وأوقن أن ما أكتبه ما هو إلا غيض من فضل رحمتك، وما عقولنا ولا أبحاثنا إلا كالقلم في يد كاتبه يصرفه كيف يشاء، أنت منزل الماء من السماء ومحيي الأرض بعد موتها، وأنت منزل الوحي ومصرف العقول، وهاديها إلى ما تشاء من طرق الهداية. بها تحيي أمماً وأمماً، ولعل هذه الطرائق الحديثة في أممنا الإسلامية ترجع بالناس إلى العصور الأولى النبوية، عصور التسليم لك والانقياد لأمرك والسير على نصوص كتابك، والاهتداء بأنوارك، وقيام أمم ودول تكون أقرب إلى عصر النبوة في حبك وفي الإشراف على عبادك بحسن السياسة وانتظام الشمل، وبعبارة أخرى: يكون المسلمون في مستقبل الزمان رحمة لعبادك لأنك رب العالمين. اهـ.

إشراق شمس الإسلام بعد إظلام ليله

لقد أبنا في تفسير هذه الآية: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩-١٠] اختلاف الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة، وأفضنا فيه إفاضة كافية وافية، ومن عادة الله عز وجل أن يجعل بعد العسر يسراً، وبعد الضيق سعة، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

اللهم إنا نحمدك حمداً يوافي نعمك، ويكافئ مزيدك، رباه قد نلنا ما كنا نتمناه في أمم الإسلام رباه لقد أنلتني ما كنت أتوق إليه وأنا حي، نعم نلت ذلك، فيا سبحان الله! هل كان يدور بخلدي أن

أعيش حتى أطلع على الاتفاق بين إمام اليمن والملك ابن السعود، فمنذ أيام اختلفا على جبل بينهما، فوكل الأول الحكم للثاني، فحكم الثاني للأول، وفي هذا اليوم جاء في جرائدنا المصرية أي في يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ الموافق ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية تحت العنوان الآتي ما نصه:

الاتفاق بين جلالة إمام اليمن والملك ابن السعود

تم الاتفاق بين العاهلين العربيين، وذلك على عدة نقط، النقطة الأولى: أن الأربعة المخاليف التي كانت تابعة للسيد علي بن محمد الإدريسي، والذين انقضوا عليه بعد وفاة والده السيد محمد الإدريسي، والذين أخذوا منه المدافع التي كانت معه من متراليوز والجبخانة، وقد ظلوا حاكمين نفوسهم مدة من الزمن، غير أنه حصلت الفوضى بينهم، واختل الأمان والاطمئنان، ثم أصبحت من غير راع، فما كان من كبرائها إلا أنهم اتفقوا على أنهم يسلمون أنفسهم لجلالة الإمام يحيى، وذهبوا إلى أقرب نقطة تابعة لحكمه تسمى «ساقين»، وطلبوا من عامل تلك الجهة أن يتقدم ليتسلم أمورها، ويجري ضبطها، قبل استفحال الفوضى بها، وألزموه الحجة، فطلب منهم تسليم المدافع والجبخانة الموجودة معهم، وتسليم الرهائن بحسب العادة المتبعة هناك، فأجيب طلبه، فأرسل الجيوش المتوكلية واحتلت الجهة تماماً من غير أي مقاومة، وما بلغ الأمر إلى ابن السعود من عامله بصبياء أرسل من طريق جيزان تلغرافاً لعامل الإمام بميدى، وهو القاضي عبد الله العرشي الذي منه رفعه إلى جلالة الإمام يحيى، فحصلت المخابرات بين العاهلين، ثم اقترحا إرسال مندوبين من الطرفين، كان على رأس مندوبي اليمن حاكم ميدى القاضي العرشي ومعه شيخ مشايخ بلاد خولان راجح، وشيخ بلاد مجور، وشيخ بني جماعة، واجتمع الوفدان عدة مرات، ثم قرّ القرار على أن البلاد التي احتلها جيش الإمام تضم إليه، ويتوقف مؤقتاً عن التقدم إلى جهة صبيا وما يليها، ثم إن وفد ابن السعود طلب أن تعين الحدود ما بين عسير واليمن، فرفض الإمام يحيى ذلك، بحجة أن عسير من أمها اليمن، وقد أجري الصلح مؤقتاً بهذا وبناء على ذلك تم الاتفاق، وأمضى الفريقان المعاهدة. اهـ.

أفليس من العجب أن يكون هذان الأميران ابني تلكم الأمم التي لم تعرف إلا المشاجرة والتنابذ في القرون المتأخرة، وقد رجعا لعصر النبوة كرة واحدة اتباعاً لآية الصلح بين الطائفتين. هذا ومن عجب أن المسلمين يسرعون في الرقي، فهل كان يدور بخلدي أثناء طبع سورة «سبأ» التي كمل طبعها في شهر شوال سنة ١٣٤٨ هجرية أي منذ أقل من سنتين ـ وأنا الآن أكتب هذا يوم الاثنين العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٠ هـ ـ أن ما تمنيته لبلاد اليمن، بل ما توقعته يتم قبل مضي سنتين اثنتين. أفليس هذا من عجائب صنع الله تعالى التي توقعتها في هذا التفسير، حقاً حقاً إن الله أذن برقي أمم الإسلام.

كم ذكرت في هذا التفسير أن هذا زمان رقي أمم الإسلام. كم كررت هذه الجملة، نعم كررتها ولا دليل عندي إلا دافع نفسي، وهذا الدافع كان كافياً لما أكتبه، وليس هذا الدافع برهاناً عقلياً، إذ البراهين العقلية غير الأمور الوجدانية القاصرة على صاحبها، ولكم ضل قوم بوجدانهم فكثيراً ما يخطئ الوجدان، ولكن في هذا المقام صدق الوجدان، وتم ما كنت أتوقعه لهذه الأمة أو جلّه، حتى أصبح ذلك عندي يقيناً صدقته الحوادث.

فانظر كيف كتبت في تفسير سورة « سبأ » المذكورة أنني كنت فسرتها تفسيراً أولياً بدون اطلاع على ما كتبه المسلمون والأوروبيون عن الآثار في أرجاء اليمن، ثم عاقت العوائق عشر سنين اطلعت في أثنائها على تاريخ تلك البلاد، وسبب اضمحلالها، وأن القوم أهملوا أعمال زراعتهم، وصيانة سدودهم، فانهار السد، فتفرقوا شذر مذر، فكان الاستنتاج الإجمالي الأولي هو عين التفصيل التحقيقي بعد ذلك، وفي هذا التفصيل ظهر الكشف الحديث وفيه آثار بلاد سبأ، وخريطة مدينة مأرب بعد خرابها، وخريطة سد العرم، وذكر العلماء الذين نقبوا عن تلك الآثار، وما لاقوا من الذلة والمهانة وهم من أمم مختلفة، وكيف نشروا صور تلك الآثار في أنحاء أوروبا، والمسلمون لجهلهم بعلومهم وبلادهم، وعلوم الأمم حولهم ولغاتهم، خامدون نائمون جاهلون كأنهم لا يعلمون، أو كأنهم غير موجودين في هذا الكوكب الذي نعيش عليه، وختمت المقال هناك بنداء وجهته لأمم الإسلام، وقلت: إيه يا أمة الإسلام، أهكذا يكون المسلمون؟ إلى أن قلت: يجمل في دين المروءة والشرف أن يكون الجاهلون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين! إلى أن قلت: لا لا إن أمة الإسلام ستأخذ دورها عن قريب. أمة الإسلام النائمة قد انقضى دورها، وستأتي أمة الإسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله الخ، إلى أن قلت: لم ذكرت سبأ؟ ألقصة تذكر؟ كلا، والله ذكرت لنا الآن، ذكرت لمن يتعظون، دفن الله المال والعلم في الصخور والألواح وعلى الجدران، ثم أخرج ذلك الآن الخ.

هذا قلّ من كلّ مما كتبته في سورة « سبأ ». أفليس من العجب العجاب أن ترى في صحيفة الجهاد في نفس التاريخ المتقدم تحت عنوان « أخبار اليمن » ما نصه:

تقدمت الجيوش المتوكلية شرقاً واحتلت وادي سبأ ومأرب والبيضا والسودا والحمرا وبني نوف والعوالق وبيجان والمصعبين ومراد والجوبة، والجميع يسلمون البلاد إلى القائد العام السيد عبد الله الوزير من غير أي مقاومة، وفي أثناء هذه المدة يجرى التنقيب في مأرب باهتمام عظيم بواسطة الاختصاصيين الألمانيين عن ملوك حمير وكنوزهم المدفونة تحت الجبال، وقد اهتدت الحكومة اليمانية إلى إخراج مدفن بجهة مأرب، ووجدت فيه كمية واسعة من الكنوز الذهبية والأحجار الكريمة، وأيضاً وجدت مدفناً آخر بجهة بلد تسمى « النخلة الحمراء » وهي تابعة لبلاد الحداء، وتبعد عن صنعاء ٣٠ كيلومتراً، والمشرف على إخراج ما بها من الكنوز سيف الإسلام محمد بن أمير المؤمنين، وأيضاً وجد كنز بجهة بلدة تسمى « غيمان » وقد وجد بها تمثالاً لملك من ملوك حمير، وعدة تماثيل، منها ما هو على صور الخيل، ومنها ما هو على صور أخرى، وأما الملكة قرينة الملك فهم ينقبون عنها في بلدة تسمى « سيان » وهي تبعد عن صنعاء ١٠ كيلومترات، والتنقيب يجري باهتمام عظيم. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة، والحمد لله رب العالمين.

كل هذا لما كتبته وسمعه صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير سرّ أيّما سرور، وقال: هذا هو النصر والفتح المبين. هاهم أولاء القوامون على أمر اليمن قد نشطوا لاستخراج كنوزها ولكن خير لهم أن يعلموا أهل بلادهم كل علم وكل فن حالاً كما فعلت اليابان، وهاهم أولاء أمراء الإسلام غيروا طريقة آبائهم في القرون المتأخرة التي كانت كلها محناً وبلاء، فالحمد لله رب العالمين.

فقلت : إن أمم الإسلام اليوم تخطو خطوات واسعات نحو المجد ، وأنا أقول : ستشهد الإنسانية مشهداً إسلامياً لا يشابهه إلا عصر النبوة ، وينتشر الرقي الإسلامي انتشاراً لم يعهد له نظير ، وهذا ابتداء دوره في أثناء طبع هذا التفسير ، وهذه أمة مقبلة لا حد لكمالها ، ولا منتهى لسعادتها .

فقال صديقي : إن الأمر فوق ذلك ، إن اتساع المعارف أخذ يمتد بين أمم الإسلام جميعها ، فليس قاصراً على أمة العرب ، بل المدهش أن الأمم التي ليست بعربية أخذت ترتقي طفرة ، لا في الآثار وحدها ، ولا في الصلح بين الطوائف ، بل في سائر الشؤون الحيوية ، وهل أتاك حديث « المقطم » يوم الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩٣١ تحت عنوان « معلومات جديدة » عن بلاد التركستان وهذا نصه :

معلومات جديدة

عن بلاد التركستان الصينية « كشغر »

نصف ساعة مع السيد منصور خان

كثيراً ما كنت أحن إلى مصر حنين المرضع الرؤوم إلى فطيمها ، وكلما زممت حقائبي بقصد السفر تعاكسني الظروف وتقعدني الحوادث ، وما فتحت عيني من نوم إلا وأرى صورة الأزهر الشريف ماثلة أمامي ، لا تكاد تفارقني حتى أراد الله ، وكنت من جملة المدعوين إلى المؤتمر الإسلامي العام ، فلم أر بداً من زيارة مصر التي باتت مني قاب قوسين أو أدنى ، وبين عشية وضحاها كنت في مصر أسير في شوارعها جيئة وذهاباً ، وفي ذات يوم ضمني مجلس مع شاب يدعى السيد منصور أمين خان من بلاد تركستان الصينية « كشغر » وهو في العقد الثالث من عمره ، يحسن خمس لغات : التركية ، والفارسية ، والعربية ، والفرنساوية ، وجانباً من الإنكليزية ، وهو أسمر اللون ، معتدل القامة ، طلق المحيا ، ممتلئ الجسم ، لا يتكلم اللغة العربية إلا بأسلوبها الفصيح ، حتى إنك إذا مزجت كلامك بكلمة عامية يطلب منك تفسيرها ، وأنك تقرأ في جبينه عنوان الشرف والمبادئ السامية عندما يقع بصرك عليه ، فطلبت منه أن يتحفني بمعلومات عن تلك البلاد النائية ، فتفضل علينا بالحديث الآتي :

(س) ما السبب الذي حملك على مغادرة الوطن ؟ وهل زرت غير مصر من البلاد الإسلامية ؟.

(جـ) كنت تلميذاً في المدرسة الثانوية في « كشغر » والعلوم العصرية قليلة في بلادنا جداً بالرغم من رقي العلوم الإسلامية والآداب العربية والفارسية ، فمنذ عصور قديمة كانت بلادي وإخواني المسلمون غرقى في لجة الجهالة ، بحيث لا يمكنني تفصيل أحوالهم الاجتماعية في هذه المدة القصيرة ، فهاأنا ذا أريد الآن أن أرفع من شأن بلادي وشعبي ـ وهم مسلمو تركستان الصينية ـ بالعلوم العصرية تلك العلوم التي كانت منذ أزمنة متطاولة حتى زماننا هذا معدودة من أسباب الزندقة والإلحاد في البلاد بل الكفر ، وأن كل من يتعلم علماً عصرياً يعده قومي مارقاً من الدين ، إلى أن بزغ في آفاق عالم الإسلام شمس أحرقت بأنوارها حجب الجهالة ، فتجلى جمال الحقيقة ، وأزيل الغطاء عن عيون شباب بلادي جميعاً في بضع سنين ، الأمر الذي عجزت عنه القرون المتطاولة ، والمؤلفات التي كانت تصدر آناً فآناً لفلاسفة الإسلام ، وما هذه الشمس التي مزقت تلك الحجب وأحرقتها إلا مؤلفات فيلسوف الإسلام الأوحد فضيلة الأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري المصري الذي سحر عقول بلادنا في مدة وجيزة ،

وأبدع قرناً جديداً في الحياة الاجتماعية الإسلامية، ووفق بين القرآن والعلوم العصرية، مما لا يدع مجالاً للشك والريب في أن تلك العلوم هي نفس الدين، وأخص بالذكر من المؤلفات «التاج المرصع» الذي أهداه لميكادو اليابان، و«نظام العالم والأمم» و«تفسير الجواهر» وكتاب «القرآن والعلوم العصرية». ومن العجب أني في أي بلاد مررت بها في سفري إلى تركيا كنت أقابل من يعرف فيلسوف الشرق الشيخ طنطاوي جوهري، وفي يده أثر من آثاره القيمة يريد أن يتثقف به، أو يثقف به غيره، والحق يقال إن آثار الفيلسوف على ما أعتقد ستؤثر في عقلية الشعوب تأثيراً يشبه تأثير المصلح في الدين المسيحي «لوثر». ولما كنت في بلادي كان شباب تركستان الصينية يتشاورون فيما بينهم أن يشيدوا باسم الفيلسوف الجوهري جامعة تكون تذكاراً لاسمه، وتقديراً لأعماله، إن تلك الآثار القيمة أثرت في عقلية شبان تركستان الصينية الذين كانوا يتيهون في بيداء آسيا الوسطى حيارى لا مرشد لهم ولا دليل، في عزلة عن الأمم المتمدنة، فلما رأوها أقبلوا عليها، وحل في قلوبهم شوق إلى العلوم العصرية فسعوا إلى منابعها في جامعاتها في الممالك المتمدنة الأوروبية والإسلامية، وأن هذه الكتب الطنطاوية هي التي بعثتنا في أقطار الشرق والغرب لدراسة علوم الأمم مما حرم منه جميع أجدادنا وآبائنا، وأنا واحد من أول وفد قام من البلاد، وعددنا ثلاثون شاباً، وقام بعدنا وفد آخر فآخر، كل ذلك بتأثير مؤلفات هذا الفيلسوف، فهاأنا ذا غادرت بلادي إلى تركيا لاقتباس العلوم العصرية، وللارتشاف من مناهل حياضها.

(س) ذكرتم أن في بلادكم مسلمين، فكم عددهم ومن يحكمهم؟.

(جـ) عندنا أكثر من عشرة ملايين من الأتراك المسلمين الذين يتكلمون بلهجة قديمة من اللغة التركية، أما المسلمون في بلاد الصين فإنهم أكثر من سبعين مليون مسلم يتكلمون باللغة الصينية، ويعتادون العادات والتقاليد الصينية، ويدينون بالديانة الإسلامية المحمدية، وأن الذي يحكمهم هي الحكومة الصينية الإمبراطورية.

(س) هل تضيق الحكومة عليكم في دينكم؟ أم هل تقيمون الشعائر بكل حرية؟.

(جـ) نحن أحرار بكل معنى الكلمة.

(س) هل زرتم غير مصر وتركيا؟.

(جـ) الأفغان وإيران في طريقي إلى تركيا.

(س) هل مكثتم طويلاً في بلاد الأفغان؟.

(جـ) جلت في الأفغان ستة أشهر، وأن رفيقي أمين أفندي الكاشغري دخل في إحدى المدارس الأفغانية مجاناً تحت حماية أمان الله خان الملك السابق، فحينما ذهبت إلى وزارة المعارف الأفغانية أخبرني معاون الوزير أنه في صدد ترجمة كتاب «نظام العالم والأمم» للأستاذ طنطاوي جوهري إلى اللغة الفارسية لشبان الأفغان.

(س) قلتم إن كتاب «التاج المرصع» لهذا الفيلسوف أهداه صاحبه لإمبراطور اليابان، فهل لهذا الكتاب أثر في تلك البلاد اليابانية؟.

(جـ) إن التاج المرصع لما وصل إلى اليابان أكبّ المسلمون اليابانيون الذين أسلموا من ربع قرن بإرشاد المشهور عبد الرشيد إبراهيم السياح على قراءته، والآن في اليابان على ما سمعت من بعض الثقات أكثر من عشرين ألف مسلم ياباني، فصار هذا الأثر النفيس دولة، أي تتداوله الأيادي، وأثر في زيادة محبتهم لدينهم، والآن ينتشر الدين الإسلامي بتأثير ترجمة هذا الأثر انتشاراً واسع النطاق. انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة.

محمد سعيد درويش من سوريا الباب: نزيل مصر

فلما سمعت ذلك وكتبته قلت: صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم، وقرأت: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾[الأعراف: ٤٣]. كتب يوم الاثنين ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية و١٨ يناير سنة ١٩٣٢ م.

هذا هو نهاية الكلام على المقالة الأولى في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الحجرات: ٩-١٠]، والحمد لله رب العالمين.

المقالة الثانية: في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ ﴾

إن ما تضمنته هذه الآيات فيه مقامان:

المقام الأول: في غوائل اللسان من السخرية والاستهزاء واللمز والتنابذ بالألقاب والغيبة وما أشبهها.

المقام الثاني: في غوائل الأعمال القلبية، وقد أشير لها بالنهي عن كثير من الظن، ويقرب منه التجسس، فهاهنا أمران خطيران، هما: اللسان والجنان. قال زهير بن أبي سلمى:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

إن القلب هو العالم النوري الجميل العالي الشريف، الذي يجمع صور العالمين الدنيوي والأخروي، واللسان ينوب عنه في أداء ما كمن فيه من المعاني والعلوم والمعارف، وكل خير وشر، إذن أمرهما عظيم، ولا جرم أن فتح المدارس والمعاهد الدينية والكليات والجامعات، كل ذلك لتكميل العقل وتدريبه. ولقد كانت عناية الناس باللسان لها مقام عظيم أيضاً، ألا ترى أن العلوم اللسانية كلها في الشرق والغرب ترجع إلى تهذيب اللسان، وفي لغتنا العربية ١٢ علما: كالنحو والصرف واللغة

والمعاني والبيان والبديع والخط والإنشاء والتاريخ والإملاء والشعر والخطابة، كل هذه وما يشبهها إنّما جعلت لترقية اللسان، كما أن العقل يرقيه العلوم الرياضية والطبيعية، والعلم الأعلى وهو العلوم العامة التي تبحث في نظام العالم العام، وفي علم النفس وفي علوم الأخلاق والسياسة والله والأرواح والملائكة، إذن العقل واللسان أمرهما عظيم، لذلك كان لزاماً عليّ في هذه المقالة أن أبين لك أيها الذكي عجائب العلم والحكمة، وهذه الثروة العلمية التي ورثناها عن آبائنا الأولين، وكيف دفنت هذه الثروة في ثنايا الكتب مئات السنين، وكيف نبغت الأمم الأوروبية في هذه الثروة الآن، ولكن بهيئة غير الهيئة الإسلامية والنتيجة واحدة.

أنا أرى الآن أنك قد تهيأت نفسك أيها الذكي للتبيان، وشاقها ما سأقوله في هذا المقام، وإني سأعجل لك ذلك الآن فأقول:

يا سبحان الله! اللهم إنك أنت المعلم، أنت الهادي، أنت الحكيم، أنت معلم الطيور في أوكارها، والوحوش في أوجارها، والحشرات في أكنانها، والذرات المكروبية في أطوارها ومستقرها ومستودعها، وكل من هذه له طريقة تناسبه، وحال تلائمه، فهكذا نوع الإنسان قد جعلته أشبه بتلك الأنواع.

إننا نرى أن الكلام في تهذيب اللسان يتخذ طرقاً متباينة، وأحوالاً شتى، ونرى ديننا الإسلامي فيه من كنوز العلوم في هذا المقام وغيره ما به ينتفع الصادقون المخلصون، فهاهو ذا الإمام الغزالي قد ذكر في الجزء الثالث من «الإحياء» آفة اللسان، فجعلها عشرين، ستقرؤها قريباً، وأبان مضارها، والاحتراس منها.

وهاهي ذه جمعية المباحث النفسية في إنكلترا تبحث في غوائل اللسان كما بحث علماؤنا، ولكن بطريق أخرى، فانظر ماذا جرى، جعلوا العقل أشبه ببطارية الكهرباء، واللسان أشبه بحارس لتلك الكهربائية، فإذا حافظ عليها اللسان ولم يبعثرها وسكت؛ فإن تلك الكهربائية تكون عوناً لصاحبها في جذب القلوب وإقبال الناس على الإنسان وسهولة المعاملة وجميع مصالح الحياة، إن هذه الطريقة نافعة لمن يريد العاجلة، وطريقة علمائنا نافعة لمن يريد الآخرة، والطريقتان تسعيان لغرض واحد، وهذا أمر عجب!.

إن أسلافنا ظهر منهم الخطباء والحكماء والعظماء وأرباب الحجا بدون أن يعوزهم ما ذكره الأوروبيون، فهم عملوا بما وصى به الله ونبيه والعلماء فانتفعوا، ولكن علماء المباحث النفسية أدركوا أن الناس الآن لا يهتمون إلا بالنتائج القريبة.

اللهم إن ظهور نتائج حفظ اللسان عند علماء المباحث النفسية في زماننا من أكبر المعجزات وأعظم الفوائد في ديننا الإسلامي، فلأذكر لك أولاً ما سطرته من أقوال علماء جمعية المباحث النفسية، ثم أتبعه بما قاله الإمام الغزالي في «الإحياء»، وهذان في حفظ اللسان وهو المقام الأول.
ثم أختم بما ذكرته في كتابي في علم الأخلاق المسمى «جوهر التقوى» في الذنوب القلبية كالحسد والحقد بعد ذكر الذنوب اللسانية، وهو المقام الثاني من المقالة الثانية، وهاك ما قالته:

جمعية المباحث النفسية

المغناطيسية الشخصية

الفصل الأول:معرفة القوة

إن كل منا فيه بطارية كهربائية، يؤثر ويتأثر، فالحب من الناس لتيار منك وأنت لا تعلم، وكذلك النفور، فالمرء يؤثر ويتأثر طوعاً وكرهاً.

وجود التيارات العقلية

هناك قوة غير القوة العاقلة تعمل بغير العقل فلنسمها مغناطيسية وإن كانت هي غيرها، وقد تعمل أعمال الكهرباء، والقصد أن نعرف كيف نحكمها كما حكمنا الكهرباء وإن لم نعرف حقيقتها كما جهلت الحياة.

الفصل الثاني

من هو الرجل المغناطيسي؟ الرجل كالمرأة في المغناطيسية

(١) ترتاح لمعاشرته.

(٢) رزين لا يتأثر بسرعة.

(٣) الإحساس بقوة خفية فيه لا في حديثه ولا حركاته ولا سكناته ولا معاملته، بل هي جزء منه.

(٤) يستولي على جزء من كهربائيتك فتذهب إليه.

(٥) ينظر نظرات رحمة بين عينيك في أول الأنف بدون أن تشعر باشمئزاز مع اللطف عند أول كلامه معك.

(٦) يصغي إلي حديثك دائماً.

(٧) لا تقف أمامه عقبة، ولا يتلهف على مطالبه، بل هو واثق بها، لأنه متئد لارتكانه على المعرفة، وإنه ينال مقصوده.

(٨) لا يمدح نفسه البتة.

(٩) يزداد القوي قوة في مغناطيسيته، والضعيف يزداد ضعفاً، هذه قاعدة.

(١٠) لا يغرم بإظهار العلم، بل حديثه عادي.

(١١) لا يظهر الرغبة في الحديث، وأنت تعجب به لاعتقادك أنه قادر على الإخبار بالعجائب، وهو لا يريد وتظن أنه لا يتعمد ذلك، ويظهر لك كأنه فوق المدح والإطراء.

(١٢) إذا ترقى في هذه الصفة لا يسر بآثاره في أصحابه كالأول لأنه أرقى من ذلك.

(١٣) يترقى دائماً.

(١٤) مميزات المغناطيسية الشخصية: السطوة، والتأثير، والثروة، والجاه، والقبول عند الناس، وهي نتائج منطقية للمقدمات السابقة، ويجلب المحبة فجذب الثروة والأفراد.

(١٥) يعزّ عليك مفارقته، تتعلق به تعلق الطفل بأمه.

(١٦) يسلب علمك، وهو يحفظ علمه، ولو شاء لأسمعك فتحدثه وهو ساكت مصغ آخذ علمك.

الرجل غير المغناطيسي

(١) يخيفك وتكره مصاحبته.
(٢) يزيدك حزناً وانقباضاً.
(٣) يكدّر المجالس.
(٤) يشكو القدر، والأصحاب، والجو، وكل شيء.
(٥) متغير المبدأ، سريع التنقل فيه، وفي الحديث ثقيل عليك، ولا يقنع بشيء، عابس الوجه، خائب، لا يحب إلا الإطراء الكاذب، فتخلص منه بالإطراء الكاذب.
(٦) تفرح عند خروجه من عندك، ولا مغناطيسية عنده، هي سالبة، فقد أخذ منك شيئاً وهو بعض المغناطيسية.
(٧) سببه أنه لا يعتمد على نفسه، لا يستقل، والرجل المغناطيسي لا يشكو، ولا يبكي، هو قوة تخضع له الظروف، ويؤثر في البيئة التي حوله.
(٨) مسرف في أحواله.
(٩) منهزم سريعاً.
(١٠) النتيجة أنه لا يلاقي إلا الدمار تبعاً لقوانين الطبيعة الصادقة.

القاعدة الذهبية

(١) لا تشكِ لمخلوق ألمك.
(٢) ولا تسع وراء اكتساب المدح ولا الشفقة من الناس.
(٣) وفي كل رغبة قوة مغناطيسية يجب حفظها للانتفاع.

الفصل الثالث

طبيعة التيارات العقلية

(١) كل رغبة لأي مطلب هي تيار عقلي يحمل قوة مغناطيسية، يؤثر الرجل المغناطيسي على إخوانه ويعمل في هذا المستوى بقانون الجذب والتنافر.
(٢) استخراج القوة من الرغبة، هذه الرغبات إذا عصيناها وحفظناها كانت قوة حفظناها لأنفسنا، وإن جرينا وراءها ونلنا مبتغاها فقدناها، فلنحرص عليها، لأننا أحوج إليها فنختزنها.
(٣) فالأنانية والفخر الكاذب، وقلة الصبر، توجب أفعالاً تصرف بها عنا تلك القوة.
(٤) لا تدع مجالاً لتيار الرغبة أن يفلت من يديك، ولا تحقق تلك الرغبة لتكون لك قوة تنضم إلى أخواتها فتكون قوى الجذب لغيرك، فإذا رغبت أن تدهش إخوانك بأخبار عجيبة، ورأيت فيك مطمحاً لذلك فاسكت، وهذه قوة حفظتها، فإن حققت ذلك أضعفت مغناطيسيتك.
(٥) الكتمان: إذا رأيت أن تخبر أحد أصدقائك بخبر ولو كان لا قيمة له فاكتمه، فهذه رغبة مكتومة حفظت لك مغناطيسية، وهذه أشبه بالحمام في البرج، يجلب إليه أخواته، وكلما كثرت الأمثال تضاعفت الزيادة، وهذه تخدمك أجلّ خدمة.

(٦) إياك أن تظن أن حفظ هذه القوة هو الجمود والوقوف. كلا. بل كلما زادت حفظاً زادت قوة، كالنهر كلما علا سده زاد ضغط الماء عليه، فيسهل الانتفاع بها أكثر.

(٧) إن قوة الرغبة موجودة، ألم تر أنك قد تحملك الرغبة على المشي وركوب العربة لإخبار صديقك فإذا حفظت هذه القوة حفظت لك كل قواك التي كانت ستصرفها.

(٨) نحن لا يؤثر فينا غرابة الذكاء، وإنّما يؤثر فينا نفس الذكاء، فقابل الخبر المرقص بسكون كأنك فوق ذلك، لا أنك لا تميل لسماعه. كلا. وكأن نفسك عميقة، وإعجابنا بما يبدو من الأذكياء أقل من إعجابنا بأنهم أعمق منا، اجعل معارفك وإخوانك في ظلام دامس من جهة أفكارك، ومتى فعلت ذلك فجأة أعجب بك أصحابك حالاً.

(٩) الكتمان جعل الأتباع يظنون في المتبوعين قوة فوق طاقتهم. لولا الكتمان ما جهلت الحقائق، والجهل بها أورث الأتباع إعظاماً لمتبوعيهم، فعظماء الرجال سادوا بالكتمان.

(١٠) ممن اتصف بهذه الصفة تشارلس استيوارت الزعيم الإيرلندي وهو فوق نابليون، وكان كثير من هؤلاء معضلات عند أصحابهم، استوارت بارتل قليل الكلام جداً، ولا خشونة في صوته، ولا يتكلم إلا باللازم، وكان هادئاً في حديثه.

(١١) الصمت المذكور له أوقات كالأدوية المختلفة، ومعنى هذا الصمت أن أخبارك تحفظها في نفسك وتعود التفكير فيها فتكون قوة حقة، أما إذا تكلمت وصرحت بأفكارك فقد ذهبت مغناطيسيتك فإذا لم تطلعهم على سرك كنت ذا جاذبية قوية تجذبهم إليك كما يجذب المغناطيس قطع الحديد.

(١٢) لا تخبر إخوانك أنك قرأت المغناطيسية فذلك يسقط قيمة عملك، بل اكتم هذا تكون قوة عظيمة، أما إذا علموا كانت أعمالك ضائعة، واجتنب الإطراء، فالذي يطري أفعاله يزيد عليه الساكت الحافظ لرغباته، فالناس هم المادحون له.

الفصل الرابع

انظر في حياتك الماضية تجد أنك أنت و٩٩ من المائة من الناس ينتهزون الفرص لإخبار إخوانهم بما فعلوا لتظهر نباهتهم، هذه فطرة حب الإطراء والمدح، وهي تيار من تيارات المغناطيسية الإنسانية العقلية في المخ، يتسرب من النفس كما تضيع الكهرباء في الجو بدون عمل إذا لم تحفظ، إن هذه الغريزة فينا متى تركت وشأنها أضعفت قوانا، وأخذت منا منافع لا نهاية لها، وهي تضاد المنافع الواجبة لنا فلنحفظها، فلنحذر هذا ولتجتهد أن تكون منتبهاً فلا تحقق رغبة الإطراء ولو في أبسط الأشياء، فاحفظها تكسب غيرها بلا تعب، فسوف تشاهد النتيجة محسوسة، في زمن قصير ترى أمرين: الأول: أنك بعد أن تقرأ هذه الأخلاق وتعمل بها ترى تغيراً محسوساً في نفسك، وفي حياتك اليومية، يزيد احترامك لنفسك وثقتك بها، وتعلو هيبتك ووقارك، وتحس بالقوة الحقيقية تسري في عروقك، بعد التغلب على كل تيار تشعر به. الثاني: أنك ترى إخوانك قد تغيروا نحوك تغيراً كلياً، يزدادون رغبة للبحث عنك، والمحادثة والبقاء معك، يمكنك الزيادة في كل وقت إذا اتبعت ما يأتي: لا تحقق رغبتهم في معرفة شؤونك واترك أصحابك حيارى من جهتك، وإياك أن تظهر أنك تفعل ذلك متعمداً. انتهى الفصل الرابع.

الفصل الخامس

كيف يمكن استعمال القوى المضادة لفائدتك الشخصية

كل رغبة تيار موجب أو سالب يريد الاتحاد مع ضده فيحدث التعادل وترجع إلى ما كنت عليه كما يجذب القطب الموجب المغناطيسي القطب السالب، ألا ترى إلى السكير كيف يضرب بالفضائل عرض الحائط، ويفضح نفسه، ويخالف ضميره، تلك قوة قاهرة باطشة، فلا تستفيد منها كما يستفيد المصارع الياباني من خصمه، وتكون وبالاً عليه.

معرفة القوة القابلة للاستعمال

قد علمت القوة المغناطيسية الكامنة في التكتم، ونبذ الأنانية بالتكلم والفخر، كل دافع للرذيلة نعمة متنكرة فليقابلها اللبيب بصدر رحب على أي شكل كانت، فتزيد القوة المغناطيسية، فيضيف جاذبية على جاذبية عنده، فإن اتبع هواه رجع كالعادة وتضعف البطارية العقلية. إن العازل الواقي لك من ضياع المغناطيسية هو العلم الذي تقرؤه في مثل هذا.

تمرين هام لامتصاص الطاقة

إذا عرض لك خاطر مزعج مما كان يؤثر فيك سابقاً، فافرح فإنك أرقى منه، وفكر في أنك ستملكه وتنتفع به، ففي أثناء التفكير:

(١) خذ نفسك ببطء مقدار ٨ ثوان وكرر العبارة الآتية: سأسعى حالاً بإرادتي لامتلاك القوة الكلية لهذه الرغبة.

(٢) بعد ذلك احفظ الهواء في رئتيك ٨ ثوان، وكرر الجملة الآتية في أثناء ذلك: سأسعى الآن في امتصاص هذه القوة التي ستصبح من الآن ملكاً لي.

(٣) أخرج الهواء من رئتيك ببطء نحو ٨ ثوان وردد الجملة الآتية في نفسك أثناء ذلك: أنا الآن في هدوء تام، ويمكنني به أن أحكم القوة المغناطيسية التي أحرزتها، ويمكنك أن تكرر هذا التمرين عدة مرات إذا أردت.

هاأنا ذا شرحت لك طريقة الامتلاك والامتصاص والهدوء، وذلك لحفظ القوة فقط، بل العلماء يعتقدون أن هناك صلة بين الرئتين، وبين طبيعة الشعور البشرية.

يتغلب على هوى نفسه

إن هوى نفسك يفقد سلطانه عليك متى اعتقدت وعرفت أنك قادر على التغلب عليه، وأنك تسلبه قوته، وتستعملها لأغراضك، ففي خطوة واحدة صرت أرقى من الهوى النفسي، وأعلى من العواطف، والناس يسعون لهذا طول حياتهم، وقليل منهم الواصل.

مثل الرغبة والعواطف كمثل قنبلة فيها فتيلها المحترق الذي ينتهي بفرقعتها، فإن تركها الرجل الجاهل تفرقعت وقتلته، أو شوهت جسمه، وإن رفع الفتيل عنها ــ ولا أخالك إلا فاعلاً ذلك ــ صارت ملكاً حلالاً تنتفع بها في حياتك متى شئت، فالإنسان تحت العواطف هالك والمالك لها سعيد. انتهى الفصل الخامس.

الفصل السادس: الوقت اللازم لظهور النتائج

سيقول قائل: هذه الفصول الخمسة لم يجئ فيها أمور عالية هي معقدة سر؟ فنقول: عليك باتباع هذه التعاليم، والنتيجة أشبه بنتيجة الزرع، والقوانين هنا كالشمس، الزرع لا يورق ولا يزهر ولا يثمر إلا في زمان ملائم، هكذا هنا فليست النتائج بنت يوم أو بعض يوم.

بعض النتائج في الحال تشاهد

الطالب الجديد يشاهد في ٤ أو ٥ أيام على الأكثر بعض النتائج، وفي الحال يشعر باحترام نفسه، والثقة بها، وكلما زدت كبحاً للنفس زدت قوة في أعصابك ومخك تزيد في أبحاثك وثقتك بمغناطيسيتك الشخصية، وهي ليست أنانية، بل هي طمأنينة وراحة بها يتأكد لك عظيم نفوذك وتأثيرك، وهي لا تدعو للمباهاة، ولا المفاخرة أبداً، ولينتقد كل طالب نفسه بصراحة في كل لحظة، فلا يقع فيما يقع فيه الناس من الخطأ، فلا تظن أن فقدك الجاذبية من أنانية الأصحاب وذوقهم السقيم، فالخطأ منك أنت لأنك فقدت الجاذبية.

ضرب مثل

إن زيداً الذي كنت تحب إعجابه بك وهو صديقك قد أقبل، وقد كنت تستجلب مودته، وهو لا يلتذ بمعاشرتك، ولا تسرّه صحبتك، سبب ذلك أنك كنت البطارية المرسلة وهو البطارية القابلة، فكنت فاقداً شرارتك الكهربائية، فأضعت قوتك وراء الفخر والمباهاة طوعاً أو كرهاً، وهو حاز ثقتك واحترامك بلا تعب، يمكنك أن ترجع إلى عقلك الآن ترى أن القوانين المتقدمة تدل على أنه سحب منك ولم تسحب منه.

ما يجب عليك؟

اسكت الآن قليلاً، اترك صاحبك ثلاثة أيام أو أربعة، هل سرّك شيء تخبر به أصحابك كعادتك؟ احفظه، اترك العادة القديمة، تغلب على تلك الرغبة، رغبة الأخبار والمباهاة، هذا التغلب سهل في الأول، صعب بعد ذلك، لتمكن العادة منك، ولكنك أنت فوق كل صعب، لأنك قوي العزيمة، ولست ممن تقف أمامه العقبات، ولقد كانت تهرب منك تلك القوة، وا أسفاه! فاحفظ رغائبك المادية والمعنوية لا تفرّ منك، وليس هذا نكران الذات إنّما هو القانون العلمي الذي يحكم التيارات، فإذا عملت بهذه القوانين وطبقتها بذكائك أمكنك أن تحفظ قوتك، وتقاوم رغباتك، وقوة ذلك تصير ملكاً لك. انتهى الفصل السادس.

الفصل السابع

لعلك تقول: قبضت على قوتي المادية والمعنوية بيد من حديد، وجعلتها في بطاريتي العقلية، فما النتيجة؟.

الجواب: القوة التي ملكتها وحفظتها سوف تجذب إليها ما يضادها من مغناطيسية الآخرين، كالكهرباء الموجبة تجذب السالبة بدون عمل منك ولا فكر. وجهك يتغير، وأخلاقك تتغير، وأعمالك وأنت لا تشعر، والذي كنت تطلبه فلا تصل إليه يجري إليك مختاراً بلا سعي منك، يأتي إليك

اضطراراً بالقانون والجذب العام. والنصيحة: أن لا تتذمر إذا لم يأت لك نفس ما طلبته بعينه الذي كنت تسعى إليه، إنه سوف يأتي لك يوماً من الأيام.

التغير الطبيعي المشاهد

متى ابتدأت في العمل والتمرين والتقوية بهذه القوانين:

(١) فالجسم يتغير.

(٢) العين أكثر لمعاناً.

(٣) البشرة تزيد بياضاً.

(٤) القامة أكثر اعتدالاً.

(٥) يترك الخوف، والقلق، والحزن، والتململ، والسآمة، والتأثر.

(٦) يكون هادئاً ساكناً.

(٧) صار الآن ليس هو ذلك الضعيف الذي تلعب به الطبيعة البشرية، أصبح قوة لا يستهان بها في الوجود، تتغير الدنيا في عينه، تلبس حلة جديدة، تتبدل أفكاره من جهتها، ويستمر في فهم قوته المعنوية، فيزيد إيماناً وعقيدة وطمأنينة، نفسه أصبحت تفهم معنى الحياة، والعلم قوة ليس بعدها قوة.

يجب الانتباه لأبسط الأشياء، فإذا ترك فرصة واحدة أضاعت كثيراً من قوته، هناك ظاهرة طبيعية، لا يعتدّ بها صغار العقول، وتكون سبباً من أسباب اليأس، وداع من دواعي الخيبة، إذا سرت في هذه الأعمال انقادت لك السعادة، وأصبح ما كان صعباً عليك في غاية السهولة، ولكن ربما تقف عند ما نلته، فاعلم أن القوة لا تتناهى، فاطلب الأعلى، ولا تقف عند ما وصلت إليه، فليس للسعادة نهاية، ولا للقوة غاية.

الفصل الثامن
اقتراحات نافعة في الأمور العملية

قد عرفت هذه القوانين، وفهمت كيف تحفظ كهربائيتك، وتريد أن تستعمل هذه الموهبة في أمر، كأن تتوجه إلى رجل فظ غليظ قاسي القلب، وتريد أن تخلص منه وتؤثر فيه فيكون لك لا عليك، فهذه القوانين تساعدك:

(١) تظاهر أمامه بمظهرك الأدبي الحقيقي مع الفتور وعدم الاهتمام، شاعراً أنك قادر أن تكون أرقّ من ذلك وألطف في حضرتك، ولكنك لا تريد ذلك. وتبتدئ المحادثة وأنت مقدّر لقوتك المحفوظة في بطاريتك حق قدرها. تكلم بهدوء وطمأنينة. لا يظهر على وجهك علامة التلهف والاشتياق. لا يظهر الملل عليك، ولا اليأس على وجهك، اجعل السرور يعلو أسارير طلعتك مع السكينة والهدوء والثقة بكل نجاح، وكل حركاتك دالة على ما سبق، وعند ابتداء الكلام انظر إلى البقعة بين عينيه في أعلى الأنف ولتعتقد أنها موضع ضعف الرجل، هؤلاء الخشنون ضعاف، فستنظر عيناه يميناً وشمالاً، ولا تنظر لها بعين برّاقة بل بهدوء وطمأنينة فتبتعد عيناه عنك بقلق زائد، اجتهد في أن ينظر إليك وأنت تتكلم، وإذا ابتدأ في الكلام فارفع عنه نظرك وانظر إلى أي نقطة أخرى من جسمه، اصغ إليه باحترام،

فإذا ابتدأت الكلام انظر النقطة بغير وضوح بحيث لا ينتبه، الهدوء والسكينة مفتاح نجاحك، وبعد ذلك لا ينساك أبداً وسوف يعرف أنك أثرت فيه.

كيف تحصل على الراحة والطمأنينة والثقة بالنفس؟

تدرّب على الخطابة في الأماكن الخالية، أو في حجرتك التي لا يجلس معك فيها أحد، وخذ النفس بلطف وأخرجه بلطف هكذا ٥ دقائق، والإدخال والإخراج بالتدريج، وبعد ذلك قف على قدميك ذاهباً جائياً ملقياً كلمات ذات رنات في أي موضوع على شخص، أو أشخاص، أو صورتك في المرآة، وقل بصوت جهوري، مشيراً بإصبعك، مفكراً في كل جملة قبل النطق بها، كامل الثقة، واثقاً ثقة تامة بالقول، حاصراً فيه فكرك، وتخرج الألفاظ كدقات الأجراس من أعماق صدرك، والكلام في أي خاطر يطرأ عليك، ولو كانت الكلمات غريبة، أو الأقوال غير معقولة، وتؤثر على السامع الخيالي وكأن الحادثة حقيقة.

التأثير قسمان: الأول: زيادة الثقة بالنفس، وله نتائج عديدة بأشكال مختلفة مباشرة وغير مباشرة، وعلى كل حال سوف تعرفها بنفسك وتشعر بها في حينها، متى شعرت بملل واحتجت إلى زيادة ثقتك بنفسك فاقض في هذا التمرين نصف ساعة تر العجب العجاب.

والقسم الثاني: تأثير العقيدة، فإذا كان الحديث في قضية معلومة استفاد من هذه القوة العجيبة فائدة، وحصل على ما يريد على حسب ما طلب في حديثه، وكأن تلك الأشياء ملك له فلا تلبث حتى تأتي له، ووجهة تأثير العقيدة نظرية شائعة في أوروبا اليوم. وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثانية، والحمد لله رب العالمين.

هذا ما أردت ذكره من آراء مباحث الجمعية النفسية، ذكرتها لأريك أن القوم في أوروبا أخذوا يحتالون على حفظ اللسان بمثل ذلك، وإن كنت أعارض في بعض ما جاء فيه، وأنت ترى أيها الذكي أن هذه الجمعية احتالت على تهذيب اللسان بالنتائج العاجلة بحسب ظنها. وهذه النتائج الدنيوية وصل لها المهذبون من المسلمين سابقاً بما أقصه عليك من نبأ الأخبار والآثار التي ذكرها الإمام الغزالي في «الإحياء». وسترى عجباً من توافق النتائج في الحالين وكيف كانت هذه الثروة المخزونة عندنا ضائعة. وظهر عند غيرنا ما يوافقها في نتائجها. فانظر ما سنذكره فيما يلي وهو:

القسم الثاني من المقام الأول في المقالة الثانية

نذكر هنا ما جاء في الجزء الثالث من كتاب «الإحياء» في صفحة ١٠٠ وما بعدها، وهذا نصه:

ونحن بتوفيق الله وحسن تدبيره نفصل مجامع آفات اللسان، ونذكرها واحدة واحدة بحدودها وأسبابها وغوائلها، ونعرّف طرق الاحتراز عنها ونورد ما ورد من الأخبار والآثار في ذمها، فنذكر أولاً فضل الصمت ونردفه بذكر آفة الكلام فيما لا يعني، ثم آفة فضول الكلام، ثم آفة الخوض في الباطل، ثم آفة المراء والجدال، ثم آفة الخصومة، ثم آفة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيه، وغير ذلك مما جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة، ثم آفة الفحش والسب وبذاءة اللسان، ثم آفة اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان، ثم آفة الغناء والشعر.

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، ثم آفة المزاح، ثم آفة السخرية والاستهزاء، ثم آفة إفشاء السر، ثم آفة الوعد الكاذب، ثم آفة الكذب في القول واليمين، ثم بيان التعاريض في الكذب، ثم آفة الغيبة، ثم آفة النميمة، ثم آفة ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين، فيكلم كل واحد بكلام يوافقه، ثم آفة المدح، ثم آفة الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأصول الدين، ثم آفة سؤال العوام عن صفات الله عز وجل، وعن كلامه وعن الحروف أهي قديمة أو محدثة، وهي آخر الآفات، وما يتعلق بذلك، وجملتها عشرون آفة، ونسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم، ولا نجاة من خطره إلا بالصمت، فلذلك مدح الشرع الصمت وحث عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: «من صمت نجا»، وقال عليه الصلاة والسلام: «الصمت حكم وقليل فاعله»، أي: حكمة وحزم.

وروي عن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل آمنت بالله ثم استقم. قال: قلت: فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه. وقال عقبة بن عامر قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك. وقال سهل بن سعد الساعدي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة».

وقال صلى الله عليه وسلم: «من وقي شرّ قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي الشر كله». القبقب: هو البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. فهذه الشهوات الثلاث بها يهلك أكثر الخلق، ولذلك أشتغلنا بذكر آفات اللسان لما فرغنا من ذكر آفة الشهوتين: البطن والفرج.

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكبر ما يدخل الناس الجنة، فقال: تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكبر ما يدخل النار، فقال: الأجوفان الفم والفرج. فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله. ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه، فقد قال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن جبل، وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. وقال عبد الله الثقفي: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به؟ فقال: قل ربي الله ثم استقم. قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسانه، وقال: هذا.

وروي أن معاذاً قال: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لسانه ثم وضع عليه إصبعه. وقال أنس بن مالك: قال صلى الله عليه وسلم: لا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه. وقال صلى الله عليه وسلم: من سرّه أن يسلم فليلزم الصمت.

وعن سعيد بن جبير مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان، أي تقول: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت

اعوججنا. وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله؟ قال: هذا أوردني الموارد، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدته. وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شر تسلم، من قبل أن تندم. فقيل له: يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه.

وقال ابن عمر: قال رسول الله: من كفّ لسانه ستر الله عورته، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره. وروي أن معاذ بن جبل قال: يا رسول الله أوصني. قال: اعبد الله كأنك تراه، وعدّ نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله، وأشار بيده إلى لسانه. وعن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن؟ الصمت وحسن الخلق.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت. وقال الحسن: ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رحم الله عبداً تكلم فغنم، أو سكت فسلم.

وقيل لعيسى عليه السلام: دلنا على عمل ندخل به الجنة. قال: لا تنطقوا أبداً، قالوا: لا نستطيع ذلك. فقال: فلا تنطقوا إلا بخير. وقال سليمان بن داود عليهما السلام: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.

وعن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: أطعم الجائع، واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير. وقال صلى الله عليه وسلم: اخزن لسانك إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان. وقال صلى الله عليه وسلم: إن الله عند لسان كل قائل، فليتق الله امرؤ علم ما يقول. وقال عليه الصلاة والسلام: إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه فإنه يلقن الحكمة.

وقال ابن مسعود: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب فالغانم الذي يذكر الله تعالى، والسالم الساكت، والشاحب الذي يخوض في الباطل. وقال عليه الصلاة والسلام: إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه.

وقال عيسى عليه السلام: العبادة عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار من الناس. وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به.

ومما ورد في الآثار: كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد.

وقال عبد الله بن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال طاوس: لساني سبع إن أرسلته أكلني. وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود: حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مقبلاً على شأنه.

وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه.

وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه. وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار: يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشد على الناس من حفظ الدينار والدرهم.

وقال يونس بن عبيد: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. وقال الحسن: تكلم قوم عند معاوية رحمه الله والأحنف بن قيس ساكت، فقال له: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم. فقال له: أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت.

وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك: ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر. فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرّته وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدر مني على ردّ ما قلت.

وقيل أقام المنصور بن المعتز لم يتكلم بكلمة بعد العشاء الآخرة أربعين سنة. وقيل: ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء. فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات فهذه آفات كثيرة، وهي سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويمسكه ويكفه عما لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم كما سيأتي تفصيله، ففي الخوض خطر، وفي الصمت سلامة، فلذلك عظمت فضيلته، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٨].

ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر، وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة، أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر، وأما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران. فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط

ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه، فيكون الإنسان به مخاطراً، ومن عرف دقائق آفات اللسان على ما سنذكره علم قطعاً أن ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فصل الخطاب حيث قال: من صمت نجا. فلقد أوتي والله جواهر الحكم قطعاً وجوامع الكلم، ولا يعرف ما تحت آحاد كلماته من بحار المعاني إلا خواص العلماء، وفيما سنذكره من الآفات وعسر الاحتراز منها ما يعرفك حقيقة ذلك إن شاء الله تعالى، ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدئ بأخفها، ونترقى إلى الأغلظ قليلاً قليلاً، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول، وهي عشرون آفة، فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً، لا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه، فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة، ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسراً خسراناً بيناً، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه، إنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكراً ونظره إلا عبرة ونطقه إلا ذكراً، هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم، بل رأس مال العبد أوقاته، ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. بل ورد ما هو أشد من هذا. قال أنس: استشهد غلام منا يوم أحد فوجدنا على بطنه حجراً مربوطاً من الجوع، فمسحت أمه عن وجهه التراب وقالت: هنيئاً لك الجنة يا بني، فقال صلى الله عليه وسلم: وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره. وفي حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم فقد كعباً فسأل عنه، فقالوا: مريض، فخرج يمشي حتى أتاه، فلما دخل عليه قال: أبشر يا كعب، فقالت أمه: هنيئاً لك الجنة يا كعب فقال صلى الله عليه وسلم: من هذه المتألية على الله؟ قال: هي أمي يا رسول الله. قال: وما يدريك يا أم كعب لعل كعباً قال ما لا يعنيه أو منع ما لا يغنيه. ومعناه أنه إنّما تتهيأ الجنة لمن لا يحاسب، ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه وإن كان كلامه في مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب.

وعن محمد بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة، فدخل عبد الله بن سلام، فقام إليه ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك وقالوا: أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به؟ فقال: إني لضعيف وإن

أوثق ما أرجو به الله سلامة الصدر وترك ما لا يعنيني. وقال أبو ذر: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعنيك.

وقال مجاهد: سمعت ابن عباس يقول: خمس لهن أحب إلي من الدهم الموقوفة: لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل، ولا آمن عليك الوزر، ولا تتكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موضعاً، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم يقليك والسفيه يؤذيك، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به، واعفه مما تحب أن يعفيك منه، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالاحترام.

وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك؟ قال: لا أسأل عما كفيت، ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه، قالوا: وما هو؟ قال: السكوت عما لا يعنيني. وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعرض لما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى. وحدّ الكلام فيما لا يعنيك: أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر به في حال ولا مآل، مثاله: أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك من المواقع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة، ولا اغتياب لشخص، ولا مذمة لشيء خلقه الله تعالى، فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك، وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها، ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك، فأنت بالسؤال مضيع وقتك، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع، هذا إذا كان الشيء مما لا يتطرق إلى السؤال عنه آفة، وأكثر الأسئلة فيها آفات، فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له: هل أنت صائم؟ فإن قال: نعم؛ كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات، وإن قال: لا؛ كان كاذباً، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه، فقد عرّضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته، وكذلك سؤالك عن المعاصي، وعن كل ما يخفيه ويستحيي منه، وسؤالك عما حدث به غيرك فتقول: ماذا تقول وفيم أنت؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول: من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكره تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه، وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسؤول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول: لا أدري؛ فيجيب عن غير بصيرة، ولست أعني بالتكلم فيما لا يعني هذه الأجناس، فإن هذا يتطرق إليه إثم أو ضرر، وإنّما مثال ما لا يعني ما روي أن لقمان الحكيم دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً ولم يكن قد رآها

قبل ذلك اليوم، فجعل يتعجب مما رأى، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته حكمته، فأمسك نفسه ولم يسأله، فلما فرغ قام داود ولبسه، ثم قال: نعم الدرع للحرب، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله. أي: حصل العلم به من غير سؤال فاستغنى عن السؤال، وقيل: إنه كان يتردد إليه سنة وهو يريد أن يعلم ذلك من غير سؤال، فهذا وأمثاله من الأسئلة إذا لم يكن فيه ضرر وهتك ستر وتوريط في رياء وكذب، وهو مما لا يعني، وتركه من حسن الإسلام فهذا حدّه، وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه وأنه مسؤول عن كل كلمة. وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين، هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل فالعزلة، أو أن يضع حصاة في فيه، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جداً. انتهى الكلام على الآفة الأولى.

الآفة الثانية: فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره، ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول، أي: فضل عن الحاجة، وهو أيضاً مذموم لما سبق وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر.

قال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدّون فضول الكلام ما عدا كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أمر بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها، أتنكرون: إن عليكم حافظين كراماً كاتبين. عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، أما يستحيي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

وعن بعض الصحابة قال: إن الرجل ليكلمني بالكلام لجوابه أشهى إلي من الماء البارد إلى الظمآن؛ فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً. وقال مطرف: ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار: اللهم اخزه، وما أشبه ذلك. واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى. قال الله عز وجل: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[النساء: ١١٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه، وأنفق الفضل من ماله. فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان.

وعن مطرّف بن عبد الله عن أبيه قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في رهط من بني عامر فقالوا: أنت والدنا، وأنت سيدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأنت أطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغرّاء، وأنت وأنت. فقال: قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان، إشارة إلى أن اللسان إذا

أطلق بالثناء ولو بالصدق فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها، وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم، حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته.

وقال مجاهد: إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكت ابنه فيقول: أبتاع لك كذا وكذا فيكتب كذاباً. وقال الحسن: يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل.

وروي أن سليمان عليه السلام بعث بعض عفاريته وبعث نفراً ينظرون ما يقول ويخبرونه، فأخبروه بأنه مر في السوق فرفع رأسه إلى السماء ثم نظر إلى الناس وهز رأسه، فسأله سليمان عن ذلك فقال: عجبت من الملائكة على رؤوس الناس ما أسرع ما يكتبون، ومن الذين أسفل منهم ما أسرع ما يملون.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم و إلا أمسك، والفاجر إنّما لسانه رسلاً رسلاً. وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه، ومن ساء خلقه عذب نفسه.

وقال عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر، فقال له صلى الله عليه وسلم: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، قال: أفما كان لك في ذلك ما يردّ كلامك؟ وفي رواية أنه قال ذلك في رجل أثنى عليه فاستهتر في الكلام، ثم قال: ما أوتي رجل شراً من فضل في لسانه.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: إنه ليمنعني من كثير من الكلام خوف المباهاة. وقال بعض الحكماء: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم.

وقال يزيد بن أبي حبيب: من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان.

وقال ابن عمر: إن أحق ما طهر الرجل لسانه، ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة، فقال: لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها.

وقال إبراهيم: يهلك الناس خلتان: فضول المال، وفضول الكلام. فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه، وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني. انتهى الكلام على الآفة الثانية.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي، كحكاية أحوال النساء، ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء، وتجبر الملوك، ومراسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام، وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه، نعم من يكثر من الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس، أو الخوض في الباطل، وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها

وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا، وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها، فقد قال بلال بن الحارث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة.

وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا. وقال أبو هريرة: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة. وقال صلى الله عليه وسلم: أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[المدثر: ٤٥]، وبقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[النساء: ١٤٠]. وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله.

وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم: توضؤوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث، فهذا هو الخوض في الباطل، وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها، ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم، وكل ذلك باطل، والخوض فيه خوض في الباطل، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه. انتهى الكلام على الآفة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة الرابعة: المراء والجدل

وذلك منهي عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «لا تمار أخاك ولا تمازحه، ولا تعده موعداً فتخلفه». وقال عليه السلام: «ذروا المراء فإنه لا تفهم حكمته، ولا تؤمن فتنته». وقال صلى الله عليه وسلم: «من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة». وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما عهد إلي ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال». وقال أيضاً: «ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلا أوتوا الجدل». وقال أيضاً: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء وإن كان محقاً». وقال أيضاً: «ستّ من كنّ فيه بلغ حقيقة الإيمان: الصيام في الصيف، وضرب أعداء الله بالسيف، وتعجيل الصلاة في اليوم الدجن، والصبر على المصيبات، وإسباغ الوضوء على المكاره، وترك المراء وهو صادق». وقال الزبير لابنه: لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنة. وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل. وقال مسلم بن يسار: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته. وقيل: ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال.

وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال أيضاً: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته. وقال سفيان: لو خالفت أخي في رمانة فقال حلوة وقلت حامضة لسعى بي إلى السلطان. وقال أيضاً: صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش. وقال ابن أبي ليلى: لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه.

وقال أبو الدرداء: كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً، وقال صلى الله عليه وسلم: «تكفير كل لحاء ركعتان». وقال عمر رضي الله عنه: لا تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث، لا تتعلمه لتماري به، ولا لتباهي به، ولا لترائي به، ولا تتركه حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضا بالجهل منه.

وقال عيسى عليه السلام: من كثر كذبه ذهب جماله، ومن لاحى الرجال سقطت مروءته، ومن كثر همه سقم جسمه، ومن ساء خلقه عذّب نفسه. وقيل لميمون بن مهران: ما لك لا تترك أخاك عن قلى؟ قال: لأني لا أشاريه ولا أماريه. وما ورد في ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى.

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق به وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه، والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل فيه من جهة النحو، أو من جهة اللغة العربية، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير، وذلك يكون تارة من قصور المعرفة و تارة يكون بطغيان اللسان، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله، وأما في المعنى فبأن يقول: ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا، وأما في قصده فمثل أن يقول: هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنّما أنت فيه صاحب غرض وما يجري مجراه، وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل، وهو أيضاً مذموم، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكارة، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن.

وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عند المجادل يجب أن يكون هو المظهر له خطأه ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبه، ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه، وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها، أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء، وهي من صفات الربوبية، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية، فإنه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمه ويصدمه ويؤذيه، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، إنّما قوتهما المراء والجدال، فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة، وهذا مجاوز حدّ الكراهة، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل،

ويقدح في قائله بكل ما يتصور له، فيثور الشجار بين المتمارين كما يثور الهراش بين الكلبين، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية، وأقوى في إفحامه وإلجامه، وأما علاجه فهو أن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب وكتاب ذم الغضب، فإن علاج كل علة بإماطة سببها، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً، حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه.

روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي: لم آثرت الانزواء؟ قال: لأجاهد نفسي بترك الجدال. فقال: احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم. قال: ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علي منها، وهو كما قال، لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه تعسر عليه الصبر عند ذلك جداً، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة». لشدة ذلك على النفس، وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد، فإن المراء طبع، فإذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه، وتعاون الطبع والشرع عليه، وذلك خطأ محض، بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة، وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة، لا بطريق الجدال، فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد، فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه، وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه». وقال هشام بن عروة: كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه، ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات، ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء، وحب الجاه، والتعزز بالفضل، وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها! وبهذا تم الكلام على الآفة الرابعة.

الآفة الخامسة: الخصومة

وهي أيضاً مذمومة، وهي وراء الجدال والمراء. فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزية الكياسة، والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مقصود، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

وقال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع». وقال بعضهم: إياك والخصومة فإنها تمحق الدين. ويقال: ما خاصم ورع قط في الدين. وقال ابن قتيبة: مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة، فقال: ما يجلسك هاهنا؟ قلت: خصومة بيني وبين ابن عم لي. فقال: إن لأبيك عندي يداً وإني أريد أن أجزيك بها، وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة، قال: فقمت لأنصرف، فقال لي: خصمي مالك؟ قلت: لا أخاصمك، قال: إنك عرفت أن الحق لي، قلت:

لا ولكن أكرم نفسي عن هذا، قال: فإني لا أطلب منك شيئاً هو لك، فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلمه ظالم؛ فكيف يكون حكمه، وكيف نذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم مثل وكيل القاضي، فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أيّ جانب كان فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط، أو على قصد الإيذاء، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ليس يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق، ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال، وفي الناس من يصرح به ويقول: إنّما قصدي عناده وكسر عرضه، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي، وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً، فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره، حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه، فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدل، فينبغي ألا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم، ولا تذم خصومته إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه، لأن عنده ما يكفيه، فيكون تاركاً للأولى ولا يكون آثماً، نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب، إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه، فقد جهله أو كذبه فيفوت به طيب الكلام، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام». وقد قال الله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[البقرة: ٨٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسياً، إن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[النساء: ٨٦]. وقال ابن عباس أيضاً: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه. وقال أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام».

وروي أن عيسى عليه السلام مرّ به خنزير فقال: مر بسلام، فقيل: يا روح الله أتقول هذا لخنزير؟ فقال: أكره أن أعوّد لساني الشر. وقال نبينا عليه الصلاة والسلام: «الكلمة الطيبة صدقة». وقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة». وقال عمر رضي الله عنه: البر شيء هين، وجه

طلق وكلام لين. وقال بعض الحكماء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال بعض الحكماء أيضاً: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين.

هذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج، فإنه الكلام المستكره الموحش، المؤذي للقلب، المنغص للعيش، المهيج للغضب، الموغر للصدر، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه. تم الكلام على الآفة الخامسة، والحمد لله رب العالمين

الآفة السادسة: التقعر في الكلام والتشدق

التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة، وكل ذلك من التصنع المذموم والتكلف الممقوت، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام». وقالت فاطمة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم، يأكلون ألوان الطعام، ويلبسون ألوان الثياب، ويتشدقون في الكلام». وقال صلى الله عليه وسلم: «ألا هلك المتنطعون» ثلاث مرات، والتنطع هو التعمق والاستقصاء.

وقال عمر رضي الله عنه: إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان. وجاء عمرو بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة فتكلم بين يدي حاجته بكلام، فقال له سعد: ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها». وكأنه أنكر عليه ما قدّمه على الكلام من التشبب والمقدمة المصنوعة المتكلفة، وهذا أيضاً من آفات اللسان، ويدخل فيه كل سجع متكلف، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة، وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة في الجنين، فقال بعض قوم الجاني: كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك بطل؟ فقال: أسجعاً كسجع الأعراب، وأنكر ذلك، لأن أثر التكلف والتصنع بين عليه، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم، ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به، فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشدق والاشتغال به من التكلف المذموم، ولا باعث عليه إلا الرياء، وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه. انتهى الكلام على الآفة السادسة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه، ومصدره الخبث واللؤم، قال صلى الله عليه وسلم: «إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش». ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب

قتلى بدر من المشركين، فقال: لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء لؤم. وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيّ». وقال صلى الله عليه وسلم: «الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها». وقال صلى الله عليه وسلم: «أربعة يؤذون أهل النار في النار على ما بهم من الأذى، يسعون بين الحميم والجحيم، يدعون بالويل والثبور: رجل يسيل فوه قيحاً ودماً فيقال له: ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: أن الأبعد كان ينظر إلى كل كلمة قذعة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث». وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة: «يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء». وقال صلى الله عليه وسلم: «البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق».

فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه، ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف، ويحتمل أيضاً البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى، فإن إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه، إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس، فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب، ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحيي الإنسان من بيانه، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان. وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق».

وقال جابر بن سمرة: كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم وأبي أمامي، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقا». وقال إبراهيم بن ميسرة: يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أو في جوف كلب. وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوإ الداء؟ اللسان البذي، والخلق الدني، فهذه مذمة الفحش.

فأما حدّه وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه، وأهل الصلاح يتحاشون عنها، بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها.

وقال ابن عباس: إن الله حييّ كريم يعفو ويكنو، كنى باللمس عن الجماع، فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة، وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعبير، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة، وبينهما درجات يتردد فيها، وليس يختص هذا بالوقاع بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما، فإن هذا أيضاً مما يخفى، وكل ما يخفى يستحيا منه، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال: قالت زوجتك كذا، بل يقال: قيل في الحجرة، أو من وراء الستر، أو قالت أم الأولاد، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص

والقرع والبواسير، بل يقال العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه، فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان. قال العلاء بن هارون: كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه، فخرج تحت إبطه خراج، فأتيناه نسأله لنرى ما يقول، فقلنا: من أين خرج؟ فقال: من باطن اليد.

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب. وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني. فقال: «عليك بتقوى الله، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبن شيئاً»، قال: فما سببت شيئاً بعده. وقال عياض بن حمار: قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني، هل علي من بأس أن أنتصر منه؟ فقال: المتسابان شيطانان يتعاويان ويتهارجان.

وقال صلى الله عليه وسلم: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر». وقال صلى الله عليه وسلم: «المستبان ما قالا فعلى البادئ منهما حتى يعتدي المظلوم». وقال صلى الله عليه وسلم: «ملعون من سب والديه». وفي رواية: «من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه. قالوا: يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه؟ قال: يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه».

الآفة الثامنة: اللعن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكل ذلك مذموم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن ليس بلعان». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم». وقال حذيفة: ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول. وقال عمران بن حصين: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها، فقال صلى الله عليه وسلم: خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة. قال: فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد. وقال أبو الدرداء: ما لعن أحد الأرض إلا قالت لعن الله أعصانا لله. وقالت عائشة رضي الله عنها: سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه، فالتفت إليه وقال: يا أبا بكر أصديقين ولعانين؟ كلا ورب الكعبة، مرتين أو ثلاثاً، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: لا أعود.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة». وقال أنس: كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره، فقال صلى الله عليه وسلم: يا عبد الله لا تسر معنا على بعير ملعون، وقال ذلك إنكاراً عليه، واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل، وهو الكفر والظلم بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع، فإن في اللعنة حظراً لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه.

والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر، والبدعة، والفسق، وللعن في كل واحدة ثلاث مراتب: الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافرين المبتدعين والفسقة. الثانية: اللعن

بأوصاف أخص منه، كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا، وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر، لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور، فينبغي أن يمنع منه العوام، لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً. الثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر، كقولك: زيد لعنه الله، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع، والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً فتجوز لعنته، كقولك: فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً، أما شخص بعينه في زماننا كقولك: زيد لعنه الله، وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله، فكيف يحكم بكونه ملعوناً؟ فإن قلت: يلعن لكونه كافراً في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلماً في الحال وإن كان يتصور أن يرتد، فاعلم أن معنى قولنا: رحمه الله، أي: بته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة، وعلى الطاعة، ولا يمكن أن يقال: ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة، فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر، بل الجائز أن يقال: لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام، وذلك غيب لا يدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر، وليس في ترك اللعن خطر، وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى، فلعن الأعيان فيه خطر، لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر، ولذلك عين قوماً باللعن، فكان يقول في دعائه على قريش: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة، وذكر جماعة قتلوا على الكفر ببدر، حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه، إذ روي أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً، فنزل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، يعني أنهم ربما يسلمون، فمن أين تعلم أنهم ملعونون، وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم، فإن كان لم يجز كما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال: هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص، فغضب ابنه عمرو بن سعيد، وقال: يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة. فقال أبو بكر: يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام. فقال صلى الله عليه وسلم: اكفف عن أبي بكر. فانصرف ثم أقبل على أبي بكر، فقال: يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء، فكفّ الناس عن ذلك. وشرب نعمان الخمر فحدّ مرات في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال صلى الله عليه وسلم: لا تكن عوناً للشيطان على أخيك، وفي رواية: لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله، فنهاه عن ذلك، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز.

وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره، فإن قيل هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به؟ قلنا: هذا لم يثبت أصلاً فلا

يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت فضلاً عن اللعنة، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق، نعم يجوز أن يقال: قتل ابن ملجم علياً، وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهم، فإن ذلك ثبت متواتراً، فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق. قال صلى الله عليه وسلم: «ولا يرمي رجل رجلاً بالكفر، ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك».

وقال صلى الله عليه وسلم: «ما شهد رجل على رجل بالكفر إلا باء به أحدهما، إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إياه». وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم، فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً، وقال معاذ: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصي إماماً عادلاً، والتعرض للأموات أشد». قال مسروق: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت: ما فعل فلان لعنه الله؟ قلت: توفي، قالت: رحمه الله، قلت: وكيف هذا؟ قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا». وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء».

وقال عليه السلام: «أيها الناس، احفظوني في أصحابي وإخواني وأصهاري ولا تسبوهم. أيها الناس، إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً». فإن قيل: فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله، أو الآمر بقتله لعنه الله؟ قلنا: الصواب أن يقال: قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله، لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة، فإن وحشياً قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله وهو كافر ثم تاب عن الكفر والقتل جميعاً، ولا يجوز أن يلعن، والقتل كبيرة ولا تنتهي إلى رتبة الكفر. فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق كان فيه خطر، وليس في السكوت خطر فهو أولى.

وإنّما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها، والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين، فالاشتغال بذكر الله أولى، فإن لم يكن ففي السكوت سلامة. قال مكي بن إبراهيم: كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه، وابن عون ساكت، فقالوا: يا ابن عون إنّما نذكره لما ارتكب منك. فقال: إنّما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله، ولعن الله فلاناً، فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحب إلي من أن يخرج منها لعن الله فلاناً. وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني. فقال: أوصيك أن لا تكون لعاناً. وقال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان. وقال بعضهم: لعن المؤمن يعدل قتله. وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا: لو قلت إنه مرفوع لم أبال.

وعن أبي قتادة قال: كان يقال: من لعن مؤمناً فهو مثل أن يقتله، وقد نقل ذلك حديثاً مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر، حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلاً: لا صحح الله جسمه، ولا سلمه الله، وما يجري مجراه، فإن ذلك مذموم، وفي الخبر: «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقي للظالم عنده فضله يوم القيامة». تم الكلام على الآفة الثامنة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة التاسعة: الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل فلا نعيده، وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرد له مذموم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً». وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه، فقيل له في ذلك، فقال: أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر. وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال: اجعل مكان هذا ذكراً فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن من الشعر لحكمة»، نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب وقد يدخله الكذب، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح، فإنه وإن كان كذباً فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر:

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر، فلا يقصد منه أن يعتقد صورته، وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه.

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل، فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً، قالت: فبهت فنظر إلي، فقال: ما لك بهت؟فقلت: يا رسول الله نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً، ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بشعره، قال: وما يقول يا عائشة أبو كبير الهذلي؟ قلت: يقول هذين البيتين:

ومبرّأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت: فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده وقام إلي وقبل ما بين عيني، وقال: جزاك الله خيراً يا عائشة ما سررت مني كسروري منك». ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص، فاندفع يشكو في شعر له وفي آخره:

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم: اقطعوا عني لسانه، فذهب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى اختار مائة من الإبل، ثم رجع وهو من أرضى الناس، فقال له صلى الله عليه وسلم: أتقول فِيَّ الشعر؟ فجعل يعتذر إليه ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل، ثم يقرصني كما يقرص النمل، فلا أجد بدًّا من قول الشعر، فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال: لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين. وإلى هنا تم الكلام على الآفة التاسعة، والحمد لله رب العالمين.

الآفة العاشرة: المزاح

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه. قال صلى الله عليه وسلم: «لا تمار أخاك ولا تمازحه». فإن قلت المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيباً للأخ والصديق، أو تجهيلاً له، وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينه عنه، فاعلم أن المنهي عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه، أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب، والهزل فيه واللعب مباح، ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب، وتورث الضغينة في بعض الأحوال، وتسقط المهابة والوقار، فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً». إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا».

وقال عمر رضي الله عنه: من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه.

ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة؛ قال صلى الله عليه وسلم: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». وقال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قيل: فما رئي ضاحكاً حتى مات. وقال يوسف بن أسباط: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك.

وقيل: أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك، ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر، فقال: إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين، وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول: أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار. وقال ابن عباس: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي.

وقال محمد بن واسع: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه. فهذه آفة الضحك، والمذموم منه أن يستغرق ضحكاً، والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع له صوت، وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال القاسم مولى معاوية: أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب، فسلم فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفرّ به، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه، ففعل ذلك مراراً، ثم وقصه فقتله، فقيل: يا رسول الله إن الأعرابي قد صرعه قلوصه وقد هلك. فقال: نعم وأفواهكم ملأى من دمه. وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه: من مزح استخفّ به.

وقال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم. وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدنيء فيجترئ عليك.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة، ويجر إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رضي الله عنه: أتدرون لم سمي المزاح مزاحاً؟ قالوا: لا، قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح، ويقال: المزاح مسلبة للنهي، مقطعة للأصدقاء. فإن قلت قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه؟.

فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً، ولا تؤذي قلباً ولا تفرط فيه، وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك فيه، ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة في النظر إلى رقص الزنوج في يوم عيد، وهو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا، نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا، فقال إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقاً. وقال عطاء: إن رجلاً سأل ابن عباس: أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح؟ فقال: نعم، قال: فما كان مزاحه؟ قال: كان مزاحه أنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوباً واسعاً فقال لها: البسيه واحمدي وجرّي منه ذيلاً كذيل العروس. وقال أنس: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه. وروي أنه كان كثير التبسم.

وعن الحسن قال: أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة عجوز، فبكت، فقال: إنك لست بعجوز يومئذ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾[الواقعة: ٣٥-٣٦]. وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟ قالت: والله ما بعينه بياض، فقال: بلى إن بعينه بياضاً، فقالت: لا والله، فقال صلى الله عليه وسلم: ما من أحد إلا وبعينه بياض، وأراد به البياض المحيط بالحدقة.

وجاءت امرأة أخرى فقالت: يا رسول الله احملني على بعير، فقال: بل نحملك على ابن البعير، فقالت: ما أصنع به إنه لا يحملني، فقال صلى الله عليه وسلم: ما من بعير إلا هو ابن بعير، فكان يمزح به. وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول: يا أبا عمير ما فعل النغير، لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور. وقالت عائشة رضي الله عنها: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر فقال: تعالي حتى أسابقك، فشددت درعي على بطني ثم خططنا خطاً فقمنا عليه واستبقنا فسبقني، وقال: هذه مكان ذي المجاز، وذلك أنه جاء يوماً ونحن بذي المجاز وأنا جارية قد بعثني أبي بشيء، فقال: أعطينيه، فأبيت وسعيت وسعى في إثري فلم يدركني. وقالت أيضاً: سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته، فلما حملت اللحم سابقني فسبقني وقال: هذه بتلك. وقالت أيضاً رضي الله عنها: كان عندي رسول

الله صلى الله عليه وسلم وسودة بنت زمعة، فصنعت حريرة وجئت به، فقلت لسودة: كلي، فقالت: لا أحبه، فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك، فقالت: ما أنا بذائقته، فأخذت بيدي من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بيني وبينها، فخفض لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ركبتيه لتستقيد مني، فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك.

وروي أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلاً دميماً قبيحاً فلما بايعه النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب، أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها؟ وعائشة جالسة تسمع، فقالت: أهي أحسن أم أنت؟ فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها لأنه كان دميماً.

وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليهما السلام فيرى الصبي لسانه فيهش له، فقال له عيينة بن بدر الفزاري: والله ليكونن لي الابن قد تزوج وبقل وجهه وما قبلته قط، فقال صلى الله عليه وسلم: إن من لا يَرحم لا يُرحم. فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان، وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل، وقال صلى الله عليه وسلم مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً: أتأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله، فتبسم صلى الله عليه وسلم. قال بعض الرواة: حتى نظرت إلى نواجذه.

وروي أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة؟ فقال: يفتلن ضفير الجمل لي شرود، قال: فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ثم عاد، فقال: يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد، قال: فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة، وبعد ما قدمت المدينة قال: فرآني في المسجد يوماً أصلي فجلس إلي فطوّلت، فقال: لا تطوّل فإني أنتظرك، فلما سلمت قال: يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد، قال: فسكت واستحييت، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّر منه حتى لحقني يوماً وهو على حمار، وقد جعل رجليه في شق واحد، فقال: أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد، فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت، فقال: الله أكبر الله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله، قال: فحسن إسلامه وهداه الله. وكان نعيمان الأنصاري رجلاً مزاحاً، فكان يشرب الخمر في المدينة فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضرب بنعله ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم، فلما كثر ذلك منه قال له رجل من الصحابة: لعنك الله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا تفعل فإنه يحب الله ورسوله، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: يا رسول الله هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك، فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، أعطه ثمن متاعهُ، فيقول صلى الله عليه وسلم: أولم تهده لنا؟ فيقول: يا رسول

الله إنه لم يكن عندي ثمنه وأحببت أن تأكل منه، فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر لصاحبه بثمنه، فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام، والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب. وإلى هنا تم الكلام على الآفة العاشرة، والحمد لله رب العالمين.

ونكتفي بذكر هذه الآفات العشرة عن باقيها في هذا المقام لطولها، ونذكر باقيها إن شاء الله تعالى في سورة «ق» عند آية: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٨]. وإذن فليكن هذا نهاية القسم الثاني من المقام الأول في آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾[الحجرات: ١١] الآيات إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾[الحجرات: ١٢].

المقام الثاني من المقالة الثانية
في غوائل الأعمال القلبية

أي المشار لها بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[الحجرات: ١٢] والتي يشير لها قوله تعالى في سورة «ق بالآية ١٦»: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾، وآية: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: ٢٢].

والأعمال القلبية وهذه الغوائل قد شرحها الإمام الغزالي في «الإحياء»، وقد اقتصرنا هنا على نموذج لها أجملناه في كتابنا الذي ألفناه لطلبة دار العلوم وهو «جوهر التقوى»، فهاك ما جاء في ذلك الكتاب في صفحة ١١٣ وما بعدها وهذا نصه:

الفضيلة والرذيلة والسعادة

إذا زرعنا شجراً وتعنينا في إنمائه فغايتنا ثمره، هكذا إذا نصبنا في تحصيل الفضائل فالغاية السعادة. السعادة نيل المراد الشريف، وراحة النفس، والاستلذاذ بالفضائل، ولا سعادة لفؤاد مضطرب ونفس فاجرة، فما من رذيلة إلا ولها في النفس سوء الأثر، فالجهل أشد الآلام، والبلادة شقاء الجهال، والنسيان والسهو بلية الإنسان، والعجب والكبر يوردان القلب موارد العطب، ويصرعانه في المنقلب، بالحظوظ الخسيسة والشهوات الباطلة، والتعرض لمقت الماقتين، واستهزاء المستهزئين، والحسد يودي بصاحبه ويقطع فؤاده ويقلبه في نار السعير، ويعرضه لخطر كبير، والشره يعذب صاحبه ويوقعه كل يوم في نائبته، ومن ظن المال غاية ما اشتهاه، والسلطان والعز قصارى مناه، عذب بها العذاب الأكبر. ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾[التوبة: ٨٥] بما يصيب محبوبهم من الآفات، وما يعرض له من النكبات، وهم عادمو الصبر، قليلو الأجر، كثيرو الهلع، عظيمو الجزع، فأنى يكون المرء من السعداء، وقد كتب نفسه بيديه في ديوان الأشقياء، فالسعيد من اتبع الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بالعفة وما يتبعها، والشجاعة والحكمة وأقسامها، أولئك هم السعداء في الدارين، عند ربهم يرزقون فرحين إذا اعتادوا ومرنوا على ذلك حتى صار مستلذاً معشوقاً، فيأنس بالمعارف العالية، والطبيعيات وأقسامها، والرياضيات وأفلاكها، والإلهيات وجمالها، ويعلم ما تصله القوة البشرية من المعارف الحكمية، ويأنس بالعدل في عمله، والصدق في

منطقه، والمروءة في أصحابه، وقد أرضى شرف العقلاء، ورضي بما ساقه القضاء، ولا يطمعن في رضاء سائر العالمين، فإن ذلك ليس في حيز الإمكان، وغاية الأمر وقصاراه التعالي عن الرعونات الدنيوية والرضاء ثم الطمأنينة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[الفجر: ٢٧-٣٠].

من هذا تعلم قول بعض علماء الغرب لبعض شبابنا: لا يضلك المال، إذا امتلأ قلبك بالفضيلة فاملأ القلب حكمة وفضيلة والجيب فضة وذهباً، فالمعدم محدود الفضائل، والمثري واسع المعروف.

وأنا أقول: ألم تسمع أقوال النبي سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦]. انتهى.

القدوة الحسنة

ما من نبي أو عالم أو عامل إلا كان قدوة على حسب درجته، فاصبر واجتهد حتى تكون كالشمس وضحاها والنجم الزاهر في ظلمات الدياجر، لتكن شمساً يضيء سناها للناظرين، وسيرتك هدى، وعلمك نبراساً للسارين.

أيها الطالب، إن حركاتك وسكناتك وغدواتك وروحاتك أساس يبنى عليها ومقدمات لنتائج، فاحذر الحذر كله أن تكون قدوة سيئة للبنين، وكن خير القدى لخير المقتدين، حتى يصدق علينا قول السموءل:

إذا مات منا سيد قام سيد قؤول لما قال الكرام فعول

لا يرين الناس منك إلا كمالاً، ولا يطلعون منك إلا على ما جمل وحلا، ولا تقعن عين منك على قبيح، وأصلح السريرة، وأحسن العلانية، وذر المباهاة والملاحاة، والمشاقة والمراء، وأظهر البشر، وقل للناس حسناً، وآت ذا القربى حقه، واعف واصفح، إن الله يحب المحسنين.

علاج الرذائل

إن السبيل الأقوم والمنهج الأوضح في علاج الرذائل مقاومة كل واحدة بضدها، والتعود على نقيضها، ومحاربتها بعدوّها، فالجهل بمزاولة التعليم، والبخل بتكلف البذل، ومداومة العطاء، إلا أن للعادة لتأثيراً على النفوس الحيوانية فضلاً عن الإنسانية، كم من حيوان اقتاده الإنسان بالتعويد فسخره للركوب وامتطاه للحرب، وذلّله للحلب وساقه للحرث، وصيره يسقي الزرع، وقد كان قبل ذلك لا ذلول يثير الأرض ولا يسقي الحرث، أفليس الإنسان أرقى من الحيوان وقد علم البيان؟ فكم من جبان ركب هول البحر وهو مضطرب الحركات، هائج الأمواج، فألف الصعاب وصار شجاعاً، وكم من بخيل تعود البذل فأعطى المال وأكرم النزيل، حتى صار طبعاً مستلذاً، وعادة مألوفة.

عجب للعادة وأي عجب! تقلب المحبوب مكروهاً، وتردّ المألوف مبغضاً، وتجعل السفيه حليماً والحليم سفيهاً، والجاهل عالماً، والكاذب صدوقاً، للعادة في النفوس عجائب، ألا إن للجوارح لأثراً في النفوس، وللنفوس أثراً في الجوارح، كالبحر يمطره السحاب والسحاب من البحر، وغاية التهذيب أن تصير الفضائل لذائذ والرذائل آلاماً.

ألا إن متكلف الفضائل مجاهد، ومريد لا يزال على الصراط مسافراً، لم ينل بغيته، ولم يحظ بنواله، فإنه فضل على القاعد الغافل، والساهي النائم، والفضل كل الفضل أن يصير المتكلف مرغوباً والمكروه من الطاعات محبوباً، قال في الحديث الشريف: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة»، ألا وإن قوام الأمر وعماده: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[النازعات: ٤٠-٤١]. اهـ.

الغضب

الغضب ثوران يغلي به الدم، فيرتفع في أعالي العروق، فيحمر ظاهر البدن دفعاً للأذى قبل وقوعه، وانتقاماً من المؤذي بعد حصوله، إذا ظن القدرة على خصمه، فإن بدا له الضعف تبدل الاحمرار اصفراراً، وكرّ الدم راجعاً لأعماق الجسم هارباً من إيذاء الخصم، وإن تردد بين الاعتقادين وشكّ في الأمرين، تعاقب اللونان، فأحمر إن قدر، وأصفر للخور، فالدم كالجيش المحارب، يقدم إقدام القادر، ويحجم إحجام الخائر. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾[الملك: ٣].

وللغضب آثار ظاهرة كتغير اللون، وشدة الرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطراب الحركات والكلام، حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمر الأحداق، وتنقلب المناخر، وتستحيل الخلقة، ولعمرك إن قبح الظاهر أثر لقبح الباطن، وما الظاهر إلا مرآة تجلت فيها صورة النفس، وثمرة ظهرت في شجرة أصلها ثابت في القلب، وفرعها ممتد في الجوارح، وهل انطلاق اللسان بالشتم والفحش من الكلام مع تخبط النظم واضطراب اللفظ والإقدام على الضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن حتى إذا عجز عن التشفي رجع إلى نفسه فمزق ثوبه، ولطم خده، وضرب بيده على الأرض، وغدا كالواله السكران والمدهوش المتحير، وربما سقط فأغشي عليه، وقد يضرب الجماد ويخاطب الحيوان، وربما رفسته دابة فرفسها، أو انكسر القلم فشجه كما يعامل العقلاء.

هل هذا إلا من آثار اضطرام نيران القلب وصورة من قبحه، وكم له من صور تبرزها الأيام، وتجليها الحوادث مع المغضوب عليه كالحقد، والحسد، والشماتة بالمساآت، والحزن بالسرور، وإفشاء السر، وهتك الستر، والاستهزاء، فهذه ثمرات إفراط الغضب.

وأما ما يضاده فالحمية الضعيفة، وثمرتها قلة الأنفة، واحتمال الذلة، وعدم الغيرة على الحرم، والسكوت عند مشاهدة المنكرات من غيره، وأن لا يغضب على نفسه فيلومها عند مقارفة الذنوب، ومباشرة العيوب، فلا يتوب، فمن ابتلي بذلك فليثر حميته، فكلا الطرفين مذموم، والوسط ممدوح، هدانا الله الصراط المستقيم.

ضرب مثل لقلب الإنسان بحال الأرض

ألا إنّما مثل قلب الإنسان كمثل سطح الأرض، إن خبثت أنبتت القتاد والشوك والحسك، وخبيث النبات يتغلب على طيبه، ورديئه على جيده، وما مثل الهجر والحسد والشماتة والاحتقار والغيبة وهتك الستر وإيذائه بالضرب وغيره، الناجمة من الحقد، النابتة في أرض القلب الذي أفسده

الغضب إلا مثل شوك السعدان، وشجر الطرفاء، ونبات الحنظل والعليق، إذا نبتت في أرض لم يتعهدها مصلحوها، ولم يقم عليها أهلوها، إلا وإن القلب إما جنة ذات رياض وفاكهة وروح وريحان من علم نافع وحكمة صالحة، وإما نار تستعر، وجحيم ترمي بشرر، فيحترق الجثمان وتنحل الأبدان.

ألق ببصرك في الفضاء، وتأمل النبات وتعجب، ألم تر إلى ذلك النبات الأبيض المسمى بالهالوك الذي ينبت ما بين شجرات الفول فيمتص غذاءها، ويبيد أثمارها وحبها، تشابه هذا العالم، وكانت الأرض مثل القلوب، والفول مثل الفضائل، والهالوك مثل سيئات الأخلاق، كالحقد والحسد، ونحن ما زرعناه وإنّما هو النامي بنفسه، المعتدي على نباتنا، المميت لمادتنا، المبيد لأغذيتنا، ألا وإن ما ضرّ الناس نام بنفسه وما نفعهم يعوزه القيام عليه.

فإذا ابتليت بمن آذاك فلا تجعل للحقد عليك سبيلاً، وأزل الرذيلة من قلبك كما تزيل الحشائش الضارة للزرع بعزقها، وافعل ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فإنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح قريبه وقد تكلم في واقعة الإفك؛ نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٢٢]، فوصله بعد القطيعة؛ وأنعم عليه بعد الحرمان. انتهى.

العُجْب وسببه وعلاجه

العجب استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فأما من كان خائفاً وجلاً مشفقاً من زوالها، ومن فرح بها من حيث إنها نعمة من الله فليس بمعجب، أما سببه فالجهل، وأساسه الوهم الذي تبنى عليه قصور الهوى، ومحاريب الجهل، وتماثيل الفخار. فأما علاجه فأن يعرف المرء أن ما تباهى به بين الأقران لا يخلو من أحد أمرين: إما ما يدخل تحت اختياره ويظهر بعمله ويحصل بسعيه كالعبادة والصدقة، وإصلاح الأمة، وسياسة الجمهور، وحشد الجنود، ورفع البنود، ونظام الموازين، وتعليم الناشئين، فهل جهل ذلك المسكين أنه مخلوق ضعيف، مركب من عناصر مقهورة، مؤلف من أمشاج في ماء مهين، وماذا عمل؟ إن هو إلا آلة مسخرة، وطينة محيرة، وصورة مجندرة، وصنعة مدبرة، وآية مصغرة وعظة وتذكرة، ففاجر من فجره، وشاكر من برره.

وأما ما لا عمل له فيه فإن كان جمالاً أو قوة أو نسباً أو ميراثاً من كل ما لا اختيار له في حصوله ولا سبب أوصله إليه فإن الأمر أهون، والمعجب إذن أشد جهالة، وأخسر صفقة، وأقل فكراً، وأبعد ضلالاً، وأسوأ حالاً. ومن أجهل ممن يعجب بما لم يفعل، وإن المعجب مغتر بنفسه، آمن زوال نعمته حيث لا أمان، قتل الإنسان ما أجهله. واعلم أن أسباب ذلك ستة أمور وهي: الجمال، القدرة، العلم، النسب، الميراث، الملك.

العلاج

التأمل، والتذكر، والتدبر، وادكار أن الموت شامل، والاعتبار بمن مضى من الأمم، فأخلوا الديار فصارت قاعاً صفصفاً بعد العز والبأس، ورسوخ الدولة، وتمام الزينة.

الأحاديث ووازع الدين

قال صلى الله عليه وسلم: «لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، العجب». وقيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظن أنه محسن. وقال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[التوبة: ٢٥]. وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث مهلكات: هوى مطاع، وشح متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

الكِبَر

الكبر أن يرى الإنسان نفسه فوق غيرها بعلم حصله، أو عمل أتقنه، أو أصل نسب له، أو جمال أطغاه، أو مال ألهاه، أو قوة أعزته، أو عشيرة نصرته. فهذه أسباب تدعو أولاً للإعجاب بنفسه، واستحسانه صفته، والفرح بما يراه أهلاً له من صفة الكمال والجمال، وقد يكون لحقد ملأ فؤاده، أو لحسد أغضبه، أو لرياء اعتراه، فهذه أربعة أسباب تدعو للكبرياء، أما العجب فقد تقدم ذكره، وسبق شرحه.

أما من حقد على من آذاه، وأضمر له السوء، واستبطن له الشر، فإنه يتكبر عليه ويزدريه، وهكذا الحاسد على النعمة، الفاقد للفضيلة، والمرائي الذي يطلب الرفعة والسؤدد، إنه لا يقبل العلم أمام الجالس، ولا يقر بالفضيلة للمحسودين، ولا يسمع النصيحة في ملأ من العالمين.

العلاج

فليعالج المتكبر نفسه بالعلم والفهم، وليتذكر أنه مكوّن ضعيف مربوب، وليواظب على أعمال المتواضعين، وليحذر التنزل والمذلة والابتذال، فإذا تقدم لإخوانه وقرنائه فسوى نعالهم وأكرم مثواهم وسارّهم وسرّهم وغدا إلى باب الدار معهم فهو المتواضع وإن تنزل إلى أسفل الدرجات، وعامل من تحت درجته معاملة إخوانه أو أخذ يتملق، أو يتذلل، فقد تنزل إلى الأسفل، وأضحى من المتبذلين، فليعالج المتبذل نفسه برفعها، ولينف المتكبر أسباب كبريائه من الحسد القاتل، والحقد المكين.

ذم الكِبَر وإيضاحه

الكبر شجرة أصلها ثابت في القلب، وفرعها في الجوارح، وثمرتها في الأعمال، كأن يترفع عن مجالسة نظيره، ويأنف من مخالطته، ولا يساويه في مجالسه، وإذا ناظره عنف، وإن كلمه أنف، ويتقدم عليه إن ماشاه، ولا يقبل منه نصيحته إن هداه، وهذا الخلق غائلة العباد والزهاد، وبلية الوعاظ والعلماء فضلاً عن العامة الجهلاء، وهو أعظم المحن، وأكبر البلايا والإحن، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر».

والإنسان ظلوم جهول قد يسوقه الغرور للتكبر على الله فيقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وقد يرى نفسه أحق بالرسالة، وأولى بالشفاعة، فيقول: ولم أرسل المرسلون؟ واصطفي النبيون؟، ومنع من تلك النعمة، فلا يتبع نبيا، ولا يرى له رسولاً، وقد يرى الناس دونه خلالاً، والعامة حميراً، فيعظم خطبه، ويفحش ذنبه.

الفرق بين العُجْب والكِبر

المعجب يُرى مدلًا بنفسه، فرحاً بسمته، وإن كان غيره أسمى في نظره، وأعظم في معتقده، والمتكبر أعظم جرماً، وأكبر إثماً، فهو يريد أن يرى غيره دونه، وهو القاهر فوقهم، وقد ذمه الله تعالى فقال سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: ١٤٦]. وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأعراف: ٤٠]. وقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء».

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السماوات والأرض ومن فيهن لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح منهما، ولو أن السماوات والأرض وما فيهن كانت حلقة فوضعت فيها لا إله إلا الله لقصمتها، ثم آمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء». وقال صلى الله عليه وسلم: «لا ينظر الله إلى رجل يجرّ إزاره بطراً».

وروي عنه عليه السلام أنه بصق يوماً على كفه ووضع إصبعه عليها وقال: يقول الله: يا ابن آدم أتعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وجيب، جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة؟. اهـ.

ولنقتصر من كتابنا «جوهر التقوى» في علم الأخلاق على هذا المقدار، ونرجئ باقيها إلى تفسير سورة «ق» عند آية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٦-١٨].

وبهذا انتهى المقام الثاني الذي هو في غوائل النفس من المقالة الثانية في آية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[الحجرات: ١١].

المقالة الثالثة: في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣]

فأذكر هنا كيف تعاملنا أوروبا الآن معاملة قاسية إيقاظاً لنا حتى نرجع مجدنا بهيئة أشرف مما كان عليه آباؤنا العظام، ولأكتف في هذا المقال بما كتبه العلامة «لوثروب استودارد» العالم الاجتماعي الأمريكي المترجم إلى العربية في الجزء الأول من كتابه المسمى «حاضر العالم الإسلامي» إذ ذكر

السلطان عبد الحميد وكيف نشر الدعوة بين المسلمين ليقوموا ضد أوروبا، وكيف كانت ثورة تركية الفتاة وثورة إيران تزيدان استيقاظ العالم الإسلامي، وكيف زادت الحرب البلقانية الطين بلة فازداد المسلمون استيقاظاً، وكيف اتحد الترك والعرب في قتال الطليان في طرابلس وهكذا اشتد غليان العالم الإسلامي، وقد تقدم هذا كله في سورة «الفتح» من نحو صفحة ١٤٢ من الكتاب المذكور إلى حوالي صفحة ١٦٤ ولنقتصر من الكتاب على ما لم يذكر هناك من بعد ذلك وهذا نصه:

وإذ قد بلغنا في الكلام على الجامعة الإسلامية من وجهتيها الدينية والسياسية إلى هذا الحد يجدر بنا أن نقول كلمة في الجامعة من حيث وجهتيها التجارية والصناعية، وذلك ما يعرف بالجامعة الإسلامية الاقتصادية.

إن السبب في انتشار الجامعة الإسلامية الاقتصادية هو عوامل الاستنزاف، واحتياز موارد الثروة في الشرق، فمن قبل خمسين سنة خلت كان العالم الإسلامي يتسكع في أجياله الوسطى، فكانت الشريعة الإسلامية وما فيها من تحريم الربا مرعية حق الرعاية بحيث لم تكن الحياة الاقتصادية بمعناها الحالي ميسورة، وما كان هناك من بعض التجارة والصناعة إنّما كان غالبه في أيدي النصارى واليهود من أهل البلاد، زد على هذا أن التزاحم الغربي جاء فانتشر فزلزل الحياة الاقتصادية الشرقية زلزالاً هائلاً، إذ أن فتح أوروبا للعالم الإسلامي الفتح السياسي كان يماشيه الفتح الاقتصادي جنباً إلى جنب، وربما كان هذا الأخير أتم نظاماً وأكمل عدة، فبات كل صقع شرقي في طوف من البضاعات والحاجات البخسة الأثمان المنقولة من أوروبا، ووراء ذلك رؤوس الأموال الغربية متدفقة لا تحصى، تتسرب في البلاد وتنتشر بأخدع الصور وأملق الأساليب، كالقروض والامتيازات التي من شأنها متى ما عقدت أن تكون تمهيداً لاستقرار السيطرة السياسية الغربية، فنصر أوروبا الذي نالته في فتحها هذا الفتح السياسي الاقتصادي التام كان باعثاً للشرقيين على العداء والمقاومة، فاستيقظ العالم الإسلامي غضبان، فهاله ما رآه في دياره من الأسباب والأدوات الغربية المأتي بها لاستنزافه واستنفاذ خيراته الطبيعية، فقدر حوله إزاء حول الغرب الجبار العاتي فأدرك شقة البعد، فطفق للحال يجدّ في سبيل التحرر الاقتصادي جدّه في سبيل التحرر السياسي من ربق الذل والاستعباد، ثم أنشأ حكماء المسلمين وأرباب الدراية فيهم والرأي السديد، يلتمسون الأسباب الغربية الفضلى، التي من شأنها أن ترقى بالعالم الإسلامي رقياً اقتصادياً جليلاً، فنسخت الأساليب والمناهج الغربية ونسج على منوالها، وما كانت تحريمات الشريعة لتقف سداً في وجه النهضة، ولا لتحول دون مجراها، فنتج عن ذلك تطور عظيم في الحياة الاقتصادية أخذ ينمو ويزداد، ناهجاً منهجاً اقتصادياً غربياً، ولكنه حتى اليوم ما برح يجتاز الدور الأول من أدواره، وهو أظهر وأبين في البلاد التي هي أشد صلة ومساسا بالسيطرة الغربية كالهند ومصر والجزائر، أما متجهه فواحد في كل قطر إسلامي، وسنفصل الكلام على هذا في فصل التطور الاقتصادي، فما يجب اعتباره في هذا المقام هو تدبر شأن هذا التطور من حيث صلته بالجامعة الإسلامية ومنزلته فيها، وهذا الشأن هو عظيم جداً، لأن أوثق وحدة وأمتن صلة ظهرت في المسلمين حتى اليوم إنّما هي الوحدة الاقتصادية بلا مراء، ولا يعزب عن البال أن الروابط الدينية، والصلات

الخلقية التهذيبية، التي تجمع بين المسلم والمسلم، ما انفكت تزيد في تواثق المسلمين وتآزرهم، وتعاطفهم وتضامنهم، كأنهم في المعمور الإسلامي أمة واحدة بعضها يغار على بعض، وجانب يساند آخر، دع ما هو هناك من الأسباب الغربية للنقل والتواصل، المسهلة على المسلمين القيام بالأسفار إلى كل جهة أرادوا، فازداد بذلك تعارفهم، واستمسكت أواصرهم، فنشأ فيهم نشء جديد، أبناؤه مقاديم، بعداء الهمة، أشداء العزم، فيهم التجار وأرباب السفن البحرية والأعمال التجارية، والصيارفة والسماسرة، حتى وأرباب المصانع والمعامل، ممن لم ير أمثالهم في المسلمين من قبل بقرن أو نصف قرن خلا، وأبناء هذا النشء الجديد على غاية من التفاهم والتواثق، تربط بعضهم ببعض الروابط الإسلامية، ويحملهم التزاحم الغربي المنتشر في بلادهم على شدة التضامن، فلهم في الواقع من سعة المجال للعمل المنظم والاتحاد الوثيق ما ليس مثله للساسة المسلمين، إذ في الأفق الاقتصادي يتلاقى الأحرار ودعاة الجامعة الإسلامية والغلاة وسائر الأحزاب الوطنية على أتم وئام، فلا خلاف بينهم في هذا الميدان يفضي بهم إلى الانقسام لعلة اتباع إحدى السياسات كسياسة الثورة أو الجهاد، انقساماً يحملهم على تهديد أوروبا المسلحة، أو يؤدي بهم إلى المجازفة بالنفوس والدماء والأموال، بل هم جميعاً في نطاق الجامعة الاقتصادية سواء، متحدو الكلمة، يجدّون في سبيل الحياة الاقتصادية الإسلامية، متوخين في ذلك الطرق والأساليب التجارية التي لا يجرؤ الغرب أن يحول دونهم ودونها ولا يقف في وجهها.

فما هي غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية ترى؟ إنّما هي ثروة المسلمين للمسلمين وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي، هي لهم يتنعمون بها وليست لنصارى الغرب يستنزفونها، وهي نفض اليد من رؤوس المال الغربية والاستعاضة عنها برؤوس مال إسلامية، وفوق جميع هذا هي تحطيم نواجذ أوروبا، تلك النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين وذلك بعدم تجديد الامتيازات في الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد والجمارك، العقود التي ما دامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي، فهو يظل عالة على الغرب.

هذه هي أغراض الجامعة الإسلامية الاقتصادية وجميعها حديث المنشأ، وسببه السيطرة الغربية الشديدة في العالم الإسلامي، السيطرة التي نتكلم عليها في الفصل التالي من هذا الكتاب. وإلى هنا تم الكلام على المقالة الثالثة، والحمد لله رب العالمين.

المقالة الرابعة في جوهرتين اثنتين

الجوهرة الأولى: فيما كتبته لأمم الغرب في مجلة المعرفة في عددها الرابع الصادر في أغسطس سنة ١٩٣١ وهذا نصه:

صوت صاروخ من الشرق إلى الغرب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح
فهذا وذاكم فعلنا وفعالكم ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

الإنسان نوع واحد من أب وأم، فأصبح شعوباً وقبائل فتكاثروا أفخاذاً وعشائر لتزداد السعادة ويتم الهناء في الأمم والأفراد. انتشروا في الأرض شرقاً وغرباً، فكان شرقيون وغربيون، الشرق أب والغرب ابنه، والأب يعطف على ابنه بدافع المحبة والولاء، إن الديانات كلها شرقية ففيها البوذية والكونفوشيوسية واليهودية والنصرانية والإسلام، زحف إلى الشرق منكم اليونانيون والبطالسة والرومان من قبل وبعد ميلاد المسيح واقتسموا السلطة هم والفرس في الشرق الأدنى وهم غاصبون.

هناك قال الأب لابنه: أيها الابن العزيز: لئن رميتني بحجر لأرمينك بالتمر، لا تخرجن من دار أبيك إلا بعد أن أهديك الصراط المستقيم، وهل ذلك إلا قول المسيح عليه السلام: اعبدوا الله أيها الأبناء وأفشوا في الأرض السلام، لا سلاح، لا قتال، لا جدال، كونوا عباد الله إخواناً.

وهل سبب ذلك إلا أنه رآكم تعبدون غير الله، فاليونان والرومان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، والفرنسيون تشبه عبادتهم عبادة أهل الهند الوثنيين، والإنجليز كانوا يسجدون للصخور والحجارة ولمنابع المياه، فأما استوريا « النمسا » والبروسية والروسيا وإسبانيا والبرتغال وهولاندا والدانمارك والسويد والنروج وسويسرة فدينهم القديم دين من ذكرناهم أولاً حذو القذة بالقذة، فلما رآكم على هذه الحال دعاكم إلى عبادة الله وإلى السلام، فدخلتم في الدين المسيحي أفواجاً، ففرنسا سنة ٤٩٦ م، وإيطاليا سنة ٥٠٠ م، وإنكلترا سنة ٤٩٦ م، ويقرب من هؤلاء في التاريخ النمساويون والأسبانيون والبرتغال إلى آخر من ذكرنا ما عدا دولة الروسيا، فإنها لم تدخل إلا في نحو القرن العاشر الميلادي، ولكن لما دخلتم المسيحية لم تعملوا بما علمه المسيح من السلام العام، إذ بقيتم في الشرق وازداد ظلم الرومان للشرقيين، فماذا كان؟ ظهر نبي عربي في صحراء قاحلة وقال كما قال المسيح: « أفشوا السلام، وأديموا الصيام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا جنة ربكم بسلام ». ودعاكم إلى الإسلام والسلام العام، واستعمل السيف عند الحاجة بشروط خاصة، لأن المسيح قبله لم يخضد من شوكتكم ولم تعملوا بنصيحته في السلام فتركوا الشرق للشرقيين الذين هم أساتذة لكم معلمون، لم يمض على امتشاق الحسام الإسلامي عشرون سنة حتى عادت المياه إلى مجاريها وتركتم الشرق لأهله، إذن الإسلام قد أتم ما ابتدأته المسيحية لسلام أهل الأرض، فسلام المسيح عقائد، وسلام الإسلام عقائد وأعمال.

هنالك أخذ النور يمتد في الشرق، والظلام يعم في الغرب، واستبد البابوية الرومانيون بكم، وقتلوا وأحرقوا بالنار ألوفاً، وأذلوا ملوككم، وأذاقوكم سوء العذاب، قال المسيح لكم: الطوبى للرحماء فإنهم يرحمون، الطوبى لصانعي السلام فإنهم أحباب الله يدعون. فخالفتم قوله، ففي سنة ٧٨٢ قبض شارلمان الكبير بإيعاز الحبر الروماني على أربعة آلاف ساكسوني ونيف في مدينة واردن، وضرب أعناقهم في يوم واحد، لأنهم أبوا قبول العماد، وفي سنة ١٠٠٧ أحرق في مدينة أورليا جملة أراتيكيين وهم أحياء، وتبع ذلك كثير من القتل والإحراق في سنة ١١٢٤ وسنة ١١٥٥ حتى عم الظلم والإهلاك والتدمير، وأسس ديوان التفتيش في سنة ١١٨٤، وصادق عليه البابا «أنيوشنسيوس الثالث» وثبته البابا « غريغوريوس » وتسلم « ماردو مينيكوس » ورهبانه إدارته، وسودوا صفحات التاريخ

بإحراق وقتل الملايين. هنالك ساقتكم العناية الإلهية إلى الشرق كما ساقتكم في المرة الأولى التي فيها اعتنقتم دين المسيح، لأن في الشرق نوراً إسلامياً، ومتى أشرق على ربوعكم قلّ ذلك الظلام

إن الله هو الذي رحمكم بانبعاث نفوس رجال الدين إلى إغرائكم على أهل الشرق بحجة المدافعة عن الأماكن المقدسة، فأثرتم الحروب الصليبية، ودام الصراع نحو مائتي سنة، فرجعتم تحملون في صدوركم نور العلم والإصلاح والحرية والإخاء بسبب معاشرة أهل الإسلام، فلم تملكوا الأماكن المقدسة ولا بلاد الشرق، ولكن ملكتم ناصية السيادة وانتزعتموها من رجال الدين الذين أغروكم على محاربة الشرقيين، فكانت الهزيمة لأولئك الباباوات الذين هم في الحقيقة الجانون على الدين ومتبعيه لا الشرقيون، رجال الدين أرادوا الانتقام من الشرق بلا حجة، وأراد الله انتقاص سلطتهم بالعدل، ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٦].

فهل ظهر فيكم «لوثر» المصلح العظيم و«فولتير» و«روسو» وأضرابهم إلا بعد اطلاعكم على كتب منقولة عن تعاليم الإسلام، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[الشورى: ٣٨].

ألم يقل «سديو» الفرنسي في كتابه المسمى «تاريخ العرب»: إن اللاتينيين استمدوا العلوم الفلكية الأولية من العرب، فإن «جويرت» الذي كان بابا روما الملقب بـ«سلوستر الثاني» أدخل من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الإفرنج العلوم الرياضية التي كسبها من عرب أسبانيا، و«ادهيلارد» الإنكليزي ساح من سنة ١١٠٠ إلى سنة ١١٢٠ ميلادية في كل من أسبانيا ومصر، وترجم مبادئ إقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية. وهكذا سارت أمم أوروبا مثل الأستاذ «رودلف» من أهالي بروجس البلجيقية إذ ترجم مسائل بطليموس في الفلك، و«بتليون» البولندي ترجم كتاب «الخازن» في علم الضوء والنظر، وهكذا كثير وكثير جداً.

هاأنتم اليوم رجعتم مرة ثالثة إلى الشرق بلا حجة إلا اهتضام حقوقه وإذلال الشرقيين، وما مثلكم في ذلك إلا كمثل النمل إذ تحارب جيوشه أنواعاً أخرى منه، ويعيش الغالبون من ثمرات كدّ المغلوبين، فينقرض الغالبون لكسلهم على مدى الزمان، فأنتم في ذلك كالنمل أو كدولة الرومان.

هانحن أولاء أخذنا نوازن بيننا أيام عظمة ملكنا وبينكم في أيامنا هذه، فألفينا عهودنا مع الضعفاء محفوظة، فأما أنتم فلا عهد لكم مع الضعفاء، فهاكم أيها الأخوة ما جاء في كتاب أشهر مشاهير الإسلام تحت عنوان «جندي سابور وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين»، وهذا نصه:

روى الطبري أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على جندي سابور وزرين عبد الله بن كليب فحاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال، فلم يفجأهم يوماً إلا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها، فحار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم أن ما لكم؟ قالوا: رميتم إلينا بالأمان فقبلناه، وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا، فقال المسلمون: ما فعلنا، فقال أهل جندي سابور: ونحن ما كذبنا، فسأل المسلمون فيما بينهم؛ فإذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم فقالوا: إنا لا نعرف حركم من عبدكم فقد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلنا ولم نبدّل، فإن شئتم فاغدروا، فأمسكوا عنهم، وكتبوا بذلك إلى عمر، فكتب

إليهم: إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ما دمتم في شك، جيزوهم وفوا لهم، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم. اهـ.

هذه أخلاق خلفائنا الأربعة مع المستضعفين، فهل فعلتم ذلك معنا بعد الحرب العظمى؟ وقد قلتم: ساعدونا، ونحن ما أثرناها إلا لتحرير المستعبدين، فهاكم ما قاله العلامة الطائر الصيت «لوثروب استودارد» الأمريكي في كتابه «حاضر العالم الإسلامي»، وهذا نصه:

مما لا مشاحة فيه أن الحرب العظمى الكونية قد أفضت بالحالة إلى المأزق الحرج والساعة العصيبة، إذ التفت الشرق في سنة ١٩١٤، فرأى الأمم الأوربية التي كانت ما برحت حافظة لشيء من الوحدة القائمة على اعتبارات عنصرية جيلية قد انبرت تتناحر في سوق حرب لم يحو التاريخ بين دفتيه مثيلاً لها قسوة وفظاعة، وتتناحر مدفعة بعضها بعضاً نحو الجزرة الهائلة والنيران الجهنمية، ورأى وحدة الجيل الأبيض قد عصفت فيها ريح المطامع السياسية، والنقائص الأدبية، فزعزعتها وهدمتها تهديماً، فوقفت كل أمة من الأخرى وبينهما غور سحيق، وهوّة بعيدة، ولم يكن للأمم الشرقية من سبب للتأسي والصبر على بلوى الجائحة الكبرى سوى ذلك البيان الحر الذي نقش ساسة الحلفاء حروفه في أعلام دولهم وريات جيوشهم، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها، ونال الحلفاء الظفر المبتغى أخذت الأسرار تنفضح، فذاع للملأ كافة أنه في الحين الذي كان فيه أقطاب الحلفاء وساستهم وقوادهم يطيرون إلى أنحاء العالم قاطبة خطبهم الحرة المعربة عن الغاية التي في سبيلها آثرت دولهم الانغماس في الحرب الزبون، وهي تحرير الشعوب المستعبدة، وإطلاق الأسر للأمم المستضعفة في اختيار حكمها، وتقرير مصيرها، كان هؤلاء الأقطاب الساسة في الوقت عينه يتفاوضون ويعقدون ويبرمون فيما بينهم سلسلة من المعاهدات السرية لاقتسام الشرق الأدنى، مدفوعين إلى ذلك بروح الجشع الكلبي، تلك الروح الاستعمارية التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الإنسان، ولما حان انعقاد مؤتمر الصلح الذي ولي الحرب أتى بطائفة تلك المعاهدات لا بتلك الخطب الحرة التي أذاعها الأقطاب والساسة، وجعلت أساساً بنيت عليه التسوية الشرقية، ومؤداها ـ حبر على ورق ـ إخضاع الشرق الأدنى والأوسط إخضاعاً تاماً، واقتيادهما بجرائم الاستعمار والسيطرة السياسية ما أفظعها. انتهى ما جاء في الكتاب المذكور في صفحة ٤٢و٤٣. أليس هذا تاريخنا وتاريخكم وفينا بعهد عبد لنا، ولم تفوا بعهود أقطاب سياستكم، إذن عالم الإنسان اليوم مجرم كذاب.

أيها الإخوة الغربيون: الدهر قلب، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١٤٠]، الشرق هو الشرق، وقديماً هجمت عليكم أمم من قبل التاريخ المسيحي فأهلكوا الحرث والنسل، ثم أعادوا الكرة منذ نحو سبع قرون ولا تزال أعقاب التتار في بلاد النمسا إلى الآن، وهاهم التتار المسلمون في قلب الروسيا المسيحية، أليس هؤلاء أمماً شرقية سطت على أوروبا!.

حذار حذار أيها الغربيون، إن فلاسفتكم وأكابر علمائكم يعلمون أن عملكم عاقبته خسران لكم مبين، ولكنكم لا تسمعون الناصحين، لأن العامة يسوقون نوابكم إلى مزاولة الشهوات الزائلة، وأعينهم في غطاء والجهل يطمس على أبصارهم، فلا يدركون سر العواقب، فهل ترضون أيها

السواس أن تكونوا أسرى العامة تابعين لأهوائهم، ألا ساء ما تفعلون. شر الشرق أبدى ناجذيه لكم، آن وقت الحساب، استيقظ الشرق فهو كزرع دفن تحت الثلج ثم أرسلت الشمس أشعتها فذاب فأسرع الزرع في نمائه، احذروا غضبة الشرقيين، اليابان والصين والهند والترك والفرس والعرب والأفغان، ومع هؤلاء روسيا كلهم متحفزون أفلا تعقلون؟ أفلا تنظرون!.

فيا ليت شعري من ذا الذي يصدّ ناموس النشوء والارتقاء عن مجراه، ألكم قدرة على إيقاف الشمس عن مجراها، أو الهواء عن مسراه؟ إذا خطر لكم ذلك فأهون به خاطراً، وما أضل هواه.

أفلا أسمعكم صوتاً ثالثاً؟ أفلا تسمعون اليوم أيها الإخوة صوت رجل شرقي وهو كاتب هذه السطور، يقول لكم قولاً بعد الدينين السابقين المسيحية والإسلام، فلعلكم لما اتبعتم الأول بعد صدوره بخمس قرون وانتفعتم بتعاليم الثاني في حريتكم أيام الحروب الصليبية بعد نزوله بقرون تضارعها في العد تسمعون هذا عند صدوره بلا تأخير، لأنكم اليوم علماء دارسون معلمون، وليس كتابي ديناً بل هو كتاب جعل سياسته على العلوم الطبيعية الكونية والحقائق العقلية. هاهو ذا كتاب «أين الإنسان» نشرته منذ ٢٠ سنة قبل الحرب الكبرى بأربع سنين، وبينت فيه قصور الإنسان، وقرظه علماؤكم في إيطاليا وفرنسا وألمانيا، وقالوا: هذا هو الصالح لرقي نوع الإنسان، إذ يجعل الأمم كلها أشبه بجسد واحد يستمتع الغربيون والشرقيون معاً بالحرية والمساواة والإخاء، نحن أمم الشرق الأدنى عموماً وسط بين أوروبا والشرق الأقصى، فلنكن نحن بين الطرفين المتباعدين واسطة السلام والمحبة والإخلاص، نحن الآن نطلب السلام. وأنا بلسان ثلاث مائة وخمسين مليوناً من المسلمين أطلب السلام فهل أنتم منتهون؟ انتهى ما كتبته في مجلة «المعرفة»، وبهذا تم الكلام على الجوهرة الأولى.

الجوهرة الثانية: وهي خاتمة المقالة الرابعة

في ذكر سر من أسرار آية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

وهي من عجائب القرآن ومعجزاته في هذا الزمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه أجمعين. أما بعد فيا أيها المسلمون هل أتاكم نبأ معجزات القرآن الحكمية، وعجائبها السياسية، وحللها السندسية، وحلاها الجوهرية، وعقودها الدرية، وحكمها القدسية، وأنوارها البهية، وأسرارها الربانية، وعلومها اللدنية، وآياتها العبقرية، وآثارها الجلية.

أحدثكم أيها الإخوان حديثاً إنه لو تعلمون عظيم، أحدثكم عن سر القرآن، ونور العرفان، وبرهان الزمان، وشرف الإنسان، وجمال الدين، وفضل رب العالمين. بماذا أحدثكم؟ أحدثكم عن نبأ السياسة الشرقية والغربية، في الآيات القرآنية، سيقول قائل: ما هذا التشويق؟ ولم هذا التنميق؟ قل وأوجز، واقتصر وأنجز. فأقول:

لقد خطر لي خاطر منذ عشرين سنة، إذ قرأت في إحدى الجرائد أن إنكلترا لما رأت أن ذكورها يقلون عن إناثها في كل ألف نفس ١٥ أي تزيد النساء عن الذكور ١٥ في كل ألف، وأنهم ينادون بالويل والثبور، ويقولون: لمن نكل أمر هؤلاء النسوة؟ وذلك في ناديهم الأكبر المسمى «البرلمان».

فلما سمعت ذلك عجبت كل العجب! وفكرت في أمر الإنسان والحيوان، فوجدت حقاً أن النسبة محفوظة في كل أمة من أمم الأرض، وفي كل حيوان، وفي كل قرية، فهالني الأمر جداً، وأخذني العجب كل مأخذ، وقلت في نفسي: إن عناية الخالق الحكيم قد لاحظت كل حامل من حوامل الإنسان والحيوان، وراعت النسبة بين الذكور والإناث، ولو أن أهل مصر، أو أهل سوريا مثلاً، لم يولد لهم إناث أو ذكور مدة ثلاثين سنة مثلاً لانقرضت الأمة انقراضاً تاماً، إذ لا يجد الذكور إناثاً يلدون لهم. ثم نظرت فوجدت القاعدة مطردة، أي أني وجدت في كل قرية وبلدة ومصر قد تساوى تقريباً ذكورها وإناثها، ولم يذر الله قرية ولا أمة من هذه المساواة، لا فرق بين المتوحشين والمتمدينين، ثم نظرت في الحيوان فوجدته كذلك فلم يمنع الإناث أو الذكور من البقر في بلدة حتى يحتاج الذكور أو الإناث من بلدة أن يذهبن إلى أخرى، بل رأيت الله قد حفظ النسبة تامة غير منقوصة. ثم إني بعد ذلك اطلعت على هذا الإحصاء فأيد قولي وهو:

(١) إن القارة التي يزيد عدد النساء فيها على الرجال على وجه العموم هي أوروبا، فإن نسبتهن إليهم كنسبة خمس إلى أربع.

(٢) وإن نسبة الرجال إلى النساء في آسيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٧٣، وفي أفريقيا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٩٦٨، وفي أستراليا كنسبة ١٠٠٠ إلى ٨٢٢.

هذا الإحصاء ربما كان تقريبياً، ولكنه على كل حال أيد نظريتي. هناك فكرت في أمر آخر:

الصناعات والعلوم

فقلت: هاأنا ذا أنظر فأرى الأمم كلها فيها قادة وفلاسفة وحكماء، وفيها صناع، وفيها عمال، يظهر لي أن العقول لما خلقت روعيت فيها النسبة، لأننا نرى أهل أوروبا الذين انتشر العلم بينهم أقلهم مفكرون للمجموع وأكثرهم لأعمال خاصة، أو علوم تناسبهم، فهالني الأمر أيضاً، وقلت: يظهر أن الحكمة العامة كما راعت النسبة بين الذكور والإناث بالمساواة راعت النسبة في أعمال الحياة وعلومها على مقتضى الحاجة كالمعادن من ذهب وحديد وفضة، ثم هذه صارت عقيدة عندي، وقلت: إذن هذا الإنسان ظالم جاهل لأنه لم يضع كل عقل فيما خلق له.

الأرض واستعدادها

ثم نظرت إلى الأرض التي نحن عليها فوجدتها مختلفة الاستعداد، ففي بلادنا تزرع القطن، وبلاد الإنجليز لا تصلح له، وهم محتاجون لصنع قطننا، وهكذا كل بلدة من بلاد العالم لها خاصية، فتنوعت خواص الأرض وخواص العقول، فأيقنت أن الحكمة عامة، وأن الإنسانية طفلة، وأنه سيأتي يوم يعرف الناس هذه النظرية ويسخروا كل عقل فيما خلق له كما يستعملون كل أرض فيما خلقت له ومستحيل أن يسعد الناس على الأرض إلا إذا فعلوا ذلك، أي شغلوا كل العقول في جميع الأرض،

فالأرض عروس ازينت للناس وهي مخبوءة عنهم حتى يهيئوا لها جميع العقول في الشرق والغرب، ذلك هو مهرها الذي ينالون به ثمراتها، ثبتت هذه العقيدة عندي.

نظرتي في الأمم

ثم نظرت في حال الأمم فوجدتهم في الشرق والغرب جميعاً يجهلون هذه الحقيقة، ومن عرفها منهم لاكها بلسانه، وقلبه بالظلم والغش مشغول، ونظرت في سياسات الأمم شرقيها وغربيها فما نوع الإنسان إلا أشبه بالذئاب والنمور والصقور، كل لكل راصد، وله محارب.

تأليف «أين الإنسان»

هنالك ألفت كتاب «أين الإنسان» وذكرت فيه أن الله يعاقب الأمم على جهلها، ولا بد من حرب يجتمع فيه أهل الشرق وأهل الغرب، واطلع عليه أهل أوروبا سنة ١٩١١م وذلك قبل الحرب الكبرى بأربع سنين، ولقد كان عجبي عظيماً حينما اطلعت على تقريظ قرظه العلامة الأستاذ «سانتلانة الطلياني» من فلاسفة إيطاليا وحكمائهم، فقد لخصه في مجلة بلغتهم التي نشرها في أوروبا، هكذا ورد ذكر هذا الكتاب في تأليف العلامة «كراديفو» الفرنسي في هذه السنة ١٩٢٦م، وسأذكر لك كلامهما قريباً هنا، فالكتاب إذن ظهر منذ ١٧ سنة وتأليف التفسير لم يكن بطريق جدي إلا في هذه السنين، وقد أتممته منذ سنة ونصف وهاأنا ذا الآن في أوائل سنة ١٩٢٧م وقدم للمطبعة، فانظر ماذا حصل: توجهت منذ أيام إلى ناحية المرج ـ كما تقدم في سورة «الأنفال» ـ وقابلني عالم بعلم الزراعة وأراني حشرة صغيرة تهلك الأشجار، فماذا جرى؟ فكرت في أمر الحشرة، وأن إناثها قد تلد بغير ذكور وأنها أشبه بالنار إذا شبت في بيت أحرقت بقية البيوت، فهي وجميع الأمراض العامة والطاعون وأمثالها اتخذت الكرة الأرضية كأنها قرية واحدة تنتقل من شجرة إلى شجرة، ومن حقل إلى حقل، ومن أمة إلى أمة، هنالك تفكرت في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[الآية: ١] في سورة «الأنفال»، فذلك هو الاتحاد بين المسلمين، وفي قوله تعالى هنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[الحجرات: ١٣].

الذكورة والأنوثة اتحدتا في أدنى الحيوان، وفي أدنى النبات، ثم أخذ الافتراق الشخصي يظهر في الأصناف العالية فيهما، فماذا جرى؟ أخذ الصنفان يتعارفان بأنواع المعرفات من جمال وأخلاق وآداب فاجتمعا وتزوجا وولدا، هنالك رجعت إلى هذه الآية وتفكرت في كتاب «أين الإنسان» فوجدته كله معنى هذه الآية، لأنها ابتدأت بالذكورة والأنوثة، وهي هي التي عليها بنيت كتاب «أين الإنسان»، هنالك أخذني العجب كل مأخذ، وعلمت أن كتاب «أين الإنسان» الذي أعجب به أهل أوروبا وقالوا في فرنسا وفي إيطاليا: إنه ينعش العقول والأرواح، هو سر هذه الآية، فأنا هناك ظننته من آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد: ٨] الخ، ولكن هذه الآية صرحت بمبدأ الفكرة ونهايتها، فمبدؤها الذكور والإناث ونهايتها التعارف العام بعد اختلاف الشعوب والقبائل، وقد قدمت لك أني قست جميع العلوم والصنائع على الذكور والإناث، إذن الآية تفسر بالكتاب جميعه، وعلى هذا تكون هذه الآية خطاباً للأمم كلها بدليل أنه قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[الحجرات: ١٣]

ولم يقل أيها المؤمنون، وإنّما قال: يا أيها الناس، لأن هذا الكلام مرجعه العقل كما بينته لك، فإني لما ألفت الكتاب لم أؤلفه باعتبار أنه دين بل هو مبني على العقل، فهذه الآية وإن كانت مقدسة فهي خطاب للعقل الإنساني العام، إذن على المسلمين أن تقوم فيهم طائفة مفكرة تبحث على نحو ما بحثت في كتابي «أين الإنسان» وذلك بعد أن يساووا الأمم في العلوم العصرية، وهذه الطائفة يتممون ما ابتدأته في كتاب «أين الإنسان» ويخاطبون الأمم بالعقل كما خاطبناهم، وحينئذ نكون حقيقة: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠]، فيكون في العالم الإسلامي جماعتان: جماعة تصلح ذات البين بين المسلمين، وجماعة حكماء مفكرون للتعارف مع الأمم وتسمى جماعة التعارف تيمناً بالقرآن، ويفهمون الأمم أن التعارف مبني على البحث العقلي الذي ابتدئ بالذكور والإناث، هذا ما سنح لي في هذه الأيام سطرته ليكون تذكرة لمن بعدنا. وهاك ما وعدتك من ذكر ما كتبه الأستاذ «ستنلانة» والبارون «كراديفو» وإنّما أكتب هذا لك هنا:

(١) ليكون أمامك ملخص الكتاب بقلم فيلسوف أوروبي حتى يقدم الشبان بعدنا على الحكمة والعلم والتعارف بالحكماء في أوروبا والصين كما أمر ربنا.

(٢) لتعلم أن أمم الأرض مستعدة للتفاهم والتعقل.

(٣) وأن القرآن حقيقة دين الفطرة.

(٤) وأني مع أنه ليس بيني وبين أحد من أهل أوروبا معرفة ولا مخاطبة، ولم تكن من المسلمين جماعة يشدّون أزري، بل كان الفضلاء من أهل بلادي يعرضون عنه إعراضاً، بل أكتب وحيداً فريداً لا ناصر لي إلا الله عز وجل الذي سبب الأسباب، فطبعت الكتب وانتشرت بلا قوة تنشرها إلا قوة الإيمان واليقين بالنصر.

أقول: إني مع هذا أرى حكماء أوروبا وكبراءها يقرّظون كتاب «أين الإنسان» ويقرّظون هذا التفسير أيضا، فمن هذا تعلم أن للأمم الإسلامية مستقبلاً باهراً، فسيقرؤون هذا التفسير وأمثاله، ويقوم فيهم حكماء وعلماء، ويبنون على ما أسسناه، ويشيدون ما بنيناه، ويجدون الأمر عليهم سهلاً لطيفاً، إن الله أيدني ونصرني نصراً مؤزراً، وهذا النصر هو للأمم الإسلامية الذين سيقرؤون هذا التفسير بعدي ويقرؤون كتبي الأخرى، فسيسيرون في طريق الرقي وهم مجدّون منصورون، ولينبغنّ فيهم نابغون، فلأبتدئ بتقريظ الأستاذ «ستنلانة» الذي ترجمه المرحوم مصطفى أفندي رياض من الطليانية إلى العربية وهاك نصه:

قال الأستاذ ستنلانة: ليس من يجهل بمصر الشيخ طنطاوي جوهري المدرّس بمدرسة المعلمين الناصرية، فهو ذلك الكاتب النحرير، والمحرر الشهير، ذلك الإنسان ذو العقل الكبير، بل هو أحد رؤساء الحركة السياسية الاجتماعية التي انتشرت في كافة طبقات الشعب الإسلامي تحت اسم الجامعة الوطنية، وتلك الحركة ترمي إلى الاستقلال السياسي والإصلاح الديني طبقاً لمنهج مرسوم بعيد المدى مشوب بشيء من الإبهام، وذلك بقصد التوفيق بين العلم وبين ما جاء به القرآن الكريم، وبقصد الرجوع إلى تلك التقاليد الجليلة التي ازدانت بها حضارة الإسلام في غابر الأيام، فقد أراد المؤلف أن

ينشر هذه الأفكار ويبثها بين قومه تارة بالخطابة وأخرى بالكتابة، فمما دوّن ذلك في هذا المعنى كتابان جديران بالذكر، وهما «نظام العالم والأمم» و«نهضة الأمة وحياتها»، وآخر ما صدر من مؤلفات ذلك العلامة الكثير الآثار هو كتاب «أين الإنسان» ذلك الكتاب الحديث الذي انتشر منذ عهد قريب، وهو الذي أردنا التعريف عنه، كتبه الشيخ أخيراً وقال فيه: إنه يقدّمه لمؤتمر الأجناس العام الذي عقد بلوندرة في يوليو وأغسطس سنة ١٩١١م كهدية لحكماء الخافقين، وعلماء المشرقين، وفلاسفة المغربين، وساسة العالم أجمع، والحق يقال: إنه لعمل إنساني عظيم في قالب احتجاج سياسي، ولم يك كتابه موجهاً إلى المصريين فقط بل للعالم كله، لأن المسألة التي يريد حلها هي مسألة العالم بالإجماع. قال المؤلف: إنه بينما كان في ليلة من شهر مايو سنة ١٩١٠ ينظر إلى السماء ليكتشف مذنب «هيلي» الذي أنذر علماء الفلك الناس بعودته في هذا الزمن، سنحت له سوانح للمقارنة بين نظام العالم الجميل، ونظام الأمم الضئيل، فرأى بوناً شاسعاً مؤلماً، فسأل نفسه: أمن المحتمل أن تكون هذه الأجرام السماوية محرومة من سكان مثلنا؟ وإذا كانت معمورة فكيف تكون حياة تلك الجماعات؟ أهي أقل كمالاً منا؟ وكيف تكون حال الإنسانية بعد مرور خمسة وسبعين عاماً عندما يعود المذنب لزيارتنا، أهناك أمل أن يجد الناس أقل وحشية، وأقل ظلماً، وأقل خشونة، وأقل نفاقاً؟.

وبينما كان في ليلة ٢٩ مايو سنة ١٩١٠م تتجاذبه الأفكار وقع في نوم عميق، إذ رأى نوراً مشرقا وشاباً جميل الطلعة كأنه روح طاهرة تطوف العالم آتية من مذنب هيلي لرؤية الأرض، فقال له: أين الإنسان؟ فأجابه المؤلف بتأثر وانفعال: نحن أولاء بنو آدم نوع الإنسان، وهنا دار بينه وبين الروح حديث دام عدة أيام، قالت الروح: أتظنون أنكم تمثلون الإنسانية الحقة؟ وبأي طريقة يستحل الإنسان هذا الاسم؟ ألم تقل في كتبك إنه حتى الساعة لم يـر إلا تقدم مادي في المدنية، ولكن المدنية الحقة هي المؤسسة على الوجدان والصداقة والعدل والإحسان، أفلم تك زهورها نادرة عندكم؟ فأجاب المؤلف: إن كان للإنسانية مساوئ فإن لها أيضاً فضائل، وإن كانت أنجبت أشراراً فلها أن تفتخر بمن أخرجتهم من عظماء الرجال كالأنبياء والقديسين والفلاسفة والحكماء الذين يشرفونها، فأجابت الروح: أتظن أن ذلك يكفي؟ أنت لا تدري حقيقة الإنسان، إن المادة قابلة لتطورات كثيرة مبتدئة من المعادن للإنسان، هكذا الروح الإنسانية لها قدرة غير متناهية من كمالات يظهر أن الإنسان يجهلها. لو عرف الإنسان شرف طبيعته وتعهدها كما يجب لوصل إلى مستوى ما يأمل، ولكنه ماذا عمل بفطرته وعقله؟ فلم تر بين الناس سوى المشاكسة والمحاربة والظلم تحت ستار من النفاق والخيانة والغدر، وهذه القوات هي السائدة على جماعة المتمدنين، ولإثبات ذلك نرجع إلى العلم ونسأل فلسفة «داروين» الذي رأى الأمم القوية تفتك بالضعيفة وتبيدها من الوجود، فحكم بأن لا فلاح إلا بالغلبة وقوة السلاح، وكذلك قيل: إن الأمم التي تأكل اللحم تقهر النباتيين، فكذبتهم الأفعال وانتصرت اليابان في حربها مع الروس، هكذا بينما الحيوانات التي من فصيلة واحدة تعيش براحة بعضها مع بعض، فإن الشعوب التي هي أكثر حضارة على العكس من ذلك روابطها قائمة بالمظالم والوحشية الدائمة، فأين الإنسان؟ ثم سألته الروح: لعلكم تفخرون بالسكك الحديدية، والتلغراف

الذي لا سلك له، وإتقان السلاح من كل نوع، وهذه كلها لفائدة الأمم الغالبة فإنها تنزع السلاح من الأمم المقهورة، وتتخذها خدماً وعبيداً ابتغاء مرضاة الشهوات المادية ولزيادة الزهو والمساوئ، وعليه تكون نتيجة تقدم المدنية هو إعطاء الحق للأقوى، فمتى يفهم الناس أنهم لم يعرفوا للآن من كتاب الطبيعة الأكبر إلا بعض حروفه؟ ومتى يفهمون أن لا فرق بين استعداد وكفاءة إنسان وإنسان وجنس آخر؟ وأننا كلنا من نوع واحد ومن طبيعة إنسانية واحدة؟ ألم يك أوروبي اليوم المتمدين هو سلالة أولئك البرابرة التتريين الذين خربوا ملك الرومان؟ من يقدر أن يجزم بأن زنجي اليوم هو ذلك الفقير المتوحش لا يكون له مستقبل باهر؟ واعلم أن القضية العتيقة القائلة بأن القوي يغلب الضعيف لا تنطبق على العصر الحاضر الذي يقضي بأن العقل فوق القوة، هنا ينحصر المستقبل، فمن واجب الإنسانية المقدس أن تتحد حتى تحكم الطبيعة، وتستخرج أسرارها، وتؤهل العقول لعصر جديد في التاريخ حتى لا يصبح فيه أسياد وعبيد، ولا يقال قاهرون ومقهورون، ولتكون الإنسانية واحدة متحدة في العلم والعمل والمنافع العامة، فهلا كان من الأمم حولكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض بترك زراعتها، وعن خراب العقول بتعمد إهمالها، وفي كليهما ضرر عظيم على المجموع الإنساني؟ ذلك أولى من استعمالهم القوة لمناوأة الضعيف واستعباد من لا يقوى على الدفاع. اعقلوا أيها الناس! فأين الإنسان؟

عادت الروح للسؤال: ماذا تنفعه النباهة التي وهبها الله له، فهو أشبه بطفل أعطاه أبوه سلاحاً فضرب به نفسه لجهله استعماله، وهنا عددت الروح كثيراً من إفراط ومساوئ الجمعية الإنسانية كالزخرف والزينة والنفاق والكذب في الحياة الاجتماعية، وتكلمت عن الخداع الذي ساد في الشعوب السياسية، أولئك الذين يعلنون بألسنتهم ما يخالف ضمائرهم تبعاً لمنافعهم الذاتية، هنا انقطعت المحادثة حيث اختفت الروح ولم يرها المؤلف إلا بعد ثلاثة أشهر، وتبع ذلك فصل في الحكم أودع فيه المؤلف الأفكار التي أثرت فيه من منظر الطبيعة وصفاء السماء، وجمال المنظر، وتغريد الأطيار، وهلم جراً، كل ذلك قاده لفكر واحد، وهو: أيوجد في العالم جمال كثير، ورونق بهي، ونظام هكذا كامل ولا يشعر به الإنسان وفي نفسه فضائل طبيعية وبذور بديعة من المحبة، يظهر أن الإنسان لا يعرف ذلك لأن شهواته وأمياله أسدلت نقاباً على عقله، فلذلك هو يجهل ذاته والعلم هو الذي ينمي فيه المحبة ويقربه لإخوانه، فإذا كانت الطبيعة السفلى قادرة على ذاك الرونق وكان الإنسان ميالاً للخير، أفلم يأن أن يأتي اليوم الذي يرى فيه نفسه حكيماً مستنيراً بالعلم فيعرف ما له وما عليه؟.

فاليوم يستثني بعض العلماء كالعلامة «كنت» الألماني و«هربرت سبنسر» الإنكليزي وأمثالهم ممن يستخدمون علومهم للتوفيق بين الشعوب، وإزالة البغضاء من بينهم، وسيأتي يوم تظهر فيه الإنسانية بمظهر يختلف عن سابقه، وبينما كان المؤلف يفكر في ذلك عادت الروح إليه في ليلة من يوليو سنة ١٩١٠ وعرضت عليه سياحة سماوية، فتقبل بالارتياح هذه السياحة في العالم السماوي إذ رآها فرصة جديدة لوصف عجائب السماوات، ومن ثم يعرج على الفكرة الأساسية ويقول: كيف يبعد الإنسان الذي يقدر أن يفهم هذا الترتيب العجيب عن النظامات الاجتماعية؟ فأجابه مرشده:

ذلك لأن الإنسان لم يترك طباعه البهيمية ولا أفكاره الأولى، ثم أدى بهما المطاف إلى كوكب غير زحل كوكب لا يعرفه علماء الفلك، فوجدا فيه أربعة آلاف أمة مختلفة ولكنها مجتمعة في شكل حكومة واحدة باسم نادي الأمم العام، وهو ذلك الحكم الذي تصبو إليه نفوس الناس، ولكن شتان بين اليقظة والمنام، ذلك النادي هو مجلس مؤلف من أعضاء فوّضت الأمم المختلفة إليهم القيام بحكم هذه الجمهورية الشاسعة الأرجاء، فشاهد من مزايا العدل وحسن النظام والصدق في القول ما لا يحلم به أهل الأرض، وقد سأله بعض أعضاء هذه الجمعية المباركة أن يصف لهم أحوال الإنسان الاجتماعية، فكانت إجابته سبباً لحيرتهم ودهشتهم، حتى إنهم لم يصدقوا أن الأرض مسكونة بالإنسان بل حكموا على أهلها بأنهم وحوش ضارية في صورة الإنسان، وهنا انقطع الحلم، وتبع ذلك فصل في المذكرات لاحظ فيه المؤلف الشريعة السائدة في العالم الطبيعي والكيماوي، ونسبة المواد الثابتة التي تتكون منها الأجسام المختلفة، والنسبة المعتدلة في تعداد الإناث والذكور في عالم النباتات والحيوان، ثم فكر قائلاً: أمن الجائز أن الخالق سبحانه وتعالى أعطى للمادة شرائع محكمة، وأن العالم المعنوي الذي هو أرقى منها يتركه لحكم المصادفة، وكيف انفصمت عرى الإنسانية، وقطعت تلك الرابطة التي نشاهدها في العوالم السفلى، إذا كان عضو واحد من الأسرة الإنسانية ضعيفاً جاهلاً وحشياً فالأعضاء الأخر تتأثر به، لأن الإنسانية متضامنة متحدة، فالشعوب القوية التي تذل الضعيف تربي في نفوس أبنائها عادات البطش والظلم التي يكتسبها الغالبون فيتولد عنها نتائج سيئة لمستقبلهم الاجتماعي والسياسي، وسيعاقب كل قريباً أو بعيداً على انتهاكه لحرمة القوانين الطبيعية، كيف يسوغ لأمة أن تقول لأخرى لا تتعلمي ولا تفكري ولا يكن منك جيوش ولا قواد، نحن أعلم منك بما يلزم لحمايتك ومصالحك وإنا عليك لساهرون.

ما فائدة الكليات والمدارس ما دام السوّاس يقولون ما لا يفعلون، ويعلمون ذلك لشبانهم، ويفتخرون بأن هذه سياسة، فعلامَ الكليات إذا كان السوّاس يهدمون البناء، أليس من العار أن العالم الذي حولنا من الأرض والسماوات معظمه عالم صادق ونحن ظالمون جاهلون كاذبون، فالجهل يفرق الناس والعلم يزيدهم محبة، وكلما قلّ العلم قلّ الحب، ولذلك ترى الحكماء أشد حباً للناس، والجهال والكذابون والسوّاس أقل حباً وأكثر طمعاً وجمعاً للمال، فعلمنا ليس بالعلم الصحيح بل هو أبتر، كما قال الغزالي: البلاهة خير من الفطانة البتراء، نتبجح بدعوى المعرفة مع أننا لم نردد إلا ما قرأناه في كراسة المعلم وقبلناه بغير تحقيق، ثم ندعي خدمة الإنسانية والمدنية، وفي الحقيقة نخدم أنفسنا، ليس هناك أمم حكم عليها أن تعيش للأبد في الانحطاط، وكما أن في عالم المعادن والنباتات تقل الأشياء الثمينة وتكثر التافهة هكذا تكون العقول البشرية، فترى الأذكياء في سائر الأمم يقلون، وأما الذين يمكن استخدامهم في الأمور والأعمال العادية فهم دائماً كثيرون.

وعليه فلا يمكن أن يقال لأي جنس: أنت محكوم عليك أن تبقى في مكانك بغير عروج، فالحكم على أمة الانحطاط جناية عليها وعلى المجموع الإنساني الذي يخسر بذلك عضواً عاملاً، فربما نشأ فيها من العقول والآراء ما يعم بركاته الكون أجمع، فمثلها والحالة هذه كمثل من يستعمل الذهب والفضة

لعمل عجلات السكك الحديدية. وفي ليلة من شهر يوليو سنة ١٩١٠ أخذت المؤلف سنة الكرى فعاودته الروح واستصحبته معها للكوكب الجديد فرأى الناس يرغبون ولا يرهبون، وبالشوق والحب يعملون وسمع الموسيقى ونغمات الآلات تشنف الآذان مرحبة بأعمال الحياة، إذا شيخ جليل القدر، وهو العالم الإحصائي في الأرض والمريخ قد بدأه بسؤال فقال: خبرني ماذا فعلتم بالإنسانية؟ وبماذا ارتقيتم عن الحيوان؟ فأجابه: بالصناعات والعلوم ومعرفة استعمالها، فقال الشيخ: أنت تشرح الحيوان وما يحتاجه الجسد، ولكني سألتك عن الإنسانية، فأي حكومة أسستم ولأي نقطة وصلت الصداقة والطهارة والحياة الداخلية والمحبة الإنسانية؟ فطفق المؤلف يدافع عن الإنسان بتلك الأساليب الخطابية المعروفة من حيث التضامن، فذكره ذلك الشيخ بوحدة الطبيعة الإنسانية ـ بصرف النظر عن الفارق السطحي في اللون والعقيدة ـ وتكوين الحكومات وما أشبه ذلك، وقال: إنّما تعاليمكم الناقصة المبتورة هي التي بتغاليها في الفوارق أوجدت بين الأمم المظالم والبربرية التي لم تقررها الطبيعة، وقد استنتج الفيلسوف اليوناني «أبيقور» والعالم الطبيعي الإنجليزي «دروين» بأن الأضعف لا بد أن يكون طعمه للأقوى، وقاسا نظام الإنسان على هذا الحيوان فرجعا بالإنسان إلى مرتبة دنيئة تأباها الفطرة ويدحضها العقل، إلا أنكم يا بني آدم نوع واحد لا أنواع، ولكم ناموس وقانون خاص لا تتعدونه، فأنتم كجسم واحد ونفس واحدة، فلا يصح أن يعتدي بعضكم على بعض، لأن ذلك مضر بمصالح الإنسانية العام، ألا تعلمون أن الإنسان كلما كثرت أفراده زادت ثمراته على نسبة الأعداد المضاعفة، فكلما زاد العدد كثر المدد، وبتكاثر الأمم تتكاثر الخيرات.

وعلى هذا القياس لا يصح أن يقال إن الأمم القوية تكون أفيد، للإنسانية، ولكن الأفيد لها أن كل أمة وكل قبيلة وكل فرد يعيش لما يصلح له، ويتبع الطريق المرسوم له من الطبيعة تبعاً للعدل والعلم والفضيلة، أفما كان الأجدر بدل الانقسام أن تجتمع الأمم فتشكل منها نادياً عاماً يتعهد بتحسين الجنس البشري، إنه ينقصنا كثير من العمل للحصول على ذلك، فأي علاج يفيد لإصلاح سوء النظام السائد؟.

سأل المؤلف ذلك الشيخ الجليل الإحصائي في علم الأرض، فأجابه معيداً إليه كلمات الأستاذ «كنت» في علم تربية النفس: العلاج اثنان: علم وعدل، فبهما يساس الملك، وهما صنوان لا يفترقان، فنظام العالم يجب أن يؤسس على ما أوجدته الطبيعة والإنسانية، انظروا إلى نظام الكواكب الكبيرة والصغيرة، فكل منها يدور في فلك لا يتعداه، ولا يطغى كبيرها على صغيرها، وهي نظرية محسوسة دلت عليها العناية العالية والجاذبية التي هي أساس الطبيعة البشرية، ولتكن كل أمة منكم كوكباً يحب الأعلى الأدنى، فلا يطغى بعضها على بعض، ولتكن الأمة الكبرى لأخواتها الصغيرة كالشمس للسيارات حولها تلقي عليها أشعة علمها، لا تبغي منها جزاء ولا شكوراً، وليس هناك إلا طريق واحد للوصول إلى هذا الحل الإنساني الأخوي المحبوب، ألا وهو العلم، ولتكن في جميع الممالك طرق متشابهة للتدريس لتعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم فضائل الحب العام ورزايا الحروب، وبذلك تصل إلى الحل المرغوب.

ثم بيّن المؤلف طريقة التعليم التي يلقنونها في الكوكب القريب من نبتون بالفصل الثامن عشر، وهي مبنية على مثال الحب في نوعنا العالي الشريف الذي هو بمثابة الكهرباء لا تثور إلا بالفرك، فالغناء والموسيقى والتأمل في جمال الطبيعة يبثّ في الأطفال عادة اعتبار الإنسانية كعائلة كبيرة، وأن سائر الأصناف أعضاء لها متضامنون نافعون، فيرى الإنسان أنه كائن مقدس ينفع أخاه ويعتبر حياته لا تنتهي عند ذاتها، بل كمدرسة تريه الأفراح والأتراح، والمحرمات والمشتهيات، والإنسان فيها يستعد لمستقبل زاهر.

وبالفصل التاسع عشر فصل مجلس الحكماء وضرب كثيراً من المثال الحسية للأمور العقلية، وكلها ترمي إلى مبدأ الكتاب الأصلي، وهو مشروح في صفحة ١٩١ و١٩٨ و١٩٩ و٢٠٠، ولولا ضيق المجلة وعدم إمكان التلخيص لكنا أتينا على ترجمته إلى اللغة الطليانية بالحرف الواحد، وبالصفحة ٢٠٥ نرى مظاهرات روحانية للنفس، ثم لوحة الحياة الإنسانية بصفحة ٢٠٠ ــ ٢٠٤ مأخوذة من لوحة المريخ، وهو المسمى لغز «قابس»، وهو في ذلك يرمي إلى مذهبه السياسي في النظام الذي أشار إليه، ويصب جام غضبه على هام النفاق والوحشية والجماعات الجنسية المقول عنها متمدينة، ويقول: إن الذهب والفضة لا يجديان نفعاً، ولا يغنيان شيئاً، بل هما للمبادلة في المنافع، وإنهما لا قيمة لهما إذا لم يضف إليهما تنمية النفس والفضيلة، ومن ثم يذهب المؤلف إلى أن العوامل الخارجية بحسب الفلسفة العامة تختلف، فتارة تكون للخير، وتارة للشر تبعاً للظروف، فالتي للخير لا تكذب ولا تعتدي ومركزها الحق ونفس الإنسان، وفيها تكون سعادة الأمم جميعاً فتتعاون الأجناس بعضها مع بعض لفائدة المدنية العامة، وسيصلها نوع الإنسان في مستقبل الأزمان، وبالفصل المتمم عشرين خلاصة الكتاب بالصفحة ٢٢٥ في بيان استخراج السلام العام في الأمم من النواميس الطبيعية والنظامات الفلكية، والفطر الإنسانية، وقد سبقت الإشارة إليه، ثم يلي ذلك فهرست، وبالصفحة ٢٤٧ تحت عنوان: «نغمة من موسيقى الكتاب» ضمنها الأسباب التي دعته لتحريره، ثم أوضح ما كان يخالج نفسه من آيات كتاب الله العزيز، وهي هذه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[الحجر:٢١] جزء ٢٥ ــ ٢١. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[الرعد:٨] جزء ١٣ ــ ٩. ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦] جزء ٢ ــ ٢٣٣. ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الذاريات:٤٩] جزء ٢ ــ ٤٩. وعليه فإن هذه النسبة، وهذه الشرائع، وهذه العدالة كلها هي التي تحكم العالم الطبيعي بأجمعه كذرات الأكسوجين والأيدروجين الثابتة التي تكوّن الماء وتدخل في تركيب سائر المواد في العالم الطبيعي والكيماوي، وبمقابلة العالم النباتي بالعالم الحيواني معاً، وكذا بمقابلة العالم الحيواني بالعالم الإنساني نرى الإنسان يشاركهما في الغذاء والتناسل، ويشارك الحيوان في الحركات الاختيارية والحواس والإدراك والغرائز، ولكن النبات والحيوان يولدان كاملين، وكل منهما عنده من المبدأ جميع ما يلزم لأداء وظيفته الخاصة، فالعنكبوت تغزل الخيوط، والنحلة تبني خليتها بلا حاجة إلى مرشد، أما الإنسان فعلى العكس محتاج للعلم، فيقول إنه وإن كانت العقول واحدة، فالاستعداد الشخصي مختلف، فوظيفة العلم يجب توجيهها لتنمية الأفعال

الإنسانية المختلفة، ولكن التربية الحالية حائدة عن الصراط السوي، وهؤلاء المتوحشون القاطنون حول بحيرة «بناسا» بالسودان تجدهم أقوى أجساماً، وأصح أبداناً من المتمدينين، كما قال عنهم المستر «كارينتر» وترى قوة الأهالي بالسودان عظيمة جداً، كما أن بعض عوائدهم طاهرة لا تشوبها شائبة.

وإذا قرأنا تاريخ الرومان مثل أمجد ما يدهش العقول، فتراهم يفتخرون بغزو الأمم وتدويخ المماليك، فالرذيلة في التربية العلمية التي بثمرتها تغذى الأجسام تعطي العقول نماذج مشابهة لتلك التي عند الحيوانات المفترسة، وهي التي تطفئ في الإنسان قابلية التقدم التي هي هبة الطبيعة، وبينما ترى الناس يعطفون على بعضهم بالقول تراهم يجهرون بامتداح القواد القاتلين كنابليون، ويشرفون الكذوب من رجال السياسة، فمتى نرى كل طائفة فرحة بما لديها، قانعة بما وصلت إليه، وأن الشعور بالمحبة شامل الجميع، ولكن رغماً من سائر الموانع نرى حركة في عالمنا الحاضر تدفع الإنسانية للأمام، فالحق كامن في النفوس يجب البحث عنه في الآفاق لإظهاره للناس على سطح الكرة، ومتى تجلت الإنسانية بهذا المنظر الذي ينشده المؤلف، فهنالك الوفاق والوئام، الإنسان آخر درجات ذلك السلم المتصل أولها بآخرها، فمن معدن لا ينمو إلى نبات ينمو ويتوالد ويتدرج بالترتيب إلى حيوان يترقى فيصل إلى أعلى درجاته من قرد وفيل وأمثالها فيصل الإنسان إلى أعلاه وهو الذي يكتسب بالتدرج خصال الكائنات التي تماثله مضافاً إليها خصاله وفيه بذور المحبة والرحمة كما قيل في «إخوان الصفاء»:

منذ ستة أجيال قبل الميلاد ظهر «بوذا أوجوطامي» فأوصى بالشفقة والمحبة والرحمة والعطف على كافة الكائنات الحية، ولما ظهر دين المسيح عليه السلام أوصى بالرحمة والشفقة وحب النوع الإنساني، وكذلك الإسلام منع القتال في الأشهر الحرم وحرم الصيد في الحرم وقتل المحتمي به، وأجمعوا أن يقولوا للناس: ارحموا ترحموا، واعلموا أن للحيوان إدراكاً وشعوراً، وأنه يتألم كما تتألمون، ويشعر كما تشعرون، فإياكم أن تؤذوه، وهناك أنباء كثيرة مأثورة عن علماء الإنسانية كالحكيم سولون وسقراط وأبيقور والبارون هولباغ دلامتري وهلفيتيوس، ولكنهم لم يقووا على كبح جماح جهل واستبداد الإنسان. وهاهي طريقة «داروين» خطت خطوة للوراء، و«هكسلي» أوضح أن لا فارق بين أدنى الإنسان وأعلى الحيوان إلا كما بين الحيوانات العليا والدنيا، بل المسافة في آخرهما أوسع مما في أولهما، فظنوا أنهم وجدوا كنزاً، وأن الإنسان الجاهل في مستوى الحيوان، وأنه يجوز للأمم القوية اهتضام حقوق الأمم الضعيفة باعتبار أنهم أدنى منهم مقاماً، وأنهم ما خلقوا إلا ليكونوا لهم خادمين وعبيداً مسخرين، وختم الكتاب بخطاب حماسي للعالم حتى يتخلص الناس من قيود الاستبداد والاستعباد، ويتنسموا رائحة الحرية التي سنتها لهم الطبيعة البشرية.

هذا كتاب الشيخ طنطاوي الذي أردنا أن نوسع له في مجلتنا، وما هي بالعادة المتبعة لديها، لأن ذلك الكتاب من الصحف العظيمة الدالة في الوقت الحاضر على مبلغ أفكار وشعور الطبقة الراقية الإسلامية، وليس لنا عليه ملاحظة إلا تجاهله بالذوق التاريخي وما يحدث عن العمل برأيه من اضطراب الأمم وارتباك الشعوب، وما يصادفه القراء من صعوبة حل نظرياته، ومن البديهي كما قال المؤلف أنه لا يمكن في أقل من عشر سنوات ـ إن أمكن ـ وضع أساس إصلاح اجتماعي عظيم مثل

هذا، وذلك بواسطة جمع أعقل رجال العالم، فيعملون بالكتب والرسائل لتعليم الأمم ما هو الحب العام، وينشرون تلك المبادئ السامية بالمدارس ويلاحظون تطبيقها، ولكن مع ذلك ومع اعترافنا بإخلاص المؤلف وعلو مقاصده في هذا الكتاب مع فصاحته وبلاغته وتفوّق معلوماته التي يندر وجودها في الكتاب واتساع دائرة فكره لا يسعنا إلا الدهش من عدم مراعاته ذوق الأمم التي حوله، وتسلسل تاريخها، وهو ما طالما أشارت إليه جرائدنا في العصر الحاضر. انتهى ما قاله الأستاذ سانتلانة الطلياني عن كتابي «أين الإنسان»، والحمد لله رب العالمين.

وهذا ما قاله الأستاذ البارون «كراديفو» وكلامه في «أين الإنسان» وفي التفسير، وهذا كانت نشرته جريدة الأهرام في أواخر سنة ١٩٢٦، وقد ابتدأ بالتفسير وختم بكتاب «أين الإنسان»، فذكرناهما معاً لتنشرح صدور أهل العلم في الإسلام، وليعلموا أن ديننا روح العالم الإنساني، وليشجعهم على العلم والنشر، وهاك ما قال: (١) مصر الحديثة، روح الديانة المصري، جامعة الأزهر الشيخ محمد عبده. (٢) النهضة الإسلامية للشيخ طنطاوي جوهري. (٣) نشأة مصر الحديثة في عهد محمد علي باشا.

وإننا سنبين الثلاث مظاهر الرئيسية لتطور مصر الحديث، وهي: (١) الميل الشديد الذي أظهره محمد علي باشا ورفاعة بك إلى التقدم والالتفات إلى معارف ومواهب أهل أوروبا. (٢) العناية التي أظهرها رجلان من رجال الدين، وهما الشيخ محمد عبده، والشيخ طنطاوي جوهري في تمثيل الدين الإسلامي وتأثيره في النفوس للنهوض بها إلى التطور الحديث. (٣) الوطنية الحديثة الوهاجة التي مثلها خير تمثيل كل من مصطفى كامل وسعد زغلول.

وهذا ما كتبه المؤلف فيما بين صفحة ٢٧٥ وصفحة ٢٨٤ في الجزء الخامس من كتاب «أين الإنسان» بعد أن قرّظ الأستاذ تفسيره للقرآن الشريف أحسن تقريظ، وقد تقدم ذلك التقريظ في أول المجلد السابع عشر من هذا التفسير فلا نعيده هنا، وقال بعد ذلك ما نصه:

وقد نشر الشيخ طنطاوي كتاب «أين الإنسان» المطبوع سنة ١٩١١ الذي قرّظه الأستاذ سانتلانة الطلياني الكبير في المجلة الشرقية بروما لسنتها الرابعة، وللأستاذ كتب أخرى مثل: «نظام العالم والأمم» و«نهضة الأمة وحياتها»، وكتاب «أين الإنسان» هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية، فهو في هذا يشبه الفارابي من حيث أصل الفكرة، وابن طفيل من حيث الأسلوب والمنهج، فجمع بين دقة الفكر وجمال الأسلوب وغيرهما. الأستاذ في هذا الأسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا في أوروبا مثل توماس موروس وكامبانيلا ومعاصرنا هانوبنر.

وصف الأستاذ الجمعية الإنسانية وصفاً لا يشرفها بالكمال، بل أظهر نقائصها، وأبان سوء أفعالها، وأخذ يسدي نصائح، ويبدي حججاً، لالتئام الأمم، واتحاد الدول، بل يطلب ما فوق ذلك، وهو الحب والإخلاص العام والمثل الأعلى في ذلك. ويتمنى كما تمنى الفارابي أن تكون الدول جميعها مؤسسة نظامها على الحب العام وتبادل المنافع، ولكن دولنا الآن في الأمم الأرضية وإن كانت ارتقت ارتقاء مادياً لم يؤسس بنيانها إلا على تبادل الحرب، وتخريب المدن، وقعقعة السلاح، فأما تلك

الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهي مغلوب عليها، إن الأساس الذي بنت عليه الدول الآن هو ما سطره «داروين» الإنجليزي، وقفى على آثاره «نيتشيه» الألماني من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء. إن للمؤلف خيالاً سامياً غزير المعنى واسعاً، فإنه بينما كان ينظر إلى السماء في ليلة من ليالي ربيع سنة ١٩١٠م وهو يبحث في مذنب هالي الذي يرجع مرة بعد أخرى، أخذ يقول: يا ليت شعري، إذا كانت هذه السماء الصافية بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان؟ وهل سكانها مثلنا في الظلم والقتال؟ أم هم في هناء وعدل كما نرى في نظم السماوات، وبينما هو مستغرق في تأملاته إذ وافته روح مشرقة النور، بهية الطلعة، في هيئة شاب جميل حسن الشكل، فأخذت هذه الروح تناقشه، ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة في السماوات العلا، فلبى طلبها بشوق عظيم، وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحلام: باستر سيدول سويد نبرج.

إلى أن قال: ومن عجب أن المؤلف طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠، وتنبأ فيه بطريق حكمي شعري بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى. إن مقصود هذا الكتاب كله وما فيه من المحاورات التصويرية هو نشر التعليم العام، والحب بين الشعوب والأمم بحيث يمتزج بمغانيهم وأشعارهم وموسيقاهم، حتى يكون ذلك إلهاماً للأطفال في أول حياتهم، وأن يكونوا محبين لجميع الأمم، كارهين للحرب، ناظرين لجمال الطبيعة محترمين الجمعية الإنسانية أيّ احترام.

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث في الشيوخ نشوة الشبان، ويبعث في النفوس الإنسانية غراماً وولوعاً، ويقلب الطبائع الإنسانية بما فيه من السحر الحلال، وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة، تامة النظام، ويهيئ الأطفال في الأمم كلها أن يكونوا على نسق الأمم التي زارها والنصيحة التي سمعها من أولئك العلماء.

فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلماً، الغزير المادة، السامي الفكرة، الناتج من تفكير عميق، وبحث يقلّ نظيره يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين، ويدعو أيضاً بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام، وهو مفخرة لمصر والإسلام. وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد في لندن في شهري يوليو وأغسطس سنة ١٩١١م. انتهى كلامه.

بهجة المناظر الخيالية، وآثارها العلمية

في سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

في ليلة الثلاثاء ٢٥ رمضان سنة ١٣٥٠هجرية الموافق أول فبراير سنة ١٩٣٢م بينما أنا بين اليقظة والنوم إذ خيل لي كأن في الجو رجالاً ولكني لا أرى أشخاصهم، وهم يتسامرون، وهذا ما وعيت من حديثهم. قال أحدهم: حدثني رعاك الله، لِمَ يقول الله تعالى في آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]. عليم خبير! مع أن العلم والخبر مترادفان، فقال الآخر: إن كمال العلم الإحاطة بكل شيء، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، وأوله وآخره، وهذا على أتم الوضوح والكشف على أتم ما يمكن فيه. بحيث لا يتصور مشاهدة كشف أظهر منه ثم لا يكون مستفاداً من المعلومات بل تكون المعلومات

مستفادة منه، فأما الخبير فهو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة، ولا تسكن، ولا تضطرب نفس، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبر.

فلما سمعت ذلك، قلت في نفسي: هذا هو الترادف بعينه، فأين الجواب؟ وهنالك جاشت نفسي وهي لا تزال في حال تشبه حال النوم، وأخذت تسأل نفس السؤال، وهو أنهما مترادفان، فما كاد الخاطر يخطر لي بذلك حتى سمعته يقول له: إن معنى العليم هو معنى الخبير، ولكن هناك فرق، لأن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة وسمي صاحبها خبيراً فهو أشبه بذكر الخاص بعد العام، فهنالك زاد اضطراب نفسي وقلت في نفسي: يا سبحان الله، ولم ذكر هذا الخاص؟ ألنكتة العلم؟ لا المنفعة للمسلمين ذكر هذا الاسم هنا، فيا ليت شعري هذه الآية مذكورة في أمر نظام الدولة الإسلامية، ونظامها يقضي أن الناس جميعاً متساوون فيبقى تعارفهم، وأرقاهم الذين اتقوا، وهم الذين يذكرون ربهم فلا ينسونه، ويطيعونه فلا يعصونه، وما كاد الخاطر يتم حتى سمعته يقول له: إن هذا سر قول علماء مصطلح الحديث: إن الجرح مقدّم على التعديل، وهنالك استيقظت وأنا في دهش من هذا المثال! أولاً هو يوافق ما أنا بصدده، ولكن الفائدة لم تتم، فرجعت إلى معنى «عليم خبير» في كتاب «شرح أسماء الله الحسنى» للغزالي رحمه الله، فوجدت هذه المعاني بنصها وفصها، فلم يبق علي إلا أن أفهم ما المقصود من الجرح والتعديل؟ وما نتائجهما هنا في نظام الدول والممالك؟ وهنا توجهت لمبدع الكائنات، وهو الذي علم تلك الأرواح العالية، فأنا منه أقتبس المعرفة وهو معلم الأولين والآخرين، ففتح علي وتذكرت ما ذكره ابن خلدون في المهدي المنتظر، وتقدم ذلك في أول سورة «الحج»، فقد ذكرت هناك أن ابن خلدون رحمه الله نقل جميع أحاديث المهدي، وأن في بعض رواتها طعناً، وإذا كان في الراوي تعديل وجرح فالجرح مقدّم، وعلى ذلك تكون أحاديث المهدي فيها ما فيها وبهذه الأحاديث قامت شيع في الإسلام ودول، ولكنها عفت آثارها، ومن آثار هذه الأمم حسن بن الصباح الذي تقدم ذكره في سورة «الكهف عند الآية ٥١»: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾، وكيف أمر أتباعه بشرب الحشيش حتى سماهم المؤرخون حشاشين، وكيف ظهر لهم بهيئة مقدّس معصوم؟ وكيف انقادوا له، وكيف يكون الدرس الذي ألقاه على أتباعه في القرن الخامس الهجري هو نفسه الذي تلقفه محمد بن تومرت وهو معاصر للغزالي ــ الذي يقال: إنه لاقاه بعده ــ حذو القذة بالقذة، فالأول كان في قلعة الموت بناحية أصبهان، والثاني بالمغرب الأقصى ببلاد السوس، وكل منهما ترفع وتعالى على أتباعه، واعتقدوا فيه العصمة، وكلاهما أمر فأطيع، ومنعا الناس العلم، واستند كل منهما إلى أحاديث المهدي.

محادثات في أمر المهدي وما مناسبته لاسم «الخبير» المذكور في الآية؟

وبيان أن سر القرآن بذكر هذه الأسماء قد ظهر الآن

وأن المسلمين في مستقبل الزمان سينتفعون بهذه المعاني الجميلة البديعة

حضر صديقي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير فقال: هذا مقام غريب، الآية جاءت لعدم التفاضل بين الناس إلا بالتقوى، ولكن الخبرة إلى الآن لم يظهر المقصود منها، ذكرت المهدي ابن

تومرت وذكرت حسن بن الصباح، ولكن لم تظهر المناسبة التامة بين هذا التاريخ وبين الآية؟ فقلت: يا صاح، أذكرك بأن الأحاديث الكثيرة التي وردت في المهدي جعلت أمره موكولاً إلى النسب وهؤلاء بتلك الأحاديث مع ما ضموه إليها من الإغراء والتحذير قد رفعوا أنفسهم فوق الأمم، فاستكان المسلمون أي استكانة، وخضعوا، وتركوا العلوم بأمرهم، وحقروها، ولا تزال آثار تلك الظلمات إلى الآن.

اللهم أنقذ المسلمين من ذلهم وإسارهم، اللهم أنجز وعدك الذي وعدت أن نكون خير أمة أخرجت للناس، اللهم إنك أنت الملهم المعلم، فأنقذ أمتنا من الجهالة العمياء، فقال: أي جهالة تريد؟ فقلت: ألم تعلم ما مر سابقاً في هذه السورة وما قبلها من أخبار العباسيين والأمويين، وأن العباسيين قاموا باسم المهديين، وأن الأرض تملأ عدلاً ونوراً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، هل برّوا بوعدهم الأمة؟ ألم يقتل السفاح رجالات من الأمويين كانوا في ضيافته؟ ألم ينبشوا القبور؟ وإذا كان العباسيون هم الذين جاء الحديث بأنهم يملؤون الأرض عدلاً ونوراً، مخلصين المسلمين من ظلم الأمويين الذين أهانوا آل البيت، وظلموهم، وظلموا المسلمين، فكيف يقلدون الأمويين في العسف والجور ويزيدون عليهم، حتى إن محمد بن عبد الله الحسني الذي كانت له البيعة الصحيحة كما تقدم قريباً بكى على أيامهم، فأين العدل، وأين النور؟ وأين المهدوية التي جيء بها للمسلمين؟ أليس ذلك لاستكانة النفوس، وتقديم التعديل على الجرح. وجعل النسب في الذروة العليا، وعدم الاكتراث بالتقوى، ولا الفضائل الإنسانية التي جاء بها نص الآية هنا، وهي التي بفهمها تقام الدول وبجهلها تذل، جهلت الأمم الإسلامية آيات القرآن الصريحة، هاهو ذا القرآن يقول على رؤوس الأشهاد: إن الفضل بالتقوى وهاهي ذي قصة طالوت في «البقرة» ضربت الذكر صفحاً عن النسب، وجعلت الملك تابعاً للعلم والقوة، إذن جعل المهدي تبعاً للنسب من أكبر مصائب الإسلام، لأن هذه العقيدة أخذت تتعالى بين الناس، وأخذ الدجل والبهتان والكذب الصراح ينتشر بين المسلمين، وأخذ أولئك الرؤساء يبثون الجهالة بين أمم الإسلام، ويرجعون المرؤوسين إليهم اتكالاً عليهم واستعاذة بهم غالباً، وقد تقدم هذا واضحاً في آخر سورة «إبراهيم» عند ذكر «آغا ممنون» بالهند، وفي سورة «الكهف» كما تقدم، وفي سورة «الشعراء» عند آية السحر، وفي سورة «سبأ» عند آية الرؤساء والمرؤوسين، وفي مواضع أخرى فلا نعيده هنا، وهذا كله إنّما جاء من عدم البحث في تاريخ المسلمين وأحوالهم حتى يستبينوا آثار التقليد الذي هدّ مجد أمتنا الشامخ، أنا لست أنكر فضائل بعض المهديين في الإسلام، ولست أنكر أنني تعلمت في الأزهر الشريف الذي هو ثمرة من ثمرات المعز لدين الله الفاطمي، ولست أنكر أن هؤلاء أفادوا المسلمين، ولكن المنفعة إنّما جاءت بسبب العقول الكبيرة المودعة في هؤلاء كالملك الذي أقامه محمد بن تومرت وأحاطه بالأحوال المستعبدة للشعب، فبقي الملك أمداً ثم ذهب وهكذا الفاطميون، ولقد عاش المسلمون زمناً ليس بالقصير قروناً وقروناً وهم يتفيؤون ظلال الألفاظ، فناموا عليها، وعكفوا عكوفاً أدى للنوم العميق. إن تعاليم المسلمين ومنهم أهل الأزهر الذين أنا منهم قد بقيت خاضعة لظواهر الألفاظ، وتركت جمال الطبيعة، وجمال النجوم، وجمال العقول، وبهاء الحكمة، فطمست النفوس، وخسفت العقول، وانكمشت الأمة في تلك القرون حتى وقتنا هذا.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد طال الكلام فليكن الهجوم على الموضوع، لأني أريد العلاقة بين ذكر العليم الخبير، وبين ذكر تاريخ المهديين الذي ذكرته هنا. وبعبارة أخرى: أريد ما هو السر في ذلك، وما علاقة هذه الأسماء الحسنى بهذا التاريخ؟ وبنظام أمم الإسلام، فأرجو أولاً: ذكر حديث واحد من الأحاديث وإن كان قد تقدم في سورة «الحج»، لندرس الجرح والتعديل فيه. ثانياً: اذكر نتيجة ذلك لبيان المقصود. فقلت: جاء في الجامع الصغير ما نصه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتبعوهم فإن فيهم ولي الله المهدي» حم ك عن ثوبان. وقال الشارح: اسمه محمد بن عبد الله يأتي قبيل عيسى أو معه، وقد ملئت الأرض ظلماً وجوراً فيملؤها قسطاً وعدلاً. وقال بعد ذلك: قال الشيخ: حديث صحيح.

فقال: فاذكر لي أولاً ما هذه الرموز؟ وما تلك الرموز التي تقدمت في تخريج أحاديث الإحياء المتقدمة في هذه السورة فإني لا أعرفها، وثانياً: إذا كان هذا الحديث صحيحاً فكيف نتجاوزه ونقول: إن أحاديث المهدي ضعيفة؟ فقلت: الجواب عن الأول أن الرموز تبلغ ٣٠. قال: فأرجو بيانها. فقلت: هاهي ذه: «خ» البخاري. «ن» النسائي. «م» مسلم. «هـ» لابن ماجة. «ق» لهما. «٤» لهؤلاء الأربعة. «د» لأبي داود. «٣» لهم إلا ابن ماجة. «ت» الترمذي. «حم» لأحمد في مسنده. «عم» لابنه عبد الله في زوائده، أي: زوائد مسند أبيه. «عب» لعبد الرازق في الجامع. «ك» للحاكم. «ع» لأبي يعلى في مسنده. «خد» للبخاري في الأدب. «قط» للدارقطني. «تخ» له في التاريخ. «فر» للديلمي في مسند الفردوس. «حب» لابن حبان في صحيحه. «حل» لأبي نعيم في الحلية. «طب» للطبراني سليمان اللخمي في الكبير. «هب» للبيهقي في شعب الإيمان. «طس» له في الأوسط. «هق» له في السنن. «طص» له في الصغير. «عد» لابن عدي في الكامل. «ص» لسعيد بن منصور. «عق» للعقيلي في الضعفاء. «ش» لابن أبي شيبة. «خط» للخطيب أحمد بن علي.

الجواب عن الثاني: وهو قول شارح الجامع الصغير: إن الحديث صحيح، فأنا أذكرك بما تقدم، وهو أن الجرح مقدم على التعديل، أنسيتها؟ قال: نعم هو صحيح. قلت: ولكن غيره يقول: هاهنا جرح لبعض الرواة. قال: فأرجو ذكر نتيجة الموضوع بتمامه مختصراً. فقلت: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء: ٨١]. إن الله علم قبل أن يخلق السماوات والأرض أن المسلمين ستشتد غفلتهم وينامون نوماً عميقاً، ويقلد الأبناء الآباء والتلاميذ الشيوخ، بلا علم ولا هدى، ولا كتاب منير، فأنزل هذه الآية، وجعل المدار في الفضل على التقوى، وعلم أن أمماً وأمماً سيجعلون أمم الإسلام تبع أناس بأحوال خاصة، ولا يجعلون المدار على صلاحيتهم للحكم، فقال: إنّما أنزلت هذه الآية لأني أخبر بواطن طباعكم، ومن بواطنها أنها تريد الأثرة والرفعة، واستعباد الناس باسم النسب لا بالتقوى، فجعلت التقوى هي الأصل لا في التفضل على الناس، والحسيب النسيب قد يكون جاهلاً أو فاسقاً، فيضل الناس ويتخذهم خولاً، ولذلك فصل رسولي لكم ذلك بأن أمر بلالاً أن يؤذن في الكعبة بحضور أشراف قريش تطبيقاً على معنى الآية، فذكر «خبير» هنا اتضح في أيامنا هذه، لأن بواطن الأمم لم تكن معروفة قبل وجودها، والله يعلمها قبل خلق العالم، فأنزل هذه الآية، وهذا من محاسن أسماء الله الحسنى، والسر كل السر في تلك الأسماء وهي أسماء الله،

وهذا هو حسنها، حسنها هو جمال العلوم وجمال الوجود، فجمال العلوم هنا ظهر في الخبرة المأخوذة من معنى «خبير»، لأن اختبارنا لتاريخ أمم الإسلام عرّفنا أن هذا المهدي الذي جاء به الحديث المتقدم هو السفاح، والسفاح قد تقدم تاريخه وكفى بلفظه دليلاً.

فقال صديقي: ولكن ذلك سيكون يوم القيامة. فقلت: هذا الحديث ينطبق عليه، فإن الرايات السود التي جاءت من قبل خراسان هي التي كانت مع أبي مسلم الخراساني، وهو الذي قام بها من خراسان لنصرة بني العباس، وقد عرفت تاريخه فيما تقدم في نفس السورة، فهو تاريخ ملطخ بالدماء فقد قتل من المسلمين على ما مر بك ٦٠٠ ألف مسلم غدراً بأمر إبراهيم الإمام، وهو أخو السفاح، إذن هذه المهدوية بنيت على سفك الدماء. فقال: وما المانع من أن يكون المهدي يخرج في آخر الزمان، وتقوم راياته السود من خراسان؟ فقلت: إذن يكون معنى هذا أننا نعيش بلا عقول، القرينة ظاهرة واضحة، إن تلك الأحاديث جاءت لأجل هؤلاء، ولماذا لا يأتي المهدي في آخر الزمان إلا من نفس هذا المكان تكون راياته سوداً؟ ثم ما هذا الهدى الذي يأتي بالسيف؟.

الله أكبر، إن العلوم كلها كفروع شجرة واحدة، فدراسة الحديث من غير مراعاة العلوم الأخرى معناها الجهل والغفلة، وعدم الفطنة والموت. فقال: وما تقول في قول الشارح: إن اسمه محمد بن عبد الله سلمنا أن الجرح هنا مقدم على التعديل، وأن التاريخ أيد ذلك ولكن لِمَ ذكر أن اسمه كذلك؟فقلت: بينما كان العباسيون تخفق راياتهم السود في خراسان كما تقدم آنفاً وكان هذا الحديث ينشر بين المسلمين كانت تنشر أحاديث أخرى مثل حديث: «يخرج رجل من بيتي اسمه على اسمي واسم أبيه على اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً». وعبد الله هذا من ذرية الحسن وابنه هو النفس الزكية المتقدم في تفسير هذه السورة، وهو الذي قتله المنصور فيما بعد، وقد كانت له البيعة الصحيحة وأفتى به أبو حنيفة ومالك، فاضطهدهما المنصور. هذا معنى كلام الشارح، وحرام علي أن أعرف هذا ولا أبينه للمسلمين بعدنا، لأن عزل التاريخ وبقية العلوم عن القرآن والحديث أضر أشد الضرر بأمتنا الإسلامية العزيزة علي، وهي التي قال الله فيها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

فقال: لقد ظهر سرّ اسم «الخبير» في هذه الآية وظهر إشراق نور اسم من أسماء الله في علم سياسة الأمم الإسلامية، فهل تسمح بقول تلقيه مختصراً فيما تؤمله لأمم الإسلام من أمثال هذا المقال؟ فقلت: إن أرجى ما أرجوه لأمم الإسلام أنهم بقراءة أمثال هذا التفسير سيكون فيهم محققون عظماء حكماء، لا يشق لهم غبار، ذلك أنه قد اتضح الآن أن دين الإسلام ليس هو ذلك الدين الذي يعيش على الألفاظ ويعلق عليها أهمية الحياة وحدها. كلا، إن هذا التفسير وما كتبته قبله قد كشف الستار عن هذه الناحية وقد فهم المسلمون فعلاً وعملوا، ودفنت الجهالة في قبرها، وولد في الإسلام جيل جديد فعلاً، بل المسلمون كلهم تأثروا بالفكرة، فلا رجعة للجهالة بعد اليوم، وأنا اليوم سعيد بأبناء بلاد الإسلام.

والآن أقول كلمتين اثنتين بشارة لشبان المسلمين: الكلمة الأولى: ما كتبته في سورة «البقرة» من نبأ لم أوضحه إذ ذاك، ولكني أوضحه الآن، وذلك أن ثلاثة من الشبان المصريين تلاميذي بالمدرسة الخديوية توجهوا إلى فرنسا ليتعلموا علم الحقوق، هناك كفلهم وراقبهم الأستاذ «لمبير». ذلك أن «دانلوب» ـ الذي كان أيام احتلال الإنجليز مصر قابضاً بيد من حديد على التعليم بها، منع الشبان في

التعليم الثانوي من كل ما يرقي أفكارهم ـ لم يسر من اعتراض « لمبير » الفرنسي المذكور على التعليم الثانوي لقصوره وتقصيره، فليس يعدّ التلاميذ لدراسة الحقوق التي كان يرأسها الفرنسي المذكور بمصر دراسة صحيحة، فلذلك رفته من الوظيفة، فرجع إلى فرنسا، وصار يستقبل المصريين ويعطف عليهم.

فلما رجع هؤلاء التلاميذ زاروني وأخبرني واحد منهم قائلاً: إننا نحن الثلاثة كنا نجمع الأزهار من الحديقة، فدعانا الأستاذ « لمبير » وقال: لقد لاحظت فيكم أمراً لم أره في إخوانكم المصريين، ذلك أنكم تحبون الزهر، فما السبب؟ قال: فأجبنا: إننا كنا سنة ١٩٠٧م نتعلم اللغة العربية والمعلم الشيخ طنطاوي جوهري وكان في دروس الإنشاء يحببنا في الطبيعة ويجعل نفوسنا في شدة الشوق إليها. فقال: أفي مصر هذا؟ فقالوا: نعم. فقال: إذا وجد في مصر رجل مثل هذا فلماذا جئتم فرنسا؟ ليفتح كلية، وليعلم هو وأمثاله في نفس مصر فإنها ترتقي سريعاً. فلما سمعت هذا من أحد الثلاثة لم يتصوره عقلي فنظرت إلى الآخرين بدون أن أتكلم فكان جوابهما: إن الكلام كان بحضورنا: هذه هي كلمتي الأولى.

كلمتي الثانية: سترى أيها الأخ الذكي في أول سورة « الحديد » عند معنى: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[الآية: ١] ما هو رأي « ستانلي هول » وهو أكبر علماء النفس في أمريكا ورئيس إحدى جامعاتها، وملخص كتابه في ذلك أن شروط النجاح ثمانية أشياء، ومن هذه الثمانية حب الطبيعة، وقال: يجب على الناس أن يكثروا من المشي في الحقول لرؤية أحسن المناظر، ثم قال: وخير الوطنية ما كانت نابتة من الحقول، ومنها ترقية العواطف، ومنها الصحة، ومنها كشف ما فينا من القوى الكامنة، ففي كل منا قوة كامنة، وهذه لا بد من استخراجها، وإظهار ما فيها من العجائب، ولا جرم أن قراء هذا التفسير وأمثاله سيحبون الطبيعة حباً جماً، وسيكون فيهم حكماء لا نظير لهم في الأمم في حال حبهم الطبيعة يؤدون درساً دينياً، فهاهنا اتحد الدين والعقل، وسيزول الدجل والتلبيس من أمم الإسلام بسر اسمه « الخبير » الذي ظهر في هذا المقام، وسينبغ في الإسلام خبراء بالعلوم بإشراق هذا الاسم، وتظهر محاسن الوجود المقتبسة من حسن أسماء الله، وإليها الإشارة بآية: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٠-١٨١]، وهذه الأمة هي الأمة الإسلامية كما تقدم في تفسيرها، فما المناسبة بين ذكر الأسماء الحسنى وبين كون الأمة الإسلامية أمة تهدي بالحق وبه تعدل؟ لولا أن جمال أسماء الله الحسنى الذي أشرق اليوم فعلاً على أمم الإسلام قد ابتدأ يكشف لهم الحقائق التي كانت مستورة، وقد ظهرت لهم نفس العجائب الإلهية في المخلوقات، وصارت أهم ما في دين الإسلام، وهذا هو الوعد الذي وعده الله، فقال: ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[التوبة: ٣٣]، وقال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[فصلت: ٥٣].

هذه هي الهداية المستقاة من أسماء الله الحسنى، ومن محاسن المخلوقات المشرقات التي يراها الناس صباحاً ومساء وكانوا عنها غافلين، إن الله تجلى للناس اليوم بالعرفان، وذلك كله سر قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات: ١٣]، والحمد لله رب العالمين. كتب يوم الأربعاء ٢٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية، الساعة الثانية بعد الظهر.

بهجة هذا المقال وحكم فيها وصحة وجمال

في يوم ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٠ هـ بعد العصر حضر صاحبي العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير فقال: لقد كنت أراك أمس وأنت تكتب هذه المقالة تتقد حماسة، فماذا خطر لك بعد ذلك فحدثني به؟ فقلت: يا أخي كأنك تعلم الغيب، إنني بعد أن انتهيت من كتابة المقالة السابقة انتحيت جانباً وخلعت ملابسي ساتراً العورة، جالساً في الشمس، عملاً بما كتبت، واستجلاباً للصحة، إذ تقدم في أول سورة «يونس» عند آية: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً ﴾[يونس: ٥] مقال لبعض الأطباء على الشمس من حيث إفادتها الصحة إذا وقعت أشعتها على نفس الجسم بشروط خاصة، فهاأنا ذا أمس عملت بما علمت كما فعلت مراراً، ولم أكد لأجلس فيها وأضواء الشمس تحيط بجسمي حتى أخذت أفكر في هذا الإنسان المسكين المحبوس، هذا الإنسان الذي قتلته العادات؛ اكتسى بالملابس ترفاً وتنعماً وتجملاً، فأصبحت الملابس حملاً ثقيلاً، وذلًا وبيلاً، وشراً مستطيراً، وأخذت أقول: يا الله، يا رب السماء، يا حكم، يا عدل، يا حليم، أنا أستعيذ بك من الذل، ومن الجهل، ومن سوء المنقلب، يا رباه قرأنا أسماء الله الحسنى فظننا أن اللفظ هو المقصود، فأخذ علماء منا يحسبونها بالجمل، وأخذوا يتلونها لقضاء الحاجات، وألف فيها البوني «شمس المعارف الكبرى»، كأن هذه الأسماء نزلت من السماء لأجل السحر، لا لأجل ارتقاء الأمم، وبعبارة ألطف: لأجل قضاء الحوائج، وقرأنا القرآن فاكتفينا بالقشور، ونبذنا الحقائق، ونسينا أنه يجعل الفضل للتقوى لا للنسب، فوقعنا في ذل وحيرة، وجهل مشين، حبس النوع الإنساني في عاداته من حيث الملابس والأغذية، وحبس المسلمون في اعتقادات أذلتهم دهوراً ودهوراً.

تشابهت الأمم في أحوالها

هاهي ذه الإنجليز في الهند اليوم في أثناء كتابة هذه المقالة تذيق الوطنيين العذاب لامتناعهم عن شراء الملابس، لماذا؟ لأن عمالهم يصنعونها ويبيعونها لهؤلاء، جهل والله، يا رب هذا الإنسان الجهول صنع فريق من الإنسان الملابس، لماذا؟ ليجعلها ترفاً وتنعماً لفريق آخر، ليعيش من كدّ يده، تيقظ هذا الفريق اليوم، فقال: أيها الأخ: أنا لا ألبس، لأن هذه الملابس سجون، وذل لا عز، لأن العلم اليوم يحدثنا أن هذه الملابس ليست ضرورية، فقليلها يغني، بل تعريض الجسم للشمس يزيده قوة ومتانة، فنحن كنا جاهلين، فيقول الفريق الأول: لا بد أن تلبس، وهاأنا ذا أضر بك بقنابلي، وعسى أن أزيد هذا المقام بياناً في سورة «الممتحنة» عند قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[الآية: ١]. وأن نبين تحريم شراء البضائع التي يصنعها من يؤذي المسلمين من الدول الحاضرة، وأسأل الله التوفيق لذلك. أفّ لهذه الإنسانية العمياء، ومثل هذه الملابس ينطبق على عكوف المسلمين على الدراسة اللفظية، فاكتفوا باللفظ ونسوا المعنى، نسوا جمال النجوم، جمال البحار، جمال الشجر، جمال الزهر والحقل والغابات.

فليقف المسلم في الحقل، وليقف في الجبل، وليقف في ظلام الليل ينظر النجوم، فليقف وليقف فهناك هناك تتجلى، ثم تتجلى له معاني هذا الوجود، يقف أمام عجائب ربه في هذه الدنيا حتى يستعد

للقائه بعد الموت، فهناك تبرز له معاني كتاب الله، هناك تبرز له معاني أسماء الله الحسنى، أي يعرف السر في وصفها بأنها حسنى، وكيف كانت حسنى؟ وكيف يصفها الله بالحسنى، لماذا ولماذا؟ إذن يكون المسلم في فهمه إذ ذاك بعقله مثله كمثل جسمي وهو عار مقابل لأضواء الشمس مباشرة، فتكون صحته أتم، وتقتل الحيوانات الذرية المهلكة للإنسان، وتعتدل دورة الدم، إن مثل المسلم في تلك الأحوال السابقة من حيث العلم والمعرفة كمثل جسمي والشمس تشرق عليه. سيتعلم المسلمون بعدنا من نفس عجائب صنع ربهم، فيعطيهم من العلم ما لا يحصر على حسب استعداد كل امرئ، وبهذا وحده تزول تلك التمويهات القديمة، والرؤساء الخادعون، والدعاوى الطويلة العريضة، وتكون الدراسة موجهة للحقائق لا لمجرد الألفاظ، ويخرج النوع الإنساني من الغرام بأصنام مشخصة مزينة، ومن الغرام بأشخاص خاوية نفوسهم إلا من الإيهام والدجل، ومن الاكتفاء بالكتب المصنفة.

إن الناس يخضعون لما هو جميل، فأصنام قدماء المصريين، وعجولهم المحنطة، وملوكهم، كل هؤلاء مزينون خير زينة، وعلى منوال هؤلاء في التزيين والتضليل الأمم التي تفتك بغيرها في زماننا الحاضر للفتح والاستعمار، وقولهم: جئنا لإسعادكم، فهؤلاء أصنام خاوية كأصنام قدماء المصريين، وهكذا أكثر من ادعوا المهدوية في الإسلام، وكثير من الشيوخ الدجالين، وعلى شاكلتهم العادات المضروبة في نوع الإنسان كالتباهي بالملابس التي بها استعبدت بلادنا المصرية بتدخل الأجنبي. كل ذلك سيزول من بلاد الإسلام حينما يدرسون نفس الوجود، ويفهمون الحسن الحقيقي فيه، ويدركون سر وصف أسماء الله الحسنى، فالحسن الذي يجب فهمه لإسعاد الإنسانية حسن هذه الأرض، وهذه السماء، هذا هو انكشاف الغطاء عن أعين المسلمين، وقد آن أوانه، وظل إبانه، من الآن، من الآن، من الآن، فليبشر الأذلاء بالعز. كل ذلك أيها الأخ حضر في نفسي عندما جلست في الشمس، لأني لم أجد فرقاً بين حبس نعمة ضوء الشمس عن جسمي وبين حبس العلم عن العقل بالوقوف عند الألفاظ، أو بأوامر رئيس يقول: العلم حجاب، أو بالاكتفاء بالكتب المصنفة، إلى آخر ما تقدم هنا.

هذه هي الخطرات التي خطرت لي أمس وجسمي يتلقى أشعة شمس الشتاء، وأنا معتقد في نفس الوقت أن هذه من نعمة العلم، وأني أؤدي واجباً، لأن المؤلف إذا لم يعمل بما يكتبه لم يؤثر التأثير المطلوب، فأنا والحمد لله في مطعمي ومشربي أجدّ في أن أعمل بأقوال الأطباء، وهكذا وجدت في لساني ميلاً إلى التكلم فيما لا يعني فأنا أجدّ بقية حياتي في حفظه بقدر إمكاني بعدما سطرت الكلام عن آفات اللسان قريباً، وليس علي أن أنال كل مطلوبي مهما كبرت سني، ولكن نفس الاجتهاد نعمة كبرى، وإن لم ينل الإنسان الغاية. هذه حالي الآن أنشرها ذكرى لمن بعدنا. فقال: إن هذا حسن ونشره يفيد بعض الأذكياء. فقلت: أنا موقن بذلك، وعسى أن يزيد هذا المقام كشفاً في أول سورة «الحديد» وفي آخر سورة «الحشر». وإلى هنا تم الكلام على سورة «الحجرات»، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثاني والعشرون من كتاب

الجواهر في تفسير القرآن الكريم

ويليه الجزء الثالث والعشرون، وأوله تفسير سورة «ق»

فهرس الجزء الثاني والعشرين من كتاب
تفسير الجواهر